

كتاب

تاريخ مصر الحديث

من الفتح الاسلامي الى الآن

مع

فذلك في تاريخ مصر القديم

٢٤٧٦٩٦



تأليف

جرجي زيدان

منشور الهلال

الجزء الثاني

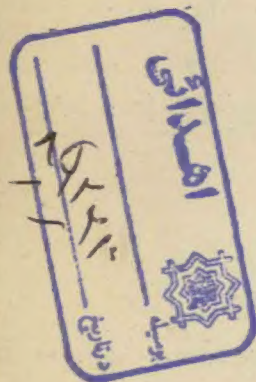
وهو يشتمل على تاريخ مصر من الفتح العثماني الى سنة ١٩١١

أي في عهد الدولة العثمانية وحملة بونابرت
والدولة المحمدية العلوية او الاميرة الحديوية

الطبعة الثالثة

مطبعة الخيال

بمصر سنة ١٩٢٥

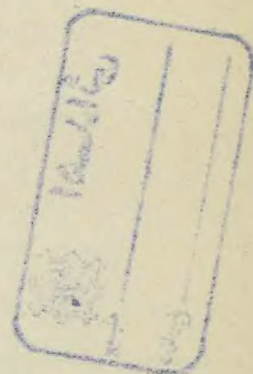
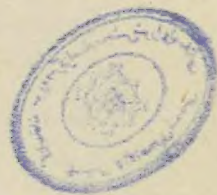


بيان

انتهى الجزء الاول من هذا الكتاب في طبعته الاولى بانقضاء الدولة الابوية فبدأنا الجزء الثاني بدولة المماليك الاولى . ونظراً لتوسعنا في مواضيع الكتاب وازدحام ما جدد من الحوادث المصرية بعد الطبعة الاولى جعلنا الجزء الاول من هذه الطبعة ينتهي في آخر دولة المماليك الثانية . فاصبح الجزء الثاني هذا يبتدىء بدخول مصر في سيادة الدولة العثمانية وينتهي بالعام الماضي . ولذلك كان اكثر توسعنا في تاريخ الدولة الحمديّة العلوية من زمن مؤسسها محمد علي باشا الى الآن (سنة ١٩١١) ويدخل في ذلك بيان ما حدث في هذا العصر من التغيرات السياسية والعلمية والمالية والصحافية وما تقلب على مصر من الاحوال السياسية أشهرها الحوادث العراقية والحوادث السودانية . واقتضى ذلك أن نخص هذا الجزء بدرس خاص فطالعنا اهم المؤلفات التي صدرت عن احوال مصر وتاريخها بعد صدور الطبعة الاولى او ما لم تكن اطلعنا عليه من قبل . وهاك اهمها :

مصر الحديثة	في مجلدين	تأليف اللورد كرومر	في الانكليزية
انكلترا في مصر	» » » »	» » ملنر	» »
الاسماعيلية . رحلة الى خط الاستواء »	» » » »	» » لسير صموئيل باكر	» »
مصر والحديوي	» » » »	» » لدابني	» »
تاريخ السودان	في ٣ مجلدات	» » انعم بك شقير	» » العربية
تقارير اللورد كرومر	» » » »	» » للورد كرومر	» »
مصر في حكم محمد علي	في مجلدين	» » لهامون	في الفرنسية

وهذه الطبعة الثالثة في سنة ١٩٢٥



منشأ الدولة العثمانية

قبل التقدم الى تاريخ مصر في سلطنة الدولة العثمانية بحسن بنا ان نأتي على
فذلك في اصلها ومنشأها

يتصل نسب العثمانيين بالتتر الذين كانوا يقطنون ما يجاور جبال التاي عند
حدود الصين الشمالية ويغلب على الظن انهم الاسكثيون المعروفون قديماً بالشجاعة
وشدة البأس . ويقال ان جماعة منهم ينتسبون الى جد يقال له « ترك » نرحوا
غرباً في الجيل الاول للميلاد وأقاموا فيها هو الان بلاد تركستان ويحدها شمالاً
سيريا وجنوباً بخارا وشرقاً حدود الصين وغرباً بحيرة اورال وهي مشهورة بجودة
الاقليم وخصب المرعى وجمال السكان وقوة أبدانهم

وما استتب لهم المقام في تركستان حتى أخذوا يمدون سلطتهم وهم لا يزالون
في حالة الجاهلية . ولم يعتنقوا الديانة الاسلامية الا في اواسط القرن الرابع
للهجرة واشهرهم طائفتان كبيرتان تعرفان بالاغوزية والسلجوقية

وكان الاتراك السلجوقيون يقيمون في ما يجاور بخارا ثم اشتدوا وانشأوا
مملكة مستقلة شاسعة الاطراف يحدها بحر قزوين من جهة وبحر الروم من
جهة اخرى عواصمها فرسيوليس (اصطخر) وقرمان ودمشق وحلب ورومية
في آسيا الصغرى . ثم اقتنعوا جانباً من بلاد فارس . ثم هددوا امبراطور الروم
وتغلبوا عليه حتى اضطر الى تقبيل الارض بين يدي الب ارسلان ملك السلجوقيين
وفي القرن الثالث عشر للميلاد كانت سلطنة السلجوقيين منتشرة في آسيا

الصغرى وسلطانها علاء الدين ومقره مدينة قونية

وظهر في أثناء ذلك جنكزخان القائد المغولي وغزا قبائل الاتراك المقيمين
في تركستان فاذعنوا له الا قبيلة اوغوزية من قبائل خراسان هاجرت تحت قيادة
امير يدعى سليمان تطلب مقاماً لها ومرعى لمواشيها . ومازالوا يسبرون غرباً حتى
حدث وهم يعبرون الفرات ان أميرهم سقط بجواده في النهر ومات فدفنوه هناك -
وهو جد ساكن الجنان السلطان عثمان الغازي فاصبحوا بعده جماعات متفرقة
فاتخذ ابنه ارطغرل قيادة جماعة منهم وسار بهم يخترق آسيا الصغرى . وهو في
بعض السهول شاهد عن بعد غباراً متصاعداً وحرراً قائمة فتقدم على نية الانتصار

لاضعف الفتيان ففعل وهو لا يدري لمن ينتصر فقيض الله النصر له وفتحته الفتن
الآخري ثم علم انه انتصر للسلاجوقيين وقهر المغوليين فشكر الله على ذلك
فقال بذلك منزلة رفيعة لدى علاء الدين فاقطعه بقعة كبيرة يقيم فيها رجاله على
حدود فرنجيا وبيثينيا وكانت ارضاً جيدة ذات مرعى خصب . وفي تلك البقعة
نشأ ابنه عثمان وشب وترعرع . وما زال ايرطغرل تحت رعاية علاء الدين حتى
توفي هو خلفه عثمان . ثم توفي علاء الدين بغير ولد فاقسم امراؤه مملكته فاستقل
عثمان بما لديه سنة ١٣٠٠ م وهو اول امراء دولة آل عثمان



السلطان عثمان الغازي

ومن التقاليد الماثورة بين العثمانيين ان عثمان هذا عشق وهو شاب فتاة تدعى
« مال خاتون » وكان والدها شيخاً تقياً ورعاً طاعناً في السن اسمه ادبالي فلما
شعر بمحبة عثمان لابنته خاف العاقبة وصار يحاول ابعادها الواحد من الآخر
وبالغ في حجاب ابنته لانه لم يكن يطمع بمصاهرة ابن حاكمه

فجاء عثمان ذات ليلة ليبيت في منزل ادبالي وقضى معظم الليل هاجساً بحبيبه
حتى غلب عليه النعاس فرأى في الحلم كأن القمر خارج من صدر ادبالي ثم رآه
يتسع بسرعة حتى غطى كل ما كان واقفاً تحت نظره من الارض . ثم أخذ في
التقلص حتى عاد الى حجمه الاول وارتد الى صدر ادبالي كما كان . ثم رأى شجرة
عظيمة خارجة من صلب ادبالي وأخذ ظلها يمتد حتى غطى البر والبحر وتراى
له ان نهر دجلة والفرات والدانوب والنيل خارجة من أصل تلك الشجرة . وجبال

قوقاس واطلس وطورس وهيموس يستظل باغصانها ورأى اوراقها تستطيل
وتستدق حتى صارت كالسيوف ورؤوسها منصوبة الى أشهر عواصم العالم وخصوصاً
القسطنطينية الواقعة عند ملتقى القارتين ومجتمع البحرين . وخيل له أنها
جوهرة بين زمردتين وياقوتتين مصطنعة في فص خاتم وانه هم أن يجعل ذلك
الخاتم في اصبعه فاستيقظ مبغوتاً . فاخبر ادبالي في الصباح بما كان فاستبشر بما
سيكون من مستقبل ذلك الشاب وانه سيملك القسطنطينية



السلطان محمد الفاتح

يوم دخوله القسطنطينية بعد فتحها سنة ١٤٥٣ م

وما انك خلفاء عثمان كلما اتسع سلطانهم يزدادون ثقة بما آل ذلك الحلم وقد
حاول بعضهم فتح القسطنطينية فرجع ولم ينل وطراً حتى ظهر محمد الفاتح السلطان
السابع من سلاطين آل عثمان وبينه وبين صاحب الحلم نحو ١٦٠ سنة ففتحها بعد
أن ينس المسلمون من فتحها

وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوربا وطاردهم الى بلاد المجر وحاصروا فينا
عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردنيان واكتسحوا البحر الابيض
الى شواطئ اسبانيا - ووجهوا مطامعهم من الجهة الاخرى نحو الشرق
ففتحوا العراق والشام ومصر على يد سليم الفاتح كما تقدم . وبسلطته يبدأ هذا
الجزء من تاريخ مصر الحديث

الدولة العثمانية

من سنة ٩٢٣ - ١٢١٣ هـ او من ١٥١٧ - ١٧٩٨ م

سلطنة سليم بن بيازيد

من سنة ٩٢٣ - ٩٢٦ هـ او من ١٥١٧ - ١٥٢٠ م

أمر السلطان سليم بدفن طومان باي قرب قبر قنسو الغوري وبعد دفنه بثلاثة
أيام دخل السلطان سليم عاصمة الديار المصرية ظافراً في غاية ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ
وبعد يسير نزل الى الاسكندرية في فرقة من جيوشه لوضع الحماية عليها . ثم عاد
الى القاهرة ومكث فيها الى ٢٠ شعبان من تلك السنة فبرحها قاصداً الرومي . ويقال
انه نقل معه الف جمل محملة ذهباً وفضة فضلاً عن أسلاب أخرى وهدايا قدمت
له . وقبل خروجه من مصر جعل فيها حكومة منظمة فاصبحت مصر ايلة عثمانية
وكان فيها من الخلفاء العباسيين اذ ذاك محمد المتوكل على الله (الثالث) الخليفة
الثامن عشر من الدولة العباسية بمصر . وكيفية وصول الخلافة اليه ان الامام
المستنجد بالله الخليفة الخامس عشر الذي تولى الخلافة في ايام ينال سنة ٨٥٩ هـ كما
تقدم توفي في ٢٤ محرم سنة ٨٨٤ هـ بعد أن تولاها ٢٥ سنة وولي مكانه الخليفة
عبد العزيز بن يعقوب حفيد الخليفة العاشر المتوكل على الله ولقب بلقب جده .
ثم توفي يوم الجمعة في ٢ صفر سنة ٩٠٣ هـ خلفه الخليفة ابو صابر يعقوب الملقب
بالمستمسك بالله ثم خلف هذا نحو الفتح العثماني الخليفة محمد المتوكل على الله المتقدم
ذكره . فلما فتح العثمانيون مصر رأى السلطان سليم الفاتح ان نصره لا يؤيد الا اذا
قبض على الازمة الدينية . فاستخرجها من ايدي الخلفاء العباسيين فصارت
الخلافة الاسلامية الى العثمانيين واول خلفائهم السلطان سليم . واما الخليفة العباسي
فانه نقل الى الاسنانة وخصص له راتب معين لتفقاته وقبل وفاة السلطان سليم
يسير عاد المتوكل الى مصر وعاش فيها منفرداً الى ان توفاه الله سنة ٩٤٥ هـ وهو
آخر الخلفاء العباسيين

الخلافة والعرب والترك

ويجدر بنا ان نقول كلمة في الخلافة ونسبها الى العرب او غيرهم . افضت
امور المسلمين الى ملوك وسلاطين من الفرس والترك والاكراد والبربر والجركن

وغيرهم ومع ما بلغوا من سعة الملك وعز السلطان ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولهم وتجتمع الرعية على طاعتهم لم يخطر لاحد منهم ان يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الاسلام الى طوره الثاني بعد تضعضه بفتوح المغول . ولا ادعاها احد من العرب غير قریش . واول سلطان غير عربي ببيع بالخلافة السلطان سليم العثماني ولا تزال الخلافة في دولته الى الان

على ان الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن من الامراء المسلمين او القواد غير العرب كانوا اذا طمعوا بالسيادة الدينية او الخلافة انتهجوا لانفسهم نسباً في قریش كما فعل ابو مسلم الخرساني لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة وربما طمع بالخلافة فانتحل لنفسه نسباً في بني العباس فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن العباس

واما الملوك او السلاطين الاعاجم فلما ضيخت دولهم في اواخر العصر العباسي ورأوا انحطاط الخلافة وتقهقرها وعموا الاستغناء عنها ولكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك الا ان يستبدلوا بالخلافة اخرى . على ان بعضهم طمع بالنفوذ الديني من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . واول من فعل ذلك عضد الدولة ابن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في ايامه ان يتزوج بابنته وغرضه من ذلك ان تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب ولم يوفق الى مراده

ولما افضت السلطة الى السلاجقة تقدموا في هذا الطريق خطوة اخرى فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة ايضاً ولكن على ان يتزوج السلطان طغرلبيك السلجوقي ابنة الخليفة وهو يومئذ القائم بأمر الله فخطبها اليه ووسط قاضي الري في ذلك فانزعج الخليفة لهذا الطلب ايما انزعاج اذ لم يسبق ان يتزوج بنات الخلفاء الا اكفاؤهم بالنسب وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده فاخذ في استعطافه ليعفيه من الاجابة على طلبه فابى السلطان الا ان يجاب . وحدثت امور يطول شرحها خيف منها على الدولة فاضطر الخليفة الى القبول — فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ وهذا ما لم يجر مثله قبله لان آل بويه لم يطعموا بذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب اذ يكفي من الخليفة تنازلاً ان يتزوج بنات الملوك لا ان يزوجهم بناته ولم ينل هذا الشرف احد قبل طغرلبيك . ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية قبل الارض بين

يديها وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب فلم تكشف الحمار عن وجهها ولا قامت له . وظل اياماً يحضر على هذه الصورة وينصرف . على انه لم يوفق لانعام ما اراده لانه توفي في تلك السنة . اما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة اسلامية قبل العثمانيين

نظام الحكومة المصرية ايام العثمانيين

واخذ السلطان سليم في تأييد سلطته في مصر ليأمن من تمرداها وتلاعب ذوي الاغراض فيها . فجعل عليها حاكماً يلقب بالباشا اليه مرجع الحل والعقد . وكان من جملة الذين انحازوا الى العثمانيين في واقعة مرج دابق امير يقال له خير بك من كبار رجال قنسو . فلما فتح الله على العثمانيين ولاء السلطان سليم على مصر بلقب باشا . ثم خشي من تفرد هذا الحاكم بالامر مع بعد مصر عن الاستانة ان يكون داعياً لعصيانه . فاعمل الفكرة فيما يكفيه مؤونة هذا الخطر فاهتدى الى طريقة تضمن له ذلك . وهي ان يجعل في مصر ثلاث ادارات كل منها تراقب اعمال الآخرين فلا يخشى من اتحادها وتمرداها فالقوة الاولى « الباشا » واهم واجباته ابلاغ الاوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها

والقوة الثانية « الوجاقات » فانه اقام في القاهرة وفي المراكز الرئيسية من القطر ستة آلاف فارس وستة آلاف ماش بالبنادق جعلها ستة وجاقات « فرق » تحت قيادة واوامر خير الدين احد قواد العثمانيين العظام وامره ان يقيم في القلعة ولا يخرج منها لاي سبب كان . وواجبات هذه الوجاقات حفظ النظام في القطر المصري والدفاع عنه وجباية الخراج . وقد رتبها على الوجه الاتي :

١ وجاق المتفرقة . وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني

٢ وجاق الجاويشية . وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش

السلطان سام فعهد اليهم جباية الخراج

٣ وجاق المهجانة

٤ وجاق التفججية . وهم ناقلو البنادق

٥ وجاق الانكشارية . وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية

وكانوا يعرفون ايضاً بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم

٦ وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من افراد يقال لهم « وجاقلية » واحدهم

« وجاقي » على كل وجاق منها ضابط بالآغا يصحبه الكخيا والباشا اختيار والدفتر دار والحزندار والرزناجي . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شوري الباشا فلا يقضي أمراً إلا بمصادقتهم . أما هم فلمهم ان يوقفوه عن الاجراء وان يستأنقوا الى ديوان الاستانة عند الاقتضاء . ولهم ايضاً ان يطلبوا عزله حالما يشتهبون بمقاصده

الانكشارية

وامم تلك الوجاقات « الانكشارية » وهم يشملون الجند العثماني في ذلك العهد انشئ هذا الجند في زمن السلطان اورخان ثاني سلاطين آل عثمان (٧٢١ هـ — ٧٦١ هـ) على يد قره خليل احد كبار رجال الدولة ونظر في تنظيمه الى خلوه من عصبية تبعث على التمرد . وكان العثمانيون يومئذ يفتحون البلاد وأكثر اهلها مسيحيون فدخل في حوزتهم جماعة من غلمان النصراني الذين قتل آباؤهم واصبحوا لا نصير لهم ولا مرجع لا ملهم — فارتأى ان يربي اولئك الغلمان تربية اسلامية ويدربهم على الفنون الحربية ويجعلهم جنداً دائماً لا يخشى منه التمرد لانه لا يعرف عصبية غير الدولة ولا عملاً غير الجندية ولا ديناً غير الاسلام . فخدمهم وسارهم الى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية باماسية ليدعو لهم . فدعا لهم وسامهم « يكي جري » الجند الجديد

وقسم هذا الجند الى وجاقات واحداها وجاق والوجاق يقسم الى اورط احداها اورطة والكل اورطة عدد تعرف به ولبعضها اسماء خاصة . ويختلف عدد الجند في كل اورطة حسب العصر من ١٠٠ الى ٥٠٠ . ويختلف عدد الاورط في الوجاق وعدد الوجاقات بمقتضى ذلك . واكبر ضباط الوجاق او قائدها الاكبر يسمى « آغا » تحته سكران باشي تحته غيره فغيره على هذه الصورة :

آغا	قائد الوجاق ويقابل اللواء في هذه الايام
سكران باشي	ينوب عن الاغا في الاستانة ويقابل القائم مقام اليوم
قول كخيا او كخيا بك	نائب الاغا او السكران باشي
سمسونجي باشي	قائد الاورطة نمرو ٧١
زغرجي باشي	قائد الاورطة نمرو ٦٤
محضر اغا	ينوب عن الانكشارية عند الصدر الاعظم
خصكي	ينوب عن الاغا في القيادة على الحدود

باشجاويش
كخياكري
الافندي
قائد الاورطة الخامسة
ينوب عن الوجاق لدى الآغا
السكران
ولكل اورطة ضباط يقسمون قيادتها وادارة شؤونها مما يطول شرحه



ش ١ : آغا الانكشارية ونائبه وخادمه

كان للانكشارية رواتب يسمونها العلوفة كانت تدفع يومياً باعتبار درهم واحد لكل انكشاري ثم ارتفعت الى خمسة دراهم غير الهدايا التي كانوا ينالونها في الاعياد وعند تولية السلاطين ويسمونها « بنخشيش الجلوس » وغير ما يصرف لهم من الاطعمة كاللحم والحبز او القمح

ملابس الانكشارية وطعامهم

المقصود من البسة الجند التفريق بين رتبهم . فكان لكل طبقة من الانكشارية لباس خاص تقتصر على وصف بعضها بالتصوير (انظر ش ١) فالصورة الوسطى التي تحتها نمرة (٢) هي صورة آغا الانكشارية وعمامته كبيرة منفوخة وعليه القفطان والجبة وحول وسطه الحزام وفيه الخنجر وفي قدميه نعال مكشوفة . والى يمينه في الطرف نمرة (٤) نائبه المسمى « قول كخيا » وقاوقه يختلف عن ذلك اختلافاً عظيماً وفي قته شبه المروحة من الريش

وبجانبه عمرة (٣) خادم الآغا وعمامته كالعمامة المعروفة . والى يسار الآغا عمرو (١) الباشجاويش ويختلف لباسه عن اولئك من كل جهة وخصوصاً قاووقه وقفطانه وازاره ونعاله

وترى مثل هذا الاختلاف في صفار الانكشارية ايضاً على تفاوت في الرتب والاعمال فتري في الشكل الثاني ان عمرة (٣) صورة جندي انكشاري واقف وعليه لحيمة والقفطان بشكل خاص والقاووق مثنى الى الورا. وعمرة (٤) انكشاري واقف وقفة الاحترام و (١) ضرب آخر من الانكشارية يعرف بسلاق و (٥) نوع آخر جيولك . وانتهى الى (٢) فانها صورة احد القلمان الاعاجم الذين يخرج الانكشارية منهم وعمرة (٦) انكشاري مدرع



ش ٢ : انقار الانكشارية

ويمتاز الانكشارية بعبادات خاصة في طعامهم وام اصنافه الشورباء فقد كانت تصنع في حلال خاصة ترسل الى الاجناد في قدور كبيرة يحملونها معلقة باعواد مستعرضة كما ترى في الشكل الثالث

يحمل الحلة اثنان من الجنود يقال لهما « قراقول اقجي » يتقدمها ضابط اسمه باش قراقول اقجي يحمل على كتفه معلقة كبيرة من الحديد . فيمر بالاماكن التي فيها عساكر من اورطهم وهم في انتظار وصولهم فيحطون القدر على الارض

ويغرفون بالملعقة لمن يأتي بطبقه على قدر حاجته وللطعام شأن كبير عند الانكشارية وفي مطبخ كل اورطة قدر كبيرة هي مثال لقدرة يحترمونها اعتماداً على حديث يتناقلونه بينهم عن الحاج بكطاش صاحب الطريقة البكطاشية التي ينسب اليها الانكشارية انه طبخ شوربائه فيها ويعتقدون انهم اذا نقلوا هذه القدر من مكانها وصبوا هناك ماء زلزلت الارض . وكانت هذه القدور ملجأ للمجرمين فمن اتى اليها وجب على الانكشارية حمايته والدفاع عنه كما



ش ٣ : توزيع الشورباء على الانكشارية

كان يفعل العرب في حماية من يستجير بهم . وفي الحوادث الكبيرة التي تنفق لهم كقيامهم بشورة او مفاوضاتهم في امر يهمهم يجتمعون حول هذه القدر للمفاوضة بجانبها قبر كآ بها

الامراء المماليك

اما القوة الثالثة فالمماليك . وعم بقايا الدولتين السالفتين والفائدة منهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات لانهم في الاصل اعداء اسكلا الفريقين ومن غرضهم الانتصار للفريق الاضعف لمنعوا القوي من الاستبداد . وقد كان القطر المصري منقسماً الى ١٢ « سنجقية » (مديرية) بحكم كلا منها حاكم يقال له « سنجق » او « بك » يعينه الديوان (وهو مجلس شورى الباشا) من امراء المماليك . ولا غرو ان تقاطع المصالح على هذه الصورة واختلاطها مع تعداد الامرين عما يقود الى

القلائل والمتاعب. اما الدولة العثمانية فقد اجتنت راحة من هذا التعب لانها كانت على ثقة من استبقاء الديار المصرية في حوزتها وبقي خير بك باشا والياً على مصر الى ان ادركته الوفاة بمرض جلدي سنة ٩٢٨ هـ ودفن في جامع المعروف باسمه في شارع درب الوزير تحت القلعة. وبعد وفاته هجرت الاسنة بدمه لعظم استبداده فكانوا يقولون انه كان ينهض من لحده ليلا ويستغفر الله على ما اناه من الشرور في حياته

سلطنة سليمان القانوني

من سنة ٩٢٦ - ٩٧٤ هـ او من ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م



ش ٤ : السلطان سليمان القانوني

وقبل وفاة خير بك باشا بسنتين توفي السلطان سليم وخلفه ابنه السلطان سليمان سنة ٩٢٦ هـ وسنه ٢٦ سنة ويعرف بالقانوني لانه سن قانوناً. فكث على كرمي الخلافة نحواً من نصف قرن وقد اكثر من الاهتمام بمصر وتنظيمها. وكان ابوه قبل وفاته قد رسم الخطة التي يجب ان تدير عليها مصر في حكومتها وادارتها لكنه توفي قبل ان يبرزها الى حيز الفعل فلما تولى السلطان سليمان جعل اهتمامه اعمالاً مشروعة ابيه

نظام الحكومة المصرية ايضا

وكان من رأي السلطان سليم ان ينشئ ديواناً تحت رئاسة الباشا حفظاً للموازنة. اما السلطان سليمان فاقم الموازنة بانشاء ديوانين عرقا بالديوان الكبير والديوان الصغير « او الديوان فقط » واناظر رئاستهما بالباشا وعليه ان يجلس عند انعقاد الجلسة وراء ستار المنبر. وعلى السكخيا والدفتردار استئذانه قبل المفاوضة ومتى اقر الديوان على امر ابلاغه ذلك القرار وليس له الا المصادقة والامر بالتنفيذ. وجعل اقامة هذا الباشا بالقلعة تحت ملاحظة الاغا الذي هو قومندانها ويجدد تعيين الباشا في كل سنة

اما واجبات الديوان الكبير فهي المفاوضة والافرار على ما يتعلق بالاشغال العمومية التي لا تتعلق ادارتها بالبواب العالي نفسه. اما اعضاء هذا الديوان فهم اغاوات الوجاقات الستة ودفترداريها وروزنامجيها. ونواب من جميع فرق الجيوش وامير الحج وقاضي القضاة واعيان المشايخ والاشراف والمفتون الاربعة والائمة الاربعة والعلماء. اما الخطابات التي ترد الى هذا الديوان فتعنون باسم الديوان الكبير لكنها تسلم للباشا وله وحده الحق ان يأمر بعقد جلساته ولم تكن كثيرة. اما جلسات الديوان الاصغر فكانت تنعقد يومياً في قصره واءضاء هذا الديوان هم كخيا الباشا ودفترداره وروزنامجي ونائب من كل من الوجاقات والاغا وكبار ضباط وجاق المنفرقة. ومن واجبات هذا الديوان النظر في الحوادث اليومية ومن اختصاصاته البحث في الادارات الثانوية

وانشأ السلطان سليمان فضلاً عن الستة الوجاقات التي انشأها ابوه وجاقاً سابعاً دعاه وجاق الشراكية وهم بقية جند الممالك. ومن هذه الوجاقات السبعة تتألف حكومة مصر وحاميتها. اما نفقاتها فن مخصصات يتولى ضبطها وتفريقها « افندي » من كل وجاق. وجعل لكل وجاق مجلساً مؤلفاً من ضباط ذلك الوجاق وبعض صف ضابطانه لحاسبة الافندية والنظر في الدعاوي الخصوصية وعرض الترقية للباشا المصادقة عليها ومقامهم في القاهرة ولكل منهم لباس خاص برتبته وعليه علامات ومجموع رجال الوجاقات معاً عشرون الفا وقد يزيد او ينقص حسب الاقتضاء. اما مقرهم ففي القاهرة على انهم كثيراً ما كانوا يخرجون منها للمهمات في المديرية. وكان لوجاق الانكشارية امتيازات على سائر الوجاقات وقائده (الاغا) مفضل على سائر القواد وله نفوذ عليهم

وجعل السلطان سليمان للبكوات المالك الذين اقامهم السلطان سليم امتيازات خصوصية وحققاً بالارتقاء الى رتبة الباشوية . و اضاف اليهم ١٢ بيكاً آخرين لمهمات فوق العادة . وهاك اسماء الموظفين الذين ينتخبون من البكوات المالك وهم : الكرخيا او زنايب الباشا والقباطين الثلاثة وهم قومندانان ثغور السويس ودمياط والاسكندرية ويسمى واحدهم قبطان بك والدفتردار وامير الحج وامير الخزنة وحكمداربو او مديرو المديرية الخمس الا في ذكرها وهي جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية ولم يكن لغير الكرخيا والدفتردار وامير الحج الحق في دخول الديوان فالدفتردار كان عليه ضبط الحسابات وحفظ الدفاتر والسجلات ولا ينفذ امر يبيع عقار الا بعد توقيعه عليه اشارة الى تسجيله في دفتاره . وامير الحج يحمل الهدايا والصدقات التي كان يرسلها السلطان سنوياً الى مكة او المدينة وعليه حماية قافلة الحج ذهاباً واياباً . واما امير الخزنة فيحمل القسم الخاص بالقسطنطينية من حاصلات مصر برأ وعليه حمايته . وينتخب من البكوات المالك ايضاً « شيخ البلد » وسنعود اليه

وكانت مديريات القديونية والمنصورة والجيزة والفيوم في عهدة كشاف لا فرق بينهم وبين البكوات في النفوذ . ولا يعمل باقرار احدهم الا بعد مصادقة الشريحية وغيرهم من الوجاهين الذين يتألف منهم ديوان خاص في كل مديرية

ثم ان تعيين كرخيا الباشا وقباطين السويس ودمياط والاسكندرية متعلق رأساً بمجاللة السلطان فيرسلونهم من الاستانة ويستدعونهم اليها في آخر كل سنة . اما البكوات الاخرون فيعينهم الديوان وبوليهم الباشا ويثبتهم الباب العالي ومراكزهم ثابتة الا ان واجباتهم تتغير الا الدفتردار . وقد ينتخب البكوات من وجاق المتفرقة ومتى انتخبوا لا يعودون تابعين لذلك الوجاق . وكان من هم الباب العالي الانتباه الى السويس ودمياط والاسكندرية على الخصوص لانها الابواب التي يدخل منها الى مصر فكان يرسل حاميتها رأساً من الاستانة تحت قيادة القباطين ومجدها كل سنة وهؤلاء القباطين لم يكونوا يحسبون من جند مصر الا باعتبار اقامتهم فيها وبما يؤولونه من الامدادات المالية لنفقاتهم . اما فيما خلا ذلك فكانوا يحسبون اجانب في اعتبار الباشا وديوان مصر ولم يكونوا تحت اوامر حكومة البلاد في شيء فلوامرهم كانت ترد اليهم من ديوان الاستانة رأساً

حاصلات البلاد

هذا من قبيل الادارة . اما من قبيل حاصلات البلاد فان السلطان سليمان صرح بانه المالك الحر لارض مصر فكانت له ملكا وكان يفرقها اقطاعات على مزارعين كان يدعوهم « الملتزمين » . على انه لم يكن له ان يمنع اقطاعها او يوقفه فلم يكن بالحقيقة فرق بين هذه الاقطاعات والملك الحقيقي . والفلاحون الذين كانوا يحرثون الارضين كانوا يتمتعون بنصيبهم منها ويورثونها لاعقابهم ولكنهم كانوا مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف بها وعليهم خراج لا مناص من دفعه للملتزمين فاذا توفي فلاح بلا وريث تعطى ارضه للملتزم وهو يعهد بحراثتها الى من يشاء . واذا مات الملتزم بلا وريث تعود الارض للسلطان . وكان على كل من الملتزمين والفلاحين خراج يدفعونه اما نقداً واما عيناً فاذا تأخر الفلاح عن الدفع يمنع من نيل نصيبه واذا تأخر الملتزم تؤخذ الارض منه . ونظراً لاتساع ارض مصر لم يمكن حصر املاك كل من الملتزمين فلم يكن ممكناً تعيين مقدار خراجها قارسل السلطان سليمان مساحين مسحوا الارضين المصرية فقسّموا المديرية الى اقسام دعوها بالقراريط ومسحوا كلاً منها على حدة وحدوده

باشوات مصر او ولاتها ايام السلطان سليمان

كل هذه النظمات الادارية والمالية اجراها السلطان سليمان بالتتابع بواسطة الباشوات الذين اقامهم على مصر مدة حكمه وعددهم ١٤ . اولهم مصطفى باشا تولى بعد وفاه خير بك باشا في ذي الحجة سنة ٩٢٦ هـ وبعد تسعة اشهر و ٢٥ يوماً ابدل بأحمد باشا وكان عدواً للصدر الاعظم ابراهيم باشا فاسر الصدر سنة ٩٣٠ هـ الى امراء القاهرة ان يقتلوه فعلم هو بالسديسة فقبض على الكتب الواردة بذلك قيل ان تصل الى اصحابها ثم استدعاهم واعلمهم انها اوامر من جلالة السلطان بقتلهم ولم يطلعهم عليها قابوا الاذعان الا ان اباؤهم لم يمنع قتلهم

ولما تأكد احمد باشا انه صار في مأمن من المقاومين صرح باستقلاله وامر ان يحفظ له وان تضرب النقود باسمه - وهو اول من طمع بالاستقلال من ولاية مصر في عهد الدولة العثمانية . لكنه بالغ بالعسف فاخترت ممتلكات البعض وحبس البعض فنارت الافكار عليه حتى اصبحت حياته في خطر . وبينما كان ذات يوم في الحمام فاجاه اميران من امرائه كان قد امر بسجنهما وهما جهم الحزراوي ومحمود بك فكسرا باب السجن وخرجا رافعين العلم الشاهاني يستنصران

الناس حتى أتيا الحمام فعلم الباشا بذلك ففر من السطح والتجأ الى احد مشايخ عربان الشرقية واسمه ابن بقر فتعقبه أعداؤه حتى أدركوه وقطعوا رأسه وعلقوه على باب زويلة ثم نقل الى الاستانة سنة ٩٣١ هـ

فارسل السلطان عوضاً عنه قاسم باشا وفي نيته تقصير مدة هؤلاء الولاة لئلا يثور في خواطرهم حب الاستقلال فبعد تسعة أشهر و١٤ يوماً استبدله إبراهيم باشا وكان نشيطاً محباً للإصلاح والنظام الا ان قصر مدته لم تمكنه من اتمام ما كان شاعراً فيه فعزل واقيم بدلا منه سليمان باشا سنة ٩٣٣ هـ وكان السلطان راضياً عن هذا الباشا واثقاً به فابقاه في الحكم تسع سنوات و١١ شهراً

وفي سنة ٩٤١ هـ استقدمه الى الاستانة ليمسكه قيادة حملة أعدها لمحاربة الفرس والهند وقد أقام في اثناء حكمه بنايات كثيرة من جملة جامع سارية في القلعة . وناب عنه في غيابه خمسو باشا نحو سنة وعشرة اشهر فعاد سليمان باشا الى مصر وبقي عليها بعد ذلك نحو سنة وخمسة اشهر

وفي سنة ٩٤٥ هـ عهدت باشوية مصر الى داود باشا فبقي عليها ١١ سنة و٨ اشهر وكان رجلاً مستقيماً كرم الاخلاق محباً للعلماء آخذاً بنصرهم كفاً بالمطالعة وعلى نوع خاص مطالعة المؤلفات العربية فجمع منها عدداً وافراً واستنسخ كل ما ظفر به من الكتب غير المطبوعة فجمع مكتبة جميلة جداً . وكان الاهلون في مدة حكمه في مجبوحة السعادة والامن وتوفي في القاهرة سنة ٩٥٦ هـ فتولى مكانه علي باشا وهذا رمم وبنى عدة بنايات عمومية في القاهرة وفي قوة ورشيد واقتدى به غيره من بكوات مصر فخلعوا يشيدون الجوامع منها الجامع الذي ابتناه عيسى بك في ديروط . وكان علي باشا محبوباً مكرماً عند المصريين بمنزلة الاب لكنه مع ذلك لم يحكم الا اربع سنوات وستة اشهر . ففي سنة ٩٦١ هـ تولى باشوية مصر محمد باشا وكان الناس يبعضونه فلم يحكم الا ثلاث سنوات . ولما زاد التشكي منه عزل واستقدم الى الاستانة للمحاكمة فحكم عليه بالقتل سنة ٩٦٣ هـ

وبعد محمد باشا تولى اسكندر باشا فحكم ٣ سنوات و٣ اشهر ونصف . وفي سنة ٩٦٨ هـ تولى علي باشا الخادم . وبعد ١٧ شهراً خلفه مصطفى باشا (الثاني) في سنة ٩٦٩ هـ ثم في سنة ٩٧١ هـ نولها علي باشا الصوفي سنتين و٣ اشهر . وكان علي الصوفي قبلاً حاكماً في بغداد مشهوراً فيها باعوجاج الاحكام والحيانة . فلما تولى مصر كثرت فيها السرقات والتعديات حتى غصت ضواحي القاهرة بالصمصوم

واخترقت فئة منهم المدينة حتى الجامع الابيض . فاضطرت الحكومة أن تقيم سوراً من قنطرة الحاجب الى هذا الجامع منعاً لمثل ذلك

وفي شوال سنة ٩٧٣ هـ ابدل علي باشا الصوفي بمحمود باشا وهو آخر من تولى مصر في أيام السلطان سليمان فجاء من الاستانة بموكب عظيم فاهدي اليه في أثناء مروره من الاسكندرية الى القاهرة هدايا عظيمة . فلما وصل القاهرة لاقاه الامير محمد بن عمر متولي الصعيد على قارب فيه جميع أنواع الهدايا وخسوف الف دينار فأخذ الباشا الهدايا منه وأمر بخنقه حال خروجه من مجلسه . وأمر أيضاً بخنق القاضي يوسف العبادي لانه لم يأت لملاقاته ولم يهده شيئاً واستمر على هذه المظالم حتى قتل معظم أعيان القاهرة فكان لا يمر الا ومعه الشوباصي (رئيس الجلادين) فاذا مرّ بأحد وأراد قتله أشار بيده الى الشوباصي فيعمد حالاً الى ذلك السيء الطالع فيعدمه الحياة بأسرع من ملح البصر

وفي ٣ رجب سنة ٩٧٤ هـ توفي الامير ابراهيم الدفتردار وكان اميراً للحج فاستولى محمود باشا على مارك من المال والماليك والجواري وجملة ذلك مائة الف دينار ضمها الى المال الذي يرسل الى الاستانة سنوياً وبعث معها هدايا ثمينة للسلطان ووزرائه استجلاً بالخطرم . لكنه لم ينتفع من ذلك قبل أن قتل في يوم الاربعاء غاية جمادى الاولى سنة ٩٧٥ هـ وهو مار في موكبه الاعتيادي بين البساتين . ولم تقف الحكومة على القاتل فلتهمت اثنين من الفلاحين وقتلتهما ظلماً لانهما وجدا بقرب مكان القتل . وكان السلطان سليمان قد توفي قبل ذلك بسنة (صفر سنة ٩٧٤ هـ) وسنه ٧٤ سنة ومدة حكمه ٤٨ فتولى بعده ابنه سليم شاه « الثاني » في ٩ ربيع أول من تلك السنة

وترى في الشكل الخامس نقود السلطان سليمان ضربت في القسطنطينية سنة ٩٢٦ هـ . وما يحسن التنبيه اليه أن سلاطين آل عثمان لا يؤرخون نقودهم الا بسنة جلوسهم على السلطنة وليس بسنة ضربها



ش ه : نقود سليمان القانوني

سلطنة سليم بن سليمان

من سنة ٩٧٤ — ٩٨٢ هـ او من ١٥٦٦ — ١٥٧٤ م

فلما بلغ السلطان سليم شاه موت محمود باشا امر بنقل سنان باشا من باشوية حلب الى باشوية مصر . وبعد وصوله اليها بتسعة أشهر انقذه لحاربة الين فسار سنان من مصر في ٤ شوال سنة ٩٧٦ هـ ومعه حمزة بك ومالاي بك وغيرها من امراء مصر واستخلف على مصر اسكندر باشا الشركسي . ومكث سنان باشا في تلك الحملة سنتين و ٤ أشهر ففتح الين وعاد ظافراً الى مصر فرأى الاحوال هادئة والنظام مستتباً بدراية اسكندر باشا المذكور لانه كان حكماً محباً للرعية فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين والقسم الاعظم من طلبة العلم وكان شديد التعلق بالعلم وذويه . فلما عاد سنان باشا الى مصر (أول صفر سنة ٩٧٩ هـ) عادت احكامها الى يده فاهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البلاد فأعاد حفر ترعة الاسكندرية ورمم وبني فيها جامعاً وشارعاً وعدة حمامات . وبني في بولاق بمصر شارعاً ووكالات وجامعاً لا يزال معروفاً باسمه . وما زال على مصر الى ذي الحجة سنة ٩٨٠ هـ خلفه حسين باشا وكان على جانب من اللطف والدعة وحب العلم والادب ولا يعاب الا لسكرته لعله الامر الذي آل الى تكرار اللصوص في ولايته ولم يحكم الا سنة وتسعة أشهر . وفي آيائه توفي السلطان سليم شاه (سليم الثاني)



ش ٦ : نقود السلطان سليم الثاني

في ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد ان حكم ثمانية سنين وخمسة اشهر و ١٩ يوماً

وترى في الشكل ٦ صورة نقود السلطان

سليم الثاني مضروبة في حلب بتاريخ سنة ٩٧٤ هـ

سلطنة مراد بن سليم

من سنة ٩٨٢ — ١٠٠٣ هـ او من ١٥٧٤ — ١٥٩٤ م

وفي ١٠ رمضان ببيع ابنه مراد خان (مراد الثالث) وحال جلوسه على كرسي السلطنة ولي على مصر بدلاً من حسين باشا مسيح باشا وكان خزانداراً عند السلطان سليم الثاني فحكم في مصر خمس سنوات وخمسة اشهر ونصف ووجه اهتمامه

سلطنة مراد بن سليم

خصوصاً الى ابطال السرقات والتعديات فكان يقبض على اللصوص ويقتلهم بدون شفقة حتى بلغ عدد من قتل من اللصوص عشرة آلاف فارتاحت البلاد من شرورهم . ثم عكف على اصلاح شؤون الرعية وكان نزيهاً لا يقبل الرشوة ولا الهدية . ومن آثاره مسجد عظيم في ضواحي القرافة لا يزال يعرف باسمه . وقد بناء على اسم الشيخ نور الدين القرافي وجعله له ولنسله ملكاً حراً وخصص دخلاً معيناً للنفقة عليه . وأمر مسيح باشا أن تسهل الاوامر والكتابات الرسمية والاحكام بهذه العبارة « الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا وآله ومحبيه ان المؤمنين اخوة فاحفظوا السلام بين اخوتكم واتقوا الله »

وفي سنة ٩٨٨ هـ ولي مصر حسن باشا الخادم خزاندار السلطان مراد الثالث فلم يكن همه الا جمع الاموال بأية وسيلة كانت واعادة ما كان حظره سابقه من الرشوة والهدايا . فبقي على ولاية مصر سنتين وعشرة أشهر . ولما عزل عنها سار من القاهرة خفية وطلع من باب المقابر لثلاث ينتم منه أهلها . وفي سنة ٩٩١ هـ خلفه ابراهيم باشا فأخذ يستطلع ويتحرى ما أتاه سابقه من الاختلاس فجعل في جامع السلطان فرج بن برقوق موظفاً خصوصياً لاستماع تشكيكات المتظلمين على الوالي السابق من ١٠ رجب من تلك السنة الى غاية رمضان فاطلع على مظالم لا تحصى من جملتها ٤٤٢ ١٠٠٠ أردب قمح من الشون العمومية باعها حسن باشا واستولى على قيمتها فرفع ابراهيم باشا تقريراً مدقفاً بشأن ذلك الى السلطان فأمر بقتله خنقاً . ثم طاف ابراهيم باشا بنفسه يتفقد أحوال المديرين ويتحقق حالها وزار أيضاً آبار امروود في الصحراء ورمم بعضها . وفي عودته الى القاهرة استقال من منصبه سنة ٩٩٢ هـ وتولى مكانه سنان باشا الثاني وكان دفتر داراً . وبعد ستة اشهر وعشرين يوماً برح مصر هارباً وسبب ذلك أنه أساء التصرف فاشتكاك الناس الى الاستانة فجاء أويس باشا الى مصر ليتحرى تلك التشكيكات فلما علم سنان بحقيقته فرّ هارباً

فتولى أويس حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ وكان صارماً في الاحكام . وكان في أول امره قاضياً ثم صار دفتر داراً في الرومي ثم نقل الى باشوية مصر كما تقدم . وبقي عليها خمس سنوات وخمسة اشهر وعشرة أيام وأراد ان يدرب الجنود فقصوه وهجموا عليه في الديوان في ٢٨ شوال سنة ٩٩٧ هـ وأهانوه ونهبوا بيته وفي جملة ما نهبوا منه ساعة كبيرة تعرف منها الايام . ثم ذبحوا الامير عثمان قائد وجاق الجاويشية واخربوا بيت قاضي العسكر وقتلوا قاضيين من قضاة مصر ثم عمدوا الى الحوانيت فنهبوا

كل ذلك والامراء لا يستطيعون منعهم والاضطراب يزداد والثائرون يتمردون وقد حاول الدفتردار ايقافهم عند حدهم فذهب سعيه باطلا . ثم ظن أويس باشا انه اذا جاءهم بالحسنى ربما يلينون فبعث الى القضاة أن لا يخالفوا لهم أمراً فلم يزدحم ذلك الا عناداً وفجوراً حتى قبضوا على أولاد الباشا رهناً لما يريدون فاضطر الباشا الى الاذعان لما أرادوا وأعطاهم ما طلبوه واستقال من تلك الولاية بعد أن مل من خيبة مساعيه الحميدة فيها . فتولى مكانه حافظ احمد باشا سنة ٩٩٩ هـ وكان حاكماً في قبرص وعلى جانب عظيم من حب العلم وطالبيه حاذقاً مدرباً في امور الاحكام . وكان رفيقاً بالاهلين ففرق الحسنات على الحجاج الفقراء وابتنى في بولاق وكاليتين



وعدة قيصريات وعدة بيوت وخصص ربيع دخلها لعمل الخير وبقي حاكماً في مصر ٤ سنوات

ش ٧ : نقود السلطان مراد بن سليم



وترى في الشكلين ٧ و ٨ صورة نقود السلطان مراد بن سليم مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ٩٨٢ هـ

ش ٨ : نقود السلطان مراد بن سليم

سلطنة محمد بن مراد

من سنة ١٠٠٣ - ١٠١٢ هـ أو من ١٥٠٤ - ١٦٩٣ م

وفي ١٧ رمضان سنة ١٠٠٣ هـ تولى الخلافة في الاستانة السلطان محمد بن مراد (محمد الثالث) عوضاً عن أبيه مراد الثالث

فولى على مصر قورط باشا فلم يبق فيها الا سنة وثمانية أيام وكان الناس يحبونهم للطفه ودعته وتنشيطه لطالبي الادب ومساعدته للفقراء ولكل من يلتجئ اليه . وفي شوال سنة ١٠٠٤ هـ خلفه السيد محمد باشا وبقي على الحكومة سنتين اتبع في اثنائها خطة اسلافه في تنشيط العلم والادب فأعاد بناء الجامع الازهر وجعل فيه وظائف يومية من العمدن المطبوع تفرق في الطلبة الفقراء ورمم المشهد الحسيني . ومع كل ما كان يتوخاه من السعي في حفظ النظام بين الاهلين لم يمكنه انقاذهم من

ينتظرون عوده . ثم قاموا من هناك يريدون مهاجمة في قلعة الدولاب وكانوا قد علموا بالتجائه اليها . فلما علم هو ومن معه من السناجق بقدم تلك العصابة تشاوروا فيما بينهم فنصح له السناجق أن يسافر بحراً قبل أن يصل اليه ضم فلم يصغ لهم وتشدد بمن معه من الجاويشية والمتفرقة

ثم جاءت الجنود الثائرة وأحاطوا بالقلعة وبعثوا من بينهم ١٥ رجلاً ليأتوا برأس الباشا فدخل هؤلاء القلعة والسيوف مشرعة في أيديهم حتى جاؤا مجلسه فانتهرهم قائلاً « ماذا تريدون ألم تستولوا على مرتباتكم والانعام الذي يعطى اعتيادياً عند تولية الحكم عليكم فاذن تطلبون ؟ » فاجابوه « لا نطلب منك شيئاً الا رأسك » قالوا هذا وصفه أحدهم على وجهه وأدركه الباقيون بالطعن مراراً . ثم عمد أحدهم الى رأسه فقطعه . فانتهرهم الامير محمد بن خسرو ووبخهم على ما جاءوا به من الفحشة فلم يجيبوه الا بما أجابوا ذاك وأخذوا رأسي الاثنين وعادوا بهما الى رفاقهم حول القلعة . ثم حملوهما وداروا بهما شوارع المدينة الى أن علقوهما على باب زويلة وكان قد تعود مثل هذه الاكاييل



ش ١٢ : جامع السلطان احمد بالاستانة

وفي ذلك اليوم أقاموا عليهم عثمان بك فلم يقبل فولوا قاضي العسكر مصطفى افندي فلما علم ديوان الاستانة بقتل ابراهيم باشا أرسل عوضاً عنه الوزير محمد باشا الكورجي الملقب بالخادم . وحال وصوله القلعة وردت الاوامر الصارمة من الباب العالي الى جميع السناجق ان يستطلعوا اصل الثورة واسبابها ويقبضوا على زعمائها . فاجتمع السناجق والقسم الاعظم من الجيش في قراميدان وكان الباشا في القلعة فبعث

يستقدم السناجق اليه ليلبغهم هذه الاوامر رسمياً فرفضوا المثل بين يديه فتوسط الامراء ووعدوا السناجق انهم اذا سلموا القاتلين نجوا ونالوا العفو العام فقبلوا وسلموا القاتلين الى الباشا فأمر بقطع اعناقهم بين يديه حالا واطلق السناجق. تخاف الثأرون وضعف عزيمتهم ولا سيما لما رأوا من محمد باشا التيقظ لحفظ النظام ومعاينة المعتدين وقد قتل منهم نحواً من مائتي رجل في مدة حكمه القصيرة التي لم قدم أكثر من سبعة أشهر وتسعة أيام

فتولى بعده الوزير حسن باشا وهو أقل صرامة من سلفه فكان يعامل الجند بالحسنى وكان ابنه فيهم برتبة بكاريكي وكانت الاحوال هادئة جداً في أثناء حكمه. ثم تولى بعده الوزير محمد باشا في ٧ صفر سنة ١٠١٦ هـ وبقي على حكومة مصر اربع سنوات واربعة أشهر و١٢ يوماً وكان حكيماً حازماً أخذ منذ وصوله القاهرة في المحافظة على السلام فنجى الاهلين مما كان يكدر راحتهم فاكتسب ثقتهم ومحبتهم الا انه لم ينج من الحساد وذوي الاغراض

وفي أواخر شوال من السنة التالية نارت عليه الجيوش واجتمعوا في برج سيد احمد البدوي ونحالفوا ان لا يوافقوه على الغاء الضرائب غير العادلة التي كانت مضروبة على القطار الى ذلك العهد. ثم اختاروا من بينهم رئيساً ولوه عليهم سلطاناً وتقاسموا مصر الى اقسام تولى كل واحد منهم اثاره الشعب والنهب في قسم منها فانتشرت تمديباتهم في جميع الدلتا. فلما علم محمد باشا بذلك جمع السناجق والجاويشية والمتفرقة وسارهم تحت قيادته لردع العصاة في ٩ ذي الحجة سنة ١٠١٧ هـ وأخذ معه ستة مدافع وانضم اليه كثير من مشايخ العرب وفي الليلة التالية عسكر الجميع في بركة الحج

وفي الصباح هاجموا العصاة في الخانقاه فضيقوا عليهم بالنيران فاضطر اولئك الى التسليم فأخذ عليهم الباشا عهداً اولها ان يسلموا اليه سلطانهم وكبار رؤسائهم ووعدهم بالتأمين على حياتهم فقبلوا وسلموا الرؤساء وعددهم نحو ٧٧ فأمر بقتلهم حالا. ثم جرد الباقين من سلاحهم فتفرقوا فتمتقبهم رجال الباشا وقتلوا من ظفروا به منهم. فلما رأى قاضي العسكر محمد افندي الملقب ببختي زاده ما كان يحصل من امثال هذه المذابح يومياً نصح للباشا ان ينفي كل من يقبض عليه منهم الى اليمن ففعل وكانت النتيجة حسنة وبطلت التعديات

ولما ارتاح محمد باشا من تلك الثورات اخذ في اصلاح الادارة المالية فتفحص

ثورة عسكرية انتشرت في غرة رجب سنة ١٠٠٦ هـ في سائر أنحاء القطر المصري. ثم اجتمع العصاة الى القاهرة وكان السيد محمد باشا اذ ذاك في منزله في بركة الجيزة فعاد الى القاهرة تحف به السناجق وزمرة من الحفراء فلم يبال العصاة بذلك بل أطلقوا عليه النار ولم يتخلص من أيديهم الا بعد شق الانفس. فسار الى أحد منازل فتبعوه وحاصروه هناك ليلاً ونهاراً وألحوا عليه أن يسلمهم بعضاً من ضباطه وفي جملتهم دالي محمد أحد كبار الامراء والامير جلال الشوباسي والامير خضر كاشف المنصورة فعلم بهم أن يملوه ثلاثة أيام. فلما جاءهم رسوله قالوا له « سيحكم الله بيننا وبين مولاك » وتفرقوا في المدينة فظفروا بقاضي العسكر عبد الرؤوف فاجبروه على القيام بمطالبهم. اما الباشا فاغتم اشتغالهم بذلك الشأن



ش ٩ : والي مصر في موكبه بالقرن العاشر للهجرة

وفرّ من منزله ودخل القلعة وأقفل ابوابها ورااه والنجا الى حسين باشا السكراني قائد عموم الجيش وبيري بك أمير الحج فحاولا تسكين الثورة فذهب سعيهما عبثاً. ثم علما ان العصاة قتلوا الامير محمد بك والدالي محمد وعلقوا راسيهما على باب زويلة ونهبوا بيتيهما وأنحنوا في الناس قتلاً ونهباً

وفي ١٧ ذي الحجة سنة ١٠٠٦ هـ ابدل السيد محمد باشا بخضر باشا فحكم ثلاث سنوات و١٢ يوماً وقد أغضب الاهلين منذ وصوله القاهرة لانه أمر بقطع الاعطيات والجرایات التي كانت توزع على العلماء والفقراء من الخنطة ولم يقتصر على الاتباع هؤلاء. الصنفاء بل تجاوزهم الى الضابطة فاحرمهم زادهم فتجهروا في

٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ وساروا الى قاضي العسكر . ثم اتحدوا والقاضي في مقدمتهم وتوجهوا الى الديوان يريدون الانتقام فقتلوا كخيا الباشا وامراء آخرين تخاف الباشا فسلم لهم بما كانوا يطلبونه واعاد لهم الاعطيات كما شاؤوا وخذت الثورة وعادت المياه الى مجاريها . الا ان الباشا لم يلبث هنيئة حتى جاءه الامر بالاقالة فاستقال وولي مكانه الوزير علي باشا السلحدار وكان محباً للحرب ولذلك كان يكرم الجند على الخصوص لكنه كان سفاكاً للدماء فتظلم الناس من قسوته ولم يكن يخرج في موكبها الى المدينة او ضواحيها الا ويمت على الاقل عشرة اشخاص تحت حوافر جواده فكان الناس يرتعدون خوفاً من ذكر اسمه . ورافق كل ذلك جوع عظيم فكثرت الوفيات وعم الخراب . فازداد الرعب حتى امر الباشا ان تدفن الموتى سرّاً اما هو فترك القاهرة فراراً من تلك الغائلة



ش ١٠ : نقود السلطان محمد بن مراد ضربت في القاهرة



ش ١١ : نقود السلطان محمد بن مراد مضروبة في دمشق

واستخلف عليها يري بك . وبعد يسير توفي هذا فانتخب السناجق الامير عثمان بك ليقوم مقامه وبقي هذا حتى عين الباب العالي من خلف علي باشا وكان ذلك التغيير بسبب وفاة السلطان

محمد الثالث في ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ . وتري في الشكلين ١٠ و ١١ صورتين من نقود السلطان محمد بن مراد الاولى مضروبة في القاهرة والثانية في دمشق

سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ او من ١٦٠٣ - ١٦١٧ م

ف نصب ابنه احمد بن محمد (احمد الاول) فولى على مصر ابراهيم باشا . حكم فيها مدة قصيرة انتهت بخطب جسيم - وذلك انه منذ وصوله اليها عزم على ابطال طلبات الجند ولما اراد انفاذ ما نواه زادت الجنود تمرداً . وفي ٣٩ ربيع آخر سنة ١٠١٣ هـ علموا ان الباشا خرج من القاهرة في زمرة من رجاله وركب النيل الى بولاق قاصداً شبرا قرب جسر ابي المنجا . فاجتمعوا في ضواحي القرافة وتعاقدوا بالامان المغلظة على قتله . وفي الصباح التالي جاؤا وعسكروا في بولاق

١٠٢٧ هـ فقتل الثأرون عدداً كبيراً من الامراء والاغوات وغيرهم من الكبراء واضطر الباقون الى الفرار ولم يسكن الاضطراب الا بعزل مصطفى باشا بأمر السلطان عثمان . فتولى مكانه الوزير جعفر باشا وهذا لم تطل حكمته أكثر من خمسة أشهر ونصف . وكان محباً للعلم والعلماء يجتمع اليه رجال الادب ويكرم منوهم ولم يهتم كل تلك المدة الا بما فيه منفعة البلاد وراحة العباد

وظهر في ايامه وباء انتشر في مصر وقتك بأهلها فتكا ذريعاً من غاية ربيع أول سنة ١٠٢٨ هـ الى غاية جمادى الثانية من السنة المذكورة وقد لوحظ أن معظم الذين ماتوا بهذا الوباء شبان ما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين وبلغ عدد من توفي بسببه ٣٦٥٠٠٠ نفس

وتولى بعد جعفر باشا مصطفى باشا فقبض على مصطفى بك الملقب بالكلجي زعيم الثورة التي نشأت في أيام مصطفى باشا لفتلي وحكم عليه بالاعدام . فمر الناس بذلك لان مصطفى بك المذكور كان أصل متابعهم . على ان سرورهم لم يلبث أن ظهر حتى أبدل بالكدر لان مصطفى باشا حاكمهم الجديد اضهد تجارهم وضيق عليهم مسالك رزقهم . فرفعوا تظلماتهم الى السلطان فنظر في دعواهم وانصفهم فعزل ذلك الباشا وولى حسين باشا . فبادر هذا الى ابطال جميع الضرائب غير العادلة التي كان قد ضربها سلفه . وفي ايامه ارتفع انيل ارتفاعاً فوق العادة فظاف على الارض وأغرقها حتى يئس الناس من البقاء لنهاية ذلك الطوفان . وأصابهم ضيق عظيم عقبه طاعون شديد . ثم عزل حسين باشا واستقدم الى الاستانة وقبل وصوله اليها خلع السلطان عثمان الثاني يوم الخميس ٨ رجب سنة ١٠٣١ هـ واعيد مصطفى الاول الذي كان قبله

أما الباشا المعزول فوصل الى الاستانة في اسعد الاوقات له لان اعراض السلطان السابق عنه كان داعياً لرغبة السلطان الجديد في تقريبه منه فاتفقت الاحزاب هناك على توليته الصدارة العظمى . وكان عثمان الثاني قبل وفاته قد بعث الى مصر محمد باشا بدلا من حسين باشا لكنه لم يصل مصر الا بعد ان أني . اهلها بما كان يأتيه في الرومي يوم كان والياً عليها فنفروا منه وخافوا من تصرفه . ولحسن حظهم لم يبق بينهم الا شهرين ونصف شهر فلما تولى حسين باشا الصدارة العظمى عزله بأمر السلطان مصطفى الاول وولى ابراهيم باشا . وبقي هذا على مصر سنة وقد تمكن بحسن سياسته وتدييره من اكتساب رضى الاهلين وثقتهم

الا انه حصل في ايامه ضيق عيش وغلت اسعار المأكولات جداً
ولما عزل ابراهيم باشا سافر الى الاسكندرية بحراً خلافاً للعادة الجارية في من
سبقوه على حكومة مصر فانهم كانوا اذا عزلوا من مناصبهم سافروا برّاً . وتولى
مكانه مصطفى باشا واستلم زمام الاحكام في ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ هـ فأتاه كنية
الديوان يشكون تصرف سلفه وقالوا انه مدين للخزينة بمبلغ وافر فأرسل في أثره
بعض الجاويشية فالتقوا به فهددهم بالقتل اذا لم يعودوا عنه فخافوا وعادوا الى
القاهرة فأرسل الأمير صالح بك فأدركه وقد نزل البحر في الاسكندرية فأوعز
اليه أن يقف فأجاب انه متوجه الى الاستانة فإذا كان عليه شيء يدفعه هناك الى
السلطان نفسه . قال ذلك ونشر الشراع فخزت به السفينة فأطلقوا عليه من طابية
منارة الاسكندرية بعض الطلقات المدفعية فلم يبال بها

سلطنة مراد بن احمد

من سنة ١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ او من ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م

فبلغ الاستانة والسلطان مصطفى الاول قد خلع وتولى مكانه السلطان مراد
الرابع ابن احمد فلم يتعرض له احد . وبعد تولية مصطفى باشا بثلاثة اشهر أي
في ١٥ ذي الحجة ورد الى القاهرة الامر بعزله وتولية علي باشا مكانه . فاجتمعت
الاجناد وساروا الى القامقام عيسى بك يطلبون الاعطاءات التي تفرق عند تولية
كل وال جديد فانهم عيسى بك قائلاً « أتى كل ثلاثة اشهر تجددون هذه
الطلبات » فأجابوه « وما المانع ؟ ألم يغير مولانا السلطان كل ثلاثة اشهر والياً
علينا . ألا يضر ذلك بمصلحة البلاد واذا أراد ان يولي كل يوم والياً فمن أين يأخذ
يوم نطلب الاعطاءات التي لنا » . فحاول القامقام اقناعهم فلم ينجح ولم يزددهم ذلك
الا عناداً وتهديداً وصرخوا جميعاً بصوت واحد « نحن لا نرضى حاكماً آخر غير
مصطفى باشا ويرجع هذا الى حيث أتى » ثم قرأوا الفاتحة وأقسموا ان يحافظوا
على ما قالوه وان لا يبحث احد منهم بذلك وبناءً عليه أعيد مصطفى باشا الى منصبه
فلما رأى الحزب العسكري معه كتب الى السلطان يطلب تربيته وأرفق الكتاب
برسائل عديدة ممضاة من علماء القاهرة ومشايخها وقضاها جميعهم يطلبون تربيته .
ثم بلغهم وصول علي باشا الى الاسكندرية فبعثوا اليه وفدأ يبلغونه ان الجند والاهلين
متفقون على رفضه فجمع الوفد اليه ودفع اليهم كتباً كلها مدح واطناب للامراء

بنفسه النفقات التي كانت تدفع من الخزينة واقتصد منها كل ما لم يكن ضرورياً .
ثم نظر الى الضرائب فأبطل طريقة المالك الشراكسة فيها واتباع القوانين التي
صدرت سنة ٩٣٢ هـ في زمن السلطان سليمان القانوني ثم نظم المكوس وعدلها ولم
يكن يكلف نفساً الا وسعها فإذا رأى ارضاً لا تقوى على القيام بما فرض عليها من
المكوس تنازل لها عنه وساعدها في احياء موانئها . ولما برح مصر نال من المكافات
والانعامات ما لم يناله احد من اسلافه في مصر . وتولى بعده محمد باشا الملقب
بالصوفي وكان يحب العلماء ورجال الفضيلة وكان ورعاً حليماً عفيفاً لم يقبل رشوة ولم
يأت ظمناً الا انه كان ملوماً لزيادة ضعفه بما يتعلق بمحبوبه يوسف الذي كثيراً ما
تعدى حدوده



ش ١٣ : سبيل السلطان احمد بالاستانة

وفي سنة ١٠٢٢ هـ ارسل الصدر الاعظم عشرة آلاف جندي الى اليمن لاختاد
ماكان نارا من الشغب هناك وارسلت الفرقة المذكورة عن طريق مصر ومعها امر
سام الى الباشا بدفع النقود اللازمة لها وتشجيع الحملة الى اليمن . فلما وصلت الجيوش
الى مصر وعلموا بما ورد من الاوامر بشأنهم ادعوا انهم جاؤا ليقوموا في مصر ولم
يذعنوا لاوامر الباشا بالسفر فاتخذوا لهم منازل في مخازن باب النصر وطرردوا
بعض اصحابها منها فاجتهد الباشا أن يحملهم على التسليم بالاوامر الواردة اليه بشأنهم
فذهب سعيه باطلا وقاموا المتاريس في أبواب الحارة واقفلوا باب النصر ونصبوا

المدافع في برجيه فاضطر الباشا الى محاصرتهم بكل ما لديه من الوجاقات والمدافع فتمكن الامير عابدين بك من الدخول الى حصنهم من باب في المدرسة المدعوة بالجانبلاطية تخاف العصاة وسلموا ففرق فيهم الباشا نحو ثمانين كيساً وسافروا وبعد يسير أقبل محمد باشا الصوفي فاعتزل في قبة العدلية ولم يبرحها الا بعد أن علم بوصول خلفه احمد باشا دفتردار مصر سابقاً الى الاسكندرية ثم جاء القاهرة ودخلها بموكب حافل . وبينما هو بموكبه في المدينة رماه بعض الناس بحجر من سطح بعض البيوت فكسر الهلال الذي كان فوق عمامته ولم يؤذه فأمسك الفاعل فاعترف بذنبه فقتل في ذلك المكان

وفي محرم سنة ١٠٢٥ هـ ورد الى الباشا المذکور امر من الاستانة أن يرسل الفأ من جنود مصر لتنضم الى الجيش العثماني الذاهب لمحاربة الفرس . فأرسل تحت قيادة صالح بك أمير الحج فساروا على أتم نظام ومروا بالمديريات ولم يشعر الاهالي بمرورهم لما كان لهذا الباشا من النفوذ وما أقامه في مصر من النظام مع اعطائه الجيوش حقهم من المرتبات . ولم يكن يتيسر قبل ذلك مرور مائة رجل بمقاطعة واحدة ما لم ينهبوها . فالتقت هذه الفرقة بالجيش العثماني في الحانقاه وانضمت اليه ولما ودع الباشا عساكره فرق فيهم المال فأصاب الواحد منهم ٢٠ ديناراً على الأقل

وكانت مدة حكم احمد باشا سنتين وعشرة أشهر واثني عشر يوماً ولم يقتل في أثناءها أكثر من عشرة أشخاص ارتكبوا أموراً استوجبوا من اجلها القتل ولم يكن يحكم على أحد الا بعد البحث الدقيق واستماع تقارير الدعوى من الطرفين

سلطنة مصطفى بن محمد ثم عثمان بن احمد ثم مصطفى بن محمد ثانية

من سنة ١٠٢٦ - ١٠٣٢ هـ او من ١٦١٧ - ١٦٢٣ م

وفي يوم الاربعاء ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ هـ توفي السلطان احمد الاول وبويع أخوه السلطان مصطفى الاول ويوم مبايعته استبدل احمد باشا بمصطفى باشا لفغلي . لكن السلطان مصطفى لم يمكث على عرش السلطنة الا ثلاثة أشهر وثمانية أيام . وفي يوم الاربعاء ٣ ربيع أول سنة ١٠٢٧ هـ خلفه ابن اخيه ابو النصر عثمان . أما الوزير مصطفى باشا فلم يبق على مصر بعد خلع السلطان الذي ولاه الا بضعة أشهر لانه سهل النفوذ لذويه في الاحكام فنشأت نورة عسكرية في ٧ شوال سنة

والجيوش فعاد الوفد وقرأ تلك الكتب على الجند فلم يكن جوابهم الا اعادة الوفد ليعيدوا مطالبهم الاولى . فلما رأى اصرارهم استشاط غضباً وامر فقبض على ذلك الوفد وقيدهم الى قلعة الاسكندرية مغلولين وزجوا في سجنها فتأمروا مع جند الاسكندرية وكانوا من حزبهم فخلوا وثاقهم وهجموا جميعاً على علي باشا وقوضوا خيمته واجبروه على الخروج من الاسكندرية حالاً فانزلوه في قارب مخصوص واخرجوه من الميناء وكانت الريح ضده فاعادته ثانية فاطلق عليه الامير مصطفى من قلعة المنارة عدة طلقات ثقت سفينته ثقباً لم تفرقها لكنها اخرجتها من الميناء ولقب الامير مصطفى من ذلك الحين بالطبيجي

وفي ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٣ هـ جاء القاهرة كتاب بحمله حمام الزاجل - وهو برید تلك الايام - خواه قرب وصول مندوب عثماني ومعه الاوامر السلطانية . وبعد أيام وصل ذلك المندوب ودخل القاهرة وجمع السناجق والامراء وكبار الموظفين في الديوان والبس مصطفى باشا الخلعة المرسلة اليه من السلطان . ثم تلا عليهم الفرمان بتثنيته على مصر . وفي السنة التالية زاد النيل زيادة فوق العادة فبلغ ٢٤ ذراعاً تخاف الناس ان لا ينحسر الماء عن اراضيهم في زمن يمكنهم فيه زراعتها . لكنه أخذ في الهبوط بسرعة فانكشفت الارض وزاد خصبها

الوباء ويرام باشا

ولم تكد مصر تنجو من الجوع حتى دامها ما هو أصعب مراساً منه - نفى الوباء - فانه ظهر فيها باوائل ربيع أول سنة ١٠٣٥ هـ وأخذ ينتشر في جميع انحاءها بسرعة . وفي شعبان من تلك السنة أخذ بالتناقص ولم ينقص الا في اوائل رمضان . قال بعضهم ان الذين ماتوا بسبب هذا الوباء ثلاثمائة الف نفس . فتذرع الباشا بهذه الضربات لاختلاس اموال الناس فجعل نفسه وريثاً لكل من مات بالوباء من الاغنياء فاستولى على تركاتهم فتظلم الورثاء الى الاستانة . ولا يخفى ان هذا الباشا لم يقول مصر الارغم ارادة الباب العالي فاغتم هذه الفرصة فعزله وولى بيرام باشا نجاء وحاكم مصطفى باشا وحكم عليه بدفع الاموال التي اختلسها فباع كل ماله من المتاع والمقتنيات ودفع ما عليه . ولما عاد الى الاستانة (سنة ١٠٣٧ هـ) حكم عليه بالاعدام

ولا يخفى ان محاولة الجيوش والامراء عزل وتولية باشوات مصر بمجرد

ارادتهم مخالف للنظام ومغاير لما وضعه السلطان سليم الفاتح لكل فئة من فئات مصر الحاكمة من الحدود . فكانت موافقة الباب العالي على مطالب الامراء خرقاً للحدود السابقة . وعلى ما تقدم حصل بعض التعديل في القواعد الاساسية التي سنّها السلطان سليم الاول منذ قرن . وكان يرّام باشا محباً للعلم والعلماء لكنه كان اكثر تحبباً لجمع المال واقامة المشاريع المفيدة وتنشيط التجارة على انواعها فاكثر من الضرائب حتى على الصابون وكان حازماً لم يترك للجند فرصة للتمرد فهذأت مصر في ايامه

محمد باشا وموسى باشا

ثم استدعي الى الاستانة وعين وزيراً في ديوانها وهذه هي المرة الثالثة لتعيينه في ذلك المنصب . فتولى بعده الوزير محمد باشا فساس الامور بحكمة ودراية وكان محباً للعزلة فلم يخرج بموكبه في أثناء حكمه التي هي نحو سنتين الا ست مرات . واتصل به ما اصاب اليمن من الشعب الناتج عن سوء السياسة مع القبائل البدوية فعرض على السلطان اخضاعها وتعهد بارسال فرقة من رجاله بقيادة قنسو بك امير الحج لهذه الغاية . فاجابه السلطان الى ما طلب وولى قنسو بك على اليمن مع رتبة باشا وجعله بكريبي (امير الامراء) على الجيش . فانشأ قنسو جيشاً من ثلاثين الف مقاتل وقبض مبلغاً كبيراً ليدفع منه نفقات الحملة وبمد ان قبضه توقف عن السفر وترك جيشه بمصر يسلمون وينهبون ويقتلون الاهلين ويتعرضون للمسافرين . ولحسن الحظ كان بين تلك الجيوش الف رجل من الرومي جاؤا للاشتراك في تلك الحملة تحت قيادة الامير جعفر آغا فاحدوا تلك الثورة والزموا قنسو بك ان يسير بهم الى اليمن في محرم سنة ١٠٣٩ هـ فسار وحارب وفاز . وبعد سبعة اشهر من سفر تلك الحملة (في ١٩ شعبان) طاف على مكة سيل من الماء أغرق القسم الاعظم من ارضها حتى السكبة فهدم معظم بنائها ولم يبق من جدرانها الا الابن . فاقبل ذلك بوالي مصر فواصله للسلطان مراد الرابع فانفذ السلطان الى محمد باشا يعهد اليه ترميمها ففعل . فبلغت جميع النفقات نحو مئة الف قرش

وفي سنة ١٠٤٠ هـ كان ارتفاع النيل قليلاً فجاء شهر ثوت ولم يبلغ ١٦ ذراعاً ومع ذلك فتح الخليج وسيقت المياه قليلة الى الارضين ولكن البلاد امنت من الجوع بتدبير محمد باشا . وفي هذه السنة استدعي محمد باشا الى الاستانة وقلده

السلطان منصب الوزارة في الديوان الشاهاني مكافأة لحسن سياسته ودرايته . وتولى مكانه في مصر موسى باشا . وكان للاهلين في بادىء الرأي ثقة فيه وكانوا يحبونه ويحجون قدره فخرجوا للافاقة في شبرا لكنه لم يكد يمكن قدمه حتى استسلم لهواه . فاخذ في الاختلاس والاستبداد بانفس العباد قامر بقتل اكبر رجال مصر بغير وجه حق وجعل يراقب سير اغنيائها ويترصدهم خطواتهم لعله يجد سبيلاً للاستيلاء على ثرواتهم

وفي شعبان من تلك السنة بعث السلطان يطلب اليه ان يعد حملة من جنده لمحاربة الفرس فجمعها تحت قيادة قيطاس بك وضرب على البلاد ضرائب فاحشة باسم اعانة حرية . ولما وصلت تلك المبالغ اليه زعم ان مصر لا يمكنها تجريد مثل هذه الحملة لان مالياتها لا تسمح لها بدفع النفقات اللازمة . فنصح له قيطاس ان يتبع الاستقامة وهي افضل له فذهبت أقواله عبثاً . ثم أوجس موسى باشا خيفة من قيطاس بك لانه اطلع على فظائمه فاستدعاه الى القلعة في عيد الاضحى يوم الاربعاء في ٩ ذي الحجة وامر اربعين من رجاله ان يقتلوه ففعلوا

فلما رأى الاميران كنعان بك وعلي بك ذلك وقع الخوف في قلوبهما وأسرعوا الى الجيوش فاعلموا بما كان من امر قيطاس بك مع موسى باشا فاجتمعت العساكر حالا في الرملة . واما السناجق والامراء والقضاة وكبار الموظفين فاجتمعوا في جامع السلطان حسن وتفاوضوا في الامر فافقروا على عزل موسى باشا وتولية من يقوم مقامه مؤقتاً ريثما يأتي امر الباب العالي بشأنه فخلعوه وأقاموا حسن بك مكانه . فكتب موسى باشا الى السلطان يعلمه بخبر تلك الثورة . وكان رؤساؤها قد رفعوا الى ديوان الاستانة كتابين الواحد بالتركية وقع عليه السناجق والاغوات وكبار ضباط العسكرية والاخر بالعربية من القضاة والمشايع والعلماء يطلبون بصوت واحد خلع موسى باشا فاجابهم السلطان الى طلبهم فولى عليهم خليل باشا

خليل باشا

وفي ربيع أول سنة ١٠٤١ هـ وصل خليل باشا الى مصر واستلم أزمته . وبلغه ان جماعة من اللصوص ناروا تحت رئاسة أحد الشرفاء المدعو ناي ونهبوا مكة فجمع جند القاهرة وأرسلهم بقيادة الامير قاسم بك لاختاد تلك الثورة . فساروا وحاربوا اللصوص وقتلوا زعماءهم . وفي صفر سنة ١٠٤٢ هـ عاد قاسم بك بجيشه الى القاهرة ظافراً . وأقبلت غلة مصر تلك السنة وزاد خصبها وتضاعف ريعها

ونزلت أسعار الخنطة من ثمانية قروش الاروب الى قرشين

وفي سنة ١٠٤٢ هـ استقال خليل باشا من ولاية مصر فخرج منها والناس يثنون عليه ثناءً جميلاً لانه كان عادلاً حليماً . فلم يكن يصدر حكمه الا بعد التروي بما يقوله المتخاصمان . فربما يحكي عنه أنه حيّ اليه يوماً بثلاثة لصوص قبض عليهم وهم متلبسون بالجناية . فأمر أن يحاكموا فقال أحد رجال ديوانه ان هذه الحادثة لا تحتاج الى محاكمة لثبوت الجناية فعلاً فيجب اصدار الحكم رأساً بالاعدام . فلم يكن جواب الباشا الا الامر بهدم بيت ذلك الناصح . فاستقر الرجل ذلك وسأل عن السبب الموجب له فأجابه الباشا قائلاً « كيف بحق لك الاعتراض عليّ اذا أمرت بهدم بيتك المبني من حطام الدنيا ولا بحق لذلك الباني العظيم معارضتنا اذا هدمنا بنيته بغير وجه شرعي » ثم أبطل الامر بالهدم وأطلق اللصوص . قال ابن أبي السرور ناقل هذه الحكاية ان اللصوص قتلوا بعد تلك الحادثة احتراماً للباشا

وبعد استقالة خليل باشا من مصر عين على الرومي وتولى مصر الوزير احمد باشا الملقب بالكورجي وكان قبلاً امير ياخور . وفي صفر سنة ١٠٤٣ هـ وردت له الاوامر الشاهانية أن يبعث الفين من عساكر مصر الى سوريا مدداً للحملة العثمانية على دروز لبنان مع خمسة آلاف قنطار من البقسماط وأربعة آلاف قنطار من البارود . ثم جاءت اوامر أخرى بطلب التي رجل آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود لمحاربة الفرس . فرأى احمد باشا أن مصر لا تقوم بهذه الطلبات فاعتذر الى السلطان فبعث اليه ١٢ الف قنطار من النحاس ليسبكها نقوداً على أن يبعث عوضاً عنها الى الاستانة ثلاثمائة الف زر محبوب

النقود بمصر

وللنقود في مصر تاريخ لا بأس من الاشارة اليه — كانت المعاملة بمصر عند الفتح الاسلامي بالدرهم وهو وزن درهم من الفضة والدينار وهو مثقال من الذهب وكان الدينار يبدل بعشرة دراهم . ثم تكاثرت الفضة فصار يساوي ١٢ درهماً في أيام بني أمية و ١٥ درهماً في أوائل بني العباس ثم زادت قيمته الى ٢٠ درهماً أو ٢٥ أو ٣٠ باختلاف الاحوال . فلما كانت الحروب الصليبية واختلط الافرنج بالمسلمين دخل البلاد الاسلامية كثير من النقود الافرنجية وحدثت نقود ذهبية جديدة كالبندقي والمجر والبيزنطي وزر محبوب (وهو الدينار) والجنيه العثماني والافرنجي والمصري وغيرها وكلها من الذهب . أما النقود الفضية فأبدلت دراهمها بالانصاف وهي

البارات وكانت المبيعات الصغرى تقدر بالانصاف والكبرى بالبندقي أو الزر محبوب أو غيرهما من النقود الذهبية

فأخذ احمد باشا في سكب النحاس واعد لذلك عمالاً ومعامل . ثم رأى بعد حين ان جميع هذه الاجراءات ذاهبة عبثاً لان الفعلة ملوا العمل ومات اكثرهم من الحر والجهد فجمع اليه ذوي شوره من الامراء وقضاة الاقسام والقرى واستشارهم . وكان من رأيه ان يدفع مطالب السلاطين من ماله الخاص ثم يجعل النحاس سبائك صغيرة لتباع في بلاد السودان بين تكرور وبلاد الزنج . فارتأى احد القضاة رأياً آخر وهو أن يجبر أهالي القاهرة على استلام هذا النحاس ودفع المبالغ المطلوبة . وأن يفرق النحاس عليهم مقادير متناسبة لما يدفعونه فوافق الجميع على ذلك وأخذوا في تنفيذه في ١٦ ذي الحجة ١٠٤٣ هـ وتمموا في آخر شعبان من السنة التالية وكان ذلك ثقباً عظيماً على كاهل المصريين لانه لم ينج من هذه الضريبة غني ولا فقير فقلت النقود وغلت الحبوب وسار الماكولات غلاء فاحشاً وزاد في الطنبور نفمة أن النيل في السنة التالية لم يكن وقاؤه حسناً لكن الناس استقلوا الارض غلة متوسطة

مظالم وتمديت

وبعد يسير دعي احمد باشا الى الاستانة فصار ولم يدفع الاموال التي جمعت للخزينة فرفع المصريون شكواهم بشأن ذلك فلما وصل الاستانة حكم عليه بالاعدام . وتولى مكانه الوزير حسين باشا فجاء مصر في عصابة من الدروز التقطهم من كل ناد وكانوا من قاطعي السبل فساموا المصريين أنواع العذاب نهياً وقتلاً فاضطربت الاحوال وأقفلت الحوانيت ووقفت حركة الاعمال . وهذا اصل استهجان المصريين لكلمة « درزي » على ما يظن

وأبطل حسين باشا حقوق الوراثة فاذا مات أحد الناس استولى هو على تركته وأحرم منها ورثته الايتام او الارامل او الشكلى واذا اراد احد الانتقام من عدوه يكفيه أن يشي به الى حسين باشا بأنه غني او ابن غني فيزجه الباشا في السجن ولا يخرج منه الا بالبذل الكثير . ولم يكن يمر يوم لا يطوف فيه حسين باشا المدينة في موكبه ولا تغيب الشمس قبل ان يقتل رجلاً او رجلين او اكثر . ويخطر له احياناً أن يقتل كل من لاقاه في طريقه انساناً كان او حيواناً . وقد حسب عدد الذين ذهبوا فريسة عنو هذا الغاشم في مدة حكمه وهي سنة و ١١ شهراً فبلغوا

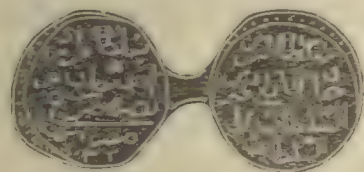
نحواً من الف ومائتي نفس غير الذين كان يقتلهم بيده . وكان له هبة في قلوب رجاله فأراد يوماً أن لا يشاركوه بالقتل والنهب فخطر عليهم ذلك فلم يعودوا يحسرون على الخالفة ولم يسمع بشيء من تعدياتهم من ذلك الحين . ثم أقيل وخلفه الوزير محمد باشا بن أحمد باشا وابن ابنة السلطان سليم الثاني . وفي شوال من سنة ١٠٤٧ هـ وردت إليه الاوامر ان يرسل الف وخمسمائة مقاتل لمجدة للحملة العثمانية الى بغداد فأرسل تلك الفرقة بقيادة امير الحج قنسو بك في محرم سنة ١٠٤٨ هـ فسارت ولم ترجع الى مصر الا بعد الاستيلاء على تلك المدينة في صفر سنة ١٠٤٩ هـ

واتبع هذا الباشا خطوات سلفه بالاختلاس والنهب فجمع ثروة عظيمة من تركات الامراء والعلماء فقام عليه الورثة وبعد الجهد تمكنوا من تحصيل نصف الاموال وازداد ظلماً وعتواً حتى منع الصدقات التي كانت تدفع الى الارامل والايام واخذها لنفسه فكثرت التظلمات وتعددت العائلات المعسرة . وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هـ توفي السلطان

مراد الرابع

وترى في شكل ١٤ صورة النقود الذهبية للسلطان مراد الرابع ضربت في القاهرة سنة

١٠٣٢ هـ وهي سنة توليته



ش ١٤ : نقود السلطان مراد الرابع بن أحمد

سلطنة ابراهيم بن أحمد

من سنة ١٠٤٩ — ١٠٥٨ هـ او من ١٦٤٠ — ١٦٤٨ م

فظن المصريون ان في تغيير السلطان منجاة لهم مما كانوا يكابدونه . فبويع اخوه السلطان ابراهيم بن أحمد وأمر حالاً باستبدال محمد باشا واحرمه من العطية التي كانت تعطى لحاكم مصر عند ما يستقبل من منصبه . لكنه امر بعد ذلك بابقائه فعاد الى اعماله وازداد ظلماً وعسفاً ففتك بالناس فتكا ذريعاً لم يبق ولم يذر . ثم استبدل محمد باشا بمصطفى باشا الملقب بالبستانجي^(١) وكان ابي النفس على نوع ما الا ان كاتبه أحمد أفندي كان عانياً غشوماً وكانت ازمة الاحكام بيده فاستبد

(١) هو لقب فرقة من الجنود الثمانية بومثد رئيسها يعرف بالبستانجي باثي وهو من أعظم وزراء الدولة

بها فسكره المصريون الحياة من اجله واتفق في ايامه تقصر النيل فازدادت الاثقال بفلاء الحبوب . ولم يكن الباشا يتعرض للاحكام مطلقاً فكثرت السرقات حتى لم ينج حي من احياء القاهرة من النهب واضطر الناس الى مهاجرة بيوتهم . وكان رئيس الضابطة اذا جئ اليه ببعض الاصوص لا تغيب عليهم الشمس في السجن . ومثل ذلك كان يفعل الكشاف «حكام الاقاليم» فتوازت التشكيات الى الباشا فاضطر الى عزل رئيس الضابطة وتولية كنعان بك مكانه فاهتم هذا بالقبض على الاصوص فسجن عدداً كبيراً منهم

وفي شوال سنة ١٠٥١ هـ ثارت الجهادية وتمرد الجاويشيون على رئيسهم الامير علي لانه لا يفرق الاعطيات الا على كتبه فلم ير الباشا بداً من عزله وتولية عابدين بك في مكانه . فلما رأى سائر الجيش ما كان من فوز الفئة الثائرة ناروا جميعاً وادعوا ان مخازن الحبوب فارغة وطلبوا معاشاتهم المتأخرة منذ سنة . فعين محمد أفندي قاضي العسكر لتحري دعوائهم فتفقد مخازن الحبوب فرآها حقيقة فارغة وعلم ان ما كان فيها باعه السكاتب واخفى عنه . فاضطر الباشا مراعاة لطلب الجمهور أن يتخلى عن كاتبه مع شدة حبه له فاستنجد الجاويشية فأنجدوه وأعادوه الى مركزه فازداد تمرداً وبالغ في الانتقام . ثم استقال مصطفى باشا وتولى الوزير مقصود باشا وكان والياً على ديار بكر قديماً . فلما استلم مقاليد الاحكام بمصر بحث عن تصرفات سلفه فاطلع على اعماله فقبض على كاتبه والكخيا وجلدهما وأجبرهما على ارجاع مائتي كيس من النقود الى الخزينة . اما مصطفى باشا فأرسل الى الاستانة وهناك اخذ منه مائتا كيس سلمت للخزينة الشاهانية وأصبح في جملة الوزراء السبعة العظام

الوباء

وفي ايام مقصود باشا قاست مصر امر العذاب من وباء وفد عليها كان أصعب مراساً من الوباء الذي وفد في ايام علي باشا وجمفر باشا لانه كان عاماً لم ينج من اعابته الشيوخ ولا الشبان وقد أصاب من الشيوخ واحداً في الثمانية . ظهر هذا الوباء اولاً في بولاق باوائل شعبان سنة ١٠٥٢ هـ وبعد ذلك بشهرين ظهر في القاهرة . وما زال على معظمه من اول ذي القعدة من تلك السنة الى غاية صفر من سنة ١٠٥٣ هـ ثم أخذ بالتناقص شيئاً فشيئاً ولم ينقض حتى انقضى الشهر الثاني . ولم يكن يسمع الا بالوفيات المتتابعة في كل ساعة . وكانت الجثث تنقل

بالعشرات دفعة واحدة فيمصر في الشارع الواحد أحياناً ثلاثون أو أربعون جنازة . وقد روى ابن أبي السرور وهو من المؤرخين المعاصرين ان جملة من صلى عليهم من المتوفين في الجوامع الخمسة الرئيسية في القاهرة في أثناء ثلاثة اشهر القان وتسعاية وستون . وصاروا في آخر الامر يدفنون موتاهم بلا صلاة وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم . أما خارج القاهرة فلم يكن الوباء أقل فتكا ويقال ان ٢٣٠ قرية أصبحت خراباً لاصابة سكانها جميعاً بذلك الداء

مقصود باشا

فلما رأى مقصود باشا ما ألم بمصر من الدمار سعى في اصلاح الاحوال جهده فاستعمل الرفق والقى الضرائب التي وضعها أسلافه بغير الحق . وجعل الوراثة الى الاقرباء الشرعيين مع دفع شيء من التركات الى الحكومة ونجى التعديت تحريماً شديداً وشدد في القبض على اللصوص فقبض على كثيرين منهم فقتل بعضاً وسجن بعضاً وقاص آخرين حسب ذنوبهم مع الصرامة فاستكنت الناس وطابت قلوبهم . وبينما كان هذا الباشا ساعياً في ما تقدم ظهرت في الاسكندرية في ٢٠ ذي القعدة من تلك السنة ثورة كدورت أعماله . وذلك ان نحواً من ستمائة من المسيحيين كانوا تحت طائلة القصاص مغلولين في سجون الاسكندرية ففي اليوم المذكور فتقوا السجون والمسلمون في الجوامع يصلون وطفقوا ينهبون الحوانيت والمحازن والبيوت ولم يبقوا ولم يذروا ولما ملأوا جعبة مطامعهم نزلوا الى مركب كن بانتظارهم في البحر وأقلعوا يطلبون الفرار

ولم يكن ذلك كل ما هدد مقصود باشا وحال دون مشاريعه بل هناك ما هو أدهى وأمر . وذلك ان جماعة السناجق تأمروا على عزله في يوم الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٥٤ هـ باجتماع عقوده في بيت الامير رضوان بك الملقب بابي الشوارب . وسبب ذلك ان مقصود باشا كان قد طلب اليهم حباً بايقاء رواتب الجيش عن شهر رمضان ان يدفعوا الثلث الاول من المال الذي يطلب منهم للخرينة عن الاقطاعات العسكرية التي في أيديهم . فرفضوا بالاجماع وطلبوا عزل بعض الموظفين الذين يعدونهم من أنصار الباشا . فسلم لهم الباشا بما أرادوا فلم يقنعوا بذلك فكتبوا الى الاستانة يشكون من سوء تصرفه ووافقهم كثيرون من الاعيان فكتب اليه الباب العالي رأساً ما مفاده « ان الحضرة الشاهانية لم تعلم أسباب الثورة الجهادية التي انتشبت في مصر وتتعجب كيف ان الباشا لم يبلغ الباب العالي خبرها » فاجاب

الباشا انه لم يحصل لديه ما يدعى ثورة وانما هناك بعض الاختلافات التي يرجو اصلاحها بالتي هي أحسن ولذلك لم يكن ثم حاجة لبلاغها . فطلب اليه الباب العالي أن يتحرى ويعاقب المعتدين ويصرف الامر بما يترأى له . ومع كل ذلك اضطر الى الاذعان لكنه أراد الفتك بالامير علي بك والامير مامي بك والدفتدار شعبان بك لعلمه انهم زعماء تلك الثورة قاعد لهم كميناً ليقتلوه في الديوان وعين لذلك يوم الاثنين في ٢٣ ذي الحجة سنة ١٠٥٤ هـ لكن الدفتدار نزل الى الديوان وحده في ذلك اليوم فشاور الباشا عقله بين أن يقتك به وحده أو يخفي ما في ضميره ربما يفتك بالثلاثة معاً فآثر أخيراً على ارجاء ذلك العمل الى يوم آخر

ايوب باشا وغيره

وفي اليوم التالي جاء الفرمان بعزله وتولية الدفتدار شعبان بك قائماً بتمهاتى الاحكام وقتياً فشق ذلك على الباشا لكنه أذن وسلم مقاليد الاحكام لشعبان بك فكتب السناجق الى الباب العالي يطلبونه على حقيقة ما حصل في أيام الباشا السابق ويطلبون اليه الامراع في ارسال من يخلفه فانفذ اليهم ايوب باشا . وكان قبل ذلك الحين من رجال القصر الشاهاني . فلما عهدت اليه هذه الولاية تردد في قبولها لما رأى من الاخطار المحذقة بها لكنه لم يردداً من قبولها . وقد كان رجلاً حازماً مستقيماً استعان برجاله على ادارة الاعمال فلم غص سنتان على حكمه حتى استتب النظام وسادت الراحة . ثم استقال من ذلك المنصب بعد أن صار وزيراً وعكف على العبادة واعزل السياسة وزهد زهد الدراويش فتنازل عن أملاكه في الاستانة للدائرة الخاصة الهايونية وانفرد في أحد المعابد في الرومي . فولى مكانه الوزير محمد باشا حيدر سنتين ونصف ولم يحسن الادارة فارتبكت الاحوال

وفي ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ هـ ثارت فرقة من الانكشارية في مصر القديمة فهزموه والى الشرطة فازدادوا تمرداً فساروا الى الباشا وطلبوا قتل ذلك الوالي ولم يكن ذنبه الا انه قام بما عليه فوافقهم الباشا على ما أرادوا . اما الوالي فكان من وجاق الجاويشية . فلما علم هؤلاء بعزم الباشا قاموا يشكون من سوء تصرفه بصوت واحد يخاف أن تبلغ هذه الشكايات مسامع الباب العالي فتعود العقوبة وبالأعلى عليه فاجتمع بقنوسو بك واستشاره بما يفعل وكان هذا لا يشير الا بما يعود عليه بالمنفعة الشخصية فاشار على الباشا أن يرفع الى الاستانة تقريراً سرياً يشرح فيه ما حصل من القلاقل وينسبها جميعها الى الاميرين رضوان بك وعلي بك

وينسب اليها ايضاً اختلاس الخزينة المصرية وانهما سلباه منصب امير الحج وحكومة جرجا كل ذلك لكي يرجع قنسو بك ومامي بك الى منصبيهما رضوان بك وعلي بك

فباشر الباشا كتابة ذلك التقرير وطلب الى بعض الاعيان أن يوقعوا عليه فبلغ ذلك مسامع رضوان بك فاسرع الى كتابة تقرير مناقض لتقرير الباشا وبعث به الى الاستانة فوصل قبل تقرير الباشا وفيه ما فيه من التشكيكات ضد قنسو بك ومامي بك فورد الجواب من الاستانة مفوضاً الى رضوان بك وعلي بك أمر النظر في تلك القضية . وفي ٢١ جمادى الاول سنة ١٠٥٧ هـ ورد فرمان بذلك الى الباشا وفي ٢٧ منه استدعاها الباشا الى القلعة فاستدعيا قنسو بك ومامي بك وأمرأ بقتلها وقتل امرأ آخرين كانوا على دعوتهم . ولم تسكد تنخلاص مصر من دسائس هؤلاء حتى ظهرت دسائس مصطفى كخيا الملقب بالششني لان لم يسم سنجقاً عوضاً من قنسو بك . وفي ٨ رمضان من تلك السنة وردت الاوامر الى علي بك أن يترك القاهرة ويتوجه حالا الى حكومته في جرجا . وبعد ثلاثة ايام استدعى الباشا رضوان بك الى وليمة في القلعة تخاف من دسيسته فابى الحضور فغضب عليه الباشا وجرده من اماره الحج فخرج رضوان بك من القاهرة في مائتين من رجاله وفيهم عدة من الامراء والكشاف وانحد مع علي بك فبعث الباشا على أثرها الفين من جنوده ونحو خمسمائة من الانكشارية فاجتمع الجند في الرميطة واقروا على اغفال اوامر الباشا . ثم وردت الاوامر من الاستانة بتثبيت رضوان بك وعلي بك في منصبيهما . فاضطر الباشا الى استقدام الاميرين فقدم الى القاهرة في ١٩ رمضان بما لهما من الرواتب والحقوق فسمى الى مصالحتهما مع مصطفى كخيا وفي ٦ ذي الحجة من تلك السنة شاع في القاهرة ان الوزير مصطفى باشا سمي على مصر عوضاً من محمد باشا بن حيدر . وفي ٢٦ منه وردت الاوامر قاضية باعادة محمد باشا الى منصبه . وفي ١٧ رجب سنة ١٠٤٨ هـ توفي السلطان ابراهيم وتولى مكانه السلطان محمد الرابع وتري في شكل ١٥ صورة النقود الفضية للسلطان ابراهيم بن احمد ضربت في القاهرة سنة ١٠٤٩ هـ



ش ١٥ : نقود السلطان ابراهيم بن احمد

سلطنة محمد بن ابراهيم

من سنة ١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ او من ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م

وبلغ خبر ذلك التغير الى مصر في اوائل رمضان مع عزل محمد باشا وتولية الوزير احمد باشا فاستلم هذا زمام الاحكام مدة سنتين كلهما اضطراب وقلقل

واول تلك الافلاقل كانت سنة ١٠٦٠ هـ بسبب تقصير النيل فانه لم يرتفع تلك السنة اكثر من ١٦ ذراعاً فلم يرتو من ارض الصعيد الا الثلث أما الوجه البحري فلم يرتو منه شيء تقريباً . فغلت الاسعار حتى خيف من المجاعة

اما الباشا فلم يكن يهمه غير تكثير الضرائب مع انه لم يكن يرسل منها الى الاستانة الا الثلثين وكان لسوء نيته يرسل تلك المبالغ في عهده رضوان بك ليحمل الباب العالي على الشك بامانته فيتغير خاطر السلطان عليه . وكان اناماً لمكيدته يكتب الى الباب العالي على التتابع يشكو من تصرف رضوان بك ويطلب خلعه عن اماره الحج وتقليدها لعلي بك . وكان هذا على ما علمت من الصداقة مع رضوان لكنه لم يكن يعلم بدسائس الباشا . اما الباشا فكان في نيته ان يوقع الضغائن بين الاميرين فيحل عري اتحادهما لكنه لم يتم مقصده حتى أتى الامر العالي بعزله يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ هـ ورضوان بك لم يرجع الى القاهرة بعد . ولم تكن نتيجة مساعي احمد باشا الا زيادة تألف قلبي ذينك الاميرين وكان من كرم أخلاقهما ان كلا منهما كان يتنازل للآخر عن اماره الحج فاعجبت هذه الاربحية المصريين فاحبوها وبالفوا في احترامهما حتى أقاموا لهما دتاء عمومياً في الرميطة . والباشا اذ ذاك محبوس في القلعة ولم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ وافرة . فتولي مكانه الوزير عبد الرحمن باشا وما زال الى اول شوال سنة ١٠٦٢ هـ وقد قاسى ما قاساه سلفه من السجن والاهانة لانه سار على خطواته . فاختر الباب العالي الوزير محمد باشا ليقوم مقامه في ٥ شوال من تلك السنة ولكنه لم يدخل القاهرة الا يوم الثلاثاء في ٨ محرم سنة ١٠٦٣ هـ

وما زالت الولاة تتوالى على مصر ولا شيء من أعمالهم وأحوالهم يستحق الذكر . وفي آخر الامر تحول النفوذ كله من أيديهم الى أيدي البكوات المماليك ومم يعدون مصر وطنهم ويفارون عليها . اما الباشوات اذا اتوا مصر لا يكون

ديدهم الا اكتساب الثروة بآية طريقة كانت اعلم كل منهم انه لا يلبث ان يأتيه الامر بالاعزل وقلما عزل أحدهم ولم يكن السجن مأواه

السلطين سليمان بن ابراهيم واحمد بن ابراهيم

ومصطفى بن محمد

من سنة ١٠٩٩ - ١١١٥ هـ او من ١٦٨٧ - ١٧٠٣ م

قالسلطان محمد الرابع أقيل من السلطنة في ٣ محرم سنة ١٠٩٩ هـ واودع السجن حتى مات (سنة ١١٠٥) وبويع السلطان سليمان الثاني وبعد ٣ سنوات توفي (في ٢٠ رمضان سنة ١١٠٢ هـ) فبويع السلطان احمد خان ويدعى احمد الثاني وبعد ٣ سنوات ونصف توفي (سنة ١١٠٦) فبويع ابن اخيه السلطان مصطفى خان وهو مصطفى الثاني بن السلطان محمد الرابع . وبعد ٩ سنوات تقريباً (في جمادى الاولى سنة ١١١٥ هـ) أقيل وتوفي في السجن (في محرم سنة ١١١٩ هـ)

سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١١١٥ - ١١٤٣ هـ او من ١٧٠٣ - ١٧٣٠ م

وبويع اخوه احمد خان وهو احمد الثالث وكانت مدة حكمه على المملكة العثمانية نحواً من ٣٠ سنة . وفي ايامه حصلت ثورات عديدة انتهت بتحول سلطة الباشوات ونفوذهم الى البكوات المماليك . وكانت قلعة الجبل سجنًا للباشوات الذين كانوا يتولون الاحكام ولا يهمهم الا الكسب الشخصي

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٣ هـ الى ١١١٩ هـ اثنان وعشرون والياً أغضينا عن ذكرهم لعدم أهميتهم . وفي سنة ١١١٩ هـ في ايام السلطان احمد خان تولى مصر حسن باشا وكان على القاهرة قاسم عيواظ بك بوظيفة شيخ بلد ومشيخة البلد منصب كان يتولاه أحد البكوات المماليك كما يتولون ادارة المديرية ويقابل محافظة القاهرة اليوم . ولم يكن المنصب بنفسه مهماً ولكن تراخي الباشوات واستفحال امر المماليك جعل لهذا المنصب أهمية كبرى حتى افضى النفوذ بتوالي الايام الى صاحبه وصار اليه الامر والنهي كما ستره في ما يلي

قاسم بك وذو الفقار بك

وكانت المماليك في مصر على حزبين كبيرين يعرفان بالمماليك القاسمية نسبة الى قاسم بك والفقارية نسبة الى ذي الفقار بك . وكان هذان الحزبان لا ينفكان عن المنافسة يحاول كل منهما اكتساب النفوذ له واذلال الآخر . اما اصل هذين الحزبين ففيه اقوال منها انهما ينسبان الى اخوين هما قاسم بك وذو الفقار ولدي سودون احد امراء المماليك في عهد السلطان سليم الفاتح وان السلطان سليماً هو الذي نشطها ونشط احزابها . وقد ذكر الجبرتي لذلك قصة طويلة لا حاجة بنا الى ذكرها . وبعضهم يقول ان هذين الحزبين ينسبان الى قاسم عيواظ بك الدفتردار وذو الفقار بك الكبير سنة ١٠٥٠ هـ وكان قاسم عيواظ بك رئيس الطائفة القاسمية وذو الفقار بك رئيس الفقارية وكان لكل من هاتين الطائفتين مناقب مختصة بها . فالفقارية كانت توصف بالكثرة والسخاء والقاسمية بالثروة والبخل . وشارة الفقارية علم ايض مزاريقه برمانة والقاسمية علم احمر

وكانت هاتان الفئتان قبل تولي حسن باشا في وفاق تام فلما جاء خشي من اتحادهما فعمد الى الدسائس فألقى بينهما الشقاق فحصلت بين الطائفتين وقائع دامت ثمانين يوماً فكانوا يخرجون من القاهرة الى مكان يعرف بقبة العرب يومياً ويأخذون بالكفاح من شروق الشمس الى غروبها ثم يعودون الى القاهرة فيقضون الليل بسلام في بيوتهم بين نساءهم وأولادهم ثم يعودون في الصباح التالي الى المحاربة . ومن الغريب أن هذه المحاربات لم تؤثر في الراحة العمومية مطلقاً فظلت الاشغال جارية في مجراها والخوانيت والحازن تفتح وتغلق كالعادة

مشيخة اسماعيل بك

وانتهت تلك الوقائع ب وفاة قاسم عيواظ بك فأسف عليه الناس وبكوه بكاهم على حاكم عادل أو أب حنون بار . ولم يبق صديق ولا عدو حتى بكاه لانه كان فضلاً عن حكمته وعدله ودعته شجاعاً بأسلاً أبي النفس . فأقاموا ابنه اسماعيل بك مكانه شيخ بلد وصادق الباشا على ذلك لظنه ان اسماعيل اصغر سنه يكون آلة بيده يدبرها كيف شاء فزاد كدر ذي الفقار بك واشتد حنقه لانه كان ينتظر أن يأول ذلك المنصب اليه . وكان اسماعيل عاقلاً حكماً كوالده عارفاً وجه الرمح والحق فسمى في الوفاق مع طائفة الفقارية فأحدث الطائفتان على الباشا . وكان اسماعيل بك من الجهة الاخرى يظهر الطاعة والرضوخ لاحكام الباشا لانه رئيسه لكنه لم

ينفك ساعياً سرّاً في خلعه فكتب عنه الى الاستانة ففاز بعزله فجاء غيره ثم أبدل
بآخر فأخّر واسماعيل بك في منصبه والرعية بحبونه الى ما يشبه العبادة

ومما يحكى عنه ان احد تجار القاهرة في ايامه واسمه عثمان باع لاحد القبطية
(لقب يعطى للحرس السلطاني) ثلاثمائة قفة بن الى اجل مسمى وكتب عليه بذلك
صكاً. فقبل الاستحقاق جاء من الاستانة اعلان بخيانة القبطية والحكم عليه
بالاعدام حالاً فخفي به الى الباشا فقتله ووضع يده على تركته وفيها البن كما هو.
فعلم عثمان التاجر بذلك فعرض لاسماعيل بك ما كان من امر البن فأجبر الباشا أن
يرجع البن لصاحبه قبل كل شيء ففعل فأصبح عثمان في حال من الامتنان لا يعرف
كيف يبينها. فلاح له ان يهديه عليه مرصعة وبضعة قناطير من السكر النقي فرفض
اسماعيل بك تلك الهدية وخاطب عثمان التاجر قائلاً « اذا كان المال الذي حصلت
عليه بواسطتي حقاً لك فأكون قد فعلت الواجب عليّ والله يكافئني فاذا قبلت
هديتك أظلم نفسي. اما اذا كان هذا المال ليس لك وانما حصلت عليه بالحيلة
فقبولي هديتك بعد مشاركة لك بالخيانة لكنني مع ذلك اقبل السكر الذي حملته
اليّ على ان تقبض ثمنه من وكيلي لاني سأمره ان يدفعه اليك

وبحكي عنه ايضاً انه كان يأدب في ليالي رمضان ما أدبته مجتمع اليها العلماء
والفقهاء والمشايخ وقراء القرآن ولم يكن يؤذن لغير هؤلاء في الحضور فيها. فرأى
ذات ليلة رجلاً بين الحضور عليه ملاح الكآبة واليأس فأوصى بعض الخدم متى
ارفض الاجتماع أن يأثوا به اليه ففعلوا فلما حضر بين يديه أعطاه مصحفاً وأمره
ان يتلو عليه سورة. فتوقف الرجل وجلاً ثم رأى على قدمي البك منصرعاً وقال
« يعيش سيدي البك اني رجل نجار لا اعرف القراءة وانما أتيت الى هذه المادة
متنكراً بثوب الفقهاء لاملأ جوفي من الطعام فاني في حالة من الفاقة شديدة » فأنصفه
ولم يكتف بالاغضاء عن ذنبه لكنه جعله في عداد خدمته وجعل امثله راتباً معيناً
وصار هذا النجار بعد ذلك من اصدق الخدم وأكثرهم غيراً وهمة

وما زال اسماعيل بك شيخاً للبلد ١٦ سنة تقلب في اثنائها على مصر عدة باشوات
كانوا اسما بلا مسمى. وكان لحسن سياسته قد أوقف الفقاريين عن كل حركة
لتظاهره انه على وفاق معهم فلم يجعل لهم فرصة يتحدثون بها عليه. على أنه ارتكب
خطأ واحداً آل الى قتله. وذلك ان احد المماليك الفقارية واسمه ذو الفقار ايضاً
كان له عقار يقوم بنفقات عائلته فاختمه منه احد المماليك القاسمية (من مماليك

اسماعيل بك) فرفع ذو الفقار دعواه الى شيخ البلد (اسماعيل بك) فلم يصغ
لطلبه وقضى بالعقار لمملوكه. فشق ذلك على ذي الفقار فرفع دعواه الى زعيم
الفقارية ويقال له شركس بك. وكان خصماً لاسماعيل بك بالفطرة فسار الى الباشا
وخاطبه بشأن تصرف اسماعيل بك. وكان في قلب الباشا حزازات من الحسد عليه
فوافقه على الايقاع به ثم قال له « ليس لك وسيلة افضل من ان تبعث أحد مماليكك
وتأمره بقتله وانا اجعل له جميع ما يتركه من المال والنساء مكافأة لاتهامه »

فوافقه على رأيه وعين ائتلك الفعلة اول يوم يجتمع فيه الديوان وأمر مملوكه
ذا الفقار أن يستعد لاجرائها فقبل اعتماداً على وعد الباشا. ففي اليوم المعين جاء
ذو الفقار الى الديوان وفيه اسماعيل بك فتقدم اليه وقبل يده قائلاً « أرجو أن
تأمر بارجاع عقاري اليّ » فأجابه اسماعيل بك « سنظر في طلبك هذا » فألح
عليه فأنهره فاستل خنجرأ ماضياً بقر به بطنه فتدفقت امعاؤه ومات لساعته في
وسط الديوان فهجم رجال الباشا وقتلوا كل من كان هناك من رجال اسماعيل ولم
ينج منهم الا سريع العدو. هكذا كانت نهاية حكم اسماعيل بك سنة ١١٣٦ هـ فنقلت
جثته الى بيته ثم دفنت بجانب جثة أبيه بجوار باب اللوق

فتولى مشيخة البلد شركس بك واستولى ذو الفقار على جميع ممتلكات اسماعيل
بك ونسائه حسب وعد الباشا فأصبح رجلاً عظيماً يشار اليه بالبنان وفي هوزته
مئات من المماليك تخافه شركس بك وأخذ يسعى في اذاقته ما أذاقه لاسماعيل بك.
فعلم ذو الفقار بتلك الدسائس فجمع اليه رجاله وفيهم عدة من الرجال العثمانيين
وهجم على شركس بك فخرت واقعة لم يستطع رجال شركس الثبات فيها أكثر
من ربع ساعة فقتل معظمهم وفر الباقيون وزعيمهم معهم يطلبون الصعيد وهو
الملجأ الوحيد للبكوات المغضوب عليهم

ذو الفقار بك

فتولى ذو الفقار مكانه مع لقب بك بعد أن أفر الباشا على ذلك وأصبح
ذو الفقار عدواً لآثرابه البكوات وعلى الخصوص لآبي دفية (سمي بذلك لانه كان
يتشج برداء كبير يقال له دفية) ثم انبى ذو الفقار بك ان ابا دفية ساع في اهلاكه
وحاول ذلك مراراً ولم ينجح. اما شركس بك فجمع دعائه في الصعيد وسار بهم
نحو القاهرة فارسل ذو الفقار بك عثمان كاشف أحد كبار قواده في فرقة من المماليك
لحاربه فتفقهرك شركس ورجاله مراراً حتى لحق بيلاد البربر

فسكر ذو الفقار من خمرة النصر وأخذ في الانتقام من البكوات الذين في القاهرة وقتل منهم من يظن فيه الانهاء الى شركس بك وهم كثيرون فأخذ من بقي حياً منهم مع رئيس الشرطة والاغا رئيس الانكشارية وبعثوا الى شركس بك بما كان من فعلة ذي الفقار وتعاهدوا جميعاً على محاربته وانضم اليهم مصطفى القرد وكان من اعداء ذي الفقار ومعه جماعة من الرجال الاشداء . فقدم شركس بك الى القطر المصري فعلم ذو الفقار بذلك فجمع اليه العلماء والمشايخ وشاورهم في الامر فاجمعوا على عدم مناسبة الهجوم في تلك الحال الا اذا تأكد الفوز فلم يصغ لمشورهم فارسل عثمان بك أحد قواده لمحاربة شركس بك فحصلت بينهما واقعة قتل فيها مصطفى القرد وغرق شركس بك في النيل وهو يحاول الفرار . فبعث عثمان بك برأسيهما الى ذي الفقار . اما هذا فلم يهنأ بذلك النصر لانه قتل بعد قتل عدوه شركس بيومين بمكيدة أعداء له البكوات في القاهرة . وذلك انهم البسوا واحداً منهم دفية وجاؤا به الى بين يدي ذي الفقار وقالوا له « هذا ابو دفية قد جعله الله في ايدينا » وكانوا قد جعلوا تحت دفيته عيارين ناريتين . فلما وقف بين يديه أطلقتهما عليه دفعة واحدة فسقط ذو الفقار مضرباً بدمائه في وسط ديوانه سنة ١١٤٢ هـ فعلم عثمان بك بما أصاب رئيسه فهرع للاخذ بثاره فدخل القاهرة وجعل يفتك بمن يصادفه في طريقه يخافه الجميع

ثم ان محمد بك أحد البكوات الذين كان يترقبهم عثمان بك رأى منصب مشيخة البلد خالياً فطمع فيه فعاهد صديقه صالح كاشف على أن يقتلوا من بقي من زملائه البكوات بمكيدة ينصبها لهم . فأدب محمد بك مادبة فاخرة دعاهم اليها فلبوا دعوته ثم علموا بمكيدته فقاوموه مقاومة شديدة وتمكنوا من قتله . فبئس صالح كاشف من مرآه ففر الى القسطنطينية بعد ان شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق امام جامع الحسين . ثم عقب هذه القلاقل ضربة أشد وطأة نعي الوباء الذي أصاب مصر في تلك السنة ويدعى طاعون الكي فانه انتشر في البلاد انتشاراً سريعاً وفتك بالعباد فتكا ذريعاً . ووافق كل هذه الضربات خلع السلطان احمد الثالث في جمادى الاولى سنة ١١٤٣ هـ



وترى في شكل ١٦ صورة النقود الذهبية للسلطان احمد بن محمد مضروبة في القاهرة بتاريخ

سنة ١١١٥ هـ

ش ١٦ : نقود السلطان احمد بن محمد

سلطنة محمود بن مصطفى

من سنة ١١٤٣ - ١١٦٨ هـ او من سنة ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م

وبعد عزل السلطان احمد بويق ابن أخيه محمود بن مصطفى خان وهو السلطان الرابع والعشرون من بني عثمان ويدعونه محموداً الاول وبقي هذا على كرسي السلطنة خمساً وعشرين سنة . أما الباشوات الذين تولوا مصر في أيامه فلم يكونوا أكثر أهلية من أسلافهم وكانت الاحكام قائمة بمشاخ البلد ولهم الحل والعقد لا يستطيع الباشوات معارضتهم في شيء

مشيخة عثمان بك

فبعد قتل ذي الفقار بك تولى مكانه عثمان بك المتقدم ذكره فرقى كثيرين من مماليكه الى رتبة البكوية ليقوموا مقام الذين هلكوا بالحوادث الاخيرة . وكان عثمان بك عادلاً حازماً ولكنه كان صارماً لا يراعي في تنفيذ العدل جانباً . فعلم مرة أن احد بكواته سعى في اقليمه ظمناً فاستدعاه اليه فتحقق ارتكابه فقطع رأسه . ويحكى عن عثمان بك حوادث كثيرة تشير الى حزمه واستقامته وقسطه لا بأس من ذكر بعضها على سبيل المثال

يحكى أن حماراً من حماري القاهرة أراد ترميم مذود حماره . وهو يفعل ذلك عثر في أحد جدران البيت على وعاء مملوء ذهباً ففرح جداً وأخذ الوعاء وسلمه الى امرأته وأوصاها أن تكتم الامر لئلا ينكشف للحكومة فتأخذ المال منه لان لها وحدها الحق بالاستيلاء على مخزونات الارض . فطلبت المرأة من زوجها ان يبتاع لها حلياً وثياباً فاخرة لتتبع بتلك الهبة فأبى زوجها اجابة طلبها لئلا يقود ذلك الى كشف الحقيقة فاغتاضت وأسمرت لساعتها ووشت به الى عثمان بك فاستدعى الحمار وبعد أن سمع حقيقة الحال صرفه قائلاً « احفظ ما وهبك الله وطلق امرأتك وعش بسلام »

ولما جاء الوباء الى مصر كان عثمان بك في أول حكمه فلما رأى الجوع الذي عقب الوباء فتح مخازنه وخزائنه وفرق الاقوات والاموال في الناس . ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكائد ذوي المطامع وفي مقدمتهم ابراهيم واسماعيل رضوان. الاول نكياً^(١) الانكشارية والآخر نكياً العزب وكان كلاهما من المماليك الواحد من طائفة القزدغلية

(١) ويكتب أيضاً كتبخدا وكان لكل وجق نكياً وفي تهديته ملاحظة شرطة ذلك الوجق وتضايه

والآخر من طائفة الجلفية . وأصل الطائفة الاولى مملوك يقال له القزدغلي كان سروجياً وأصل الطائفة الثانية احمد الجلفي كان في أول امره شيعياً وأغناه الله بطريقة في غاية الغرابة لا بأس من ذكرها وهي :

جاء بعض المماليك الى احدى معاصر الزيت لينتاع مؤونة بيته من الزيت مدة السنة وكان احمد الجلفي شيعياً في تلك المعصرة فابتاع المملوك الزيت واستأجر احمد فحملة وسار معه حتى بلغا بيته فأزل الحمل ووقف ينتظر اجرتة . فجاء المملوك وطلب اليه أن يساعده في اخفاء مبلغ من النقود في أحد جدران البيت وأخ عليه أن يكتم الامر سرّاً وأعطاه بضعة دراهم مكافأة لذلك . فساعده وأخذ الدراهم وسار في سبيله حامداً شاكرّاً . وبعد ثلاثين يوماً اتفق له المرور بالقرب من ذلك البيت فشاهد جمهير مجتمعة . ثم علم أن ذلك المملوك توفي وقد عرضت تركته للبيع . فتقدم احمد وابتاع البيت الذي فيه الخبأة وبعد ارفضاض الجمع استخرج النقود وسار بها الى قريته (جلف) في مصر العليا وامتلك ممتلكات كثيرة ثم اتسعت ثروته وما زال حتى أصبح زعيماً لعصابة كبيرة نسبت اليه

وكان ابراهيم واسماعيل رضوان في بادئ الرأي على تباين كلي بالاديات والماديات : كان ابراهيم في ضيق من المعاش مع اقدام وبسالة ومطامع كبيرة . وكان اسماعيل غنياً بليداً لا يهتم الا التمتع بالمذات والشهوات . فكان ابراهيم في احتياج الى اسماعيل ولذلك كان يتقرب منه . ثم تزوج ابراهيم ابنة محمد البارودي أحد التجار الاغنياء وأخذ معها مالا كثيراً فتمكن بذلك من التقرب الى بيت شيخ البلد والقضاء المفاسد فيه بواسطة بعض المماليك والأتراك وغيرهم من ذوي الرتب كان يستعملهم آلة لتنفيذ ما ربه . ثم تأتى له الارتقاء الى رتبة البكوية مع صديقه اسماعيل رضوان فصار اسمه رضوان بك واتحد الاثنان على السراء والضراء ووحدتا ممتلكاتهما واجتزعا بالسواء من محصولاتها

فأوجس عثمان بك خيفة من سرعة نمو ثروتهما وملافاة لما كان يخشى حدوثه من طموح انظارهما ضم اليه ثلاثة أحزاب احدها حزب ابراهيم بك القنطامش وفيه ثلاثة بكوات . والثاني حزب علي بك الدمياطي وفيه يكان . والثالث حزب علي نكيا الطويل وشاورهم في الامر فأقروا على قتل ابراهيم بك وكان اذ ذاك نكيا الانكشارية ورضوان بك فوافقوه على ما أراد . وكان وكيه احمد السكري من ممالك ابراهيم بك فلم يمكنه كتمان ذلك عنه فجاء اليه وأخبره بجميع ما كان من التواطؤ على قتله

وقتل رفيقه . فسار للحال الى رضوان بك وأخبره وتشاورا بشأن ذلك فقررا نصب أحبولة يقتلان بها عثمان بك فبعثا اليه رجالا يتصدونه في طريقه الى القلعة فمروا فوقها عليه فقر بجواده حتى دخل القلعة ولم يظفروا به . فلاقاه وكيه وقد اضمر له الشر فسأله عما ألم به فأخبره بما كان فكلمه بلسان الثعلب ناححاً له أن يبرح المدينة حالا لان الناس قد قاموا يطلبون قتله وما زال حتى أقنعه فقر الى سوريا وسار هو معه . حتى اذا دنوا من عزة تحي احمد عن الطريق واختبأ في قرية يقال لها الاشرفية بحجة استطلاع الاحوال لحماية عثمان بك فتربص هناك مدة ثم عاد الى القاهرة بمن معه من المماليك وسار الى ابراهيم بك وأعلمه بما فعله فكافأه على تلك الخيانة برتبة البكوية . وهم الاهلون ببنت عثمان بك فأحرقوه واقتسموا تركته

اما هو فوصل سوريا وحده وسار منها الى الاسكندرية فولي بروضة ولبث فيها حتى وفاه الله . وجميع هذه الحوادث تواتت على مصر في أثناء سنة ١١٥٦ هـ

ابراهيم نكيا ورضوان بك

فلما خرج عثمان بك من مصر صفا الجوا لا ابراهيم نكيا ورضوان بك فعملا على ابادته الاحزاب التي تأمرت عليهما فاخذ رضوان بك على نفسه قتل علي نكيا الطويل فأمر احد مماليكه ان يقتله بالرصاص في ولية حافلة فلي المملوك الامر ولكنه اخطأ الرمي وعوضاً من أن يصيب علياً أصاب مملوكه الذي كان بجانبه فقبض عليه وقتل للحال . اما ابراهيم نكيا فتكفل باهلاك من بقي من الاحزاب وكان على ولاية مصر اذ ذاك كيور احمد باشا فطلب اليه ابراهيم أن يوافق على ابادته البكوات فوافقوه وربما فعل ذلك خوفاً منه أو لانه يعود عليه بالنفع الشخصي واستعانوا بالنقود فيذلوا فسهلت مشروعههم حتى قتلوا علي بك الدمياطي بيد وكيه سليمان في وسط الديوان وقد وعدهم هذا بتسليم رؤوس البكوات الاخرين من احزابه . فأمر ابراهيم نكيا ورضوان بك ان تقفل جميع منافذ القلعة على من فيها من البكوات المنوي قتلهم وجعلوا على بابي الانكشارية والعزب جنداً . وحافظ سليمان على وعده فبوشرت المذبحة وأول من قتل فيها خليل بك من دعاة الدمياطي ومحمد بك من دعاة قطامش وكثيرون غيرهم . وحاول علي بك وعمر بك البلاط الفرار فقبضهما الباشا بنفسه ثم لاقاهما ابراهيم ورضوان وقتلاهما عند باب القلعة ولم يدفن من القتلى الا محمد بك و خليل بك

ولم يبق من مناظري ابراهيم نكيا ورضوان بك الا ابراهيم قطامش وعلي نكيا الطويل . فالاول مات من الحزن بعد مدة قصيرة والثاني هاجر من تلقاء نفسه تاركاً

الدار ومن بناها . فصفا الجو لبراهيم نكيا قتولى مشيخة البلد وسمى رضوان بك اميراً للحج . ثم جعلاً يتبادلان هذين المنصبين كل سنة وعاد كل منهما الى ميله الطبيعي ابراهيم الى مطامعه ورضوان الى ملاهيه . فأخذ ابراهيم نكيا يفسد الاحكام ويستخدمها لاسترجاع ما بذله للحصول عليها فلم يغادر وسيلة الا استخدامها في سبيل مطامعه من قتل وقتك فابتدأ بسليمان قاتل علي بك الدمياعلي فحجر عليه في القلعة ولم يفرج عنه حتى استرجع منه ما كان أعطاه من النقود . ثم باغت من بقي من الاغنياء في القاهرة ووضع يده على ممتلكاتهم بعد أن قتل بعضاً منهم وبقي البعض الآخر . فاستولى في يوم واحد على أموال ثمانين بيتاً من بيوت القاهرة ووضع يده على محصولات البلاد والكمارك والقرى والمحازن حتى الحوانيت الصغيرة فلم يبق ولم يذر وكان كيور احمد باشا قد استدعي الى الاستانة وولي حكومة قبرص فأقيم مقامه باشا آخر سنة ١١٥٦ هـ فعامله ابراهيم نكيا بالاحتقار فخذ عليه . ثم اتفق غيابه ابراهيم في قافلة الحج الى مكة فاعتنم الباشا غيابه وتواطأ مع حسين بك الخشاب على مكيدة يبدانها لبراهيم فاتفقا على أن يقوم الخشاب بقتل ابراهيم ورفيقه رضوان وأن يكافئه الباشا على ذلك بمشيخة البلد . فلما رجع ابراهيم سعى الخشاب في انجاز وعده ففاز بالقبض على الاثنين فسجنهما في القلعة فولاه الباشا مشيخة البلد . لكنه لم يهنأ بها لان دعاة ابراهيم نكيا اتحدوا وهجموا على حسين بك والباشا وأخرجوا المسجونين ففر الخشاب الى مصر العليا واختبأ في ابريم من بلاد التوبة . أما الباشا فاستدعي الى الاستانة فعاقبه السلطان عقاباً انتهى بالموت

نشأة علي بك الكبير

وكان في حوزة ابراهيم نكيا أكثر من ألفي مملوك في جملتهم علي الذي سيلتبط بعلي بك الكبير ويكون له شأن عظيم بهذا التاريخ وسترى في سيرته انه من أفراد الدهر حزمًا وبطشًا وحكمة . وكان علي سلحداراً بين ممالك ابراهيم نكيا . وكان ابراهيم يحبه كثيراً ويحل مواهبه حتى جعله ناقل سيفه . ومما زاده تعلقاً به انه اصططحبه الى الحرمين في قافلة وكان قد صار كاشفاً . فسار قائداً لتلك القافلة فلاقاهم في الطريق عصابة من اللصوص فدفعهم علي بقلب لا يهاب الموت فلقبوه بالجني . ولما رجع ابراهيم نكيا الى القاهرة عزم على مكافأة علي برتبة بك لكن صغر سنه ودسياسة الخشاب حالاً دون ذلك

ثم عقب ذلك شاغل أكثر اهمية زاد الامر تأخيراً . وذلك أنه جاء القاهرة خبر

وصول باشا جديد الى الاسكندرية بدلا من الباشا الذي أخرج منها . وكان من عادة رجال الحكومة في مصر اذا علموا بمجيء باشا جديد أن يعيشوا وفداً يلاقونه في الاسكندرية وفيهم العيون والجواسيس فيحيطون به يستطلعون مقاصده ونواياه ويطلعون على ما في يده من الاوامر السلطانية فاذا رأوا تلك الاوامر سلمية ومقاصده حسنة رحبوا به وفتحوا له الطريق حتى يصل الى بولاق فيحتفل الامراء بلاقائه . أما اذا تبينوا من احواله غير ذلك أبلغوا الامراء بالقاهرة فيجتمعون ويقررون اعلانه أن يقف حيث هو ويكتبون الى ديوان الاستانة بعدم مناسبة ذلك الباشا الجديد وان بقاءه في مصر محل بالنظام العمومي أو ربما محل الرعية على الثورة . ثم يطلبون استبداله بأخراً أكثر موافقة للبلاد منه



ش ١٧ : اكبر رجال الدولة بملابسهم الرسمية
الصدر الاعظم والقائم مقام والرئيس افندي وعضو المجلس

فلما اتصل بهم خبر قدوم هذا الباشا واسمه راغب محمد باشا سار شيخ البلد بنفسه لاستقباله ومعه البكوات نخلع على كل واحد منهم خلعة كالعتاد . ثم اجتمعوا جميعاً بجلسة رسمية واقسموا على الطاعة والاخلاص لاميير المؤمنين . واحب الامراء راغب باشا محبة عظيمة لانه عرف كيف يعامل شيخ البلد فاجبه الرعية ومالوا بكليتهم اليه ففضى بين ظهرانهم سنتين كلها سلام وطمأنينة حتى اجتمع البكوات على استبقائه بينهم زمناً طويلاً

وهم في ذلك ورد الى الباشا خط شريف^(١) ان يسعى جهده في قطع دابر البكوات وفي جعلتهم شيخ البلد ومن يلوذ به . فاستنج الباشا من نص ذلك الخط ان ديوان الاستانة مشتبته بتصرفه في مصر وانه وشي الى جلالة السلطان بان اتفاه مع بكوات مصر ليس الا لعزمه على استخدامهم في ما ربه بالاستقلال بحكومة مصر واخراجها من طاعة الدولة العلية . فوقع في حيرة وتردد بين ان ينفذ الاوامر الشاهانية مع ما فيها من الخطر أو ان يعصيا او يؤخرها فيعرض حياته للخطر ويؤيد التشكيكات التي تقدمت بحقه . وبعد ان نظر في المسألة من سائر وجوها فضل الفتك باصدقائه البكوات . فتواطأ مع عصابة من رجاله انه متى اجتمع البكوات في مجلسه فليكونوا على استعداد للهجوم عليهم معاً عند اول اشارة . ففعلوا ما امرهم به لكنهم لم يفوزوا كل الفوز لان ثلاثة من البكوات تمكنوا من النجاة وفي مقدمتهم شيخ البلد بعد ان جاهدوا الجهاد الحسن واوسعوا الباشا تعنيفاً على فعلته هذه التي لم يكونوا ينتظرونها منه بعد ما اظهروه نحوه من اللطف والاخلاص . فبرأ ساحته باطلاعهم على الزمران السري الوارد له بهذا الصدد فكفوا عن الانتقام منه لكنهم عزلوه وكتبوا الى الاستانة يطلبون بدله . وعينوا ثلاثة بكوات في مكان الثلاثة الذين قتلوا بتلك المكيدة

واغتم ابراهيم نكيا هذه الفرصة لترقية علي كاشف فرقاها الى رتبة بك فشق ذلك على احد البكوات المدعو ابراهيم بك شركي المولد يعرف بابراهيم بك الشركي وكان من دعاة ابراهيم نكيا لكنه تظاهر عند ذلك بعداونه وتمت بينهما الضغائن ولم تنقلا الا بقتل ابراهيم نكيا بعد ذلك بخمس سنوات يسد ابراهيم بك الشركي المذکور سنة ١١٦٨ هـ . وفي تلك السنة توفي السلطان محمود بن مصطفى



ش ١٨ : قود السلطان محمود بن مصطفى

ورى في شكل ١٨ صور نقود السلطان محمود بن مصطفى مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١٤٣ هـ فالاولى منها ذهبية وهي صورة القطعة المعروفة باسم زر محبوب أو سكوب . والثانية ذهبية أيضاً وهي نصف سكوب أو نصفية والثالثة صورة القطعة النحاسية المعروفة بالجديد

(١) يعمدون بالخط الشريف الاوامر الصادرة من جلالة السلطان رأساً

سلطنة عثمان بن مصطفى

من سنة ١١٦٨ — ١١٧١ هـ او من سنة ١٧٥٤ — ١٧٥٧ م

فبويع أخوه السلطان عثمان بن مصطفى ويدعونه أيضاً عثمان الثالث وبقي على كرسي الخلافة ثلاث سنوات فقط . فشق ابراهيم بك الشركي غليله بقتل ابراهيم نكيا لكنه لم يرو مطامعه لان مشيخة البلد انتقلت الى رضوان بك صديق ابراهيم نكيا ثم ظهر لرضوان منافس آخر من زعماء حزب ابراهيم يقال له حسين بك أصبح بعد قتل الكخيا اكبر رجال ذلك الحزب فادعى لنفسه الاولوية بمشيخة البلد فلم تقبل دعواه فجمع اليه بعض دعاة المالك وصعد الى قلعة القاهرة واستولى على بطارية من المدافع تشرف على بركة الفيل حيث يقيم رضوان بك فأطلق بعض الفنايل على المنازل فخرقت جدرانها فداعت أركانها ورضوان بك مشغول بحلاقة لحية . فلما أحس بالامر طلب جواده ولم يعل ظهره حتى أصيب برصاصة كسرت نخذه . وتمكن من الفرار ومعه بعض المالك الى قرية الشيخ عثمان وهناك توقف عن السير لزيادة الالم ومعه رئيس الضابطة وكان مجروحاً ثم توفيا الاثنان ودفنا معاً

فسمي حسين بك من ذلك الحين شيخ البلد وأخذ يتقرب من أترابه البكوات وهم لا يزيدون منه الا نقوراً . ولم تمض بضعة أشهر من توليته حتى كمنوا له في مكان مصاطب الشباب في السهل الواقع بين القاهرة وأرض ابراهيم بك . وكان مشغلاً بعرض جنوده المالك فهموا به وذبحوه ثم قطعوه ارباً ارباً وصار يعرف من ذلك الحين بحسين بك المقتول . فتولى مكانه خليل بك واشتهر بحب القتل وكان متظاهراً بالعداوة والحسد لعل بك على الخصوص لاعتقاده انه أشد أعدائه وطأة وأقواهم عزيمة

سلطنة مصطفى بن احمد

من سنة ١١٧١ — ١١٧٨ هـ أو من سنة ١٧٥٧ — ١٧٧٤ م

وفي سنة ١١٧١ هـ تولى الخلافة العثمانية مصطفى بن احمد وهو مصطفى الثالث . وبالْحَقِيقَةُ ان علي بك كان كثير الاخلاص لابراهيم نكيا لا ينفك ساعياً في الانتقام له ولكنه كان يرى السبيل الاقرب والاسهل لبلوغ مراده انما هو القوة . فأخفى ما في ضميره ٨ سنوات اشتغل في أثنائها بجمع القوة . فابتاع عدداً وافراً من المالك

ووطد علائقه مع البكوات الآخرين واكتسب ثقتهم بما كان يظهره من الغيرة عليهم والاخلاص لهم وما كان يكرمهم به من الهدايا . وما زال يخطو خطوة بعد أخرى حتى اقترب من النقطة المطلوبة فأوجس خليل بك خيفة منه وجعل يتجسس حركاته بالارصاد والعيون وبعد المكائد في شوارع القاهرة . ففي ذات يوم هجم عليه حسين كشكش بأمر خليل بك وبعد موقعة هائلة اضطر علي بك أن يفر الى الصعيد في طائفة من أصدقائه البكوات يستعد للانتقام مضاعفاً

فصرح خليل بك أن علي بك وأتباعه البكوات مجردون من رتبهم وحقوقهم وولى مكانهم بكوات من ذويه وقتل من ظفريه في القاهرة من أصدقاء علي بك أو المتمين اليه . أما علي بك فالتقى في الصعيد بواحد من ممالك مصطفى القرط يدعى صالح بك كان منفيًا هناك وفي قلبه من خليل بك حزازات فاجد الاثنان ورجلها وزحفا على القاهرة . فخرج خليل بك وحسين بك كشكش فدارت رحى الحرب فكان الفوز لعلي ورفيقه فطاردا خليل بك ورجاله حتى قطعوا مديرية القليوبية وأوصلوهم الى المسجد الأخضر على ضفاف النيل . واشتد الكفاح هناك فالتجأ خليل بك ورجاله الى طنطا فبعث علي بك كاشفه محمد الملقب بابي الذهب ليهاجمهم فهاجمهم واستلم طنطا بعد أن قتل حسين كشكش . أما خليل بك فاختبأ بالمسجد وبقي فيه وقد غلبه الجوع ثم قبض عليه ونفي الى الاسكندرية وحقن هناك . ونقلوا رؤوس القتلى الى القاهرة وطاقفوا بها في أسواقها

علي بك الكبير

من سنة ١١١٧ — ١١٨٧ هـ أو سنة ١٧٦٣ — ١٧٧٤ م

تمكن علي بك بهذا الانتصار من استلام مشيخة البلد في القاهرة سنة ١١٧٧ هـ وأول أمر بأمره قتل ابراهيم الشركسي الذي قتل سيده فثارت عليه أحزابه يطلبون الانتقام وهم عديدون تخاف علي بك على حياته فقر الى سوريا فالتجأ الى متسلم (حاكم) بيت المقدس وكانت بينهما صداقة قديمة الا أن هذا الملجأ لم يحمه الا شهرين لان أعداءه البكوات لما علموا بمقره شكوه للسلطان مصطفى وأخبروه بمقره فأقصد الى متسلم القدس فرماناً يأمره به أن يرسل علي بك مخفوراً الى الباب العالي . فلم علي بك بذلك فقر الى عكا وهناك اكتسب صداقة الشيخ ضاهر العمر أمير تلك المدينة الحصينة فأكرم وفادته وسعى في تبرئته أمام الباب العالي . وبمساعدة

نصرائه من أصدقاء ابراهيم نكيا اكتسب له العفو من الحضرة الشاهانية فألغيت الاوامر بالقبض عليه وأعيد الى القاهرة في منصبه الاول وفي سنة ١١٧٩ هـ أي بعد ذلك بسنتين هدد علي بك بالاقالة من ذلك المنصب . وذلك ان محمد راغب باشا الذي كان على مصر وعزل منها على ما مر بك كان يتذكر كرم اخلاق علي بك مذ كان كاشفاً . فبعد استقالته من مصر ولي بر الاناضول وبعد تسع سنوات صار صدراً أعظم وما انك متذكراً صداقة علي بك لا يفتر عن معاضدته وتسهيل مطالبه سرّاً وجهرّاً . ففي سنة ١١٧٩ هـ توفي الوزير محمد راغب باشا فأصبح علي بك في حاجة لمن يعضده . فاعتم أعداؤه هذه الفرصة ووشوا به الى الاستانة فاضطر أن يفر الى اليمن ولم تأت سنة ١١٨٠ هـ حتى عاد الى القاهرة واسترجع منصبه بمساعدة أحزابه وموت أربعة من دعاة ابراهيم الشركسي . ثم رأى له ان صديقه صالح بك تحذره نفسه بخرق حرمة الصداقة واتباع داعي المطامع الشخصية فوكل أمر قتله الى ابراهيم كاشف احد أتباعه فقتله طعناً وسترى ان ابراهيم هذا سيرتقي حتى يتولى مشيخة البلد

ورأى علي بك ان قبائل العربان في مصر السفلى قد شقت عصا الطاعة فأفخذ اليها أحد مماليكه المدعو احمد في فرقة من الرجال فخارب أولئك العربان وأمعن في قتلهم حتى لقبوه بالجزار وهو الذي تولى عكا بعدئذ واشتهر باحمد باشا الجزار . أما من بقي من أعداء علي بك تخافوا ولزموا السكوت وتحقق نخلصه من القلاقل والمفاسد والمقاومات ورأى من باب الاحتياط والحرص أن يرقي ثمانية عشر مملوكاً من أتباعه الى رتبة البكوية لينصروه وقت الحاجة وهذه أسماؤهم :

- | | | |
|---|----------------|-----------|
| ١ | رضوان ابن أخيه | من جورجيا |
| ٢ | علي الطنطاوي | » |
| ٣ | اسماعيل | » |
| ٤ | خليل | » |
| ٥ | عبد الرحمن | » |
| ٦ | حسن | » |
| ٧ | يوسف | » |
| ٨ | ذو الفقار | » |
| ٩ | عجيب | » |



١٨٠٠ : حوزة شيخ سليمان باشا

١٠	مصطفى	من جورجيا
١١	احمد الجزار	» اماسيا
١٢	سليم آغا	انكشاري
١٣	سليمان نكيا	»
١٤	لطيف	شركي
١٥	عثمان	»
١٦	ابراهيم	»
١٧	مراد	»

ولهذين الآخرين شأن في هذا التاريخ لأنها سيتنازعان السلطة في مصر
١٨ محمد

وكان يعز محمداً هذا أكثر من الجميع وستراه رجلاً عتوقاً منكراً للجميل . ولما تقلد البكوية لقب بأبي الذهب فأحب أن يجعل هذا اللقب اسماً على مسمى فظاهر بالكرم المفرط وبدلاً من أن يفرق العطايا بالبارات فرقها بالارباع أما علي بك فكان ساهراً على مصلحة البلاد سهرأ تاماً وكان مخلصاً في أعماله فظهر البلاد من النصوص وسعي جهده في اصلاح شؤونها فساد الامن فيها بعد ان كانت معرضاً للالاقل والمفاسد . ولم تقف مطامع علي بك عند هذا الحد فانه رأى من تحمل الواشين بينه وبين ديوان الاستانة وايقاع ذوي الاغراض به وبسلطته ما حمله على السعي في الاستقلال بمصر وتجريدها من رعاية الدولة العثمانية لكنه كتم مقاصده وجعل يسعى في تنفيذها تحت طي الحفاء

مساعيه في سبيل الاستقلال

وأول خطوة خطاها نحو هذه الغاية أنه اتحل أسباباً بني عليها عزل مستخدمى الملكية والجهادية ورؤساء الوجاقات واستبدلهم برجال على دعونه الا وجاه الانكشارية فانه لم يمسه بعد ان تمكن من استبقائه تحت حمايته وسد جميع السبل التي يمكنه بها التطرق الى مقاومته وأخر دفع مراتب الوجاقات الاخرى عمداً وصار يدفع رواتبهم أقساطاً عممة ورق بول كانت تخسر المائة منها تسعين فكان يربح أرباحاً عظيمة باسترجاع الورق بالاعمان البخسة وصرفه ثانية بثمنه الاصلي . فلما رأت رجال الوجاقات انهم لا يستولون من ماهياتهم الا على العشر كرهوا الاستخدام العسكرية وجعلوا يستقيلون منها شيئاً فشيئاً ويتعاطون أشغالا أخرى أكثر فائدة لهم

ثم سعى في تقليل العساكر العثمانية واستخدام المالك من دعاة . حتى صاروا نحواً من ستة آلاف وحظر على سائر البكوات والكشاف الذين يخشى تغيرهم عليه ان يقتني أحدهم أكثر من مملوك أو مملوكين . وكان على ولاية مصر إذ ذاك محمد باشا فازعجته اجراءات علي بك وخشي عاقبتها فصيح له أن يقف عند حده فلم يكثرث بقوله . فأقر على مقاومته لان هذه الاجراءات مضادة لمصلحة الباب العالي ولكنه لم يكن يستطيع الجاهرة بمقاصده هذه فأخذ يدسها سراً واتحد مع من بقي من دعاة ابراهيم الشركي وأجمعوا على الانتقام من علي بك ثم جعلوا يسعون فساداً بين أحزابه واستجلبوا بعضاً منهم الى جانبهم بالمواعيد المبنية على الحسد والطمع . وفي جملة هؤلاء محمد بك أبو الذهب الذي طمره علي بك بفضله حتى ازوجه ابنته وكان يناديه كما ينادي أولاده . ولم يكونوا يستطيعون تنفيذ ما ربههم جهاراً فأغروا صهره محمد بك المذكور بالمال ووعدوه أنه اذا قتل علي بك يتولى المشيخة مكانه فقبل ولكنه علم بعدئذ أنه يقصر عن مناواة علي بك واستعظم الجناية فعدل عنها الى جنابة تقرب منها . وذلك أنه شكى الى علي بك معاملة الباشا له فأسرع علي بك الى انقاذه منه وما انفك عن الباشا حتى أخرجه من مصر فعاد الى الاستانة . ولم يزد علي بك الا ثقة في محمد بك ابني الذهب واخلاصاً له رغم ما كان ينقل اليه عنه من السعي ضده وفي سنة ١١٨٢ هـ انتشبت الحرب بين روسيا والدولة العلية فبعثت هذه الى مصر ان تمدها بانني عشر الفاً فوصلت الاوامر لعلي بك بذلك ومشروعه لم ينضج بعد فلم يسعه الا مباشرة ما أمر به فابتدأ بجمع الجنود . أما أعداؤه فاعتصموا تلك الفرصة للوشاية فضموا اليهم الباشا الجديد الذي كان قد أرسل من القسطنطينية بدلاً من الباشا الذي أخرجه علي بك واتفقوا جميعاً على كتابة تقرير أمضاه الباشا وسار البكوات اعداء علي يشنون به الى الديوان الشاهاني بدعوى انه انما اراد بما يجمعه من الجيوش معاضدة روسيا للاستقلال بمصر فانفذ الديوان الشاهاني الى الباشا أمراً مشدداً ان يقتل علي بك ويرسل رأسه الى الاستانة

فاتصل ذلك بعلي بواسطة أصدقائه بالاستانة فبعث علي بك الطنطاوي احد دعاة في عشرة من اتباعه المالك متكرين بلباس البدو يكمنون على مسافة قصيرة من القاهرة حيث لا بد للقاجي باشي حامل ذلك الفرمان من المرور به فمكثوا هناك ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع بان لهم القاجي ومعه أربعة رجال فوثبوا بهم وقتلهم وطمروهم في الرمل وأخذوا ملابسهم والفرمان وساروا الى علي فقرأه ثم جمع اليه

ديوان البكوات العمومي واطلهم عليه واقنعهم أن ذلك الأمر ليس لقتله وحده بل لقتلهم جميعاً ثم خاطبهم قائلاً « دافعوا اذاً عن حياتكم وحقوقكم واعلموا أن مصر ما برحت منذ القدم يحكمها دول من المالك كانوا سلاطين اشداء تفاخر بهم الأرض السماء فاعيدوها اليهم . وهذه فرصة لا تضيعوها فانكم لن تعزوا عمركم على فرصة مثلها . هلم اذاً نسعى في الاستقلال فان فيه حياتنا وحریتنا »

استقلال علي بك بمصر

فتأثر البكوات من فصاحة علي وبلاغته وكانوا ثمانية عشر قد أجمعوا على دعوته فعاهدوه على الدفاع عنه ما استطاعوا الى الدفاع سبيلاً . أما سائر الامراء المالك من اعدائه فخافوا العاقبة ولزموا السكوت . فكتب ديوان علي بك امراً الى الباشا أن يبرح الديار المصرية في ثمان واربعين ساعة واذا لم يفعل يقتل وان مصر قد أصبحت مستقلة . وبعث علي الى الشيخ ضاهر العمر أمير عكا يعلنه رسمياً باستقلال مصر ويدعوه للمساعدة في ذلك فأجابه الشيخ ضاهر مسروراً وجمع اليه رجاله ورجال بنيه السبعة وصهره وانضم الجميع الى جنود علي وكان قد أضاف الى الستة الآلاف التي عنده من المالك الاثني عشر ألفاً التي جمعت مدداً للعثمانيين واطاف الى هذه أيضاً رجال أصدقائه البكوات حتى رجال أعدائه لانهم لم يعد يسعهم الاطاعته فاتصل ذلك بالاستانة فأرسل الباب العالي أمراً الى والي دمشق أن يسير في ٢٥ ألفاً لمنع جنود عكا من معاضدة علي فصار الوالي في ذلك العدد من الرجال فلاقاه الشيخ ضاهر في ٦ آلاف بين لبنان وبحيرة طبرية وردده على أعقابها سنة ١١٨٣ هـ . وكانت هذه الواقعة آخر الوقائع لان الباب العالي أمسك بعدها عن ارسال الجند كانه نسي علاقته مع سوريا ومصر بالكلية

أما علي فاغتم اشتغال الدولة العلية بالحاربة مع روسيا وصرف عنايته في تنظيم مملكته الجديدة واصلاح ما داخلها من الخلل تخفيض الضرائب وجعل على المالية مدير الكرك القديم المعلم ميخائيل فرحات القبطي بدلاً من يوسف بن لاوي الاسرائيلي وكان قد قتل جزاء خيانه . ونظم التجارة الخارجية والمواصلات وابتعد العربان الى الصحراء فاستولى الامن وانتشر الاصلاح في القطر فزادوا على القاب علي لقب بلوط قبان (مبيد اللصوص)

قبيلة الهوارة

وكان في جملة القبائل الثائرة على مصر قبيلة الهوارة وهي أشدهن بأساً وأطول

بأعاً جاءت في الاصل من ضواحي تونس الغرب واستقرت بين جرجا وفرشوط في بقعة من الأرض لم تكن تصلح للزراعة فاعتنوا فيها حتى انشأوا عدة قرى وما زالوا ينشرون سطوتهم حتى احتلوا جميع البقاع بين هوارة وكفر الشيخ سليم . ثم اغتم الشيخ همام (شيخ الهوارة) اشتغال مصر بما تقدم ووضع يده على البلاد من اسيوط الى اصوان وجمع اليه محصولاتها . وكان قد حارب هذه القبيلة كثيرون ممن تولوا مصر قبل علي وفرضوا عليها ضريبة مقدارها ٢٥٠ الف اردب من الخنطة توردها سنوياً الى مصر ففي سنة ١١٨٣ هـ أرسل علي بك صديقه محمد بك ابا الذهب لمحاربة الشيخ همام وقبيلته فخارهم وتغلب عليهم في أواخر تلك السنة . فاضطر أبناء الشيخ أن يتناعوا حياتهم بما لديهم من ثروة أيهم . فرجح ابو الذهب من ذلك ما لا كثيراً ثم أسرع الى القاهرة لما علمه من الدسائس التي كان ساعياً بها رفيقه احمد بك الجزار على علي بك وكأنه لم يكن يريد أن يشاركه أحد بالدسائس على سيده . وكان احمد الجزار ينظر الى ابي الذهب نظره الى عدو يناظره في ارتكاب الدنيا فسمى في قتله فلم ينجح . وكان لاحد الجزار سيف مشهور بطيب فولاذه واتقان صنعه . فاتفق يوماً أنه اجتمع بمحمد ابي الذهب فقال له محمد : « أرني حسامك لأجربن قرينه » فأجابه احمد : « لا يستل حسامي سواي ولا أعنده حتى يستباح قتل » ثم نهض للحال وغادر القاهرة قاصداً القسطنطينية فوصلها . ثم عهدت اليه ولاية عكا بعد ذلك . وما زال فيها حتى توفاه الله

فتوح علي بك ومعهاداته

أما علي بك فبعد ان تغلب على الصعيد ثار في خاطره حب الافتتاح فجرد الى اليمن جيشاً تحت قيادة محمد ابي الذهب فسار في عشرين ألف مقاتل فقطع برزخ السويس ومضيق العقبة ولم يبق على أحد من القبائل التي حاولت الوقوف في طريقه وما زال حتى أتى اليمن وافتتحها . وأمر تلي فسار اسماعيل بك في ثمانية آلاف لافتتاح السواحل الشرقية للبحر الاحمر وحسن بك لافتتاح جدة ولقب بالجدادي اشارة الى انتصاره على تلك المدينة وما زال يعرف بهذا اللقب من ذاك الحين . ولم تمض ستة اشهر حتى اقتحت شبه جزيرة العرب وفي جملتها مكة المشرفة ولحق بها نهب شديد وأزل شريفها وأقيم مقامه ابن عمه الامير عبد الله فوافق تلياً في سلطنته وسماه بسلطان مصر وخاقان البحرين - فعل ذلك بصفته الدينية تملأاً لعلي . فلما حصل علي بك على ذلك من شريف مكة أخذ يتمتع بحقوق السلطنة فأمر أن يخطب باسمه في الصلوات العمومية أيام الجمعة . وضرب النقود سنة ١١٨٥ في القاهرة باسمه كما سترى

وسعى علي بك في هذه السنة الى أمر سيق به الى حتفه وذلك انه عهد الى محمد بك ابي الذهب أن يسير في ثلاثين ألفاً لاختضاع بلاد الشام لأنه كان يعتبر هذه الولاية بعد خروجه من طاعة الدولة العلية عدواً قريباً يخشى منه على نفسه وعلى صديقه ومحالفه الشيخ ظاهر . وكان ينظر الى سوريا كأنها جزء طبيعي من مملكة مصر . وكانت بالواقع قسماً منها في سائر الأزمنة التي كانت فيها مصر مستقلة في الدولة الطولونية والفاطمية والايوية والمالكية وغيرها



ش ٢٠ : كاترينا الثانية

وسعى علي بك في التحالف مع الدول التي بينها وبين الاستانة عداوة طبيعية فاستخدم تاجراً إيطالياً اسمه روسي عقد له معاهدة سلمية مع البندقيين على أن

يكونوا حلفاء له . ثم عهد الى رجل ارميني اسمه يعقوب أن يستطلع من الكونت الكسيس اورلوف قومندان القوات الروسية في البحرين (المتوسط والاسود) عن عقد معاهدة دفاعية وهجومية مع قيصرية روسيا كاترينا الثانية . فأجاب الكونت بالإيجاب وفتحت المحادثات بشأن ذلك وطال أمرها كثيراً بعد المسافة بين الطرفين . أما جنود علي بك في سوريا فصاحبها الظفر وأحدث بجنود الشيخ ظاهر فاستولوا على غزة والرملة ونابلس والقدس ويافا وصيدا وأخيراً حاصروا دمشق ولم تلبث يسيراً حتى سلمت

خيانة محمد بك ابي الذهب

فلما رأى محمد ابو الذهب تمام هذه الفتوحات العظيمة على يده حدثته نفسه أن يجعلها لنفسه . ثم قادته مطامعه الى محاربة علي واستخراج مصر من يده . ويظن انه لم يتقدم على ذلك من تلقاء نفسه وإنما حمل عليه بأوامر جاءت من الاستانة لان المحادثات السرية كانت متواصلة بينه وبينها بواسطة الباشا الذي أخرجه علي من مصر . فأمسك محمد عن المسير في البلاد العثمانية وحول شكيمه مقاصده نحو الديار المصرية فجمع ما كان لديه من الحيوش وضم اليها الحاميات التي كان قد أقامها في المدن المفتوحة وسار قاصداً مصر . لكنه لم يجسر على المسير الى القاهرة رأساً خوفاً من الانكشارية والوجقات الاخرى لعلمه بما في قلوبهم من الضغينة عليه . فخرج نحو الصحراء حتى أتى الصعيد فخط رحاله هناك واستولى على اسيوط في آخر يوم من سنة ١١٨٥ هـ . ثم استقدم قبائل العربان وطاب محالفهم ومحالفة بكوات الصعيد وجاهر بعزمه على خلع علي بك وسار قاصداً القاهرة فوصلها في أوائل سنة ١١٨٦ . فنزل بجيشه تجاه البساتين فوق مصر القديمة فلما علم علي بك بذلك ندم على ما وضعه من الثقة في رجل كان له أن يعتبر من سيرته الماضية انه على غير الاخلاص والاستقامة . فجدد ٣ آلاف رجل بقيادة اسماعيل بك وأمرهم أن يمنعوا محمداً من عبور النيل . فسار اسماعيل لكنه خاف سطوة عدوه ووردت عليه كتب مفعمة بالمواعيد يمازجها بعض التهديد فأخذ جانبه وضم جيشه الى جيشه فقطع محمد بك النيل فاستقبله رجال اسماعيل بالترحاب . فاتصل ذلك بعلي فيئس من الفوز فانقطع الى القلعة باهله واصدقائه ورجال دعوته وقد عزم على المدافعة الى آخر نسمة من حياته

علي بك في عكا

وبعد ثلاثة أيام ورد اليه كتاب من الشيخ احمد أحد أبناء صديقه الشيخ ظاهر ان يبرح القاهرة حالاً ويأتي الى أبيه في عكا . فخرج علي من القلعة بمن معه وسار من

جهة الجبل الأحمر طالباً سوريا عن طريق الصحراء . وكان خروجه قبل دخول محمد بك القاهرة يوم واحد أي مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ هـ وهذه هي المرة الثالثة لخروجه منها الى سوريا وفي معيته عدد يسير من الجند لا يبلغ ستة آلاف معظمهم من الخدمة الذين لا يستطيعون الدفاع . ولم يعمل معه من المال الا ثمانمائة الف زر محبوب يحملها ٢٥ جملاً . ونقل معه من المصوغات والحلى ما يساوي اربعة اضعاف ذلك . وما زالوا في المسير ليلاً ونهاراً فوصلوا الى خان يونس في حدود سوريا بعد ثلاثة أيام فرأوا ان خمسة من الجمال الحاملة للنقود قد ذهبت فريسة بيد القبائل البدوية وان تدداً من جنوده فروا ومعهم يوسف الخزندار . وفي اليوم التالي دخل علي بك غزة ثم واصل السير حتى أتى عكا بعد ثمانية أيام فرحب به أميرها وكانت بينهما مودة شديدة فاطمان علي هناك . غير ان ما تكبده من المشاق في الاسفار مع ما أثر في نفسه من الغيظ الشديد غير صحته فلم يصل عكا الا وهو في حالة الخطر من شدة المرض

وفي أثناء ذلك وصل ميناء عكا أسطول روسي فلما علمت حاميته بما حل بعلي عقدوا معه معاهدة ثانية وقدموا له كل ما يحتاج اليه من المؤن والزخائر وكان في خدمة ذلك الاسطول فرقة من الالبانيين « الارناؤوط » مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل فأمدوه بهم . فلما رأى علي بك ما كان من مجدة الروسين مع ما يمكنه الحصول عليه من جنود الشيخ ظاهر عزم على مناوأة أبي الذهب لكنه لم يكن يستطيع مباشرة ذلك بنفسه لانحراف صحته . فعهد الى علي بك الطنطاوي بعد ثلاثة اشهر ان يسير أولاً لاسترجاع المدن السورية التي دخلت في حوزة محمد أبي الذهب فسار واستولى على صور وصيدا وقرى أخرى من سواحل سوريا كانت قد احتلتها جنود عثمانية بعد انسحاب جنود محمد أبي الذهب . ثم سار علي بنفسه مع من بقي من الجند الى يافا وافتتحها بعد محاصرة خمسة اشهر استولى في أثناءها على غزة عنوة وعلى الرملة والدلت تسليماً . فأعاد يافا الى حكومة الشيخ ظاهر وجعل على الدلت حسن بك الجداوي وعلى الرملة سالم بك محمد أبو الذهب بمصر

وفي ٩ ذي القعدة ١١٨٦ هـ كان علي بك في يافا فجاءته رسل من القاهرة بمهمة سرية من وجاق الانكشارية والوجاقات الاخرى وسائر أعيان القاهرة يعلمونه ان محمداً أبا الذهب دخل القاهرة حالما خرج منها هو وسمى نفسه شيخ البلد وجعل يعيث في البلاد عيثاً لم يسبقه الى مثله احد ممن تولى مصر قبله . فجعل بعض الضرائب ضعفين وبعضها ثلاثة اضعاف . ثم اختلق قانوناً غريباً دعاه قانون رفع المظالم والمقصود

منه بحسب الظاهر انقاذ ملتزمي الاموال الاميرية من الاجراآت الاستبدادية التي كان يسومهم إياها الكشف الى ذلك العهد واستبدالها بما يعود بالمنفعة والحقيقة ان الضرائب ما انفكت أشد وطأة من ذي قبل والاجراآت لم تزد الا استبداداً فضلاً عما رافق كل ذلك من الفتك بالعباد قتلاً ونهباً

ثم قالوا ان مصر بجملتها لما رأت ما وصلت اليه من الانحطاط وما لحق باهلها من المظالم التي ما انزل الله بها من سلطان قد انابتهم ان يبلغوا علي بك انها بصوت واحد تلتبس رجوعه ليحكم فيها لانه هو منقذها الوحيد وان مدينة القاهرة مستعدة ان تفتح أبوابها لاستقبال أميرها القديم وان تدافع عنه الدفاع الممكن اذا حاول محمد بك أبو الذهب ما يخالف الصوت العمومي

خروج علي بك لمحاربة أبي الذهب

فلما علم علي بك بكل ذلك شعر أن آماله عادت اليه وبرح يافا للحال قاصداً القاهرة ولم يكن معه من الجنود الا الفان وخمسمائة فاستجد حاميات الدلت والرملة وانضم اليهم جنود الشيخ ظاهر وجنود ابنه الشيخ شلي وصهره الشيخ كرم وحسن شيخ صور وكان قد استأجر ثلاثة آلاف وخمسمائة من المغاربة . فكان عدد جنوده جملة ثمانية آلاف محارب

ففي ١١ محرم سنة ١١٨٧ هـ وصل علي بك الى خان يونس وفي ١٦ منه اقترب من الصالحية . وفي ١٨ منه التقى بمقدمة جيوش محمد بك أبي الذهب وعدتهم اثنا عشر الف مقاتل وبعد محاربة بضع ساعات ظهر علي بك عليهم وقد قتل عدداً غفيراً من رجالهم . فانفتحت له أبواب الصالحية فدخلها وقد أصيب بجروح بليغة . ثم علم ان اعتماده على أحزابه في القاهرة لا يورثه الا خيبة الامل لان أبا الذهب كان قد جمع اليه كبراء البلاد ورجال حكومتها لما علم بمظاهرتهم لعلي وأقنعهم ان علي بك قد غدر الامة وخان الوطن وأباح دماء المسلمين بمعاهداته مع الروسين وغيرهم من الامم النصرانية . واستخدم أبو الذهب في سبيل اقناعهم الدرهم الواضح فانحازت اليه القوات العسكرية الا وجاق الانكشارية فإنه ظل محافظاً على ولاء علي بك . فلما تحقق محمد بك أبو الذهب اجتماع الاحزاب على دعوته أمن من الاضطراب الداخلي فسار بنفسه لمحاربة علي

أما علي فانزعج لتلك الاحوال ازعاجاً كثيراً فضلاً عما كابده من مشاق الاسفار في قطع الصحراء الحارة وزد على ذلك الجروح التي أصابته في واقعة الصالحية

فأصيب بحمى شديدة عجز معها عن ركوب جواده وقيادة جنوده . وفي ٢٠ محرم سنة ١١٨٧ هـ علم بمجيء أبي الذهب وهو على ما تقدم من المرض فلم يتردد في وجوب الدفاع . فأمر قواده فانتظمت رجاله على قتلها وتهيات للدفاع وكان على احد جناحي الجيش علي بك الطنطاوي ومن معه من البكوات وعلى الجناح الآخر ابن الشيخ زاهر وصهره فاستظهرت جنود علي في بادئ الرأي حتى قاربت الفوز التام ثم ارسل ابو الذهب بعض جواسيسه الى المغاربة في جيش علي يغريهم على خيانة رئيسهم فوافقوه ووافقه غيرهم كثيرون من بكوات علي وفي جملتهم ابراهيم بك ومراد بك . وهذا الاخير اشترط ان يأخذ مقابلًا لحياته هذه ما يخلفه علي من المتاع والنساء وخصوصاً امرأته نفيسة وكان علي يحبها ويحترمها لما كانت عليه من الفطنة والجمال

فلما انتشبت الحرب في الصباح التالي انحاز جميع المغاربة والبكوات الذين خانوا الى معسكر أبي الذهب . وكانت جنود علي بك قريبة من الفوز فلما رأت تلك الخيانة تضعفت وفر الجند يطلبون النجاة بانفسهم بعد ان قتل علي بك الطنطاوي والشيخ شلي ونجا الشيخ كريم والشيخ حسن ورضوان بك من المعركة وساروا الى فسطاط علي وأعلموه بما حصل وطلبوا اليه ان يمتطي فرسه ويسير برفقتهم الى غزة حيث يلاقيهم الشيخ زاهر بمن معه من الجند

مقتل علي بك

أما علي بك فأبى نفسه الاصغاء لما ارادوا فجلس بياب خيمته وقال لهم « اني ملازم هذا الموضع لا أرحه حتى تبرحني نفسي لان الموت هنا أفضل عندي من الفرار . أما انتم اذا شئتم النجاة بأنفسكم فبادروا الى الفرار قبل ان يغشاكم ما ربما لا تقوون على دفعه » . فاضطر ابن أخيه ورجاله الباكون ان يذعنوا لما أمر . فودعوه وحولوا الاعنة في طريق خان يونس قاصدين غزة فلقوا الشيخ زاهراً هناك فأعلموه بما كان وبوفاة ابنه فأسف عليه كثيراً . ومكث علي بك بعد ذهاب أصدقائه بضع ساعات ينتظر منيته وبجانبه عشرة من مماليكه واذا بخمسين رجلاً تحت قيادة الكخيا نائب محمد أبي الذهب قد وصلوا الى الخيمة ودخلوها وقتلوا من كان فيها من المماليك ثم وثبوا على علي وكان المرض مشدداً عليه وفيه جروح لكنه نهض بسيفه فقتل أول قادم اليه وجرح اثنين آخرين فخشي الباكون الاقتراب منه فأطلقوا عليه البنادق فجرحوه جروحاً بليغة في ذراعه اليمنى وتخذله . فجعل يدافع يسرا دفاعاً شديداً الى ان وثب

عليه الكخيا بنفسه فدفعه علي حتى اصيب في ذراعه اليسرى وفي أماكن أخرى فسقط على الارض وهو لا ينفك عن الدفاع فتكاثرت عليه الرجال حتى امسكوه حياً وساروا به الى محمد أبي الذهب وطرحوه عند قدميه فأمر بحمله الى القاهرة فحملوه اليها وانزلوه في داره بدرب عبد الحق في شارع البكري وراء صندوق الدين فلبث فيها سبعة أيام ثم توفاه الله . وقد قال بعضهم ان ابا الذهب ادخل السم في جروحه فقتله والله أعلم . ودقوه بتربة استاذهم ابراهيم كخيا بجوار الامام الشافعي . وكان لموت هذا الرجل تأثير عظيم في قلب كل من عرفه حتى ان ابا الذهب نفسه لم يسعه الا الندم داخلياً لما فرط منه وما آتاه من نكران الجليل وارتياب مثل هذه الخيانة

مناقبه

ومن مناقب علي بك انه كان عظيم الهبة حتى اتفق لانه من ماتوا خوفاً من هيئته . وكانت تأخذ الرعدة بعضهم بمجرد المثل بين يديه فيأخذ هو بتلطيف رعبه فيقول له « هون عليك » . وكان صحيح القراءة شديد الحذق يفهم مدح المدعى الطويلة بين المتخاصمين ولا يحتاج في الفهم الى ترجمان او من يقرأ له الصكوك والوثائق بل يقرأها هو بنفسه ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويفهم خواها . ومن ماثره البناية العظيمة بطنطا وهي المسجد والجامع والقبه على مقام السيد البدوي والمكاتب والميضة الكبيرة والحفيات والمنارتان العظيمتان والسييل المواجه للقبه والقيسارية العظيمة . وجدد أيضاً قبة الامام الشافعي وبنيات ووكالات في بولاق مصر ولا يزال هذا الرجل مميزاً عند المؤرخين بلقب الكبير فيدعونه « علي بك الكبير »

وترى في الشكاين ٢٠

و ٢١ صورتي النقود التي ضربت على عهد علي بك في القاهرة . الاولى فضية وعليها الطغراء الشاهانية لسلطان مصطفى بن احمد



وتاريخ توليه السلطنة سنة ٢٠ : قود السلطان مصطفى بن احمد وعلي بك

١١٧١ هـ ويشاهد عليها ايضاً من الاعلى اسم علي وتاريخ ٨٥ وهي مختصر



ش ٢١ : نقود السلطان مصطفى
ابن احمد وعني بك

من سنة ١١٨٥ هـ وتدعى هذه القطعة من المعاملة قرشاً . والثانية فضية أيضاً ويشاهد عليها الطغراء العثمانية . أما تاريخ تولية السلطان فاستبدل بسنة ١٢١٣ هـ وهي السنة التي صرح بها علي بك باستقلاله ويشاهد عليها اسمه . وتدعى هذه القطعة عشرينية اي نصف قرش

سلطنة عبد الحميد الاول



ش ٢٢ : عبد الحميد الاول

من سنة ١١٧٧ — ١٢٠٣ هـ أو من سنة ١٧٧٤ — ١٧٨٩ م

وفي تلك السنة تولى الخلافة العثمانية السلطان عبد الحميد الاول عوضاً من السلطان مصطفى الثالث



ش ٢٣ : نقود السلطان مصطفى بن احمد

وترى في الشكين ٢٣ و ٢٤ صورتي نقود ضربت في القاهرة في عهد السلطان مصطفى بن احمد قبل استقلال علي بك بتاريخ ١١٧١ هـ الاولى فضية والثانية نحاسية

وبوفاة علي بك عاد وادي النيل الى ما كان عليه قبله تابعاً لاملاك الدولة العلية وعادت أحكامه الى مشايخ البلد والكشاف الذين جعلوا تلك المناصب وسيلة لاختلاس



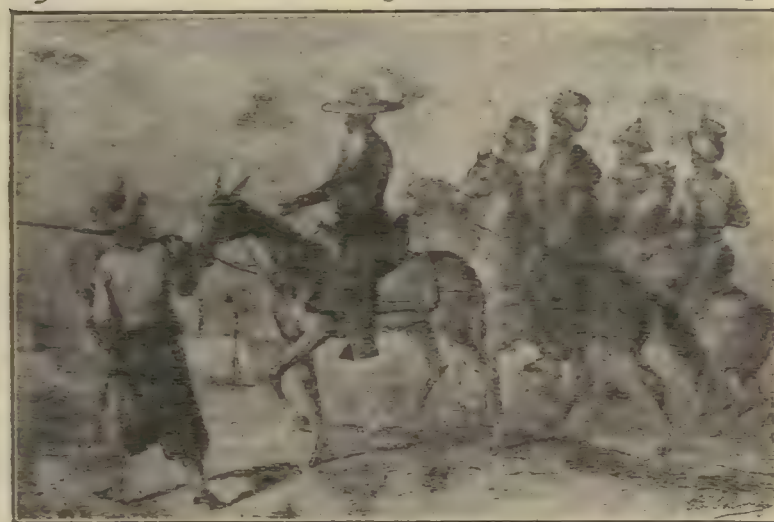
ش ٢٤ : نقود السلطان مصطفى

أموال الناس وحقوق الدولة وكان علي بك قد جعل لكل هذه المظالم حداً وأصلح الشؤون حتى علقت الآمال باعتزاز مصر ورفع شأنها فلم تبق المنية عليه نعم ان مصر بعد وفاته عادت الى كنف الدولة العلية لكنها بالحقيقة لم تفدها شيئاً لأنها كانت في الحالة الاولى طعمة للرجل محب للاصلاح مخلص بمقاصده وان كانت بمعزل عن سيادة الدولة وأصبحت في الثانية طعمة لثلاثين رجلاً كل منهم يسعى في ابتلاعها لا يتفقون الا على كره الدولة الذين هم تحت حمايتها . اما السلطان عبد الحميد فلم يكن يرسل اليها من الولاة الا من كان اسماً بلا مسمى كما كان شأنهم قبل ظهور علي . فكان الباشا من هؤلاء آله يديرها البكوات كيف شاؤوا ولم يكن لديه من الاعمال الا مخبرة القسطنطينية سرّاً بما كان يقع بين هؤلاء البكوات من الخلاف وما كانوا يتداعون اليه من الخصام . وواجباته المهمة ان يستلم الجزية من الحكومة المصرية ويرسلها الى الاستانة اذا تمكن من قبضا

أبو طبق وعزل الباشوات

فكانت ولاية مصر منصباً يستحي العقلاء من قبوله لانهم كانوا يعتبرونها منقبة استحققه الباشا أو الوزير الذي يرسل اليها وكان يعلم قبل خروجه من الاستانة انه اذا لم يكن راضياً بما يرضاه شيخ البلد لا يلبث أن يصله منه رسالة ينقلها ناقل يقال له الاوطه باشي وفيها الامر بعزله أمراً لا مرد له ولا مجال للدافعة بعده . وكيفية ذلك أن شيخ البلد اذا رأوا في تصرف الباشا ما يوجب الشك اجتمعوا اجتماعاً عمومياً في الديوان وقرروا عزله وكتبوا بذلك أمراً يسلمونه الى الاوطى باشي ليوصله الى الباشا فيحمله ويسير على حمار (لان القانون لا يسمح له بركوب الخيل

أو البغال) وبين يديه فرمان الغزل فاذا مر في الاسواق على هذه الصورة علم الناس أنه ساع في أمر هام فيه عزل فيهرولون وراءه. ولا يزال سائراً في عرض الطرق قائداً لتلك الجماهير نحو القلعة. ومن واجبات أي جندي لقيه في تلك الحال أن يرافقه اتقاء ما يخشى حدوثه عند وصوله إلى القلعة



ش ٢٥ : أبو طبق في موكبه

فاذا وصل القلعة يدخل على الباشا ثم يجثو أمامه باحترام ووقار وعندما ينهض يطوي السجادة التي كان جاثياً عليها وينادي بأعلى صوته « أنزل يا باشا » وعند طي السجادة والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق ذلك الباشا ولا يعود له أقل سلطة على الجنود التي كانت قبل بضع دقائق تنتظر اشارته. وتصبح تحت أوامر الاوطه باشي وكانوا يسمون الاوطه باشي أبا طبق لانه كان يلبس على رأسه قبعة مثل الطبق والباشا يقف ممثلاً يسمع تلاوة فرمان سواء كان منطوقه بعزله أو بقتله فلا يسمع الا الطاعة التامة. على مثل ذلك كانت معاملة باشوات مصر - فأنهم كانوا عرضة لاوامر الغزل التي اذا لم تكن من الاستانة كانت من مصر

فلما مات علي بك اختلف أعداؤه في القاهرة على الاجتزاء من انتصاراتهم فكان كل منهم يظن لنفسه الحق بالتمتع بأثمار الانتصار كغيرة أو أكثر فاختلفت الاحزاب من بينهم. أما من بقي من رجال علي فلم يجدوا مكاناً فيه راحة لهم وكانوا في عكا

عند الشيخ ظاهر على ما تقدم فتقهقر أبو الذهب لانه كان يحب الانتقام جياً يفوق التصديق وقد آلى على نفسه ألا يبقى على أحد من رجال علي

أما الشيخ ظاهر أمير عكا فلم يعد يطيب له السكون بعد ان خسر ابنه في سيل نصرة علي بك فارت في خاطره بواغث الانتقام. ولكن أبا الذهب لم يعد يستطيع صبراً على ذلك فاسترحم من الباب العالي أن يؤذن له بالمسير لاختضاع سوريا ولا سيما عكا وأنهم أميرها الشيخ ظاهر بالعصيان وانه ساع ضد الدولة. فأجاب الباب العالي بفرمان يثبت في مشيخة البلد مع لقب باشا ورتبة والي القاهرة مكافأة لما أتاه من كسر شوكة علي وأحزابه وأذن له أن يتبع ذلك الشيخ العاصي. فلما وصل فرمان الى أبي الذهب كاد يطير من شدة الفرح وأعد جيشاً تحت قيادته واستخلف في مصر اسماعيل بك وعهد حكومة مدينة القاهرة الى ابراهيم بك. وسار في جيشه الى سوريا ولم تنته سنة ١١٨٩ هـ حتى دخل فلسطين. وكان لشدة عجزه بما أوتيته من الالقاب والرتب وما وعده به الباب العالي من المساعدات لا يزيد الا كبراً حتى جعل خيمته التي يستريح فيها من أمن ما يمكن وزينها بأدع زينة. فربحان يونس فالرملة ولم يلاق مقاومة. أما ياقا فكان عليها الشيخ كريم صهر الشيخ ظاهر فدافعت قليلاً ثم فتحت عنوة فدخلها رجال أبي الذهب وقتلوا القسم الاعظم من سكانها رجالاً ونساءً شيوخاً وأطفالاً

فبلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ ظاهر وهو في عكا يخاف أن يصيبه ما أصابها فقر بعائلته وبمن هاجر اليه من المصريين ولم يترك في المدينة الا ابنه علياً ولما علم هذا باقتراب جيوش أبي الذهب أخلى القلعة وانسحب منها لاعتقاده أنه اذا حاول الدفاع انما يحاول عبثاً. فوصلها أبو الذهب وأبوابها مفتوحة فدخلها ولم يبق عليها وفي هذه المدينة انتهت فظائع هذا الرجل لانه بينما كان عازماً على العود الى مصر أصبح القوم فوجدوه ميتاً في خيمته ولم يعرفوا القاتل رغم ما اتخذوه من الاحتياطات وما كان لديهم من القرائن الكثيرة. فقال بعضهم انه أصيب بنقطة وهي داء السكته وقال آخرون انه مات مقتولاً بيد عدو فاتهك والله أعلم. وبعد موت أبي الذهب عادت الحيوش المصرية تحت قيادة مراد بك الى مصر ومعهم جثة رئيسهم فدقنوها بالقرب من مدفن علي بك. ومات أبو الذهب بعد موت علي بك بستين ولقب « بالخانن »

مشيخة اسماعيل بك

وتولى مشيخة البلد بعده اسماعيل بك ولم يبق غيره من رجال ابراهيم نكيا . وهو من الذين نالوا البكوية بواسطة علي بك وكان لا يزال على دعوته وانما انضم الى ابي الذهب خوفاً . وقلبه لم يفتّر لإهجا بالمدافعة عن رئيسه لانه لم يأت نحوه الا ما يستدعي نصرته فضلا عن انهما من طائفة واحدة

فلما استلم زمام الاحكام نسج على منوال علي بك فبعث الى رجال حزبه الذين كانوا لا يزالون في سوريا فاستقدمهم اليه واقربهم في اماكنهم وطيب خاطرهم استعداداً لمقاومة مراد وابراهيم مناظريه على مشيخة البلد . وكانا قد اتحدا على خلع اسماعيل بك فطلبوا أولاً طرد حسن بك الجداوي صديق اسماعيل بك فلم يفوزا لكنهما تمكنوا من احتلال القلعة فاتحد اسماعيل بك وحسن بك واخرجاها منها فقرا الى الصعيد . ثم جمعا حزباً كبيراً واستعدا لقتال اسماعيل فبعث جيوشاً لتخمد انقاسهما فعادت على اعقابها وفاز الاميران . فاضطر اسماعيل بك الى مغادرة القطر المصري فيم الاستانة . اما حسن بك فقبض عليه ونفي الى جدة بحراً فاحتال في اثناء الطريق فارضى رئيس المركب الذي نقله فانزله في القصير على سواحل القلزم ومن هناك قطع الصحراء غرباً حتى اتى الصعيد فاستكن في اعلاه

مراد بك وابراهيم بك

فلما خلا الجو لمراد بك وابراهيم بك اقتسما الاحكام فتعين الاول أميراً للحج والثاني شيخاً للبلد ورقياً كثيرين من ممالكهما الى رتبة البكوية وقداهم مصالح البلاد وكانت الاحكام في عهدهما كما كانت في أيام اسلافهما من المظالم والاستبداد . وبلغهما بعد مدة ان اسماعيل بك عاد من الاستانة وجاء حلوان فبعث اليه فرقة من الممالك فتكت بكل من كان معه من عائلته ورجاله . اما هو فتمكن من النجاة باختبائه في بعض الكهوف ثلاثة أيام . ثم خرج طالباً الشلال وهناك اجتمع بصديقه حسن بك الجداوي وسارامعاً واويا الى الجنادل في السودان

فاختلف مراد بك وابراهيم بك على ارسال حملة للقبض على الهاربين فارتأى احدهما وجوب التجنيد وخالفه الآخر حتى آل الامر الى الخصام وخروج ابراهيم بك معتازلاً من القاهرة الى المنيا في الصعيد . فأرسل اليه مراد بك بعض الاختيارية يسكنون من غضبه فأرضوه وأعادوه الى مركزه في القاهرة . الا ان العلاقات الودية ظلت متكدرة بين الاثنين ولم تمض مدة حتى خرج مراد بك الى المنيا غيظاً من زميله

لانه اتحد مع خمسة من بيت عدوها القديم وهم البكوات عثمان الشرقاوي وأيوب الصغير وسليمان وابراهيم الصغير ومصطفى الصغير ولبث مراد بك بعيداً عن القاهرة خمسة أشهر وابراهيم يظن أنه لا يلبث أن يسكن غضبه ويعود اليه فلما استبطأه ارسل اليه الاختيارية كما فعل ذلك معه . فأبى مراد بك ورد الاختيارية خائين . ثم جند جنداً من أتباعه المالك وسار على الضفة الغربية للنيل حتى أتى الجزيرة مقابل مصر القديمة وعسكر هناك . وهم بقطع النيل فعلم



ش ٢٦ : مراد بك

ابراهيم بك بذلك فجد في الجهة المتقابلة على البر الشرقي لينعه من المرور ولبث الجانبان على تلك الحال ثمانية عشر يوماً لا يتحاريان الا على سبيل المناوشة باطلاق مدفع أو مدفعين ولم يقتل الا رجل أو فرس . فلما مراد بك من تلك الحال فعاد الى المنيا

أما ابراهيم بك فكان كثير الرغبة في مصالحة زميله فانفذ اليه بعد خمسة أشهر

من خروجه وفدأ ثانياً من كبار البلاد ومشائخها يطلبون اليه الرجوع الى القاهرة فوافقهم لكنه اشترط عليهم أن يساموه الخمسة البكوات المتقدم ذكرهم حال وصوله الى القاهرة . فقبلوا بذلك الشرط فنزل معهم فعمل أولئك البكوات سرّاً من ابراهيم بك بما اشترطه مراد بك فخرجوا من القاهرة نحو القليوبية على نية الشخوص الى الصعيد عن طريق الاهرام . فاتصل ذلك بمراد بك فجعل عند الجسر الاسود قرب الاهرام عصابة من العربان لترصد مرورهم ولم يستطع صبراً على ذلك فقطع النيل ببعض رجاله فالتقى بالمنهزمين عند رأس الخليج قتلاً حوا فخرج مراد بك ونجا أولئك فلاقاهم العربان عند الجسر الاسود فأسروهم وجاؤا بهم الى مراد بك ففاهم الى المنصورة وفرسكور ودمياط تقريباً لكلمتهم وبعد مدة يسيرة عادوا واجتمعوا في آخر سنة ١١٩٧ واتفقوا أن يفرّوا الى الصعيد ويجمعوا اليهم عصابة يقاومون بها عدوهم ولم يباشروا ذلك حق توسط شيخ جامع الازهر في أمرهم وحصل لهم العفو من مراد بك فصّح عنهم وأعادهم الى القاهرة بكل اكرام وأعاد اليهم رتبهم وامتيازاتهم

حملة عثمانية لحرب المماليك

مضى بعد ذلك ثلاث سنوات على ابراهيم بك ومراد بك وهما على وفاق وسكينة يقتسمان ايراد البلاد بينهما بالسواء لا يقدمون عنه حساباً أو اذا قدموه كان حبراً على ورق . فوشى بهما محمد باشا والي مصر اذ ذاك الى السلطان وبما كانا فيه من الاستئثار بمالية البلاد . فأمر السلطان عبد الحميد سنة ١١٩٩ هـ أن يرسل الى مصر جيش لا يقاومها عند حدها . فسار الجيش في عمارة بقيادة حسن قبطان باشا فوصلت الاسكندرية في ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ هـ فخاف البكوات خوفاً شديداً واجتمعوا اجتماعاً عاماً في الديوان وتباحثوا في ما يجب اجراؤه . فكثرت اللفظ واختلقت المقاصد والآراء فلم يقرروا على شيء وأخيراً ارتأوا طلب توسط محمد باشا ولما عرضوا عليه رأيهم رفض . فطلبوا من الشيخ احمد العريشي شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد المهدي - الذي تعين في زمن الفرنساوية كاتب سر الديوان الخصوصي كما سيجيء - وغيرهما أن يسيروا الى رشيد ويستعطفوا القبطان باشا . ورتى في شكل ٢٧ صورة ختم الشيخ المهدي وتوقيعه الرسمي وفيه لقبه كما يكتبه بيده

فركبوا من بولاق في زورق فاخر وما زالوا حتى بلغوا رشيداً فلاقاهم القبطان باشا بما يليق من الاحترام . أما هم فلعلمهم أن الاميرين ابراهيم ومراداً لا يثبتان على رأي خافوا اذا طلبوا لها العفو وحصلوا عليه أن ينكث ذاك فتكون الملامة

عليهم . فقال الشيخ العروسي « يا مولانا ان رعية مصر ضعفاء وبيوت الامراء مختلطة ببيوت الناس »

فقال الباشا « لا تخشوا بأساً فان أول ما أوصاني به مولانا السلطان هو قوله « ان الرعية وديعة الله عندي وأنا أستودعك ما أودعني الله تعالى »

فدعوا له بطول العمر ثم قال لهم « كيف ترضون أن يملككم مملوك كان كافراً يسومونكم سوء العذاب لماذا لا تخرجونهما من بلادكم ؟ »

فأجابهم أحدهم بقوله « يا سلطانم هؤلاء عصابة شديدة البأس لا تقوى على دفعهم » فطيب خاطرهم ووعدهم بالحماية . وبالحقيقة ان هذا الوفد تصرف بالحكمة لأنهم لم يكادوا يخرجون من حضرة القبطان حتى سمعوا بقدوم مراد بك ومعه عشرة من البكوات وبعض الكشاف والماليك . ثم شاع أنهم نزلوا في الرحمانية عند منشأ التربة

الحمودية الاسكندرية . وسبب ذلك ان مراد بك بعد ما أرسل الوفد خطر له الدفاع بالسيف فجمع اليه ذوي شوره

وفأوضحهم فأقروا على الدفاع وان يسير مراد لذلك ويبقى ابراهيم للمحافظة على القاهرة فسار مراد بمن معه ونزلوا في الرحمانية كما قدمنا فلاقاهم الجنود العثمانية وجرت بينهما واقعة لم تطل الا يسيراً فاندعرت جنود المماليك من قنابل العثمانيين التي كانت تدافع بين حوافر خيلهم فتشتت شملهم وفاز العثمانيون . ففرّ مراد بك ومن معه حتى أتوا القاهرة فاجتمعوا بابراهيم بك وخرجوا جميعاً الى الصعيد ومكثوا ينتظرون هجرات العثمانيين . فلما رأى محمد باشا الوالي خلو القاهرة من المماليك جمع اليه الوجقات ونزل بهم من القلعة لاستقبال الجنود العثمانية

ففي ٥ شوال سنة ١٢٠٠ هـ دخل حسن باشا القاهرة بعد ان أخبرت جيوشه كل ما مروا به من المدن والقرى ونهبوها ولولاه لم يبقوا على شيء أصلاً . لكنه كان يمنعهم من ذلك بالقوة وقتل منهم كثيرين عبرة للباقيين فكفت الأيدي فسكنت الناس فلما وصل القاهرة نزل في بيت ابراهيم بك عند قصر العيني على النيل . ثم عرض أمتعة البكوات المنهزمين للمزاد العمومي وفي جملتها حريمهم وأولادهم ومماليكهم . فاسترحم



الحمد لله الذي
كان له المولى
المهمدي

ش ٢٧ : ختم محمد المهدي
وامضاءه

المشايخ ان يخرج الاولاد والنساء الحوامل من معرض البيع لأن ذلك فضلا عن مخالفته للعواطف الانسانية فهو مغضب لله

فانتهرهم القبطان باشا قائلا : « سأكتب الى الاستانة بأنكم تعارضون في بيع أمتعة أعداء جلالة السلطان » فأجبه الشيخ السادات قائلا : « قد أرسلت النيا لمعاقبة شخصين مجرمين وليس لهنك شرائعنا والطعن في عاداتنا فكتب الى الاستانة ما شئت »



ش ٢٨ : الشيخ ابو الانوار السادات

فعند ذلك أمر الباشا باستثناء الحظيات الحوامل من البيع . وبعد ان بيعت سائر الامتعة عكف حسن باشا على اصلاح الادارة فأصلحها على ما يوافق الارادة الشاهانية وكان قد استقدم اسماعيل بك وحسن بك الجداوي من الصعيد فأرسلهما في جيش بقيادة عابدين باشا ودرويش باشا قائدتي الحملة العثمانية التي جاءت مصر عن طريق البر (فضلا عن العمارة البحرية المتقدم ذكرها) وسار في تلك الحملة أيضاً نحو الف مقاتل من رجال الشام تحت قيادة امير كبير من أمراء شين اغلي فاجتمعت هذه الحملة وسارت نحو الصعيد لمحاربة مراد بك ورجاله .

فحصلت هناك واقعة عظيمة شفت عن عدة قتلى من الجانبين وانهزم مراد بك ورجاله الى الشلالات ورجعت الجنود العثمانية ظافرة الى القاهرة . ثم جاءت الاوامر الشاهانية بعزل محمد باشا وتولية عابدين باشا مكانه

وهنا تنتهي مهمة حسن قبطان باشا فاستدعي الى الاستانة بسبب الحرب مع روسيا . ولكن مصر لم تتج من البكوات وكانوا لا يزالون في مصر العليا كما رأيت . والمسيحيون يشكون من معاملة حسن باشا بأنه أخذ متاعهم وباعه على مشهد من الناس فضلا عن الاهانة التي ساءهم إياها وعلى الخصوص المعلم ابراهيم الجوهري أمين احتساب مصر فانهم قبضوا على امرأته وأجبروها أن تخبرهم بمخايب زوجها من النقود فأخبرتهم فاستخرجوها وأخذوها . ولما برح حسن باشا القاهرة أقام عليها اسماعيل بك شيخ البلد فعهد هذا الى صديقه القديم حسن بك الجداوي امارة الحج واتفقا معاً على اقتسام الاراد



وفي سنة ١٢٠٣ هجرية توفي السلطان عبد الحميد الاول

وترى في الشكين ٢٩ و ٣٠ صورتي النقود ش ٢٩ : نقود السلطان عبد الحميد الاول



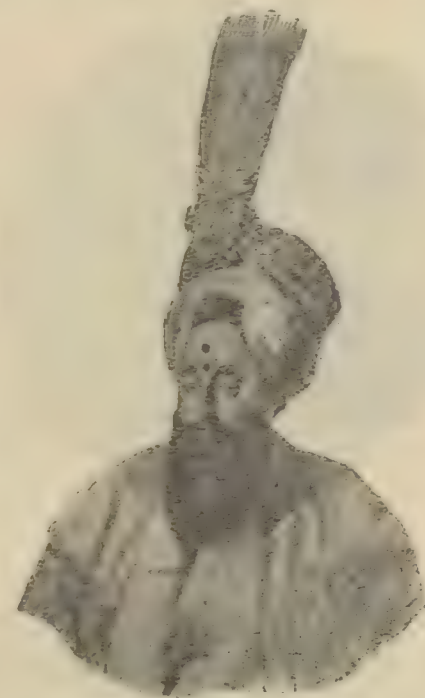
الذهبية التي ضربت على عهد السلطان عبد الحميد الاول بن احمد في القاهرة بتاريخ ١١٨٧ هـ الاولى تدعى نصف زر محبوب والثانية قندقلي ش ٣٠ : نقود السلطان عبد الحميد الاول

سلطنة سليم الثالث

من سنة ١٢٠٣ — ١٢١٣ هـ او من سنة ١٧٨٩ — ١٧٩٨

فبويع السلطان سليم الثالث بن مصطفى فأقر اسماعيل بك في مركزه فتعاضى الاحكام بدراية وحكمة الى سنة ١٢٠٥ هـ وفي هذه السنة طرأ على الديار المصرية ولا سيما القاهرة وباء شديد الوطأة لم تقاس مثله قبله حتى بلغ عدد الموتى به نحو الالف في اليوم بالقاهرة وحدها وتقلب على حكومتها في يوم واحد ثلاثة حكام . وسبب ذلك ان اسماعيل بك أصيب بالوباء فأقيم آخر مكانه فأخر حتى فني كل من كان من بيت اسماعيل بك الا واحداً يدعى عثمان بك الطبل . ولا يزال هذا الوباء مشهوراً بفكته ويعرف بطاعون اسماعيل . فتولى عثمان بك الطبل المذكور مشيخة البلد ولم يكن قادراً على ادارة الاعمال التي عهدت اليه فاستدعى ابراهيم بك ومراد بك فدخلوا القاهرة في ٢١ ذي القعدة من تلك السنة ففر حسن بك الجداوي الى مصر العليا قانطاً

فاستلم ابراهيم ومراد أزمة الاحكام وجعلا يعيثان فيها وكانا يتناوبان مشيخة البلد وأمارة الحج سنوياً بعد ان أقنيا كل من كان على غير دعوتها فصفا الجو لها . أما قلباها فكانا لا يخلوان من الضغائن المتبادلة لما طبع عليه كل منهما من حب الأثرة وقد اختلفا في الطباع والمناقب : كان مراد بك شديد البطش مقدماً لا يهاب الموت وكان ابراهيم بك أكبر سناً وأكثر اختباراً ربعا ضخم القامة حسن الطلعة حاد البصر وكان يتربص لمراد محاذراً بطشه لئلا يطلبه للزوال ولولا ذلك لم يرض معه بالاجزاء



ش ٣١ : السلطان سليم الثالث

من الدخل اجزاء سوياء . وكان لا يعارضه في ما يأتيه من الاستبداد ووضع الضرائب وسلب أموال الناس لانه شريكه في الارباح الناتجة من ذلك . وكان في ابراهيم رياء أظهر غير ما يضرر اذا استصرخ وعبد مع العزم على الاخلاف . وكان جباناً فاذا يراد أمراً لا يتظاهر به وانما يسعى اليه بالدسائس والمكائد أما مراد بك فلم يكن يعرف المكر وانما كان يسعى في أغراضه بالقوة والحزم وكان طويل القامة عضلي البنية شديد البأس يقطع عنق الثور بضربة من سيفه وعلى وجهه

ملاحح الاسود فاذا غضب يهايه ويخاف منه كل من يراه حتى أحب أصدقائه (انظر ش ٢٦) . وكان كريم النفس لا يبيت على غيظ حر الضمير لا ينكر الحق ولو كان عليه مخلصاً لاصحابه مقيماً على قوله . وكان طمعه بمقدار سخائه ووجه لذاته بمقدار حرية مبادئه . وكان سريع الغضب شديده لا يراعي في حال غضبه أمراً من الامور وربما قتلك بمصلحة نفسه أو أضر بشخصه



وترى في شكل ٣٢ صورة كل من

ختمي مراد بك و ابراهيم بك محفورة على شكل جميل

والم بالبلاد بعد عود هذين الاميرين الى

مصر جوع هائل ويقال انه حصل من كثرة ش ٣٢ : ختم مراد بك وختم ابراهيم بك ما ضبطاه من الحبوب في مصر العليا طمعاً بالكسب . ثم الغيا النظامات التي وضعها حسن باشا قبطان وابدلاها بما يوافق مطامعها الشخصية . فكثرت تعديات مماليكهما وعلى الخصوص تعديات احدن محمد الالفي (١) فثار الاهلون ثورة عامة لم يسعهما معها الا توقيف تلك الاجراءات وقتياً تخمدت الثورة فعادوا الى ما كانوا عليه فعاد الناس الى الاضطراب وكسدت سوق التجارة لقلّة الامنية

نسخة قديمة من القرآن

يحكى ان مراد بك اظهر يوماً انه عازم على تجديد الملابس والامتنعة العسكرية وطلب ما يقوم بنفقاتها ففرض على الاسرائيليين مبلغاً كبيراً اعانة لهذا المشروع فاجتمع رؤسائهم وتخابروا في ماذا يصنعون لينجوا من هذه الضريبة فاقروا على ان ينفذوا اليه اثنين من كبرائهم يسعيان في ما ينجيهم من هذه الضريبة فساروا ولما مثلاً بين يدي مراد بك قالوا له « ايها الامير اتنا فقراء ولو بعنا ممتلكاتنا ونساءنا واولادنا وانفسنا لا نجتمع عشر ما تطلبه منا فاذا اعفينا من هذه الضريبة التي يستحيل علينا دفعها نطعمك على مخبأة تكفيك مؤنة هذه المطالب . وهذه الخبأة لا يعلم بها احد سوانا وقد تنوّل هذا السر في عائلتنا حتى وصل الينا ونحن نوصله لاولادنا عندما نحضرنا الوفاة »

(١) سمي بهذا الاسم لانه يبيع بالف دينار

فلما سمع كلمة « مخبأة » فتح اذنيه وقاطعهما قائلاً « هلم بنا لنرى تلك المخبأة فاني اذا رأيتم صادقين اعفيكم وطائفتكم من كل ضريبة . هلم بنا الى المخبأة اين هي ؟ » فاجابا « ان هذه المخبأة ايها الامير في جامع عمرو بن العاص في مصر القديمة جعلها ذلك الفاتح هناك في صندوق من حديد في دهليز لا يعرف مقره الا نحن » فتأكد مراد بك انهما يتكلمان الصدق فصرفهما . ثم سار في اليوم التالي مظهراً للعبيد في البرية فر بجوامع عمرو فدخله كانه يريد الصلاة ثم نظر الى الجامع فاذا به قد تداعت اركانه فالتفت الى شيخه قائلاً « بما ان الله قد ادخلني هذا المسجد المبارك وجب علي ان اسعي في اصلاحه لكي يذكر اسمي في الصلاة مع اسم مؤسسه الفاتح عمرو بن العاص وغداً ان شاء الله ارسل اليكم الفعلة يباشرون العمل »

وفي اليوم التالي ارسل الفعلة بمراقبة احد ثقاته وبدلاً من ان يبدأوا بهدم القسم المتساقط من الجامع بدأوا بالقسم القائم وبعد بضع ساعات جاء مراد بك بنفسه فرائهم قد وصلوا الى دهليز فيه صندوق من الحديد فتحقق ما قاله له الاسرائيليان وكنا بين الجماهير فامر فخرج الصندوق ثم امر بفتحه فاذا هو ملآن رقوقاً عليها آيات بالقلم الكوفي ثم علموا بعد ذلك انه القرآن الشريف

وترى في شكل ٣٣ رسم كلمات من فاتحة القرآن مثلاً لنوع كتابته الكوفية .

بسم الله
الرحمن
الرحيم

ش ٣٣ : كلمات من فاتحة القرآن الشريف

وكان يظن انه كتب في ايام عمرو بن العاص فلما رأى الاسرائيليان ذلك فرأوا من بين الجماهير . اما مراد فاستشاط غيظاً ولما عاد الى القاهرة ضاعف الضريبة على الاسرائيليين واصر الا ان يدفعوها حالا واستعمل النكرايج لحثهم على ذلك . اما تلك الرقوق الثمينة فالقيت في الدهليز بغير اعتناء وترك هناك عرضة للشمس والماء ففسد بعضها ولما كانت الحملة الفرنسية والتقط ما بقي منها الميسيو مارسل مدير مطبوعات تلك الحملة وحفظها عنده في متحفه الخصوصي . وفي المكتبة الخديوية نسخة من القرآن يقال انها وجدت في جامع عمرو فلا يبعد ان تكون هي التي التقطها مارسل . وهي من اقدم نسخ

القرآن الموجودة في العالم اليوم والغالب انها كتبت في اوائل القرن الثاني للهجرة



وعاد مراد بك ورفيقه الى ما كانا عليه من احتلاس اموال الاهلين واموال الاجانب بالضرائب الفاحشة . وضربا على التجار الاجانب في الاسكندرية والقاهرة ورشيد ضرائب ما انزل الله بها من ش : ٣٤ نقود السلطان سليم بن مصطفى



ش : ٣٥ نقود السلطان

سليم بن مصطفى

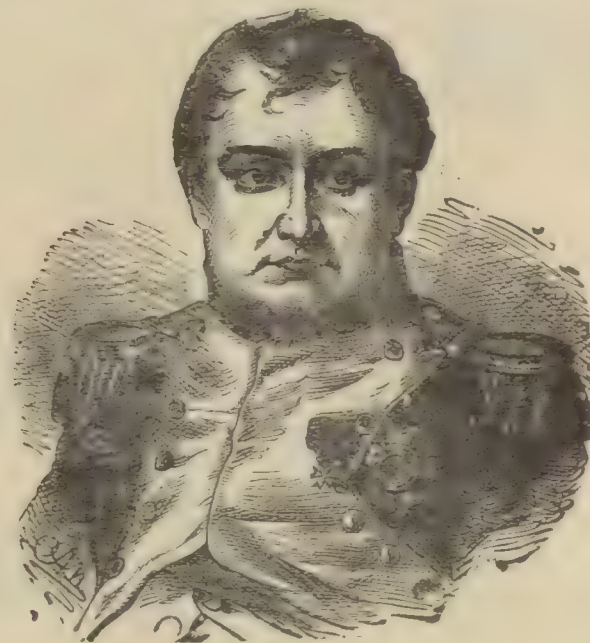
ذلك جرى على عهد السلطان سليم بن مصطفى وهو من اكثر السلاطين رغبة في الاصلاح ولكنه غلب على امره وترى في الشكلين ٣٤ و ٣٥ صور نقود السلطان سليم مضروبة بتاريخ

سنة ١٢٠٣ هـ

الحملة الفرنسية

تمهيد

قد رأيت ما كان من انغماس مراد بك ورفيقه في المظالم واختلاس الاموال بغير الحق . وكيف انهما تطرقا بتصرفهما هذا الى الاجانب القاطنين في هذا القطر تحت حماية دولهم فانهما لم يكونا يراعيان حرمة ولا ذمة . وكان اولئك الاجانب يتحملون تلك



ش ٣٦ : نابليون بونابرت

التعديت بالصبر الجميل لانهم رفعوا شكواهم الى دولهم مراراً فاعززت الى الظالم ان يرعوي فلم يرعو . وما زال الحال كذلك حتى جاء نابليون بونابرت الرجل العظيم برجاله لاقتتاح هذه الديار . وقبل الخوض في تفاصيل تلك الحملة نشرح للفارى : اولاً ما الداعي الذي حمل الفرنسيين الى تجريدنا . ثانياً كيف كانت مصر عند وصول تلك الحملة اليها

لماذا جرد الفرنسيون الى مصر

لما قتل الفرنسيون ملكهم لويس السادس عشر وتخلصوا من الحكم الاستبدادي اقاموا عليهم نوعاً من الحكومة دعوها « الادارة » وهي عبارة عن لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء يسمون كلاً منهم « مديراً » وذلك سنة ١٧٩٥ للميلاد (١٢١٠ هـ) ثم جعلوا يحملون على ممالك الارض يفتحونها بهمة كبير قوادهم الرجل العظيم بونابرت فحاربوا النمسا ثم ايطاليا فغيرها ولم يبق في سبيلهم الا دولة انكلترا واقفة لهم بالمرصاد وهي على جانب عظيم من القوة ولا سيما في البحار . فتباحثت ادارة فرنسا بذلك مراراً لسكنها لم تستطع مناهضة تلك الدولة لما كانت تعلمه من قوتها ومناعة جانبها وكان بونابرت قد مرّ في البحر المتوسط وضم قسماً عظيماً من شواطئه الى فرنسا فطمع بمصر وقد اعجبه شأنها وما فيها من الخيرات وما بها من التعزيز لدولته والارهاب لانكلترا . الا ان الادارة لم تكن على بينة من الامر فعرض بونابرت رأيه هذا عليها وشرح لها شرحاً مستوفياً كيف كان هذا الوادي منذ القدم منشأ الخيرات العالم المتمدن ثم امسى موضوعاً لمطامع الدول العظيمة . وشاغلا لرجال الفتوح من الاسكندر الى الايام الاخيرة ثم قال مخاطباً الادارة :

« ان مصر ايها السادة اكثر بقاع الارض خصباً . كانت اهرام لرومية قديماً وللقسطنطينية الآن . وفيها الحنطة والارز وسائر انواع البقول والمكر والنيلة والقطن والسنا والخيار شنير والنطرون والكتان والقنب وفيها صنوف الماشية والطيور الداجنة وقد اشتهرت على الخصوص بحسن حميرها وقوة جمالها . نعم ان مواد الاشتعال والزيت والبن والتبغ نادرة فيها لكن ذلك مستدرك لان الشرق لا يستغني عن هذا الوادي وهو مركز متوسط بين افريقيا وآسيا . فالفوافل تحط رحالها في القاهرة كما رسو المراكب عند الشواطئ بعد سفر طويل . وهذه القوافل مؤلفة من مئآت وأحياناً الوف من الجمال قادمة من بلاد العرب أو سوريا أو سواحل المغرب أو الحبشة أو أواسط افريقيا أو من رأس الرجاء الصالح أو السنغال تحمل أنواع التجارة من الخشب والفحم والزيت والتبغ والبن والاثار ومن الرقيق والتبر والعاج والريش والصنغ والاطياب والعطور والشالات وكل محاصيل الهند فتبيعها في مصر وتأخذ بدلا منها احمالا من مصنوعات أوروبا

« فما برحت مصر ايها السادة منذ القدم موصلاً تجارياً بين أوروبا والشرق وهذه

تجارتنا مع الهند قد كانت قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح تأتينا عن طريق مصر ترسو السفن عند برنيس من سواحل البحر الاحمر ومنها تنقل السلع على الجمال في الصحراء ٢٤ مرحلة الى طيبة (الاقصر) ومنها في النيل الى مصر وتوزع فيها ومنها تنقل الى أوروبا . وكانت تنقل أحياناً الى القصير في البحر الاحمر ومنها الى السويس ثم على الجمال الى منف ومنها إلينا . وإذا اغضينا عن أهمية مصر بالنسبة لتجارة الهند فإن لها أهمية عظيمة بالنظر لتجارها الخصوصية

فإذا فتحنا هذه البلاد واعتدنا بدارتها خمسين سنة فقط يبلغ عدد سكانها اضعاف اضعاف ما هو عليه الآن . كان سكان هذا الوادي في الازمنة الحالية بين ١٢ و ١٥ مليوناً وهم الآن لا يبلغون ربع هذا القدر لسوء الإدارة . فضلاً عما تقدمه مصر لمعاملتنا من مصلحتها وما نبيعه فيها وفي جوارها من مصنوعات بلادنا . فما هي مستعمراتنا بالنسبة الى هذه البلاد الخصبة الشاسعة الاطراف ؟ هل اليها فستغل من ارزها وسكرها وقطنها كما فعل غيرنا وهي تغنينا عن حاصلات اميركا وتكفينا مؤونة الارتباط بها .

« ولا يخفى عليكم أيضاً أننا إذا ثبتنا قدمنا في مصر لا تبقى انكلترا طويلاً في الهند او نجعل على سواحل البحر الاحمر حاميات نقيمها في معازل منيعة نذخر فيها نتاج ذلك القطر ونحول التجارة الهندية اليه . ولو فرضنا بقاءها عن طريق رأس الرجاء الصالح كما هي الآن فالتناقيم بيننا وبينها باباً للمنافسة ونشق رعة بين السويس والنيل . ولا شك اذا فعلنا ذلك أننا نحبط مساعي انكلترا جملة لان التجارة تتحول إلينا . اما هذه التبعة فقد كانت محفورة منذ القدم ولا يصعب علينا إعادة حفرها . فإذا فتحنا مصر لا يقتصر نفعها لنا مثل نفع سائر المستعمرات العظيمة لكننا نعرفل مساعي انكلترا بها فنكتفي مؤونة مقاومتها - هذا اذا لم نذهب بها الى الخضيض »

فترددت الادارة بقبول مشروعه لكنه ما زال يستحث اعضاءها حتى اشتد الجدل بينه وبينهم فرأى فيهم اصراراً على مقاومته فعرض بذكر استقالته فنهضوا اليه ووقفوه واعادوا النظر في ما عرضه ووافقوه على رأيه بشرط أن يكون ذلك سرّاً لئلا تتصل مقاصدهم بمسامع انكلترا فتسعى ضدهم . فانحصر هذا المشروع بين بونابرت والخمسة المدبرين فقط - حتى الكاتب الذي كتب الامر باعداد الحملة لم يكن يفهم حقيقته لانه أمر أن يكتبه بصورة مبهمه في ٥ مارس سنة ١٧٩٨

ومن مقتضى هذه الاوامر السرية ان تكون هذه الحملة مؤلفة من اربعين الف

مقاتل عليهم اربعون قائداً يختارهم بونابرت وطائفة من رجال العلم لا يقل عددهم عن المائة بين مهندسين وجغرافيين وطبيعيين وكيمائيين ولغويين وفلسفيين ونحو ذلك العدد من سائر الصنائع . وعمارة بحرية بقيادة الاميرال برويس يضاف اليها المراكب الراسية عند طولون . وان يقبض في مدة عشرة أيام من الخزينة مليون وخمسمائة الف فرنك فضلاً عن ثلاثة ملايين من خزينة بارن وان يتصرف بهذه المبالغ حسب حكمته والاوامر السرية المعطاة له

فبذل بونابرت جهده لتعزيز هذه الحملة والاسراع في اعدادها . فشاعت الاقاويل عن هذه الاعدادات وكثرت الظنون فقال بعضهم انها حملة تعدها فرنسا لمحاربة انكلترا وقال آخرون انها تفعل ذلك لافتتاح مدن جديدة في آسيا وافريقيا وقال آخرون غير ذلك

وبونابرت لم يأل جهداً في اعداد المهيات وترتيب أمور الحملة فجعل المراكب المعدة لنقل الجند اربعمائة مركب تسير في أربع فرق من أما كن مختلفة . الفرقة الاولى تسير من طولون والثانية من جينوا والثالثة من شيفيتافسكيا والرابعة من جاكسيو ثم تجتمع وتتحد وتسير الى مصر . وأن تنقل على هذه المراكب أيضاً مطبعة عربية كانت في البروباغندا برومية مع ما يلزمها من العمال . وعلى أنقاض هذه المطبعة أقيمت مطبعة بولاق الاميرية ونقلوا أيضاً كل ما يلزم من الادوات الكيمية والطبيعية والرياضية وانضم الى طائفة العلماء كثير من مشاهير علماء فرنسا وصنائعهم متطوعين ومثل ذلك القواد . فكان فرنسا بجملتها تآقت الى مرافقة هذا القائد العظيم فانضم الى حملته كثير من ابطالها وعلمائها وصنائعها بقلب واحد . وهم لا يعلمون الى أين تذهب بهم الاقدار

أما الجيوش فجعل فيهم الفين وخمسمائة من الفرسان وألفاً من الطبجية والمهندسين ومن بقي (من الاربعين ألفاً) من المشاة . وكان من جملة القواد الذين رافقوا تلك الحملة كلاير وديزه ورينير وبونومينو وهم قواد الخمس الفرق من المشاة . وكان مورات قائداً للفرسان وكافرلي قائداً لفرقة المهندسين ودومارتين على الطبجية

هذا من قبيل الحملة البرية أما الحملة البحرية فكانت مؤلفة (أولاً) من ١٥ مركباً حريباً من حملتها « الشرق » محمولاها مائة وعشرون مدفعاً ومركبان محمول الواحد منهما ثمانون مدفعاً وعشرة مراكب محمول الواحد منها ٢٤ مدفعاً . واثنان محمول كل منهما ٦٤

(ثانياً) من اربع عشرة مدرعة في بعضها أربعون مدفعا وفي بعضها ٣٦ وفيها ابريقان (ثالثاً) من ٧٢ مركباً حريباً صغاراً على أشكال مختلفة
هذه هي الحملة البحرية وهي كما رأيت أكثر من مائة قطعة ومعها سبعمائة مركب لنقل العساكر البرية ومهماتهم وخيولهم وأسلحتهم بقيادة برويس . وبلغ عدد الملاحين نحو عشرة آلاف

أما الحملة العلمية المرافقة لتلك الحملة العسكرية فكانت مؤلفة من فرق لسكر من العلوم أو الصنائع وجماعة أعضائها مائة فيهم فرقة للهندسة وأخرى للفلك وفرق أخرى للميكانيكات والكيمياء والمعادن والحيوان والنبات . ومثل ذلك للجراحة والطب والاقتصاد السياسي والانشاء والجغرافيا وعلم الآثار والبناء والتصوير والرسم والنقش والحفر والموسيقى الخ . وقد اختير لهذه الفنون أشهر من اشتغل بها ومعهم المطبعة المتقدمة ذكرها وعدة مترجمين . وجميع هذه المددات كانت على أهبة السفر في ٢٠ ابريل سنة ١٧٩٨ أي بعد صدور الامر ببضعة أسابيع . ومن الغريب أنه مع تعداد الرجال الذين ساعدوا في تنفيذ أوامر الادارة وفيهم القواد العظام ورجال العلم والصناع لم ينكشف لاحد منهم حقيقة المقصود من هذه الحملة الا لتاليران وهو الرجل السياسي الذي أرسلته الادارة الى الاستانة لخبرة الباب العالي بشأنها وطلب مصادقته على تجربتها وفي ٩ مايو سنة ١٧٩٨ م وصل بونابرت الى طولون والجند في انتظاره كانوا على جمر النضاض فخطب فيهم فزادهم حماسة ورغبة في الحرب . وفي ١٩ منه ودع بونابرت امرأته وركب على الدارعة « الشرق » وهي أكبر دوارع الاسطول ومعه أركان حربه كانوا ذاهبون الى زهرة أو غنيمية باردة . وأقبلت سائر المراكب من النقط الاخرى حتى اتحدت وعددها جميعاً يزيد على الخمسمائة فسارت تحترق عباب البحر وعليها خمسون الف نسمة . وفي ٩ يونيو سنة ١٧٩٨ وصلوا الى مالطه ومنها ساروا يطلبون الاسكندرية

فأوجست انكلترا خيفة من هذه الحملة فانفذت نلسون أحد كبار قوادها البحريين في أسطول وعهدت اليه أن يقتصر آثار الاسطول الفرنسي في البحر المتوسط وأن يكون ساهراً على اجراءاته وأن يقاومه اذا رأى منه مساً لحقوق انكلترا . فسار نلسون فطاف البحر المتوسط ثم تنبأ أن الاسطول الفرنسي لا يقصد الا مصر أو سوريا فسار نحوها . فبلغ ذلك بونابرت فأمر الاسطول أن يقيم غربي الاسكندرية ببضعة مراحل وأن يكون دائماً في استعداد للدفاع

حالة مصر عند قدوم الحملة الفرنسية

لم يكن في وادي النيل اذ ذاك أكثر من ثلاثة ملايين من السكان يتألفون من ثلاث طوائف كبرى وهم : أولا الاقباط سكان مصر الاصليون لا يزيدون عن مائتي الف نفس . ثانياً العرب الذين اقتنحوها . ثالثاً الاتراك وفيهم المماليك . وشرذمات من طوائف أخرى

والباشا هو الحاكم المرسل من الاستانة لتأييد سلطة السلطان كان يقيم في قلعة الجبل في القاهرة لا فائدة من وجوده هناك الا اثبات سلطة جلالة السلطان على مصر ويقوم ذلك بالخطبة له في الصلاة وضرب النقود باسمه . أما المماليك فكانوا أخلاطاً من الاتراك والشرأكة والكرج وجميع ثروة البلاد وادارتها في أيديهم . على أنهم مع ذلك لم يكن لهم في البلاد عصبية لأنهم لم يكونوا يتوارثون الحكم الا نادراً . وانما كان يتولى منهم من يمتاز بالنفوة أو الاحتيال أو المحسوية وما شاكل . وقبلما ارتقوا منصة الحكم بالحكمة والدراية وحسن السياسة ولذلك كانت أحكامهم عرضة للفساد وداعية للاخلل . وكان مقرهم في بهو كبير مختص بهم في قلعة الجبل وفيها اصطبلات كبيرة لحيلهم ومخازن لاسلحتهم ومعداتهم . أما مساكنهم الخصوصية فكانت غالباً في حي قيسون وحي بركة الفيل ودرب الحبانية في أجمل ما يكون من البناء مرصفة بالرخام والفسيفساء وفيها الرياش من الحمل المزركش بالحرير . وفي بعضها حدائق غناء تزينها السراي الجميلات من نساء الكرج وغيرهن

أما الجنود فكانوا لا يزيد عددهم على الثمانمائة أو الالف من المماليك الاشداء وقبلما يكونون على شيء من الفنون الحربية وأكثرهم من الفرسان أما المشاة فقليلون بينهم . فاذا امتطى المملوك صهوة جواده تقلد القرينة بتمكيه والطبنجات في منطته والسيف على يساره وهرأوة في قربوزه وقضيباً من القولاذ أمام أنفه تمتدأ من جبهته الى ذقنه وقد يتفق أن يتمرن أحدهم على الحركات العسكرية أما الجماعات فلا يعرفون شيئاً عن المربعات أو الخطوط الحربية وانما كانوا يتقنون الفروسية . وفي يوم قدوم الفرنسيين الى مصر كان على الاحكام ابراهيم بك ومراد بك كما مر بك الاول شيخ البلد والثاني أمير الحج وبأيديهما الحل والعقد . وكان ابراهيم بك مشهوراً بالغنى والطمع والاحتيال . وكان مراد بك يفوقه اقداماً وحزماً وفيه كرم وسخاء . وكلاهما لم يؤيدا سلطتهما الا بالقتل والنهب والاحتيال وقد اتفقا على اقتسام ايراد البلاد

أما العرب فمنهم فئة العلماء والفقهاء وفي أيديهم إدارة المعابد والتكايا وهم في الغالب من عائلات قديمة متصلة بالصحابة أو غيرهم من أصحاب البيت وكانت معيشتهم غالباً في ترف ورخاء وإن لم يبلغوا في ذلك مبلغ البكوات المماليك . وكانوا محترمين لدى الأهليين احتراماً دينياً وادبياً . أما نفوذهم السياسي فكان ضائعاً في جانب استبداد المماليك وكانت التجارة رائجة في مصر وأصحابها من ثقات العرب وأصحاب الأمانة ولذلك قلت بينهم التفاليس . وكانت فرضة القاهرة بولاق وفيها كانت ترسو المراكب حاملة البضائع على اختلاف الأنواع قادمة من أقطار شتى من العالم . ومن بولاق تحمل إلى الخانات أو الوكالات كخان السبع قاعات وخان التركاني وتباع فيها بالأجمال . أما البيع بالمفردات فكان في الأسواق إلى شمال المدينة ومن باب زويلة إلى الباب الذي يشرف على الصحراء

أما جباية جمع الخراج فكانت موكولة إلى فئتين من المصريين هما المسلمون والاقباط . فمن المسلمين كان الروزنامجية وعندهم تقاويم الأرضين وسجلات الأملاك وكانوا ممتازين عن سائر الأهليين ومحافظين على أنسابهم لا يتزوجون إلا من بنات أكتفائهم وكانوا على جانب من الثروة ولهم عقارات واسعة يضرب بهم المثل في ذلك . أما الاقباط فكانوا يقتصرون على ضبط الحسابات في القبض والصرف كمائر الحساب إلا فيما ندر . وكانت مساكن الاقباط في القاهرة شمالي المدينة وغربها فيما كان يعرف بباب المقدس حيث ثمن الأزبكية الآن وفي باب البحر ولذلك دعي بعض أحيائها بحارة النصراري وأكثرهم من متوسطي الثروة . أما أصحاب المصارف والمدانيون والصيارف فكانوا من اليهود وقيمون عائلات كثيرة في بيت واحد بحارة اليهود ويضطهدهم المماليك اضطهاداً شديداً

أما الأجانب في القاهرة فأكثرهم من الفرنسيين وكانوا يلبسون اللباس العربي ويتكلمون اللغة العربية جيداً وقيمون في جهة الموسيقى وكانوا يتزوجون مع المسيحيين من السوريين وهؤلاء كانوا يقيمون غالباً في درب الجنينة . وكان في وادي النيل جماعة كبيرة من السوريين يقيمون غالباً في السواحل وفي المدن الكبيرة مثل دمياط ورشيد وأسيوط يتعاطون التجارة أما بضائع أوروبا أو بحاصلات السودان من العاج والريش والصنع أو بضائع أخرى . أما علاقة مصر مع الدول الأجنبية في ذلك العهد فكانت قاصرة على التجارة . والبندقية « فيس » أمثان علاقة معها من

سار الامم ولها قنصل مقيم في الاسكندرية فضلاً عن علاقات أخرى مع تجار فرنسا وإنكلترا

هذا ملخص حالة مصر عند قدوم الفرنسيين إليها

فتح فرنساويين مصر

من سنة ١٢١٣ — ١٢١٦ هـ أو من سنة ١٧٩٨ — ١٨٠١ م

مرَّ بك في الفصل السابق أن الاسطولين الفرنسيين والانكليزي ساروا في البحر المتوسط قاصدين شواطئ الدلتا

في يوم الأحد الواقع في ١١ محرم سنة ١٢١٣ هـ ظهر في ميناء الاسكندرية اسطول مؤلف من خمسة وعشرين مركباً انكليزياً . وكان متسلم الاسكندرية « حاكمها » السيد محمد كريم أحد أعيان الوطنيين . فلما علم بقدوم الاسطول جعل يراقب حركته وسكناته وأهل المدينة يتساءلون فيما بينهم عن أمره وبعد قليل اقترب من الثغر قارب فيه عشرة من الأفرنج طلبوا مقابلة الحاكم فجيء بهم إلى السيد محمد كريم وهو في مجلسه وحوله رجال حكومته فسألهم عما جاؤا من أجله فقالوا « إن ما ترونه في هذا البحر اسطول انكليزي جاء للتفتيش عن عمارة فرنساوية عظيمة خرجت مؤخراً تريد جهة من الجهات فربما داهمتكم فلا تقوون على دفعها فتكون لكم نصراء عليها » فظن السيد محمد كريم ذلك مكيدة فاعلظ لهم بالقول فقالوا « اتنا نرسو في هذا البحر نحافظ عليه لا نطلب منكم إلا المدد بالماء والزاد بشمته »

فاجابوهم « إن هذه البلاد بلاد السلطان ولا يد للفرنساويين فيها فإذا جاؤنا لا نبالي بهم فاذهبوا أنتم عنا » فعادوا ثم أقلعت المراكب تخترق عباب البحر . أما السيد محمد كريم فأنفذ إلى مراد بك في القاهرة حال وصول الاسطول يخبره بما كان وارسل إلى كاشف البحيرة بأمره بجمع العربان وأن يأتي بهم للمحافظة على الثغر . فلما اتصل بذلك بمسمع الأمراء والبكوات لم يكتفوا به وقالوا « لا نبالي بمن تحدته نفسه بمدايمتنا واتنا ندوسه تحت حوافر خيولنا » أما الشعب فاضطرب وخاف . ثم جاء خبر آخر باقلاع الانكليز فسكن الجأش

وفي يوم الاثنين في ١٨ منه وصلت ثمر الاسكندرية العمارة فرنساوية فارسلت أحد قواربها تطلب القنصل فناع السيد محمد كريم في أول الأمر بتسليمه . ثم اذن له فدخل حتى أتى الدارعة التي عليها بونايرت فسأله عن حال المدينة فاخبره بما كان من

أمر الأسطول الانكليزي واث الاهلين في يقظة واستعداد للدفاع جهاداً في سبيل الدين

تدابير المالك لرد الفرنسيين

وكانت حامية الاسكندرية لا تزيد على خمسمائة من الانكشارية معظمهم يتعاطون التجارة أو يشتغلون بالصناعة وكانوا مع ذلك في استعداد للدفاع . وكتب السيد محمد كريم الى مراد بك و ابراهيم بك في القاهرة بما جرى الى أن قال « ان العارة التي ظهرت في هذا اليوم لا يعرف أولها من آخرها » فلما تلا مراد بك الرسالة استشاط غيظاً ورمى بالكتاب الى الارض . ثم ركب جواده قاصداً ابراهيم بك في سراي قصر العيني على ضفة النيل المطلة على جزيرة الروضة . فلما اجتمعا قررا عقد جمعية عمومية فبعثا الى كبراء البلاد ورجال الدولة وفيهم بكير باشا الوالي فاجتمعوا اجتماعاً حافلاً وتباحثوا في ما جاءهم من الانباء الاخيرة . فقال مراد بك وهو ينظر الى بكير باشا شزراً « لا ريب ان الفرنسيين لا يجسرون على القدوم الى مصر من تلقاء أنفسهم فلعلهم جاؤا بأمر من الباب العالي . . . ولكن الله قادر أن ينصرنا على الاثنين »

فاجابه بكير باشا « ان هذا الكلام لا يليق صدوره منك وكيف يخال لك ان الباب العالي يسلم بدخول أمة غريبة الى بلاده . دع عنك ذلك وهلم الى سيفك ورجلك لدفع العدو الذي داهمك » وبعد المفاوضة أقروا على المواد الآتية :

١ أن يسير مراد بك في فرقة من الفرسان على الضفة الغربية لفرع رشيد من النيل نحو الاسكندرية لايقاف الفرنسيين عن التقدم

٢ أن يعسكر ابراهيم بك بمن يبق من الجند على الضفة الشرقية عند بولاق لحماية القاهرة

٣ أن يرسل بكير باشا الى الاستانة يستمد الباب العالي « بالترياق من العراق » ثم شاع في أسواق القاهرة خبر قدوم الفرنسيين فكثرت الهرج وازداد الاضطهاد على المسيحيين . وعبثاً حاول ابراهيم بك وبكير باشا اقناع المسلمين ان هؤلاء المسيحيين من جملة رعايا الدولة العلية

فتح الاسكندرية

أما بونابرت فبعد أن استوعب كلام القنصل أقرّ على النزول الى البر حالاً فاعترضه الاميرال برويس بما يحول دون ذلك من بعد المسافة وصعوبة المسلك فاصرّ على النزول

وكانت قيادة القوتين البحرية والبرية بيده فوافقه برويس مكرهاً فصار بالمرأى الى جهة العجمي و برج مرايوت على مسافة قصيرة جداً من الاسكندرية غرباً . وقضوا النهار بطوله يستعدون للنزول . وفي الساعة العاشرة مساءً باشروا النزول بالسرعة الممكنة وما زالوا يحدين في ذلك الى الساعة الاولى بعد نصف الليل وقد نزل منهم أربعة آلاف وثمانمائة رجل فنزل بونابرت وكانت الليلة مقمرة فنام نحو ساعتين على الرمال . ثم أرسل طلائعه وسار بمن بقي مشاة مستترين بجح الليل ومستترين بالقمر وفي الصباح التقى بونابرت بقبايل من عرب البحيرة « ولد علي » تحت قيادة أميرهم فتبادلوا طلقات قليلة . ثم قرّ العربان وتقدم بونابرت برجاله حتى أشرفوا على الاسكندرية يستدلون على مكانها بعمود السواري

ثم وقف بونابرت على مرتفع اشرف منه على الاسكندرية فرآها وفيها المآذن والمناظر تناطح السحاب . فجعل رجاله فرقاً بين الواحدة والاخرى مرمى رصاص وخطب فيهم وحرّضهم أن يتجنبوا اوراق الدماء ما استطاعوا الى حجبها سيلاً فهاجم الفرنسيون المدينة ودخلوها عنوة وقد أصيب الجنرال كلاير برصاصة في رأسه لم تمته فاستلمت الجنود الفرنسية الاسوار وقرت الحامية المصرية تطلب ملجأ في الابراج القديمة وسقط الجنرال مينو عن أحد الاسوار التي استلها هو فخرحت نخذه . أما الجنرال مرمون فدخل المدينة من بابها بعد أن حطمه بالقنوس . وخرق باقي الجيش الاسوار ودخلوا منها لأنها لم تكن متينة البناء

ثم أرسل بونابرت أحد ضباط جيشه الى سكان المدينة يخبرهم انهم في مأمن على أرواحهم وأموالهم وان الفرنسيين لم يأتوا لمحاربتهم وانما جاؤا لمحاربة المالك

أما السيد محمد كريم والعساكر الأتراك ففروا الى حصن فرعون فاضطر الاهلون الى التسليم قهراً فدخل بونابرت ورجاله الاسواق . وبلغ ذلك السيد محمد كريم فجاء بمن معه وسلّح سلاحه وفعل مثل ذلك المشايخ والعلماء فاصّروهم بونابرت اكراماً خصوصاً . ثم التفت الى السيد كريم قائلاً « قد أخذت سلاحك بالسيف وكان لي أن أعاملك معاملة الاسير لاني أخذتك بعد أن دافعت عن نفسك ما استطعت . ولكن الشجاعة حليفة الشرف ها اني أعيد اليك سيفك على أمل أن تكون مساعداً أميناً للجمهورية الفرنسية كما كنت للحكومة السابقة على عتوها وظلمها » ثم سأله اذا كان يرغب في معاضدة مساعيهم وهي تأييد سلطة الباب العالي وقمع المالك . فاجاب بالاجاب فاقره على الاسكندرية تحت منظره الجنرال كلاير وكان قد اضطر الى البقاء

في الاسكندرية بسبب الجرح الذي أصابه

ثم أباح بونابرت للمسلمين المحافظة على معتقداتهم وصلواتهم كما كانوا قبلاً . وجرد الاهلين من السلاح وأمرهم أن يحملوا على صدورهم الجوكار وهو علامة مصنوعة من الجوخ أو الحرير مستديرة بقدر الريال مؤلفة من ثلاث قطع كحلية ويضاء وسمراء توضع بعضها فوق بعض بحيث تظهر الالوان الثلاثة - شارة العلم الفرنسي ذي الثلاثة الالوان

منشور بونابرت الى المصريين

ولما رسخت قدم الفرنسيين في الاسكندرية نزل للبر بعض رجال الحملة العالمية ومعهم المطبعة العربية وجعلوا ينقبون في آثار الاسكندرية البنائية والجيولوجية . ثم أمر بونابرت أن تنزل جميع المهات العسكرية من خيول وأسلحة ومدافع وغيرها الى البر سريعاً . وإن يطبع منشوراً عربياً يفرق في البلاد فكتب وطبع وهذا نصه بالحرف الواحد :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه . من طرف الجمهور الفرنسي المبني على أساس الحرية والمساواة السر عسكر الكبير بونابرت أمير الجيوش يعرف أهل مصر جميعهم ان السناجق الذين يتولون مصر منذ زمن مديد يعاملون الملة الفرنسية بالاحتقار والاعتداء وقد حضرت الآن ساعة عقوبتهم . واحسرتاه انه منذ أيام وعصور هؤلاء الممالك الجلوبون من بلاد الاباطة والكرج يفسدون في أحسن أقاليم الكرة الارضية ولقد حتم رب العالمين القادر على كل شيء بانقضاء دولتهم . فيا ايها المصريون وقد يقال لكم اني ما زلت هذه الجهة الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح لا تصدقوه وقولوا لايخوانكم اني ما قدمت اليكم الا لأخذ بحققكم من الظالمين وانني اكثر من الممالك عبادة لله سبحانه وتعالى واحترماً لنبه محمد « صلعم » وللقرآن العظيم . وقولوا لهم أيضاً ان جميع الناس شرع عند الله وان الذي يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم . وأي شيء في الممالك يميزهم عن غيرهم ويستوجب ان يكون لهم وحدهم كما تجلب به الحياة الدنيا . فحيث تكون ارض مخصصة فهي للمالك ومثل ذلك احسن الجواني واكرم الخيل وأجل المساكن . فان كانوا قد أخذوا الارض المصرية التزاماً فليظهروا لنا الحجة التي كتبها لهم الله . ولكن رب العالمين رؤوف على الناس وبعونه

تعالى من اليوم فصاعداً لا يستثنى احد من أهالي مصر عن الدخول في المناسبات السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم يقوض اليهم تدبير الامور والمهام وبذلك تصلح حال الامة كلها في الاراضي المصرية كاللبن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر الواسع الذي اضاعه طمع الممالك وظلمهم . فيا ايها القضاة والمشايخ والائمة ويا ايها الشريفة وأعيان البلاد قولوا لامتكم ان الفرنسيين هم أيضاً مسلمون مخلصون . واثباتاً لذلك قد نزلوا رومية الكبرى واخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة المسلمين ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردها منها الكفالية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم محاربة المسلمين . ومع ذلك فان الفرنسيين في كل وقت اجباء حضرة سلطان العثمانيين واعداء اعدائه ابد الله ملكه . وبعكسهم الممالك فانهم خرجوا عن طاعة السلطان غير ممثلين لاوامره ولم يطيعوه الا عن طمع في قلوبهم كمين . فطوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فتصلح حالهم وترفع مراتبهم وطوبى للذين يقعدون في اماكنهم غير مائلين لاحد الفريقين المتحاربين . لكن الويل ثم الويل للذين يتحدثون مع الممالك ويساعدونهم في الحرب علينا فلا يجدون طريق الخلاص ولا يبقى لهم أثر

« المادة الاولى : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة على مسافة ثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها العسكر الفرنسي يجب ان ترسل للصارى عسكر بعض وكلاء من عندها لكي يعرفوا المشار اليه انهم اطاعوا وانهم نصبوا العلم الفرنسي الذي هو أبيض وكحلي واحمر

« المادة الثانية : كل قرية تقوم على العساكر الفرنسية تحرق بالنار

« المادة الثالثة : كل قرية تطيع العساكر الفرنسية يجب عليها ان تنصب العلم الفرنسي كذا علم سلطان العثمانيين محبنا دام بقاءه

« المادة الرابعة : على المشايخ في كل بلد ان يختتموا حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك خاصة الممالك وعليهم الاجتهاد الزائد لكي لا يضيع أدنى شيء منها

« المادة الخامسة : يجب على المشايخ والفضاء والائمة ان يلازموا وظائفهم وعلى كل واحد من أهل البلد أن يبقى في مسكنه مطمئناً كذلك تقدم الصلاة في الجوامع على العادة . وعلى المصريين جميعاً أن يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى على انقراض الممالك قائلين بصوت عال ادام الله اجلال سلطان العثمانيين . ادام الله اجلال العسكر الفرنسي . لعن الله الممالك واصلاح حال الامة المصرية

« تحريراً في معسكر الاسكندرية في ١٣ شهر مسدور من السنة السابعة من الجمهورية فرنساوية يعني اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هـ » اهـ .

زحف بونابرت على القاهرة

وامر بتوزيع هذا المنشور في البلاد المصرية . ثم فكر في أمر التوجه الى القاهرة واخضاع سائر القطر . وكان من الاسكندرية الى القاهرة طريقان الواحد يمر بدمهور وهو طريق الصحراء على البر الغربي والثاني طريق رشيد في النيل . فرأى الطريق الثاني أصعب مسلحاً عليه لان رشيد كانت لا تزال في حوزة المالك فاقراً ان يسير عن طريق دمنهور في الصحراء وكان قد انقذ الجنرال ديزه عند استلام الاسكندرية ليسير في ذلك الطريق وارسل عمارة بحرية لتحتل رشيد ثم تقدم في النيل لملاقاته في الرحمانية

وفي ٢٤ محرم سنة ١٢١٣ هـ (٧ يوليو سنة ١٧٩٨ م) برح بونابرت الاسكندرية في الساعة الخامسة مساءً اتقاء الحر تاركاً كلابرها فيها . وما زال سائراً بحملته الى منتصف الليل فزلوا للراحة فرقدوا ساعتين ثم نهضوا وما زالوا يواصلون السير ليلاً ونهاراً وقد قاسوا عذاباً شديداً من قلة الماء حتى وصلوا دمنهور فوجدوا خيرات كثيرة وماءً غزيراً فمكثوا هناك يومين وليتين . ثم شخصوا الى الرحمانية في صباح ٢٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ (١١ يوليو سنة ١٧٩٨ م)

وفي اليوم الثاني من سيرهم لاقتهم شرذمة من الفرسان المالك فجرت بين الفريقين مناوشة شفت عن انهزام المالك وقد قتل منهم نحو خمسين فارساً . فواصل بونابرت سيره حتى وصل الرحمانية وقابل النيل فتوالت العساكر على مائه كأنهم ذئاب خاطفة فثربوا وتركوا خيولهم للمرعى . وعسكر بونابرت ومن معه طلباً للاستراحة على أثر ما قاسوه من مشاق السفر والعطش ريثما تصلهم العمارة البحرية التي بعثوها الى رشيد . وبعد ليلتين من مكوثهم هناك أتت العمارة وقد استولت على رشيد وجعلت فيها حامية تحفظها . وكانت الجيوش قد استراحت فتأهبت للرحيل الى القاهرة فسارت المشاة والفرسان على الضفة الغربية حذاء النيل والى يسارها العمارة سائرة في النيل وما زالوا يجدون السير حتى اتوا محلة سلامة عند المساء فلم يمكنهم استطالاع حالة العدو تلك الليلة

خطة مراد بك في الدؤع

اما ما كان من امر مراد بك فلما عهد اليه المسير الى الاسكندرية كما تقدم جمع

اليه فرسانه وقبل خروجهم من القاهرة صاروا يصادرون اناس ويأخذون ما يحتاجون اليه بلائثن . ثم سار بهم الى الجسر الاسود في البر الغربي فمكث يومين ريثما تكامل العسكر وسناجقه وفيهم علي باشا الطرابلسي وناصيف باشا وكانا من اخصائه المقيمين معه في الجزيرة . وأخذ معه كثيراً من المدافع والبارود . وجعل الرجال وهم اسراب من الالادشات والغليونجية والاروام والمغاربة حملة بحرية تسير في النيل على الغلايين الصغار التي انشاها هو

ولما برح الجسر الاسود ارسل الى مصر باشارة علي باشا الطرابلسي يأمر باصطناع سلسلة من الحديد في غاية الدخن والمثانة طولها مائة وثلاثون ذراعاً تنصب بعرض البوغاز عند برج مغيزل من البر الى البر لتتمنع مراكب فرنساويين من المرور وان يشاد عندها جسر من المراكب عليها المناريس والمدافع ظناً منه ان فرنساويين لا يناهضون المصريين في البر ولا بد من قدومهم بحراً وانهم يطاولونهم ويصارونهم في القتال حتى تأتيهم النجدة . وما زال مراد بك سائراً فيمن معه على ضفة النيل الغربية والى يمينه الغلايين وفيها من ذكرنا من الرجال قاصداً الجيوش فرنساوية فوصل الى قرية شبرايس وعسكر هناك بفرسانه وارسل عمارته لملاقاة عمارة فرنساويين فالتقت بها على مسافة قصيرة من منية سلامة وقد تجاوزت جنود البر بسبب الريح الشديد التي طلعت عليها ذلك اليوم

التقاء الجيشين

فبغت فرنساويون لذلك الاتفاق فاطلقوا نارهم فاجابهم المالك وكان على قيادة العمارة المصرية علي باشا الطرابلسي المتقدم ذكره فاحتدمت الحرب بين الفريقين وكادت تدور الدائرة على فرنساويين وقد يتسوا لدخول عدة من مراكبهم في حوزة المالك فارسل يريه قائد العمارة فرنساوية رسولا يوصل الخبر الى بونابرت ليسرع الى امدادهم . ثم اتفق ان احدى قتابل فرنساويين اصابت المركب الذي فيه ذخائر المالك فأحرقتها وتطايرت اجزاؤها في الفضاء فانذر المالك وخابت آمالهم . ثم وصل بونابرت بمن معه فحمد الاتفاق الذي نجى عمارتهم وأمر ان تجعل عساكره مربعات منتظمة لملاقاة المالك في البر أيضاً فالتقى الفريقان وبعد الاخذ والرد عاد المالك على أعقابهم يطلبون النجاة وفر كل من كان في القرى المجاورة فدخلها فرنساويون فلم يجدوا فيها أحداً فواصلوا السير حتى اتوا وردان فمكثوا للاستراحة ثم بلغهم أن مراد بك ورجاله تحصنوا في امبابه مقابل القاهرة

وفي ٧ صفر سنة ١٢١٣ هـ خرج بونابرت من وردان بجيشه قاصداً القاهرة وما مشي يسيراً حتى ظهرت له الاهرام العظيمة وراء الافق . وما زال اهل القاهرة منذ سفر مراد بك للملاقة الفرنسيين في اضطراب يجتمع علماءهم وفقهاؤهم في الجامع الازهر يقدمون الصلوات والتضرعات الى الله أن ينصره على اعدائه ومثل ذلك كان يفعل القراء وتلاميذ المدارس . أما باقي الاهلين فكانوا في اضطراب عظيم ولا سيما عند ما كانوا يسمعون بتقهقر المماليك

معركة امبابه

أما ابراهيم بك فكان معسكراً في بولاق كما تقدم . فلما بلغه تقهقر مراد بك من شبرايس بمدافعه خابر رجال حكومته فاقروا على بناء الطوابي عليها المدافع من بولاق الى شبرا تعزيراً للقاهرة . أما سكان القاهرة فمن يسكن جاشهم وقد وقع في قلوبهم الرعب ؟ وكان مراد بك قد تحصن في امبابه على أن يقابل الفرنسيين هذه المرة بالمدافع وليس بالفرسان كما فعل في شبرايس . وفي صباح يوم السبت في ٨ صفر بلغ الفرنسيون الجسر الاسود ثم أم دينار . وفي صباح ٨ منه (٢١ يوليو) غادر الفرنسيون أم دينار ونزلوا على ميلين من امبابه في حقل من البطيخ . فكان النيل عن يسارهم والاهرام وسلسلة جبال ليبيا عن يمينهم وامبابه أمامهم وفيها مراد وجنوده وعليهم الالبسة والدروع من الحديد المصقول تتلألأ في أشعة الشمس . وألوان ملابسهم تزيدها رونقاً وأصوات خيولهم قد ملأت الفضاء



ونظر بونابرت الى معسكر العدو فرآه حصيناً وفي مقدمته أربعون مدفعاً معدة لاطلاق القنابل على الفرنسيين عند أول حركة يتحركونها نحوهم . فالتفت الى رجاله وأشار الى الاهرام قائلاً « اعلّموا ان خمسين جيلاً من الناس تنظر اليكم من قمم هذه الاهرام

وترقب حركاتكم تنظر ما يؤول اليه أمركم مع هؤلاء المماليك »

ورى في شكل ٣٧ الجيوش الفرنسية بجوار اهرام الجيزة ثم أمر فرقة الجنرال ديزه أن تتقدم نحو المين والفرق الاخرى نحو اليسار

تجنباً لثيران تلك المدافع . فادرك مراد بك مرادهم من هذه الحركات فامر أيوب بك الدقتردار أن يطلق القنابل على فرقة الجنرال ديزه ويوقفها عن السير . فوقفت على شكل مربع تنتظر هجوم المماليك فهجم أيوب بك هجمة الاسود وتبعه السناجق بالسيوف فلاقاه مربع ديزه بنار كالصواعق المتساقطة فلم ينفك أيوب بك هاجماً وهو ينادي بأعلى صوته « بويل لكم أيها الكفار الملاعين قد ساقتم كبرياؤكم الى أرضنا مهلاً اتنا ستملاً القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يوماً تذكره أعقابكم من بعدكم . أما نحن فاذا مات أحداً فانه يذهب شهيداً الى النعيم والذي يبقى حياً فله السعادة الى آخر أيامه »

هجمت الفرق الفرنسية من على اليسار واشتد القتال وما زالت الحرب سجالات حتى تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك بمن بقي من رجاله قاصداً الصعيد واستولى الفرنسيون على امبابه

خوف أهل القاهرة

فلما اتصلت تلك الاخبار بالقاهرة ضجت العامة وكثرت الغوغاء من الرعية واخلاط الناس بالصياح منادين « يا رب يا لطيف يا رجال الله » كأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم والعقلاء منهم ينادونهم أن يتركوا ذلك الصياح قائلين « ان الصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحرب وضرب الرقاب لا برفع الاصوات والصراخ والتباج » فكانوا لا يسمعون ولا يرجعون

ثم ركب طائفة من الامراء والاجناد من المعسكر الشرقي في بولاق وفيهم ابراهيم بك وشرعوا في التعمية امداداً لمراد فزاحموا على المعادي لان التعدية من محل واحد والمراكب قليلة فلم يصلوا الى البر الثاني حتى وقعت الهزيمة على المحاربين وريخ النكباء يشتد هبوبها وأمواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلم يستطع أحدهم أن يفتح عينيه من شدة الغبار . وكان ذلك من أعظم أسباب الهزيمة حتى خيل للناس ان الارض زلزلت والسماء ساقطة عليها . والهزيمة مع ذلك متواصلة حتى انهزم ابراهيم بك وبكير باشا . وجعل أهالي المدينة يأخذون ما خفت حمله وغلائمه ويفرون من وجه الموت جنوباً وشرقاً الى الصعيد أو الى السويس وبليس . أما ابراهيم بك فسار نحو الشرق . كل ذلك ظناً منهم ان الفرنسيين قد عدوا الى البر الشرقي ولا سيما عند ما رأوا الدخان يتصاعد من جهة بولاق وقيل لهم ان الفرنسيين قد احرقوها وجاؤا ليحرقوا المدينة وينهبوا ويفتكوا

وفد العلماء الى بونابرت

ولما أصبح القوم تبين لهم ان الفرنسيين لا يزالون في البر الغربي فاجتمع المشايخ والعلماء في الازهر وتشاوروا في ما يفعلونه وأقروا على مخاربة الفرنسيين للتفاهم في ما يؤول اليه أمرهم فبعثوا وفداً ينوب عنهم في ذلك فاعتزم بونابرت تلك الفرصة وأجابهم بخطاب فحواه « اتنا ما حضرنا الا بقصد ازالة المالك الذي يعاملون الفرنسيين بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان . ولما حضرنا الى البر الغربي خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسروا آخرين ونحن في طلبهم حتى لا يبقى أحد منهم بالفطر المصري . وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب والرعية فيكونون مطمئنين في مساكنهم »

ثم قال « فليات الينا المشايخ لنؤلف لهم ديواناً نتخبه من عشرة أشخاص عقلاء يدبرون الامور »

فلما عاد الوفد الى المشايخ وبلغوهم ما قاله بونابرت اطمأنوا وركب جماعة منهم الى معسكر بونابرت في الجزيرة قلقاعم بالترحاب وطمأنهم وطلب اليهم أن يستدعوا كبارهم ليؤلف منهم ديواناً

الديوان العمومي

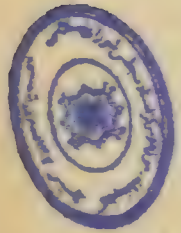
ثم دخل بونابرت القاهرة وجمع المشايخ وطلب اليهم أن ينتخبوا منهم عشرة أشخاص فوق الانتخاب على الاسماء الآتية :

الشيخ عبد الله الشرقاوي	الشيخ موسى السرسى
« خليل البكري	« مصطفى الدمهورى
« مصطفى الصاوي	« احمد العريشى
« سليمان الفيومى	« يوسف الشبرخيتى
« محمد المهدي الكبير	« محمد الدواخلى

هؤلاء العشرة هم أعضاء الديوان الوطني . وبعد أن تم انتخابهم انتخبوا رئيساً عليهم منهم بالقرعة فوق الانتخاب على الشيخ عبد الله الشرقاوي واحتفل بونابرت بافتتاح الديوان وبالغ في اكرام أعضائه وأمر بعض المصورين فصوروهم كل واحد على حدة ولا تزال هذه الصور محفوظة في معرض فرسايل . وترى في ما يلي نسخاً من بعضها . وهو أول ديوان وطني تألف بمصر - لم ينتخبه الشعب لان الشعب لم يكن له ذكر ولكن العلماء انتخبوه وهم نواب الشعب بحكم العرف

فكان ذلك فاتحة السلطة النيابية الانتخابية

وأعضاء هذا المجلس هم خيرة علماء مصر في ذلك العصر : فالشيخ عبد الله الشرقاوي هو ابن ابراهيم الشافعي الازهرى الشهير بالشرقاوي ولد سنة ١١٥٠ هـ وتربى بالقرين ثم نقل الى الازهر وقرأ على أعلم مشايخ عصره في الازهر وغيره وله مؤلفات اسلامية مفيدة منها الحاشية على التحرير ومن العقائد وشرحها وشروح ومختصرات



ش ٣٨ : الشيخ عبد الله الشرقاوي

كثيرة في الفقه واللغة والتاريخ . وكان في صباه في قلة من العيش ثم اتسعت حاله بالهدايا التي كانت تأتيه من بعض التجار . ولما مات الشيخ العروسي تولى بعده مشيخة الجامع الازهر ووقع بينه وبين والي مصر اختلاف وتفاضل حيناً ثم تصالحا بشرط أن يلزم الشرقاوي داره . فلما جاء بونابرت الى مصر سنة ١٢١٣ هـ والى الديوان الذي نحن في صدده جعله رئيساً عليه . واكتسب في أيام الفرنسيين مالا كثيرة فاستعت عليه الدنيا فاشترى الابنية والقصور والحمامات والحوانيت حتى توفي سنة ١٢٢٧ هـ

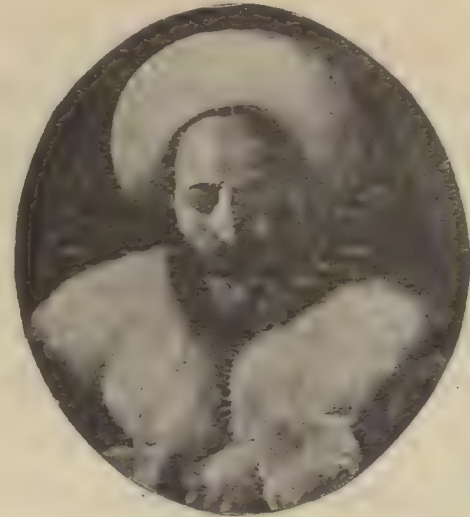
والسيد خليل البكري من سلالة أبي بكر الصديق وتولى نقابة الاشراف بمصر ومشيخة السجادة . وتأيد منصبه بها بعد مجيء بونابرت فاستولى على أوقافها وانتخبوه من جملة أعضاء الديوان كما رأيت . وكان وافر الحرمة مقبول الشفاعة عندهم فكان

أمراء الممالك الهاربون يوسطونه لدى الفرنسية في العفو عنهم . ولما خرج الفرنسيون عادت نقابة الاشراف الى السيد عمر مكرم . وتوفي سنة ١٢٢٣ هـ



ش ٣٩ : السيد خليل البكري

والشيخ المهدي الكبير يختلف في نسبه عن سائر أولئك العلماء فقد وُلد قبطياً وأبوه اسمه ايفانيوس فضل الله . ولما وُلد سمي هبة الله وكان أبوه كاتباً في بيت



ش ٤٠ : الشيخ احمد المهدي الكبير

سليمان كاشف أو مباشراً لاموره ولما ترعرع هبة الله اعجب به الكاشف وأحب أن يجعله من ضمن ممالكه ولم يكن له ميل الى العسكرية فأدخله في مصاف طلبة الازهر ولم يكن يقبل فيه غير المسلمين فاعتنق الاسلام وسمي محمد المهدي وكان زكياً فما زال يرتقي حتى صار من كبار العلماء والفقهاء ودرس في الازهر وألف كتباً كثيرة ونال حظاً من الوجهاء واتسعت حاله ونال الاقطاعات والهدايا من الكشاف وغيرهم فبنى الدور واقتنى الخدم وشارك في التجارات حتى أصبح من أهل الثروة . ولما دخلت الفرنسية مصر قربوه وسائرهم في أغراضهم ووثقوا بقوله فكان موضع ثمتهم والواسطة العظمى بينهم وبين الناس حتى لقبوه كاتم السر ولما رتبوا الديوان انتخب من أعضائه وصار اليه التفوذ الاكبر وله تاريخ طويل لا محل له هنا والشيخ سليمان الفيومي أصله من الفيوم . أتى الى مصر وهو رقيق الحال وتلقى العلم في الازهر وتقرب من الامراء الممالك لحسن انشاده وقراءة الاشعار . وتقرب



ش ٤١ : الشيخ سليمان الفيومي

من بعض الامراء البروقية وتعرف الى الاغوات وتوسط بهم الى التوكل بالقضايا والدعاوي واكتسب الاموال الطائلة وتحسنت حاله فتجمل بالملابس وركب البغال وتعين أستاذاً في الازهر برواق القيمة وكان للامراء الممالك ثقة فيه فانقذوه بمهمة خصوصية الى الاساتذة . ولما عاد الى مصر توالى عليه الهدايا من الامراء والاعيان وغيرهم فأتسعت حاله وصار منزله ملجأ للناس على اختلاف الطبقات . ولما دخلت

الفرنساوية مصر وهرب الامراء جاءت نساؤهم الى دار الشيخ الفيومي ووسطوه فدافع عنهم لدى الفرنسية وتوسط في العفو عن بعض رجالهن وكان في جملة من تعينوا في الديوان كما رأيت

الديوان الخصوصي

على أن الفرنسيين شعروا أن هذا الديوان لا يمثل كل عناصر الامة وطبقاتها فعمدوا الى تشكيل مجلس عام يؤلف من الطوائف القاطنة في مصر على اختلاف عناصرها وطبقاتها ومذاهبها. ومتى اجتمعوا ينتخبون من بينهم ديواناً يسمى الديوان الخصوصي أو الديوان الديومي أي يشتغل دائماً والديوان الآخر يجتمع عند الاقتضاء. فنشروا منشوراً على أهل القطر طلبوا فيه الى أعيان البلاد من المشايخ والتجار وأهل الوجاهة من كل الطوائف والملة أن يحضروا الى دار الحكومة. فجاء كثيرون وانتخبوا منهم ستين شخصاً ممن ثبتت لهم صفة تميزهم عن العامة بالعلم أو الثروة أو غيرها وهذه أسماؤهم باعتبار طوائفهم:

مشايخ وعلماء: السيد البكري. السيد الدهرداشي. السيد حسين رفاعي. الشيخ عبد الله الشرقاوي. الشيخ محمد المهدي. الشيخ مصطفى الصاوي. الشيخ موسى السريسي. الشيخ محمد الامير. الشيخ سليمان الفيومي. الشيخ احمد العريشي. الشيخ ابراهيم بن المفتي. الشيخ صالح الحنبلي. الشيخ محمد الدواخلي. الشيخ مصطفى الدهموري

وجاقلية: محمد آغا شوربجي فلاح. علي تكياء الجدلي. خليل آغا شوربجي فلاح. أحمد ذو الفقار اوطه باشي فلاح

انكشارية: يوسف شوربجي باش جاويش توزنكجيان. يوسف شوربجي باش جاويش جيلان. مصطفى افندي شراكسة. امير سليم شرايبي

عرب: مصطفى افندي عاصي. مصطفى تكياء باش اختيار. حسن شوربجي بركاوي تجار الغورية: الحاج محمد الاشوبي شيخ الغورية. الحاج محمد أبو النصر. الحاج

سيد شيخ المغاربة

تجار البهار: الحاج أحمد محرم. الحاج أحمد الحروي. ابراهيم افندي. قاضي البهار الحاج حسين جار ابراهيم. المعلم ميخائيل كحيل. المعلم يوسف فرحات. الحاج أحمد حسين

تجار البضائع التركية: السيد أحمد العقاد الحروي. الحاج مصطفى شيخ العقادين.

الحاج أحمد الفازانجي

تجار العطور: السيد محمد شيخ العطارين

تجار السكر: درويش عبد القاهر البغدادي. ابراهيم قرموط. محمد همشري

تجار النحاس: السيد مصطفى مصباح. الحاج حسين النحاس

صياغ وجوهرجية: الحاج سالم الجوهرجي. محمد البغدادي

تجار ورق: علي بن الحاج خليل الوراق

تجار أقمشة: الحاج ابراهيم المصري. علي الصلاتي شيخ القماحين

تجار صابون: السيد أحمد زرو. سيد يوسف نحر الدين

تجار دخان وأقمشة سورية: أحمد نظام

مشايخ الاقسام: شيخ جزاري الحسينية. شيخ العطوف

الاقباط: المعلم لطف الله المصري. المعلم ابراهيم جبر العايظ. المعلم ابراهيم مقار.

ابراهيم كاتب الصرة

الفرنساويون: دلمار. وكاف. وبوديف

هؤلاء اعضاء المجلس العام أو الديوان العام وهو منتخب من أعيان البلاد.

وقد اصدروا بتعيينه أمراً رسمياً مؤرخاً في رجب سنة ١٢١٣ هـ واشترطوا في ذلك

الامر أن يكون في الديوان المذكور مندوب فرنساوي اسمه جلوتيه ومندوب مسلم

اسمه ذو الفقار تكياء وأن يجتمعوا في يوم عينه في الامر الموماً اليه لينتخبوا منهم

ديواناً مؤلفاً من ١٤ عضواً يسمى «الديوان الخصوصي» ويكون الانتخاب بالقرعة

وبالاكثرية المطلقة. وعين لاجتماع الديوان الكبير ثلاثة أيام متوالية ثم لا يجتمع إلا

عند الحاجة. ومتى تم انتخاب الديوان الخصوصي يصادق عليه السر عسكر

(بونابرت). ثم ينتخب له رئيس يوالي اجتماعاته كل يوم لمساعدة الحكومة في النظر

في مصلحة الوطنيين. ويعين له كاتب و ترجمان ومحضر وعشرة حجاب يقومون بخدمته.

وختم الامر بتعيين رواتب اعضاء المجلس الخصوصي وأتباعهم وهي مائة ريال في

الشهر للرئيس ومائة ريال لكل عضو. والمحضر ٦٠ بارة في اليوم وللحاجب ٤٠ بارة

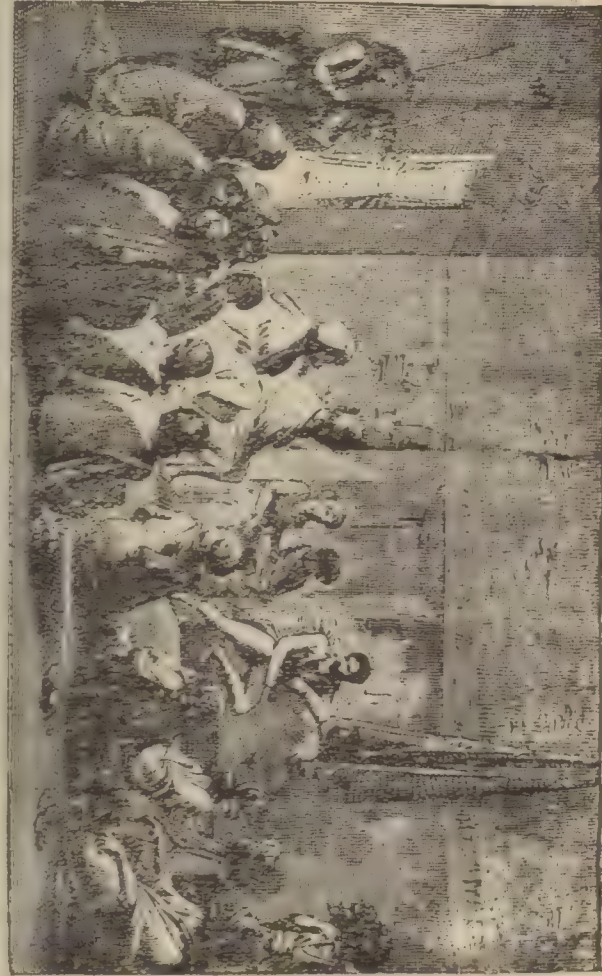
فاجتمع الديوان العام المشار اليه وانتخب من أعضائه ١٤ عضواً يتألف منهم

الديوان الخصوصي وهو غير الذي تقدم ذكره. فان هذا لم يكن فيه من المشايخ إلا

الشرقاوي والمهدي والصاوي والبكري والفيومي. وباقي الاعضاء من سائر الطوائف

على هذه الصورة. من التجار الحروي واحمد محرم ومن النصارى القبط لطف الله

المصري ومن السوريين يوسف فرحات ومخائيل كحيل ومن الانكليز «رواحة» ومن الفرنساويين بودني وموس . فهو مجلس وطني مختلط تشكل من نواب يمثلون أهم العناصر التي تتألف منها الامة المصرية - بعضهم من الوطنيين الاصليين المسلمين



ش ٤٢ : الديوان الخصوصي
أول مجلس شورى وطني في مصر أنشأه بونابرت سنة ١٨٠٨

والاقباط والبعض الآخر من الجالية السورية والافرنجية . فهو كثير الشبه بالمجلس النيابي الذي أشار اللورد كرومر بتشكيله من العناصر التي تتألف منها الامة المصرية الآن وجعل ذلك شرطاً لاستقلالها ونجاحها

ولما تم تأليف المجلس الخصوصي على هذه الصورة كتب بونابرت بذلك منشور

علقوها في الاسواق ضمنها التهديد المشوب بالترلف مثل سائر منشوراته بمصر . وقد صوروا هذا الديوان في احدى جلساته وفيه بونابرت قاعداً على دكة والعلم الفرنسي بجانبه وقد قعد الاعضاء بين يديه وفيهم الكاتب والترجمان والحضر وبعض الحجاب كما ترى في الشكل ٤٢

وأخذ الديوان المذكور يوالي اجتماعاته ولا يبرم بونابرت أمراً مهماً بمصر إلا شاوره وأخذ رأيه فيه وإنما كان شغله بالأكثر النظر في المسائل الوطنية . فالديوان الخصوصي هذا خطوة أخرى نحو السلطة النيابية في مصر لأنه منتخب من وجهاء البلاد من كل الطوائف وإذا لم تشترك العامة في انتخابه فالاتخاب حتى في الحكومات الدستورية اليوم يتم بالحقيقة على أيدي الوجهاء والخاصة الذين تنتخبهم العامة

وشكل فرنساوية مجلساً آخر أو ديواناً سموه محكمة القضايا مؤلفاً من ١٢ عضواً ستة من الاقباط وستة من التجار المسلمين وجعلوا قاضيه الاكبر أو رئيسه المعلم ملطي القبطي وفوضوا اليه النظر في القضايا التي تقع بين التجار والعامة وفي الموارث ونحوها فهو شبيه بمحكمة أهلية مختلطة . وكانت تلك القضايا تنظر إلى ذلك الحين في المحاكم الشرعية . فكان بونابرت أول من أسس المحاكم النظامية بمصر

نزول فرنساويين القاهرة

وفي يوم الثلاثاء ١١ صفر عدت الجيوش فرنساوية إلى القاهرة ونزل بونابرت في بيت محمد بك الالفي وأخذت العساكر الذين دخلوا القاهرة من فرنساويين يعاملون الباعة باللين ويبتاعون ما يحتاجون اليه ويدفعون فيه ثمناً غالياً فأحببتهم الناس وارتاحوا اليهم

ثم أخذت العساكر فرنساوية تعدي للبر الشرقي شيئاً فشيئاً حتى كثر عددهم في القاهرة فامتلات منهم الاسواق وسكنوا في البيوت ولكنهم لم يشوشوا على أحد وكانوا يأخذون ما يحتاجون اليه بزيادة في الثمن ففجر السوق وصغروا أقراص الخبز وطحنوا الحنطة بترابها وكثرت باعة المأكولات وفتح الاروام عدة حوانيت لبيع الاشربة وحانات وقهوات وفتح بعض الافرنج المتوطنين بيوتاً لصنع الاطعمة والاشربة على النمط الافرنجي (أي لوكاندات افرنجية) ولم يكن ذلك معروفاً في مصر إلى ذلك العهد ولذلك وصفها المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي كأنها شيء جديد دخل عليهم فقال : « وفتحوا بيوتاً لصنع الاطعمة والاشربة على طرائقهم في بلادهم وجعلوا على أبوابها

علامات يعرفونها بينهم فاذا مرت طائفة تريد الاكل بذلك المكان دخوله وهو يشتمل على عدة مجالس بين دون وعال ووسط وعلى كل مجلس علامة ومقدار الدراهم التي يدفعها الداخل . وفي تلك المجالس موائد من الخشب عليها الطعام وحولها الكراسي فيجلسون اليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه ثم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم »

وفي يوم السبت ١٥ صفر سنة ١٢١٣ اجتمع الديوان المتقدم ذكره وتباحث في احتياجه الى النقود فقرر استدانة خمسمائة الف ريال من التجار المسلمين والتصارى والقبط والسوريين والافرنج وأخذوا في تحصيلها وقرروا أن ينادى في الاسواق ان من اخذ شيئاً من نهب البيوت عليه ان يحضر به الى بيت القائمقام وان لم يفعل وظهر بعد ذلك يشتد عقابه . وان ينادى على نساء الامراء والبكوات بالامان وان يسكن بيوتهن وان كان عندهن شيء من أمتعة أزواجهن يصالحن على انفسهن . فجاء كثيرات منهن وصالحن ودفعن مبالغ عظيمة

وفي يوم الاحد في ١٦ منه طلب بونابرت الخيول والجمال والاسلحة فجمعوا شيئاً كثيراً منها وكذلك الابقار والثيران وأشاعوا التفيتش وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيره وأخرجوا ما وجدوه فيها من الاسلحة وأخرجوا كثيراً من الخبايا والودائع بواسطة البنائين والمهندسين والخدم الذين يعرفون بيوت أسيادهم . فكانوا يطلعونهم على أماكن الخبايا ومواضع المدافن تقريباً من الفرنسيين . وفي ذلك اليوم قبضوا على شيخ الجعيدية « الرعاع » ورموه بالرصاص ببركة الازبكية مع رفيق له ثم قبضوا على آخرين في الرميعة تخاف الناس وصار يأتي الذين عندهم منهوبات ويقدمونها للديوان

وفي يوم الثلاثاء ١٨ منه طلبوا أهل الحرف والتجار وضربوا عليهم مالا على سبيل القرض لم يستطيعوا دفعه فامهلهم ستين يوماً لدفعه فاستغاثوا وذهبوا الى الجامع الازهر والمشهد الحسيني واستشفعوا المشايخ فكلّموا بامرهم أمام الديوان فلطف المطلوب الى نصفه ووسعوا لهم في الاجل . وكان بكل عطفة او حارة من عطف القاهرة وحاراتها باب كبير مصفح بالحديد يقفل ليلاً . فأمر بونابرت بنزع أبواب الدروب والعطف والحارات واستمروا في ذلك عدة أيام تخاف الناس وكثرت ظنونهم في المقصود من تلك الاعمال . فظن بعضهم أن الفرنسيين عازمون على قتل المسلمين وهم في صلاة الجمعة وقال آخرون غير ذلك . وكان في القاهرة دار لضرب النقود

تضربها باسم السلطان فامر بونابرت ان يستمر الضرب كما كان وعهد ذلك الى احد رجاله . وكان في نيته انشاء بريد (بوسطة) بين مصر والاسكندرية لكنه لم يستطع ذلك لكثرة الاخطار التي تحيط برسل البريد في اثناء الطريق

وفي ٢٠ منه وردت الى الديوان كتب من قافلة الحج بالعقبة فذهب ارباب الديوان الى السر عسكر بونابرت وأعلموه بذلك وطلبوا منه اماناً لأمير الحج فامتنع لئلا يكون في كثرة من الحجاج فيحدث ما يكدر الراحة . وقال « لا أعطيه ذلك الا اذا جاء في قلة ولا يدخل معه المالك » فقالوا « ومن يخفر الحجاج » قال « انا أرسل لهم من عساكري أربعة آلاف يوصلونهم الى مصر » فكتبوا الى أمير الحج كتاباً لطيفاً وأوعزوا اليه أن يحضر بمن معه الى الدار الحمراء وأنه متى وصل الى هناك يدبرون ما فيه الخير . فلم يصله ذلك الكتاب حتى خابره ابراهيم بك وكان في بليس يطلب اليه أن يوافيه الى هناك حالا . فسار الى بليس فعلم بونابرت باقامة ابراهيم بك في بليس فارسل اليه فرقة من جيوشه تحت قيادة الجزال لا كلارك فسار وعسكر في الخانقاه وراء المطرية ومكث هناك يومين ولم يصادف اقل مقاومة

وفي اليوم الثالث هجم عليه وعلى رجالة قبائل من العرب بينهم عدد كبير من الممالك وبعد محاربة شديدة تقهقرت الجيوش الفرنسية نحو القاهرة لعجز خيولهم فلم الجزال مورات بذلك فاستمد بونابرت قامده فاجتمعت الجيوش الفرنسية ثانية الى الخانقاه وتبعهم بونابرت بنفسه خيفة أن يكونوا في ارتباك فينكسروا وتعود العائدة عليهم فاتحدت جميع الجيوش الفرنسية في الخانقاه وساروا جميعاً في أثر العربان والممالك حتى الصاحلية وهناك كان ابراهيم بك بمن معه ثم علموا انه ترك الصاحلية قاراً نحو سورية ملتجئاً الى الجزار في عكا وانضم كثيرون من رجاله الى عسكر الفرنسيين وسامت الصاحلية بمن فيها

واقعة أبي قير

فلما رأى بونابرت ذلك أسرع بالعود الى القاهرة . وبينما هو في الطريق قابله رسول بكتاب مفوض فتلاه فاذا به خبر قدوم عمارة نلسون الانكليزية الى الاسكندرية وحصول واقعة كبيرة في أبي قير شفت عن تحطم العمارة الفرنسية برمتها . فاندعر لذلك الخبر ولكنه تجدد وقال لاركان حربه وكان قد فض الكتاب وتلاه قبله « دع هذا الخبر في سرك الآن لئلا يأتني به الغد »

وتفصيل تلك الواقعة ان نلسون بعد ان برح الاسكندرية علم بقدوم الفرنسيين اليها ودخولهم القطر المصري فعاد بعيارته ثم جاء الاسكندرية في ١٩ صفر سنة ١٢١٣ هـ (أول اغسطس سنة ١٧٩٨ م) وكانت العارة الفرنسية راسية في جون أبي قير على خط واحد مستقيم من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي تحت قيادة الاميرال برويس وكانت قد ارسلت في ذلك الصباح خمسة وعشرين نفراً من كل دارعة من دوارعها الى البر لحفر الفعلة المرسلين لاحتفار الآبار . فلما استكشفوا العارة الانكليزية نادوا بالرجال أن يعودوا الى المراكب



ن : ٤٣ : الاميرال نلسون

ثم تداول الاميرال برويس مع ضباطه في كيف يقابلون العارة الانكليزية فاشاروا عليه ان يخرج من الجون ويستقبلها في ظهر البحر فاصر على بقاءه في مكانه لان عدد رجاله لا يسمح له بقبول مشورتهم فبقيت العارة في الجون بانتظار الانكليز أما نلسون فكان مذكراً باحتلال الفرنسيين مصر وهو يعمل فكرته في كيفية ملاقاتهم . فلما صار على مشهد من عمارتهم فكر في أحسن أسلوب يأخذهم به فامر على أن يرسل قسماً من مراكبه يدخل بين سفن الفرنسيين والبر والقسم الآخر يأتيهم من الامام فيجعلهم هدفاً لنارين حاميتين وكان عالماً بما يحيط بهذا العمل من

الخطر لكنه كان ممن يستسهلون الصعب . فسارت بعض مراكبه من وراء الفرنسيين بينهم وبين البر وتقدمت بقية المراكب من الامام وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وابتدأ نلسون باطلاق المدافع فاجابه الفرنسيون بنار مثل ناره . وبعد ١٢ دقيقة انكسرت دارعة فرنساوية ثم انكسرت دارعتان أخريان ولم يأت العشاء حتى استولى الانكليز على عدة دوارع فرنساوية غير التي كسرت

وكان الاميرال برويس على الدارعة « الشرق » ذات المائة والعشرين مدفعاً وعليها نحو الف رجل . وكان نلسون من الجهة الاخرى على احدى دوارعه يراقب حركات الفرنسيين ويعطي الاوامر فاصابته رصاصة في جبهته فوق احدى عينيه فتدلى الجلد حتى غشي بصره فرفعه بيده غير مبال وهو ينظر الى ما يكون من حركات الدوارع وكان بجانبه احد ضباطه فامسكه بيده فانتبه كأنه كان في غفلة وناداه قائلاً « قد قتلت فارجو أن تذكرني امام امرائي »

وحملوه الى غرفته وأحاط به الاطباء وبيد ان كشفوا عن جروحه طيبوا خاطره وطمأنوه أن الجرح لا يؤذي بالخطر السريع . أما هو فلم يكن ينتظر الشفاء ولكنه مع ذلك لم يشغل عن اصدار الاوامر الى ضباط الدوارع وكان يتبع حركاتها وهو على فراشه . ثم ضمدوا جرحه وهو يخاطب كاتب سره أن يكتب حالا لنظارة البحرية في لندن عن هذه المعركة . فلم يستطع أحد من الحضور أن يمسك القلم من شد التآثر فاخذ نلسون قلماً وكتب ما أوتيته من النصر

أما الاميرال برويس فأصيب أولاً ببعض الجراح ثم أصابته قنبلة قطعت أحشاءه فسقط على الارض فارادوا حمله الى أسفل الدارعة فاشار أن يتركوه يقارق الحياة على ظهرها فتركوه . وبعد العشاء يسير أصاب « الشرق » الدارعة الفرنسية العظيمة احتراق تطرق الى جارتها فبلغ ذلك الاميرال نلسون فطلب أن يحمله الى ظهر دارعته ليشاهد ذلك فحملوه . فلما رأى تلك المشاهد تأثر منها كثيراً فامر أن يسير أحد الضباط في سرب من العساكر لمساعدة الفرنسيين في انقاذ الدارعة « الشرق » من الحريق ولم ينج من رجالها الا القليل . واشتد الحريق حتى رآه أهل الاسكندرية ورشيد . وما زال الاطلاق متواصلاً والاضطراب متسلطاً الى ظهيرة اليوم التالي وقد فاز الانكليز فوزاً ميبناً

وكان كلابر ورجاله في الاسكندرية باثناء المعركة في خوف واضطراب وكانوا جميعاً تحت السلاح . وفي الصباح وردت لهم الاخبار بانكسار العارة الفرنسية . ثم

جاءت مكاتبات أخرى أن أسرى فرنساويين وجرحاهم محفوظون بكل اكرام عند الانكليز وفي نية نلسون أن يبعث بهم الى البر يقيمون في المستشفيات تحت معاينة بعض اطبائه . فلما وصل خبر انكسار فرنساويين الى رشيد والاسكندرية خاف فرنساويون وانحط قُدرهم في عين الوطنيين . واضطر الرشيدون منهم الى مواصلة الحاربة مع الاسكندرانيين فاقاموا قافلة تنقل البرد وفيها الكتب والرسائل وال اخبار لاجل المفاوضة في أمر الدفاع اذا أراد الانكليز محاربتهم . فكتب كلاير الى بونابرت بواقعة الحال وما انتهت اليه العارة فرنساوية فوصله الكتاب في أثناء عوده من الصالحية كما مر بك . أما العارة الانكليزية فاقلعت عن الاسكندرية

فسار بونابرت حتى أتى بليس فرأى ضباطه واركان حربه على المائدة صباحاً فرحين باتصارهم على المالك في الصالحية لا يعلمون بشيء من واقعة أبي قير فقال لهم ضاحكاً : « افرحوا ولتنشرح صدوركم واجتهدوا أن تعادوا على هواء هذا الاقليم فاتنا أصبحنا لا مراكب لدينا تنقلنا إلى أوروبا » فاضطربت قلوبهم عند ذلك فطلب اليهم أن لا يذيعوا الخبر ثم ساروا حتى وصلوا القاهرة مساء الخميس ٤ ربيع اول فتح الخليج والمولد النبوي

وفي اليوم التالي كان يوم وفاء النيل (١٣ مسرى) فأمر بونابرت أن يحتفل بفتح الخليج كالعادة فزينوا عدة غلايين (مراكب) ونادوا في الناس الخروج للنزهة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم . وأرسل بونابرت دعوة رسمية إلى نكيا الباشا وإلى القاضي وأرباب الديوان وأصحاب الشورى وأرباب المناصب وغيرهم للحضور في صباحها وركب هو معهم في موكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى قنطرة السد وكسروا الجسر بحضورهم وأطلقوا المدافع إطلاقاً متوالياً وأحرقوا النفوط حتى جرى الماء في الخليج ثم ركب وهم معه حتى أتى إلى داره . أما أهل المدينة فلم يخرج منهم تلك الليلة للنزهة في المراكب كالعادة إلا الافرنج والسوريون والقبط وقليلون غيرهم ثم جاء المولد النبوي ولم يكن في نية العلماء الاحتفال به فاستفهم بونابرت عن سبب ذلك فاعتذر الشيخ البكري بتوقف الاحوال وتعطل الامور وعدم امكانهم القيام بما يقتضيه ذلك الاحتفال من النفقات . فقال لا بد من الاحتفال كالعادة ودفع في الحال ثلثمائة ريال فرنساوي وأمر بتعليق قناديل واحمال وتعليق واجتمع فرنساويون يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم وأرسل بونابرت بطليحاته الكبرى (الموسيقى) الى بيت الشيخ البكري واستمروا بضربونها طول الليل والنهار بالبركة

تحت داره وأحرقوا في أثناء الليل نفوطاً وشواربج كثيرة . وفي ذلك اليوم البس الشيخ خليل البكري فروة وتقلد نقابة الاشراف ونودي في المدينة بان كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها الى النقيب

ثم جاء يوم احتفال فرنساويين بجمهوريتهم للسنة السابعة فاحتفلوا به غاية الاحتفال وشخصوا فيه معركة امبابه وانكسار المالك ونصبوا شجرة الحرية فدهش منها الوطنيون ولم يكونوا يفهمون المقصود بها . ثم أرسل بونابرت مندوباً ينصب العلم فرنساوي ذي الثلاثة الالوان على قمة احد الاهرام العظمى وحفروا هناك أسماء الضباط الذي قتلوا في واقعة امبابه

قتل السيد محمد كريم

قد تقدم ان السيد محمد كريم بقي في الاسكندرية كما كان فيها قبل مجيء فرنساويين . وقبل واقعة أبي قير يسير عثر فرنساويين على كتاب مرسل من محمد كريم المذكور إلى مراد بك يتواطأ معه على تسليم الاسكندرية . فاستحضر إلى القاهرة فحكم عليه أن يدفع ثلاثمائة الف فرنك غرامة على حياته وانه إذا لم يدفع المبلغ في خمسة أيام يقطع رأسه . فقال له التراجمة « أنت رجل غني فافد نفسك بهذا المبلغ » فبسم وقال « لا لا أدفع شيئاً لأنني إذا قدر لي الموت لا يدفع الدفع مقدوراً ، وإذا قدرت لي الحياة فأنا حي بلا دفع » . ثم استحضر وسئل عن تلك الحيانة فأنكر فأبرزوا له الكتاب فافهم فارسله بونابرت الى شيخ البلد فطلب العلماء من بونابرت أن يعفو عنه فاطلعه على كتابه وأصر على قتله وما انتقل حتى اذاقه الموت وطوف رأسه بالمدينة مكتوباً فيه « هذا جزاء الخائن »

الشارة فرنساوية أو الجوكار

وفي ٢٠ منه استدعى بونابرت مشايخ القاهرة وعلماءها الى بيته فلما استقر بهم الجلوس خرج ثم عاد ويده طيالة ملونة بثلاثة الوان كل طيلسان ثلاثة عروض أيضاً وأحمر وكحلي فوضع واحداً منها على كتف الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان . فرمى به الى الارض واستعفى وتغير مزاجه وأخذ منه الغيظ مأخذاً عظيماً . فقال الترجمان الذي كان مرافقاً لبونابرت « يا مشايخ ما بالسك لا تزالون في نفرة من حضرة الصاري عسكر فقد صرتم من احيائه وهو يقصد بالباسكم هذه الطيالة تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فانكم اذا تميزتم بها عظمتمك العساكر واكثر من احترامكم » فقالوا « لكن قدرنا ينحط عند الله وعند اخواتنا المسلمين » فاعتساظ بونابرت واتهر

الشرقاوي قائلاً « ان مثلك لا يصلح للرياسة » فنهض بقية الجماعة وجعلوا يلطفون من غضب بونابرت ويطلبون اليه ان يعفيهم مما أراد فقال « ان لم يكن هذا فلا بد من وضع الجوكار في صدوركم وهي العلامة التي يقال لها الوردية » وقد تقدم ذكرها فقالوا « نستمك ربكاً نتروى في الامر » وانصرفوا

ثم استدعى بونابرت الشيخ السادات اليه فحضر فلاحظه في القول واعرب له عن محبته له (كل ذلك بواسطة الترجمان) ثم ناوله خاتماً من الالماس هدية وطلب اليه ان يحضر في اليوم التالي فحضر . فأتى له بجوكار وعلقه بفرجيته فسكت ولما انصرف نزع . وفي ذلك اليوم نودي بالمدينة بوجوب نقل هذه العلامة وانها هي علامة الطاعة والمحبة فانق الناس على ان بعضهم علم أنها لا تحل بالدين وخاف العقاب فوضعها . وفي العصر نادوا بعدم اعطائها الا لبعض الاعيان اما الباقون فيضعونها اذا جاءوا لمقابلة رسمية

سياحة نابليون في مصر

ومن الغريب أن بونابرت مع رغبته في الاستيلاء على مصر وسهره على ذلك لم يحسن التصرف كما يجب . فقد رأينا يصرح باحترامه الديانة الاسلامية وتأمين الاهلين على عاداتهم وأديانهم وأرزاقهم وأعراضهم . وأظهر تقربه من المصريين حتى قيل انه كان يتزيا بزيمهم في الاحتفالات الوطنية فيلبس القفطان والحية والعمامة - وهو لباس أمراء الشرق او سلاطينه - وقد مثله بعضهم بصورة نقلناها في الشكل ٤٤ عن كتاب نوابغ الاقباط ومشاهيرهم - كل ذلك يوجب الثناء عليه الا اننا لا نرى وجهاً يصوب ادعائه الاسلام ادعاءً لم يصدق احد من المصريين ولم يزد الناس بسببه الا حذراً من الفرنسيين لانهم لم يدعوا غير دينهم الا تقرباً منهم لغرض في نفوسهم يحاولون نيله على انه لو ادعى تلك الدعوى ثم تظاهر بما يشبهها لكان خيراً لكنتنا رأينا من الجهة الاخرى يأمر بالمساواة في الارث بين الانثى والذكر أمراً يخالف نص القرآن مخالفة صريحة كما لا يخفى وقد تجاهل العادات الشرقية وأراد أن يجعل الشعب المصري بعد ما قاساه في أيام المماليك أن يسير على خطوات الشعب الفرنسي بعاداته وشرائعه وأزيائه . فكانت العساكر الفرنسية تدخل بيوت الهوائم اللواتي لم يجسر الباشا أن يدخلها - وكان السبب في ذلك ان بونابرت أجاز لرجاله الدخول في بيوت النساء للتفتيش عن أسلحة أو مخبآت أو أمور أخرى - ولا يخفى ما في ذلك من تفتير القلوب وكل منا يعلم ان الشرقي أشد حرصاً على عرضه منه على حياته . ناهيك بما كان

يأتيه الجند الفرنسيون من الفواحش التي تأبها النفوس الشرقية على ان لا تنكر على هذا الرجل العظيم ما أدخله بواسطة هذه الحملة من الاصلاح في أحوال الامة المصرية صحياً وأديباً وشرعياً ولكننا لا نعجب بعد أن علمنا من سوء تصرفه اذا رأينا الاهلين بعيدين عن الاخلاص له - رغم قرب الشعب المصري من الطاعة والانقياد . ولا غرو بعد هذا اذا رأيناهم يشتقون بمصائبه ويتربصون فرصة



تس : ٤٤ بونابرت بلباسه الشرقي

لشق عصا الطاعة وتفضيل سلطة المماليك على تمسكها من العسف والظلم لانهم شركاؤهم بالدين وهو أكبر رابط بين المشاركة . وقد خدع بونابرت بقبول العلماء الاجتماع في ديوان تحت حمايته وما علم أن قبولهم ذلك وغيره من مثله إنما جرى رغم ارادتهم

وامثالاً لقول القائل « اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون »

ومن الامور المغيرة التي آتاهها الفرنسيون واستوجبوا من أجلها نفور الناس زيادة الضرائب والشدة في محصيلها واستحداث القوانين على الموتى والضرائب على الموارد وعلى المسافرين من بلد الى آخر فتعطى لهم تذكرة مرور بمنها وإباحة بيع المسكر في الشوارع وهدم بعض الجوامع والمنائر وتخريب بعض التراب باسم الإصلاحات الصحية وبناء القلاع والاستحكامات على التلال خارج القاهرة وقطع أرزاق الاوقاف عن أهلها وتسليمها لغير المسلمين

منشور آخر

وفي خاتمة الجميع وردت للعلماء والمشايع تحارير سرية من ابراهيم بك واحمد باشا الجزائر حاكم عكا في ٣ ربيع آخر ما لها ان السلطان قد أرسل قوة عسكرية ستصلهم قريباً لانتقامهم من نير الفرنسيين - علم بونابرت بذلك فجمع العلماء والفقهاء وأعيان البلاد وخطبهم يحاول اقناعهم ان خطابات المالك لهم كاذبة وفي ١٨ ربيع آخر استكتب بونابرت المشايخ كتاباً أرسل منه نسخة لجلالة السلطان ونسخة لشريف مكة وطبعوا منها عدة نسخ الصقوها بالشوارع جعله عن لسان المشايخ يتكلمون عن أعمال الفرنسيين بمصر ومفاده :

« ان الفرنسيين قد قاتلوا المالك وهزموهم وانهم آتوا مصر وتكبدوا ما تكبدوه في سبيل حبهم للباب العالي لانهم من اخضاء جلالة مولانا السلطان واعداً أعدائه وان السكة والخطبة لا تزالان باسمه وشعار الاسلام قائمة على ما كانت عليه وانهم هم أنفسهم مسلمون يحترمون النبي والقرآن الشريف وانهم أوصلوا الحجاج المتشتتين وأكرمهم وأركبوا الماشي منهم وأطعموا الجائع وسقوا الظمان واعتنوا باقامة الزينة يوم جبر البحر استجلاباً لسرور المؤمنين وأنفقوا أموالاً برسم الصدقة على الفقراء واعتنوا كذلك بالمولد النبوي وأنفقوا المال بشأن انتظامه وعلو شأنه وانهم قد أنفقوا رأياً على لبس الجناح الاكرم مصطفى آغا كخيا بكير باشا والي مصر حالاً وانهم (المشايخ) استحسنوا ذلك لبقاء علاقة الدولة العلية وانهم مجتهدون في اتنام مهمات الحرمين - وقد أمرونا أن نعلمكم بذلك والسلام » . وأرسلوا من هذا المنشور نسخة الى احمد باشا الجزائر والي عكا وأخرى الى والي سوريا

ثورة أهل القاهرة

وفي أول جمادى الاولى سنة ١٢١٣ هـ (٢١ أكتوبر « ت ١ » سنة ١٧٩٨)

جاء إلى الشيخ البكري جم غفير من أولاد المكاتب والفقهاء والعميان والمؤذنين وأرباب الوظائف والمستحقين من خدمة الاوقاف وشكوا من قطع مرتباتهم وخبزهم لان الاوقاف تعطل إيرادها واستولى على نظاراتها غير المسلمين فوعدهم أنه اذا قدموا شكواهم إلى الديوان يساعدهم في تحصيل حقوقهم

وفي اليوم التالي اجتمع المشايخ في الجامع الازهر وأرسلوا القراء يطوفون الاسواق ينادون قائلين « فليذهب كل من يوحد الله إلى الجامع الازهر هذا هو يوم الجهاد في محاربة الكفار وأخذ الثار » فجع الناس وأقبلوا حوانيتهم وتقعدوا أسلحتهم وكانوا قد خباؤها في أماكن معلومة وساروا نحو الجامع أفواجاً يزاحم بعضهم بعضاً وفي مقدمتهم السيد بدر وبعض رعاة الحسينية ينادون بأعلى أصواتهم « نصر الله دين الاسلام » وساروا تَوّاً إلى بيت قاضي العسكر فوجدوا هناك كثيرين آخرين ممن سبقوهم على شاكلتهم . تخاف القاضي وأغلق بابيه وأوقف حجابيه فضربوهم وحاول هو الهرب فامسكوه . وكان قد توجه القسم الاعظم من الجماهير إلى الجامع الازهر ثم سارت فرقة منهم إلى بيت الجنرال كافارلي وفيه بعض الادوات فنبهوه وأخبروه ولم يكن الجنرال فيه

وكان الجنرال ديبوي قائماً في القاهرة مقيماً عند بركة الفيل وشاهد في الصباح بعض الجماهير مارين في الاسواق فلم يعبأ بحركاتهم وعند الظهر رأى الجماهير تعاضمت والاسواق ازدحمت فركب في جماعة واسرع إلى بيت الشيخ الشرفاوي رئيس الديوان بقرب الغورية فلم يجده فسار نحو بيت القاضي وهو يرى الجماهير زداد والاصوات تعاضم فمر بين القصرين فرأى جمهوراً كبيراً أوقفه عن المسير فكلهم بواسطة الترجمان فلم يسمعوا قامر رجاله بالهجوم عليهم فرماه بعض الناس من احد الشبايك على عنقه بحرية مشدودة برأس عمود فقطعت له وعاء دمواً كبيراً وكانت القاضية عليه

وتعاضمت الجماهير على الخصوص بجوار الجامع الازهر أما أهالي مصر القديمة وخط بركة الفيل فلم يتجرأوا على ذلك وكانت الجيوش الفرنسية على غير استعداد لمثل هذه الثورة وحصونهم على سفح المقطع والربى خارج القاهرة خالية من الجنود فلم يكونوا يستطيعون تهديد المدينة . وجعل الثارون يطوفون الاسواق يقتلون المسيحيين على اختلاف نزعاتهم بين الافرنج واقباط وسوريين ويونانيين وينهبون مساكنهم

دفع الفرنسيون

فلما اتصل ذلك ببنابرث ركب في ٣٠ من دواليه وسار إلى أكثر الأماكن تعرضاً للنهب والسلب فانتعشت جنوده بوجوده فعهد قيادة المدينة إلى الجنرال بون وفرق الطوبخية عند مجتمعات الثائرين . وأصبح القوم في اليوم التالي وإذا بسفح المقطم والرابي خارج القاهرة مرصعة بالمدافع وقد أرسل بنابرث وفداً إلى المشايخ يطلب اليهم أن يوقفوا الرعاع عن التجمهر فلم يفعلوا . وفي الساعة التاسعة (أفريقية) من الصباح بلغ بنابرث أن بعض العربان قادمون إلى القاهرة يريدون الدخول إليها من باب النصر فبعث أركان حربيه سالكوسكي لينظر في أمر ذلك فبينما كان ماراً عند باب العدوي هجم عليه بعض الثائرين وقتلوه وكان بنابرث يحبه فأسف عليه كثيراً وهم في ذلك وصل الجنرال كلاير بجيشه من الاسكندرية بعد ما شفي من جراحه فاشتد أزر الجنود الفرنسيين وتألفوا للمحاربة بقلب واحد فقبضوا على جمهور عظيم من الثائرين بمجهمة الازبكية . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر أطلقت المدافع من الحصون خارج القاهرة على خط الجامع الأزهر بؤرة الثورة وفيه زعماءها وما زال الضرب إلى المساء فاضطرب الناس ووقع في قلوبهم الرعب فاجتمع المشايخ على التسليم فركبوا خيولهم وساروا إلى بنابرث يطلبون الأمان فوبخهم على ما أتوه من سفك الدماء ثم أمنهم وأوقف الضرب . أما سكان خط الحسينية ومعظمهم من الجزارين فلم ينفكوا عن الضرب حتى فرغت جعبهم من البارود فهدأوا

دخول الجامع الأزهر

فدخلت الجنود الفرنسية وأخذوا في تسكين الناس وتفريق الجموع وفرقوا الحيازة في الأسواق للخفر فأدخلوا خيولهم إلى الجامع الأزهر وكسروا قناديله ومحووا بعض ما كان مكتوباً عليه من الآيات القرآنية . وفي يوم الثلاثاء ٤ جمادى الأولى خرج المسلمون للصلاة في الجامع الأزهر فإذا بالخيول تعج فيه عجيجاً . وفي صباح الأربعاء ٥ منه بعث المشايخ إلى بنابرث يلتمسون إخراج الخيول من الجامع فسأهم عن زعماء الثورة ومنشطها فلم يحيموه فرفض طلبهم . ثم تدخل محمد الجوهري من أعيان القاهرة وقضلائها في الأمر وكان ممن لازموا الحياد فوافقه بنابرث على إخراج الحيازة من الجامع على أن يجعل في ذلك الخط خفراً من سبعين رجلاً . ثم جاء السوريون واليونانيون الذين نهبت بيوتهم بسبب الثورة إلى بنابرث وشكوا إليه خسارهم . فعكف على الاقتصاص من زعماء الثورة . فجعل يقبض على من تقع عليهم

الشبهة رجالاً ونساء حتى قتل منهم ١٢ شخصاً دفعة واحدة وجعل جثثهم في أكياس القاه في النيل وعزم من ذلك الحين على الصرامة في معاملته المصريين ففزع المشايخ من المباحثة في الديوان وحصر شغلهم في نشر المنشورات على الشعب لاجل تسكين الثورة فسكن روع الشعب حسب الظاهر

فرمان السلطان

وفي ليلة السبت ١٤ جمادى الأولى جاء إلى القاهرة هجان بكتابات من أحمد باشا الجزار وفيها فرمان عليه الطغراء العثمانية وكتابات أخرى من بكير باشا وإبراهيم بك وجميعها معنونة باسم مصطفى بك فلما تناولها وقرأها لم يسعه من خوفه إلا أن يسلمها إلى بنابرث فترجعت له وهالك ترجتها بعد الاستهلال « ان الفرنسيين أبادهم الله وغشي أعلامهم غشاء العار لأنهم كفار معاندون لا يؤمنون برسالة النبي (صلعم) ويسخرون بجميع الأديان ويحجدون البعث وما قدره الله فيه من الثواب والعقاب وهم يعتقدون ان الصدقة العمياء هي المتسلطة على الحياة والموت وان النفس مادة وان الاجسام بعد انحلالها في الارض لا تعود إلى الحياة ثانية ولا يلحقها حساب ولا دينونة وبناء على هذا الاعتقاد قد وضعوا أيديهم على هياكلهم وطردوا منها قسمهم وورهبانهم وعندهم أن الكتب المنزلة خزعبلات وأكاذيب ملفقة وأن القرآن والتوراة والانجيل خرافات وان موسى وعيسى ومحمداً رجال مثل سائر الرجال وان الناس جميعاً خلقوا سواء لا شيء يميز بعضهم من بعض . وان كلاً منهم يعتقد بما يخطر له وعلى هذه المعتقدات قد بنوا جميع أعمالهم ووضعوا شرائع جهنمية وقد اهتزت أوربا لاجرا آتهم هذه وسفكت في سبيل ذلك دماء غزيرة . وأنتم تعلمون ما يأمركم به الدين الاسلامي الخفيف فعليكم الانتباه للافاة ما يثونه بينكم لان غرضهم هدم مكة والمدينة وأورشليم وذبح من فيها من الاطفال واقتسام ركايتهم وأراضيتهم . أما من يبقى منهم حياً فيجبروهم على اتباع مبادئهم وتعلم لغتهم فيذهب الاسلام من الارض . فافهموا اذاً ما تكون النتيجة اذا لم ينهض كل واحد لئصرة الاسلام وبجاهد ضد هؤلاء المعطلين فانتبهوا اذاً إلى الشراك التي نصبت لكم . والاسد لا يكثر بالتعالب كثر عددها أو قل الخ »

منشور آخر لأهل مصر

فلما فهم بنابرث خوى هذا فرمان اجتهد أن يغرس في أذهان المشايخ أنها فتن قد سعى بها أعداء الدولة والدين وما زال حتى استكتبهم منشوراً أمضوه وفرقوه في

البلاد وهذا نصه بالحرف الواحد :

« نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونبرأ الى الله من الساعين في الارض بالفساد . نعرف أهل مصر قاطبة انه حصل بعض الخلل في مدينة المحروسة من طرف الجعيدية واشرار الناس فتركوا الشرور بين الرعية وعسكر الفرنساويين بعد أن كانوا أحباباً واحباباً وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهب بعض البيوت ولكن بلطف الله سكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونايرته وارتفعت هذه البلية لانه رجل كامل العقل ذو رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة الى الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلت كامل أهل مصر . فليكن أن لا تثيروا الفتن ولا تطيعوا المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الاشرار ولا تكونوا مع الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يفكرون بالعواقب لكي تحفظوا اوطانكم وتطمثوا على عيالكم وأديانكم فان الله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء ويحكم من يريد . ونخبركم ان كل من تسبوا في اثاره هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم البلاد والعباد ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واشتغلوا باسباب معاشكم وامور دينكم وادفعوا الخراج الذي عليكم والدين النصيحة والسلام » وهذا المنشور ممضي من علماء مصر كافة طبعوه بالمطبعة التي أتت بها الحملة كما تقدم

نصيحة العلماء

ثم شاع بين الاهالي أمر الفرمان الذي ورد من جلالة السلطان فاضطربوا فاصدر المشايخ والعلماء منشوراً يبرئون به الفرنساويين مما جاء بحققهم في ذلك الفرمان ونصه حرفياً :

« نصيحة من علماء الاسلام بمصر . نخبركم يا أهل المدائن والامصار من المؤمنين ويا سكان الارياض من العربان والفلاحين ان ابراهيم بك ومراد بك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة من المكاتبات والخطابات الى سائر الاقاليم المصرية لاجل تحريك الفتنة بين الخلوقات وادعوا انها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان . وسبب ذلك انه حصل لهم الغم الشديد وانسرب الزائد واغتاظوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وأن يتركوا عيالهم وأوطانهم فارادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساويين لاجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد

بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر الحمية . ولو كانوا في هذه الاوراق صادقين بانها من حضرة سلطان السلاطين لارسلها جهازاً مع أغوات معينين . ونخبركم ان الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائماً يحبون المسلمين وملتهم ويغضون المشركين وطبيعتهم وهم أحباب لمولانا السلطان قاعون بنصرته وأصدقاء ملازمون له لمودته وعشرته ومعوته يحبون من والاه ويغضون من عاداه . ولذلك بين الفرنساويين والموسكو غاية العداوة الشديدة ومن أجل هذا يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكو ان شاء الله ولا ييقون منهم بقية . فننصحكم يا أهالي الاقاليم المصرية أن لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العسكر الفرنساوي بشيء من أنواع الاذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية . ولا تسمعوا كلام المفسدين ولا تطيعوا أمر المفسرين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون والاقتصبون على ما فعلتم نادمين وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا في اوطانكم سالمين وعلى عيالكم وأموالكم آمنين مطمئين لان حضرة صاري عسكر الكبير أمير الجيوش بونايرته اتفق معنا على أنه لا ينازع أحداً في دين الاسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثته الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم باراهيم ومراد وارجعوا الى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد . فقد قال نبيه ورسوله الاكرم الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الامم عليه افضل الصلاة والسلام ختام » ولصقوا نسخاً من هذين المنشورين في أسواق القاهرة وفرقوا منها في سائر بلاد القطر

اصلاحات الفرنساويين بمصر

وأقام بونايرت على القاهرة الجزال استنك عوضاً من ديبوي الذي تقدم انه قتل ثم عمد الى مداخل القطر المصري الاسكندرية ورشيد ودمياط فحضرها تحصيناً منيعاً وجعل في القاهرة وضواحيها استحكامات تمنع ثورة الاهالي مرة أخرى . وأنشأ في القاهرة مطاحن هواء ومطاحن ماء لاجل طحن الحنطة وأقام في الروضة مستشفى (اسبتيالية) يسع خمسمائة مريض

وأقام مطاحن ومستشفيات أيضاً في الاسكندرية ورشيد ودمياط وأنشئ في القاهرة اذ ذاك مدرسة لتعليم أولاد الفرنساويين المولودين في مصر وجريدتان فرنساويتان الواحدة تدعى « دكاد اجبسيان » والاخرى « كوريه ديجيت »

ومرسح للتشخيص ومعامل للاقفال والاسلحة والتجارة . ومعامل للمدافع وتوابعها وآلات الهندسة والورق والاقشة وسائر احتياجات البلاد . واستحدث فيها أيضاً أما كن للهو وحدائق للزهة وأنشأ مجمعا علمياً مصرياً (انستيتي ديجيت) وبالنسبة إلى الجيش الفرنسي لم يكن ينقصه من داعيات الراحة إلا البريد



ش ٤٥ : جرجس الجوهري أحد رؤساء القبط وكتابهم في زمن الفرنسيين (١)

وكان بونابرت لا يغفل عن شيء يري فيه راحة جيشه ورفاهية البلاد . فسكنت الأحوال مدة شهرين تمكن الفرنسيون في أثناءها من اجراء بعض الإصلاح في المدينة فردموا ما جاور بركة الازبكية والاماكن المجاورة لمسكن بونابرت فجعلوها راحة واسعة . وجددوا قنطرة المغربى وبنوا جسراً ممتداً من الازبكية الى بولاق حيث ينقسم الى فرعين يسير أحدهما الى طريق أبي العلاء والاخر الى جهة التبانة وضفة النيل وجعلوا بجانب ذلك الجسر خندقين وغرسوا على جانبيه أشجاراً وسيسباناً واحداثوا طريقاً آخر بين باب الحديد وباب العدوي عند المكان المعروف بالشيخ

(١) نقلت هذه الصورة بالقوتوغراف عن رسم له بباريس لكنها أخذت من موقف منحرف فظهرت كما ترى

شعب ومهدوا جسراً آخر من هناك الى خارج الحسينية وأزالوا ما يتخلل ذلك من الابنية وهدموا الابنية التي بين باب الحديد والرحبة التي بظاهر جامع المقس ومهدوا الارض بينهما . فعلوا ذلك كله ولم يسخروا أحداً بل كانوا يدفعون الاجور فوق الاستحقاق . وجعلوا جامع الظاهر خارج الحسينية على طريق العباسية قلعة ومنارته برجاً فصار يعرف بقلعة الظاهر

وبنوا اما كن للارصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير في حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ورمموا ما فيه من بيوت الامراء واستخدموها لتلك الغاية وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الحطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم في اوقات معينة من النهار واذا دخلها أحد الوطنيين رحبوا به واذا أراد التفرج أطلعوه على ما أراد او المطالعة سلموه ما أراد من الكتب ولا سيما التي تدهش البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفي جملتها رسم للبي ورسوم اخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم من الأئمة والاماكن المهمة . وكان في مكتبتهم هذه كتب كثيرة عربية . وافردوا للاشتغال بكل علم داراً ولا سيما الكيمياء فانهم خصصوا معملات كبيرة للتقطير والتصعيد واستحضار الخلاصات وسائر الاعمال العقارية وكانوا يجرون امام الاهالي بعض التجارب الكيماوية التي تدهش غير العارفين بنواميس الكيمياء وقد ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي بعض تلك التجارب وأظهر دهشته منها . وافردوا أيضاً اماكن للتجارة والصناعة وطواحين هوائية واستخدموا العربات . وقرروا اطلاق مدفع كل يوم عند الزوال

منشور بونابرت عن تجديد الديوان

وفي ١٦ رجب سنة ١٢١٣ هـ (٢٥ ديسمبر (ك ١) سنة ١٧٩٨ م) امر بونابرت بترتيب الديوان على نظام جديد كما تقدم في الكلام عن هذا الديوان عند انشائه وكتب بذلك منشوراً أرسله الى الاعيان والصق منه نسخاً في الاسواق ونصه : « من بونابرت امير الجيوش الفرنسيين خطاباً الى جميع أهل مصر الخاص والعام . نعلمكم ان بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وادراك العواقب أوقعوا الفتنة سابقاً بين أهل مصر فاهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة والباري سبحانه وتعالى أمرني بالشفقة والرحمة للعباد فامثلت أمره وصرت رحيماً بكم شفوفاً عليكم . ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولاجل ذلك أبطلت الديوان الذي كنت رتبته لنظام البلد واصلاح أحوالكم من مدة

شهرين والآن توجه خاطرننا الى ترتيب الديوان كما كان لان حسن احوالكم ومعاملتكم في المدة المذكورة أنسيانا ذنوب الاشرار وأهل الفتنة التي وقعت سابقاً

« فيا ايها العلماء والاشراف اعلموا أمتكم ومعاشر رعيتم بان الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه كن ضلال عقله وفساد فكره فلا يجد مخلصاً ولا ملجأً ينجيه مني في هذا العالم ولا ينجو من يد الله لمعارضته مقاديره سبحانه وتعالى. والعاقل يعرف ان ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ومن يشك في ذلك فهو أحق وأعمى البصيرة. واعلموا ايضاً أمتكم ان الله قدر في الازل هلاك اعداء الاسلام وتكسير الصليبان على يدي. وقدّر في الازل ان احيى من ارض المغرب الى ارض مصر لاهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الامر الذي أمرت به. ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه. واعلموا ايضاً أمتكم ان القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وأشار في آيات أخرى الى امور أخرى تقع في المستقبل وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يختلف. واذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم فلترجع أمتكم جميعاً الى صفاء النية واخلاص الطوية فان منهم من يتمتع من لعني واظهار عداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سطوتي. ولم يعلم ان الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لاحكام الله ومناقضاً وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب. واعلموا ايضاً اني قادر على إظهار ما في نفس كل منكم لاني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد نظري اليه وان كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم عياناً ويتضح ان ما فعلته وحكمت به هو حكم الهي لا يرد. وان اجتهد الانسان بغاية جهده لا يمنع من قضاء الله الذي قدره واجراه على يدي فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام»

ترعة السويس

وفي ذلك اليوم (١٦ رجب) برح بونابرت القاهرة في سرب من رجال معيته وبعض المهندسين قاصداً برزخ السويس لاستطلاع آثار الترعة التي حفرت قديماً بين البحر المتوسط والنيل فوصل السويس في ١٨ منه وفي ٢١ منه قطع البحر الاحمر الى آبار موسى فجعل يتأمل ويتذكر ما قيل عنها من المعجزات. وفي ذلك اليوم عاد بمن معه قاصداً السويس خوفاً في البحر مثل ما فعل موسى فاخطأوا الطريق حتى كادت المياه تغمر خيولهم وبعد المشقة وصلوا السويس في اوائل الليل. وفي الصباح

التالي أتم بونابرت استكشافه وبرح السويس قاصداً القاهرة فمر ببليس فاستولى عليها وسار منها حتى أتى القاهرة في ٢٥ منه (في ٣ يناير سنة ١٧٩٩)

وفي يوم وصوله لاقاه الجزال كلابر قادماً من الاسكندرية ومعه كتب وجرائد واردة من فرنسا وغيرها تنبئ بتغير الباب العالي على الجمهورية الفرنسية لافتحها مصر واستقلالها بأحكامها. فلندع بونابرت يطالع كتبه وجرائده ولتلفت الى الجزال ديزه وحملته الى الصعيد بعد واقعة امبابه

حملة ديزه في الصعيد

لما عدى الجيش الفرنسي البر الشرقي ودخل القاهرة بعد واقعة امبابه عهد بونابرت الى الجزال ديزه ان يسير جنوباً لتعقب المماليك واخضاع الصعيد. فسار في ١٦ محرم سنة ١٢١٣ هـ حتى أتى بني سويف فلاقاه مراد بك برجاله وطال الحرب بينهما وكثر الاخذ والرد وانتهت الوقائع بتقهقر المماليك وامعانهم في داخلية الصعيد وفي ١٣ جمادى الاخرى برح الجزال ديزه بني سويف فأتى المنيا في ١٨ منه وترى هناك ينتظر الدوارع القادمة على النيل لتجده فتأخر وصولها بسبب الريح المعاكسة لسيرها. ثم سار من المنيا وما زال يتعقب مراد بك وأتباعه حتى أتى اصوان في البر الغربي فمسك هناك. وكان كلما مرّ بأثر من الآثار المصرية القديمة حفر عليه اسمه وأسماء المدن التي افتتحها. وقد شاهدنا مثل هذه الكتابة على جاني باب من أبواب هيكل الكرنك بجوار الاقصر

واستطاع ديزه أخبار العدو في اصوان فعلم أنه معسكر فوق الشلال الاول بمسافة قصيرة فاحتل جزيرة فيلوي وحصن اصوان لدفع المماليك اذا قدموا اليها لانه لم ير فائدة من تتبعهم الى ما وراء ذلك وقد حفر على صخر فوق الشلال جميع فتوحه على مثل ما تقدم. وهناك آخر ما وصله الفرنسيون في حملة بونابرت. ولم يكذب ديزه تحصين اصوان حتى سمع باحتلال ألفي بك جهات طيبة فعاد اليه وحاربه وهزمه. فأذغت الصعيد وهدأت احوالها

حملة بونابرت على سوريا

أما بونابرت فانه علم من مطالعة تلك الجرائد ومن قرائن أخرى أن الدولة العلية تسعى في استرجاع مصر من الفرنسيين وقد بعثت بمشورات رسمية الى سائر بلادها طعناً بالجمهورية الفرنسية وأمرت احمد باشا الجزائر والي عكا أن يبعث جيشاً لاحتلال العريش ففعل. فبعث اليه بونابرت أن يخلي تلك المدينة لأنها من حدود مصر

فلما بطعه فأمر بأعداد حملة أسير بها ليس للمدافعة عن مصر فقط بل لافتحاح سوريا أيضاً . فأعد حملة من اثني عشر ألفاً بينها ألف ومائتان من الطبجية وسار قاصداً سوريا بعد أن عهد بقيادة القاهرة إلى الجنرال دوغا وبقيادة الصعيد إلى الجنرال ديزه وقيادة الاسكندرية إلى الجنرال مرمون وأمر بتحصين دمياط . وجعل في تلك الحملة بعض مشايخ القاهرة ليستعين بنفوذهم الديني . وفي ٢١ شعبان أصدر منشوراً مطبوعاً فرقه في الناس وهالك نصه بالحرف الواحد :

« الحمد لله وحده . هذا خطاب إلى جميع أهل مصر من خاص وعام من محفل الديوان الخصوصي من عقلاء الانام وعلماء الاسلام والوجقات والتجار الفقهاء »
 « نعلمكم معاشر أهل مصر أن حضرة صاري عسكر الكبير بونايرته أمير الجيوش الفرنسية صفح الصفح الكامل عن كل الناس والرعية بسبب ما حصل من أراذل الناس أهل البلد والجديدة من الفتنة والشر مع العساكر الفرنسية وعفا عفواً شاملاً وأعاد الديوان الخصوصي في بيت قائد آغا بالازبكية ورتبه مع أربعة عشر شخصاً أصحاب معرفة واتقان اتخبوا بالقرعة من ٦٠ رجلاً حصل انتخابهم بموجب فرمان وذلك لاجل قضاء مصالح الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على أكمل نظام واحكام . كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ومزيد حبه لمصر وشفقة على سكانها من صغير القوم حتى كبيرهم . ورتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لاجل خلاص المظلوم من الظالم وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهري وقتل منهم اثنين في قره ميدان وأنزل طائفة منهم عن مقامهم العالي إلى أدنى مقام لان الخيانة ليست من عادة الفرنسيين خصوصاً مع النساء والارامل فان ذلك قبيح عندهم لا يفعله الا كل خديس . وقبض بالقاعة على رجل نصراني مكاس لانه بلنه انه زاد المظالم في الجمر بك بمصر القديمة على الناس . ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من المظالم ومراده رفع الظلم عن كامل الخلق ودائماً يفكر في فتح الخليج الموصل من بحر النيل إلى بحر السويس لتخف أجرة الحمل من مصر إلى قطر الحجاز وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطرق وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فيج عميق . فاشتغلوا في أمر دينكم وأسباب دنياكم وارتكوا الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم وعليكم بالرضى بقضاء الله وحسن الاستقامة لاجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع في الندامة رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم . ومن كان له حاجة فليأت الديوان بقلب سليم الا من كان له دعوى شرعية

فيتوجه إلى قاضي العسكر المتولي بمصر الحامية بخط السكينة والسلام على أفضل الرسل إلى الدوام »

فتح العريش وغزة

وفي ٢٥ شعبان (أول فبراير) شباط سنة ١٨٩٩ م) سار الجنرال كلاير والجنرال رينز في مقدمة الحملة نحو العريش وفي ٥ رمضان أو ١٠ فبراير (شباط) سافر بونايرت بمن بقي منها . وكان على العريش قاسم بك من قبل الجنرال وقد عسكر خارج المدينة . وفي صباح ٨ منه كانت مقدمة الفرنسيين على مقربة من معسكر قاسم وفي المساء هاجموه بغتة فقتلوه وشتتوا جيشه واستولوا على الذخائر والمهمات وساروا نحو المدينة . أما بونايرت فوصل الصالحية في ٧ منه وفي ١١ منه وصل المسعودية فطلعت ريح شديدة نسفت عليه وعلى رجاله الرمال احمالاً وكانت المياه قليلة فعطشت العساكر عطشاً عظيماً فعسكر هناك وبعث الخبراء يستطلعون خطوات كلاير وجهة مسيره فعادوا وأخبروه قهض وما زال حتى أتى العريش في ١٢ رمضان فرأى كلاير قد حاصرها وامتنع عليه فتحها لقلة الطبجية ونفاد المرن . فلما وصل بونايرت أرسل إلى حامية العريش كتاباً يطلب اليهم التسليم ويهددهم فسلموا بعد بضعة أيام فدخل الفرنسيون العريش وأمنوا أهلها على حياتهم وقبضوا على خمسة كشاف كانوا هناك من قبل المالك وأرسلوهم إلى القاهرة تحت الحجز ثم جعلوا في العريش حامية وساروا إلى غزة فاستولوا عليها بغير قتال وجعلوا فيها حامية وديواناً وطنياً لتنظيم الأحوال فتح يافا وقتل حاميتها

وفي ٢٣ رمضان سنة ١٢١٣ هـ (٢٨ فبراير) شباط سنة ١٧٩٩ م) ساروا إلى يافا فلما وصلوها أمر بونايرت الجنرال كلاير أن يتقدم في فرقته إلى عكا ففعل . وكانت حامية يافا أخلاطاً من الأتراك والمغاربة والارناوط والاكراد فلم ير بونايرت محاصرتها فامر بالهجوم عليها في ٢٧ منه ٤ مارس (اذار) فهجم الفرنسيون عليها وما زالوا حتى خرقوا الاسوار ودخلوها ففرت الحامية قتبعوها وقد تحصنت في بعض الخانات الكبيرة فالحوا عليها فقال الارناوط ومنهم تنألف معظم الحامية « نحن نسلم لكم أنفسنا اذا أمتمنونا على حياتنا » وكان على قيادة الهاجين من الفرنسيين أحد أركان حرب بونايرت فوعدهم بالامان فسلموا فقادهم موثقين وعددهم نحو أربعة آلاف حتى أتى بهم المعسكر الفرنسي فلما رأى بونايرت قال للقادم اليه : « ما هذه الجماهير » قال « هي حامية هذه المدينة قد سلمت وجئت بها اليك » قال « ماذا تريدون

أن أفعل بهذا العدد أعندكم زاد يكفيهم أو مراكب تنقلهم إلى مصر أو فرنسا وإذا أرسلناهم في البر فمن يتولى خفارتهم؟ فأجاب قائلاً: «أنا قد قبلنا تسليمهم حجباً للدماء» فقال بونابرت «نعم يجب أن تفعلوا ذلك ولكن مع الأطفال والنساء والشيوخ وليس مع مثل هذا القدر من الرجال الأشداء المجندين» ثم أمرهم بالجلوس مكتوفي الأيدي أمام المعسكر. وفي اليوم التالي فرقوا فيهم شيئاً من البقساط الجاف والماء ثم عقد بونابرت مجلساً في خيمته للمفاوضة في ماذا يجب أن يفعل هؤلاء الأسرى وبعد الاجتماع عدة جلسات لم يقرروا على شيء فازعج بونابرت لكثرة التردد في الأمر وبعد التفكير والتأمل رأى أنه لا يستطيع استبقاءهم معه لعدم وجود ما يكفيهم من الزاد ولا إرسالهم إلى مصر لعدم استغنائه عن رجال يسيرون لخفارتهم ولا إطلاق سبيلهم لئلا يرتدوا عليه فأقر على إعدامهم. وفي ٤ شوال (١٠ مارس) (أذار) سنة ٩٩) بعد الظهيرة قادوهم موثقين إلى صحراء رملية خارج يافا ثم جعلوهم فرقا ساقوا كلاً منها إلى ناحية وقتلوا الجميع بالرصاص قتلاً ما أنزل الله به من سلطان. فلما بلغت هذه الفعلة مسامع الجزار ورجاله في عكا أصروا على الدفاع إلى آخر نسمة من حياتهم لئلا يصيبهم إذا سلموا ما أصاب أولئك

منتور بونابرت بفتح يافا

ولما استلم بونابرت يافا أمر بترميم حصونها وبعث إلى الاسكندرية يأمر العمارة بالباقية هناك أن توافيه إلى يافا. ثم فشا الطاعون في يافا وضواحيها لفساد الهواء من الجثث التي ملأت تلك الجهات. وكتب بونابرت إلى جند بيت المقدس يطلب اليهم التسليم فأجابوا أنهم تابعون لولاية عكا وحالما تسلم عكا يسلمون. ثم كتب إلى القاهرة منشوراً باستيلائه على يافا وكان قد أرسل مثل هذا المنشور عند ما استولى على العريش وغزة ولندكر هنا منشوره من يافا فقط على سبيل النموذج وفيه تفصيل ما تقدم عن فتح يافا وهاك نصه بالحرف الواحد:

«بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه مالك الملك يفعل في ملكه ما يريد. هذه صورة عمليكم الله سبحانه وتعالى جمهور فرنساويين لبندر يافا من الاقطار الشامية. نعرف أهل مصر وأقاليمها ان العساكر فرنساوية انتقلوا من غزة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة في ٢٥ منه في أمن واطمئنان وشاهدوا عسكر احمد باشا الجزار هارين بسرعة قائلين الفرار الفرار ووجدوا في الرملة ومدينة اللد مقداراً كبيراً من مخازن البقساط والشعير ووجدوا أيضاً ١٥٠٠ قرية مجهزة جهازها

الجزار ليسير بها إلى إقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده اتوجه اليها مع العربان الاشرار من سفح الجبل ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل. وما كان قصده سوى سفك الدماء مثل عادته في أهل الشام وناهيك ما هو مشهور عنه من التجبر والظلم والجور فانه تربية المالك الظلمة المصريين وفاته ان الامر لله وكل شيء بقضائه وتديره

«وفي السادس والعشرين حلت طلائع فرنساويين ببندر يافا من الاراضي الشامية واحاطوا بها وحاصروها من الجهة الشرقية والغربية وأرسلوا إلى حاكمها وكيل الجزار ان يسلمهم القلعة قبل ان يحل بهم وبعسكرهم الدمار ولكنه لحشونة عقله وفساد رأيه وسوء تدبيره لم يرد. وفي ذلك اليوم أي ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر فرنساوي على محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجهت فرقة منهم على طريق عكا على مسافة اربع ساعات من يافا وفي ٢٧ أمر حضرة صاري عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة اذ عرف ان سور يافا ملائ بالمدافع الكثيرة مشحون بعساكر الجزار الوفيرة

«وفي ٢٩ ناهز حفر الخنادق النهاية وصار على مسافة ١٥٠ خطوة في السور فأمر صاري عسكر ان تنصب المدافع على المتاريس وان توضع أهوان القناير بأحكام وأمر بنصب مدافع أخرى بجانب البحر لمنع الصلة بين عسكر البر والمراكب التي أعدها عسكر الجزار في المينا للهرب والفرار. ولما رأى عسكر الجزار المحاصرون في القلعة ان عديد فرنساويين قليل غرهم الطمع نخرجوا اليهم من القلعة مسرعين ظناً منهم انهم يغلبون على فرنساويين فهجم عليهم الفرنسيين وقتلوا منهم كثيرين وأجبروهم على الدخول إلى القلعة ثانية

«وفي يوم الخميس غاية شهر رمضان اشفق حضرة صاري عسكر وخاف على أهل يافا اذا دخلت عساكره بالقهر والقوة فأرسل اليهم مع رسول خطاباً هذا مضمونه: «لا إله إلا الله وحده ولا شريك له. باسم الله الرحمن الرحيم. من حضرة صاري عسكر برتيه كتخدا العسكر فرنساوي إلى حضرة حاكم يافا. نخبركم ان حضرة صاري عسكر الكبير بونابرت أمرنا ان نعرفكم في هذا الكتاب ان سبب مجيئه إلى هذا الطرف هو اخراج عسكر الجزار فقط من هذا البلد لانه تعدى بإرسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها والحال انها إقليم مصر التي أنعم الله بها علينا فلا يجوز له الاقامة بالعريش لانها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره. ونعرفكم يا أهل

يافا اتنا حصرنا بندركم من جميع اطرافه وجهاته وضيقنا عليه بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقناير وفي برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم . ونخبركم ان حضرة صاري عسكر لمزيد رحمته وحنوه خاف عليكم من سطوة عساكره الحاربيين فانهم اذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر أهلكوكم جميعاً ولذلك أمرنا أن نرسل اليكم هذا الخطاب تأمناً لأهل البلد ولا سيما الضعفاء والفقراء والقرباء وان تؤخر ضرب المدافع واطلاق القناير ساعة واحدة واني لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب يننا » فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة المحمدية والقوانين الحرية . فتميز صاري عسكر من الغيظ وهاج واشتد غضبه وأمر باطلاق المدافع والقناير . ولم يمض الا اليسير حتى خربت مدافع يافا وانقلب عسكر الجزار في وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور يافا وارمى له القوم ونقب من الجهة التي ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله ولا مدافع . وفي الحال أمر حضرة صاري عسكر بالهجوم وفي أقل من ساعة ملكت العساكر الفرنسية جميع البندر والأبراج ودار السيف في الحاربيين وحمي الوطيس وكثر القتل

« وفي يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة صاري عسكر الكبير ورق قلعة لاسيما على من كان في يافا من اهل مصر فأعطاءهم الامان وأمرهم بالعود الى الاوطان . وكذلك أمر اهل دمشق وحلب بالرجوع الى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمته ومزيد رأفته . وقتل في هذه الواقعة أكثر من ٤٠٠٠ من عسكر الجزار بالسيف . أما الفرنسيون فلم يقتل منهم الا القليل وسبب ذلك ان سلوكم الى القلعة كان في طريقة أمينة خافية عن العيون وأخذوا زخائر كثيرة وأموالاً غزيرة واستولوا على المراكب التي في الميناء ووجدوا في القلعة نيفاً وثمانين مدفعاً وقد فات الجزار وعساكره ان آلات الحرب لا تدفع مقادير الله . فاستقيموا عباده وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على احكام الله وعليكم بتقوى الله واعلموا ان الملك لله يؤتية من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله »

حصار عكا

ثم سار بونايرت برجاله قاصداً عكا تاركاً في يافا حامية كافية فقابله في الطريق بعض العصابة من المماليك فحصلت بينهما مناوشات شفت عن فرار المماليك فواصل السير حتى أتى سفح الكرمل واذا بعكا قد تحصنت تحصناً متيناً بهمة واليها احمد باشا الجزار

وهو الرجل الوحيد الذي كان يعتمد عليه الباب العالي في حماية سوريا فعبروا النهر وعسكروا في البر الآخر . وفي ٢ شوال صعد بونايرت الى راية وجعل يتأمل حصون عكا بالنظارة المكبرة ثم أمر ان يسير بعض العساكر الى المدينة وكانت في مياها عمارة انكليزية بقيادة السير سدي سميت قد زادت الجزار عسكراً بالدفاع . وفي اليوم التالي استطلعوا الحصون واستكشفوا قوات العدو . وفي ٤ شوال او ٢٠ مارس (اذار) بدأوا بالحاربة وكانت الدوارع الانكليزية تساعد الجزار من البحر وقد أظهر هذا الرجل بسالة عظيمة لكنه اضطر أخيراً الى استجداد قوات صيدا ودمشق وحلب



ش ٤٦ : مدينة عكا

اما بونايرت فابقي الحصار على عكا وحول شكيمة فتوحاته نحو جهات أخرى من سوريا فارسل فرقاً استولت على صفد وصور وطبريا وأما كن أخرى واتوا منها بمؤن كثيرة . وبعد يسير وصلت الدوارع الفرنسية من الاسكندرية ومعها المدافع والمؤن . وفي ٤ ذي القعدة سنة ١٢١٣ هـ (٩ ابريل) نيسان) سنة ١٧٩٩ م) قتل الجزال كافارلي

وفي ٥ ذي الحجة ٩ مايو (ايار) وهو اليوم الخمسون لحصار عكا اقر بونايرت على الهجوم النهائي فهجموا عليها هجمة اليأس بقلوب لا تنهاب الموت ولم تكن عكا لتنفذ في طريقهم لولا العمارة الانكليزية وهي التي أخرت الفتح بدفاعها عنها بالبر والبحر . ثم جاءتهم نجدة من الاسكندرية تحت قيادة حسن بك فازداد المدافعون قوة ومضى ذلك اليوم ولم ينل الفرنسيون شيئاً . وفي اليوم التالي هجموا هجمة أخرى لم ينالوا منها الا التقهقر لانهم لا قوا مقاومة عنيفة قتل فيها الجزال بون فيثس بونايرت

لجبوط مساعيه وفشل حملته السورية على انه كان يتعزى بما سبق استيلائه عليه من المدن والقرى السورية الا ان تلك الاماكن حالما سمعت بما ألمّ بحيشته من القتل انحازت الى الباب العالي هرباً من العقاب . وزد على ذلك ان السير سدني سميت كتب مذشورات وزعمها على المشايخ والامراء في لبنان يدعوهم الى الاتحاد مع الباب العالي وأرسل الى سراة المسيحيين أيضاً صورة مذشور بونابرت الذي يقول فيه انه هدأ أركان الديانة المسيحية فامتنع اللبنانيون عن توريد الخمر والبارود للفرنساويين فاصبح بونابرت في حالة اليأس الشديد لا يدري ماذا يصنع وقد خابت آماله . فكتب الى ديوان مصر انه قد هدم أسوار عكا وأخرب بيوتها بالقنابل وجرح واليها الجزار وانه سيرحها بعد ثلاثة أيام عائداً الى مصر ومتى جاءها يقتص من الباغيين . ثم استقدم حاميات صفد وطبرية وغيرها

رجوع حملة بونابرت الى مصر

وفي ٢١ ذي الحجة او ٢٣ مايو (ايار) امر بونابرت بالمسير الى مصر بكل رجاله وفيهم الجرحى ففاسوا عذاباً مرّاً من العطش وفشا فيهم الوباء فزادهم عناء فامر بونابرت أن يسير الرجال الاحياء على أقدامهم وأن تعطى الخيول والجمال للمرضى والجرحى . وزادهم شقاء ان العمار الانكليزية كانت تتبعهم في البحر والعربان يتعرضون لهم في البر والجنود العثمانية تسوقهم من وراءهم . أما هم فكانوا يخرجون كل ما يمرون به من المدن والقرى . وفي ٦ ذي الحجة أو ٢ يونيو (حزيران) وصلوا العريش فامر بونابرت بتحصينها تحصيناً ممتعاً واشتد عليهم القيظ وكان في الماء الذي يشربونه علق يمتص الدم فكان يعلق بحلقهم عند الشرب فيعذبهم عذاباً الياً ثم واصلوا المسير الى القاهرة رغم الحر والوباء حتى وصلوها فخرج المشايخ والاعيان الى خارج المدينة لاستقبالهم فدخلوها ولم يصدقوا انهم تخلصوا من حملة سوريا ومما مروا به من الصحاري الحارة . فاخذ بونابرت في تنظيم العساكر وتطبيب الجرحى واعادة النظام واكتساب ثقة الاهلين ولم يكذب يفعل حتى بلغه تدم الممالك من جهة الصعيد . وسبب ذلك ان مراد بك كان في أعلى الصعيد فبلغه قدوم حملة عثمانية لاجراج فرنساويين من مصر فجمع اليه رجاله وسار ببعضهم على الضفة الغربية للنيل وأرسل البعض الآخر على الضفة الشرقية للاتحاد مع ابراهيم بك القادم من جهة سوريا فعلم بونابرت بذلك فانفذ جنداً على كل من الضفتين لمحاربة الفرقتين فالتقى جند الضفة الشرقية بفرقة ابراهيم بك وراء المقطم فشدتها وأخذامتها وانثى جند

الضفة الغربية وفيه بونابرت بمراد بك في الجزيرة فانتشبت الحرب فانكسر الممالك وتشقت شملهم فعادت الجنود الفرنسية ظافرة

حملة عثمانية لاجراج فرنساويين من مصر

وفي ٦ محرم سنة ١٢١٤ هـ أو ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٩ م وردت لبونابرت رسالة من الجنرال مرمون في الاسكندرية تنبئه بمجيء الحملة العثمانية ونزولها ابي قير في ١١ الجاري فانزعج بونابرت من هذا الخبر فامر باعداد حملة تسير الى الاسكندرية وبعث الى الحصون في رشيد ودمياط أن تكون على يقظة واستعداد

وسبب قدوم الحملة العثمانية ان الباب العالي بعث الى فرنساويين مراراً يقيم الحجة على استقلالهم باحكام مصر ويطلب اليهم الانسحاب منها ولم يكن الجواب الا الماطلة وكانت انكسرت في الوقت عينه تستحث الباب العالي على هذه المطالبات واخيراً اتفقت معه أن يرسل كل منهما عمارة الى ابي قير حيث تتحد العمارتان وتخرجان فرنساويين من مصر بالقوة . فسارت العمارة العثمانية تحت اميرالية بارتونا بك وعليها ثمانية آلاف من الجنود البرية بقيادة مصطفى باشا سرعسكر ومعهم حسن بك ورجاله وسارت العمارة الانكليزية باميرالية السير سدني سميت المتقدم ذكره والتقت العمارتان في ابي قير واتحدتا فأسرع الجنرال مرمون الى اعلام بونابرت

فبرح بونابرت القاهرة برأ ثاني يوم وصول الرسالة صباحاً فسار من الجزيرة الى الرحمانية ومن هناك كتب الى القاهرة كتاباً يضرب به على وتر الدين حيث يقول « ان بين الذين قدموا للمحاربة رجالا روسيين لا يؤمنون بالله واحد وانما يعبدون آلهة ثلاثة » ثم برح الرحمانية فوصل الاسكندرية في ٢٤ محرم او ٢٣ يوليو (تموز) فلاقاه مرمون فعنفه لغفلته عن حصن ابي قير حتى احتله الانميون وفي اليوم التالي استكشف استحکامات العدو ثم سار برجاله نحو ابي قير فاذا بالجنود العثمانية تحت قيادة مصطفى باشا على مسافة ميل ونصف وراء ابي قير ومنهم نحو الف رجل في حصن على رابية من الرمال في البين بمجوار الشاطئ وجماعة آخرون في اليسار في حصن على رابية أخرى وهاتان الرايتان بمثابة جناحي الجيش

فهاجم بونابرت أولا الراية اليمنى ففر من كان فيها الى قرية وراء قلب الجيش فارسل كوكبة من الفرسان لملاقاة الفارين وفعل مثل ذلك بالراية اليسرى ثم هجم على قلب الجيش فتقهقرت الجنود العثمانية الى طاية كانوا قد جعلوها وراءهم فتشجع فرنساويون وتعقبوا الهاربين لكنهم لم يسيروا يسيراً حتى سمعوا دوي المدافع

الانكليزية ووزير قنابلها فارتدوا الى الورا . فارتد العثمانيون عليهم وتعقبوهم حتى كادوا يظفرون بهم لكنهم شغلوا بتقطيع رؤوس القتلى فاغتم أحد القواد الفرنسيين فرصة تعافلهم وسار في فرقته عن اليسار قاصداً الطاية الخلفية وسارقائد آخر من اليمين فدخلا الطاية وقطعا على العثمانيين خط الرجوع وأسرع أحدهما «الجنرال مورات» بنفسه للقبض على مصطفى باشا في خيمته فأطلق عليه الباشا عياراً نارياً فلم يعبأ به وهجم عليه بسيفه فقطع أصبعه وأمر اثنين من رجاله فاوثقاه وأرسلاه الى معسكر الفرنسيين وأخذت العساكر الفرنسية بالتهب فلم يغادروا في معسكر العثمانيين شيئاً من المؤن والذخائر وفر من بقي من العثمانيين الى البحر في قوارب أرسلها لهم السيرسدي الا بعض الحامية في حصن أقاموه هناك فهجم عليه الفرنسيون وبعد دفاع سبعة أيام هدموه وأسروا من كان فيه فشناع خبر انتصار الفرنسيين في القطر المصري فعظموا في عيون الاهلين

عود بونايرت الى فرنسا

ثم ورد لبونايرت من فرنسا رسائل منبهة باضطرابهم هناك وبثقل اليد عليهم وفيه الحاح كلي عليه أن يسير حالا الى فرنسا بعد أن يجعل في مصر حامية منتظمة فكتم الامر ولم يكشف به أحداً الا الاميرال غاتوم لانه لم ير بداً من مكاشفته لكي يعد له دارعتين تنقلانه ومعيته الى فرنسا . ولكي لا يجعل للعصريين شبهة بمقاصده عاد الى القاهرة بما يلزم من احتفال النصر فوصلها في ١٣ صفر فخرج الاعيان لملاقاته بالموسيقى

وبعد قليل نزل الى الاسكندرية مظهراً التجول في الوجه البحري فلما وصل الاسكندرية كتب الى الجنرال كلاير وكان على مديرية الغربية بوليه القيادة العامة على مصر ويبين له وجوب المحافظة على الاحتلال لئلا تأتي دولة أخرى تحتل هذا القطر بعد أن بذلوا فيه ما بذلوه من المال والرجال ووعدته بنجدة يبعث بها اليه حال وصوله الى فرنسا وأخبره أخيراً عن الداعي الذي حمه على هذه السرعة . وكتب كتاباً آخر الى عساكره يشجعهم على الثبات والصبر وكتاباً الى علماء مصر ومشايخها يطلب اليهم أن يعتبروا الجنرال كلاير مكانه جاعلاً السبب في سفره أنه ذاهب لقمهر من بقي من أعدائه في أوروبا لانه ان لم يفعل ذلك لا يطمئن باله على مصر ويعدهم أنه لا يغيب عنهم أكثر من ثلاثة أشهر وأرسل هذه الكتب معاً الى كلاير وأوصاه أن يطلع أصحابها عليها في الوقت المناسب

ثم بعث يستقدم الجنرال مينو اليه فجاءه حالا وهو على أهبة السفر في ٢٥ صفر أو ٢٢ أغسطس (آب) فعهد اليه قيادة الاسكندرية ورشيد والبحيرة وسلمه كنب كلاير وأوصاه أن يوصلها اليه حالا . ثم ركب جواده وسار مساءً بمن معه الى جهة مرابوت أو العجمي وكان الاميرال غاتوم ودارعتاه بانتظاره هناك وفي الساعة العاشرة من تلك الليلة نزل بمن معه الى البحر . وفي صباح اليوم التالي ودعوا سواحل الدلتا وأقلعوا قاصدين فرنسا

أما اهل الاسكندرية ولا سيما الحفر خارج المدينة فأنهم شاهدوا في ذلك الصباح غباراً عجاجاً بجهة حصن العجمي فخافوا أن تكون كتيبة من العربان قادمة على المدينة ثم تبين لهم أنها خيول مسرجة ولا راكب عليها فسألوا لمن هذه الخيول فقيل لهم أنها الخيول التي نقلت بونايرت ومعيته الى البحر وقد سافر الى فرنسا فاندعر القوم لتلك الاخبار وكادوا لا يصدقونها حتى بلغهم مينو رسمياً ما عهد اليه بونايرت قبل ذهابه

ثم أرسل مينو الاوامر والكتب التي بيده الى كلاير فوصلته وهو في رشيد قادماً لمقابلة بونايرت . فذهب الى القاهرة وبلغ المشايخ والعلماء ما أمره به بونايرت وتلا عليهم كتابه اليهم وهؤلاء بلغوا الاهلين وهكذا ذاع خبر بونايرت في سائر القطر . وكان كلاير بالحقيقة أولى من سائر قواد تلك الحملة بذلك المنصب لانه كان أفضلهم حزمًا وعقلاً وهيبة واقفة وبسالة

فقد ظهر لك مما تقدم ان الحملة الفرنسية لم يكن القصد منها غير الاحتلال الدائم . ذلك كان قصد بونايرت . أما كلاير فلم يكن ذلك رأيه وانما كان ينظر الى مصر نظره الى بلاد لا تصلح لسكنى الفرنسيين لما بينها وبين بلادهم من اختلاف الهواء والعادات والاخلاق فضلاً عن انه لم يكن يرى امكان استمرار الحال على ما تركها بونايرت ولذلك بادر عند استلامه أزمة القيادة الى اطلاق فرنسا على حالة مصر عند خروج بونايرت فكتب اليها يقول :

رأي كلاير بمصر

« قد سافر بونايرت الى فرنسا في الفروكيدور السادس بدون أن يعلن أحداً لكنه أرسل إليّ كتاباً وآخر للصدر الاعظم أرسله الى الاستانة مع علمه أنه وصل الى دمشق . أما أعداؤنا الآن فليسوا الممالك فقط وانما هم ثلاث دول عظيمة : الباب العالي واندكترا وروسيا . أما جنودنا فقد أصبحوا نصف ما كانوا يوم قدومهم

الى مصر مبعثرين في أنحاء القطر من العريش والاسكندرية الى اصوان . أما معداتهم فغير كافية لهم لان معامل الاسلحة والبارود معطلة . ومثل ذلك الالبسة فقد أصبحت رجالنا لاحتياجهم الى الالبسة معرضين لاوبئة البلاد . وزد على ذلك اتنا خسرنا ١٢ مليوناً من الفرنكات بسبب تضمين الضرائب غير الاعتيادية بامر بونايرت . نعم ان الممالك تشتتوا لكنهم لم يبيدوا . هذا مراد بك ما أنفك في مصر العليا في كثرة من الرجال يمكنه بهم أن يشغل قسماً من جنودنا لمدة طويلة . وهذا الصدر الاعظم جاء بحملة عثمانية لناهضتنا وقد سار من دمشق الى عكا . أما حصوننا واستحكاماتنا فلا زبدنا قوة — ان حصن العريش لا يدفع مهاجماً والاسكندرية أشبه بمعسكر محاط بزرية . فأفضل ما يمكنني اجراؤه والحالة هذه مخافة الباب العالي لعلنا نصل الى وفاق فيه خير لنا . وقد علمت الآن ان عمارة عثمانية رست أمام دمياط »

حالة اخرى لاجراج فرنساويين

الا ان كلابر مع ذلك لم يتقاعد عن تنظيم الاحوال واكتساب ثقة الاهلين وجمع العوائد والمكوس لدفع مرتبات الجند على حين انه لم يكن ممن يريدون احتلال مصر أو استعمارها بل كان يفضل الانسحاب منها على شروط لا يكون فيها عار على دولته ولكن الاحوال لم تله ما نواه لان الدولة العلية عادت الى استخراج هذا القطر السعيد من أيدي فرنساويين بالقوة فارسلت الصدر الاعظم يوسف باشا بنفسه الى دمشق بمجندين عظماء يسيره عن طريق البر الى القاهرة وجنداً آخر يسير بحراً في عمارة السير سدي سميت باتفاق مع انككترا لمطاوله فرنساويين من جهة البحر ليسهل على حملة البر المسير في داخلية القطر . فسار جند البحر الى دمياط ونزل في قلعة قديمة شرقي البوغاز فاخرجتهم منها الجنود فرنساوية

أما الصدر الاعظم يوسف باشا فقدم يافا بحملته ثم جعل يتخبر مع كلابر في وفاق ينتهون اليه فاتهت الخابرة بمؤتمر عقد في العريش مؤلف من الصدر الاعظم من العثمانيين والجنرال ديزه والمسيو بوسيلك من فرنساويين أقرت على معاهدة صالح امضيت في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢١٤ هـ أو ٣ ديسمبر (ك ١) سنة ١٢٩٦ م غير ان هذه المعاهدة لم يطل بقاؤها لان العثمانيين خرقوها بمهاجمتهم العريش في ٢ رجب أو ٢٣ ديسمبر (ك ١) وهي تحت قيادة الكولونيل كازال وكان من البسالة على جانب عظيم فاحب الاهلون التسليم فابى وأصر على الدفاع الى آخر نسمة من حياته ولم تكن العريش من المناعة على شيء فدخلها العثمانيون واستولوا عليها فاتصل

ذلك بالجنرال كلابر فاغتاز جداً وكتب الى السير سدي يعفقه مع علمه ببراءته
معاهدة الصلح

فعادت الخابرات وعقد مؤتمر ثان في ٤ شعبان سنة ١٢١٤ أو ٢٤ يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٠ م في العريش مؤلف من ديزه وبوسيلك من فرنساويين واثنين من العثمانيين وأقروا على معاهدة عرفت بمعاهدة العريش مقتضاها انسحاب فرنساويين بمؤتمهم وذخائرهم عن طريق رشيد والاسكندرية وأبي قير الى فرنسا انسحاباً قانونياً بكل ما لديهم

فسر كلابر لتلك المعاهدة لاعتقاده ان انسحابه على هذه الصورة لا يمس شرف دولته . ولما شاع خبر تلك المعاهدة بمصر فرح الاهلون عموماً وكذلك الجنود فرنساوية لأنهم لم يكونوا راضين بالمقام في بلاد تخالف بلادهم اقليماً واخلاقاً ومعيشة فضلاً عما كانوا يقاسونه من عصيان الاهلين وسفك الدماء . فغضب كلابر على البلاد ضريبة غير اعتيادية مقدارها ثلاثة آلاف كيس لنفقات الجيش في نقل المهات وصدرت الاوامر بالتأهب للرحيل . فباع فرنساويون كل ما يصعب حمله من متاعهم وبعث كلابر الى الجنود المتفرقة في جهات الصعيد بالقدوم الى مصر . واطمان الممالك الذين كانوا قد فروا من وجه فرنساويين فعادوا الى القاهرة بنسائهم وأولادهم . ثم نهض الصدر الاعظم بحيشه نحو القاهرة حتى اذا أتى بليس سار علماء مصر ومشايخها باذن من كلابر لملاقاته وتقديم واجب العبودية لجلالة السلطان فسر الصدر الاعظم بهم وخلع عليهم

نقض المعاهدة

وبينا الحال كذلك ورد للجنرال كلابر كتاب من السير سدي ماله نقض معاهدة العريش وتعريبه ملخصاً :

« سيدي . اعلم حضرتكم اني قد تشرفت باوامر شاهانية تمنع عقد أية معاهدة مع الخيوش فرنساوية التي هي تحت قيادتكم في مصر وسوريا الا اذا سلموا أنفسهم وسلاحهم كما يفعل أسراء الحرب مع التخلي عن كل المراكب والمؤن التي لهم في الاسكندرية »

على ان السير سدي نفسه لم يكن يرى الا البقاء على المعاهدة لكن دولته حملت الباب العالي على اصدار هذه الاوامر . وقد كتب السير سدي الى دولته يظهر رأيه ويبين أوجه الخطأ التي انتهت بذلك النقص ولم تحصل نتيجة . أما كلابر فاستشاط

غضباً لذلك ولم يكن جوابه الا الحرب فأسرع الى احتلال الطوابي على الروابي خارج القاهرة وتعزيزها بما يلزم من العدة والرجال . وكان يوسف باشا قد أصبح على مقربة من القاهرة ومعه الجيوش العثمانية فكتب الى المشايخ والعلماء يستحثهم على اخراج الفرنسيين من بلادهم .

ف عقد الجنرال كلابر مؤتمراً حرياً قال فيه : « ان الدولة العثمانية قد سهلت انسحابنا فوقف الانكليز في طريقنا فعلينا محاربتهم » ثم بعث الى الصدر الاعظم بعزمه على الحرب وحشد جيشه خارج القاهرة وكانت مقدمة الجنود العثمانية بقيادة ناصيف باشا أحد قواد الحملة معسكرة في المطرية النيل الى يمينها والصحراء الى يسارها ووراء ذلك الحانقاه وفيها باقي الجيش بقيادة يوسف باشا وعددهم نحو من اربعين ألفاً أو تزيد وانضم اليهم الانكشارية والمماليك تحت قيادة ابراهيم بك . فالتقى كلاير بمقدمة العثمانيين فتقهقرت بعد الدفاع الحسن وفر ناصيف باشا وبعض المماليك لجهة القاهرة فقدم كلابر برجاله فظهر له عن بعد غبار عجاج في سهل بين قريتين وهما سرياقوس الى اليسار والرج الى اليمين . ثم انفش الغبار عن الجنود العثمانية قادمة من الحانقاه لملاقاة الفرنسيين فالتقى الفريقان وانتشبت الحرب فدافعت الجنود العثمانية دفاعاً حسناً معهوداً بالرجال العثمانيين الا انهم اضطروا أخيراً الى التقهقر نحو الحانقاه فتبعهم الفرنسيون فخرجوا منها وما زالوا حتى تجاوزوا الصاحية فوصلها كلابر فراها خالية فاستولى على ما كان فيها

ثورة اهل القاهرة

أما أهل القاهرة فلما علموا بمسير كلابر الى المطرية ناروا على من بقي في مصر من الفرنسيين وبعد الظهيرة أتاهم ناصيف باشا ومعه جماعة من المماليك المتقدم ذكرهم وقالوا انهم غلبوا الفرنسيين وجاؤا لاستلام المدينة باسم جلالة السلطان . فأمر ناصيف باشا أن يقتلوا من بقي في مصر من المسيحيين رغم كونهم من رعايا الدولة العلية . أما العساكر الفرنسيون الباقون في القاهرة فكانوا يدافعون بالامر الممكن . وطالت المذبحة في احياء المسيحيين من الاقباط والسوريين والافرنج الى أن جاء عثمان بك أحد ضباط العثمانيين الى ناصيف باشا قائلاً « ليس من العدالة أن تهرقوا دماء رعايا الدولة العلية فان ذلك مخالف للارادة السنية » وبث رجاله في المدينة لايقاف القتل

ثم تمكن الفرنسيون من احتلال القلعة وباقي الطوابي ولبثوا ينتظرون ما يكون من ناصيف باشا . فهجم عليهم فأطلقوا عليه وعلى رجاله ناراً أرجعتهم الى أماكنهم

حتى لم يبق منهم في الازبكية رجل واحد واستمر اطلاق النار على المدينة من القلعة وباقي الطوابي الى منتصف الليل فوقع الرعب في قلوب الاهلين وهم المشايخ بالقرار فأمسكتهم الرعية قهراً . وكان في بعض بيوت المدينة مدافع فأخرجها الاهلون ورتبوها على هيئة بطارية أحاطوها بطاية وحظروا على الناس الخروج من تلك الطاية ولم يكن عندهم قنابل فاستخدموا عيار الموازين عوضاً عنها . وبعد مضي يومين على تلك الحال أنبى ناصيف باشا بقدم جند فرنساوي من جهة المطرية لنجدة حامية القاهرة فبعث اليهم سرية من الفرسان فلم ينالوا منهم مارباً فوصل الفرنسيون منادين بالتصارع في مواقعهم مع العثمانيين . وكانت المدينة برمتها في يد الوطنيين فحجز الفرنسيون عن الدخول اليها ثم جاءت نجدة أخرى ولم يستطيعوا اتحاد الثورة . ثم جاء الجنرال كلابر وقد كادت مؤن جيوشه في القاهرة تنفذ وخرج جميع المسيحيين من الاقباط والسوريين قارين من على السور طالين الالتجاء الى معسكر الفرنسيين ثم تضايق الاهلون لقلعة الماء لان الفرنسيين قطعوه عنهم

وفي ٢٧ شوال او ١٤ ابريل (نيسان) طلب كلابر الى سكان بولاق أن يسلموا فأجابوا انهم تابعون للمدينة بما يلحق بها فأطلق عليهم قنابل لا تزال بعض آثارها باقية الى هذه الغاية فسقطت البيوت ودخل الفرنسيون بولاق ولم يبقوا عليها نهياً وقتلاً فلما تأتى ذلك لكلابر خرج نحو المدينة بالمدافع والحراريق وكانت ليلة ممطرة اختلطت فيها أصوات المدافع بقصف الرعد وشرارها بلع البرق وهجمت العساكر على المدينة خائضين في الاوحال يثبون من حائط الى آخر بين البيوت التي هدمتها مدافعهم وفي أيديهم خرق مبتلة بالزيت مشتعلة يرمونها ذات اليمين وذات اليسار لاحراق المدينة فعلا الصباح من النساء والاطفال خوفاً من الثيران حتى كانوا يلقون بأنفسهم عن الجدران والسطوح تخلصاً من الالهب

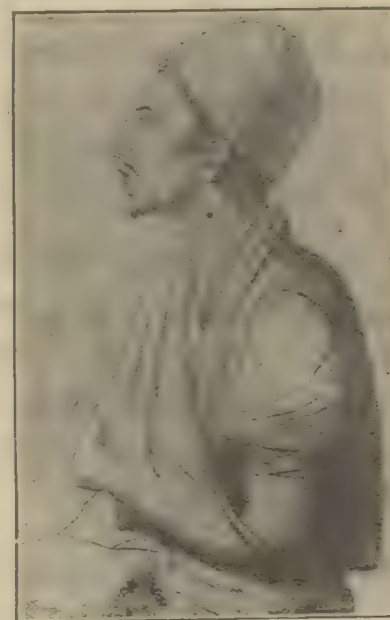
فهم ناصيف باشا بالقرار فتبعوه فدخل بيتاً لبعض ذويه واختفى . فأمر كلابر أن ينادى في الناس « وما النصر الا من عند الله وهو سبحانه وتعالى قد أمر الظافرين بالرفق وعليه فان الصاري عسكر يعفو عن أهل القاهرة وسائر البلاد المصرية عموماً ولو اتحدوا مع الاتراك فليرجع كل الى شأنه » فكف الناس عن القتال وهدأت الاحوال فبعث كلابر أن تنظف الاسواق وترفع الجثث وأمر أن تنور المدينة ثلاثة أيام احتفالاً بالنصر ودعا اليه العلماء والمشايخ وأعد لهم وليمة حافلة وبعد يومين جمعهم في مجلسه وأخذ يعنفهم على ما أتوه من الخيانة فأجابه الشيخ المهدي « اتنا لم نأت خيانة أما اتحادنا مع

العثمانيين فكان بأمر منك » وحجر كلابر على خمسة عشر شيخاً لم يتركهم حتى أخذ منهم غرامة مقدارها ١٢ مليوناً من الفرنكات . وسكنت بعد ذلك الاحوال واظمت القلوب

ثم علم مراد بسلامة حال المدينة وما كان من نصرة الفرنسيين فأحب الانحياز الى الجانب الاقوى فجاء الى ضواحي القاهرة وكتب الى كلابر ثم اجتمع معه وتفاوضا فتعاهدا على الاتحاد وتماديا هدايا فاخرة فولاه مصر العليا مكافأة لصداقته

مقتل كلابر

فاطمأن كلابر من قبيل مصر بعد اتحاده مع المماليك وعظم في عيون الاهلين



ش ٤٧ : سليمان الخليلي قاتل الجنرال كلابر

وسكن في بيت مراد بك في الحيزة وأمر بترميم الاماكن التي هدمت بسبب تلك الثورة وفي جملتها ديوان الجيش غربي الازبكية في اول شارع بولاق الى اليمين . وفي ١٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠٠ م دعي كلابر الى غداء عند اركان حربه الجنرال داماس في منزله قرب ديوان الجيش . فبعد مناولة الطعام خرج كلابر والمسيو بروتين مهندس الحملة تمشيان في رواق (ممشى) موصل بين بيت الجنرال داماس والديوان

نحو الساعة الثانية بعد الظهر . فبينما كانا يتحادثان وثب رجل من آخر الرواق عليه ثوب خلق وفي يده خنجر طعن به صدر الجنرال كلابر فنادى الحرس وهجم بروتين على الرجل فنال منه مثلما نال من كلابر فسقط بروتين على الارض فتركه ذلك الشقي



ش ٤٨ : مقتل كلابر

وعاد الى كلابر وطعنه ثانية وثالثة حتى أجهز عليه ثم سمع ضجة ففر الى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط . فلما أتى الحفر لم يروا الا ذينك

الرجلين مخبطان بدمهما فملاهما الى البيت وأتوا لهما بالطبيب فمات كلاهما حالا اما بروتين فبقي تحت المعالجة

ونودي في المدينة بالقبض على ذلك الفاعل حينما وجد وكان بروتين قد أفهمهم شيئاً عن ملائسته وشكله . وبعد يسير جيء برجل عليه لباس رث وأوقفوه أمام بروتين فعرفه وقال هذا هو الجاني . ثم قرر آخرون انهم رأوه منذ بضعة أيام يتردد بين البيوت ويختلط بخدمة الديوان

وبعد استنطاقه بسبل مختلفة وجد ان اسمه سليمان الحلبي التقى به أحد أغوات الانكشارية في بيت المقدس وكان قد ذهب الانكشاري اليها للتفتيش عن رجل يقدم على قتل كلابر . فخاطب سليمان الحلبي بذلك فاجاب على شرط أن ينجي أباه في حلب من ضرائب فادحة يطالبها منه والي تلك الولاية . فجاء به الى غزة وهناك أناء بكتب توصية من آغا غزة لعلماء الازهر . فبرح سليمان غزة في ٨ مايو فوصل القاهرة في ١٤ فنزل في بيت مصطفى افندي ليلة ثم تمشى الى بعض العلماء فابو مشاركته بالجناية

اما هو فلم ينفك حتى اغتم تلك الفرصة وفعل ما فعل فاستدعي المشايخ المتهمون وهم ثلاثة وبلاستفهام منهم أجابوا انهم لم يروا الرجل ولم يعرفوه قبل تلك الساعة . ثم عين الجنرال مينو لجنة لفحص القضية فحكمت باعدام المشايخ الثلاثة لانهم عرفوا عزم القتل على القاتل ولم يخبروا عنه . اما القاتل فحكم عليه بالاعدام على الحازوق لكنهم أوقفوا تنفيذ الحكم لبعد دفن الفقيه . فشيخوا جنازته باحترام واحتفال ولما واروه التراب جاءوا بالجنازة وأعدموهم

الجنرال مينو

وأقاموا على القيادة العامة بدلا من كلابر الجنرال مينو وكان ممن يرغبون في البقاء بمصر فاسلم ودعى نفسه عبد الله وولد له غلام دعاه سليمان . ثم ظهر من تصرفه بالاحكام انه ليس على شيء من الهمة والدراية فسخر به الفرنسيون وكرهوه وكان ديوان القاهرة مؤلفاً من طائفتي المسلمين والمسيحيين فجعله من المسلمين فقط وهذه أسماء المشايخ الذين تألف منهم الديوان بأمر الجنرال مينو وهم تسعة مع من يلحقهم :

الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان والشيخ المهدي كاتب السر والشيخ الامير والشيخ الصاوي وكاتبه والشيخ موسى السرمسي والشيخ خليل البكري . والسيد علي الرشيدني نسيب صاري عسكر والشيخ الفيومي والقاضي الشيخ اسماعيل الزرقاوي .

وكاتب سلسلة التاريخ السيد اسماعيل الحشاش . والشيخ علي كاتب عربي . وقاسم افندي كاتب افرنجي . وترجمان كبير القس رفايل . وترجمان صغير الياس خورشامي . والوكيل الكساري فوريه ويقال له مدير سياسة الاحكام الشرعية . ومقدم وخمسة قواسمة وأخذ مينو جانب المسلمين فعهد اليهم جباية الخراج بعد أن كانت في ايدي الاقباط . على ان ذلك كله لم يغير شيئاً من كره الوطنيين لتلك الامة الاعجمية التي جاءت لامتلاك بلادهم ومن حجة ما جرهم الى ذلك انه أعلن حماية فرنسا على مصر .



ش ٤٩ : الجنرال مينو

وان مصر قد أصبحت مستعمرة فرنساوية . وشق ذلك على قواد الحملة فجاءوا اليه بصفه رسمية وبلغوه ان الجيش الفرنسي غير راض عن هذه البدع وان الجمهورية الفرنسية لا تقصد بحملتها على مصر ما قد صرح به هو فلم يجيبهم بشيء وانما وعدهم انه سينظر في ما قالوا

وكانت انكلترا لا تنفك عن السعي في اخراج الفرنسيين من مصر صيانة لمصالحها في الهند على الخصوص . فاعدت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ مركباً وخمسة عشر ألفاً من الرجال وارسلتها الى مصر بقيادة السير رلف ابر كرومي فصار اليها

ودخل جون ابي قير في ٢ مارس (اذار) سنة ١٧٠١ م فشاهد آثار العمارات الفرنسية التي حطمتها عمارة نلسون . وفي ٧ منه نزل السير راف المذكور في قارب لاستكشاف الشاطئ ليختار محلاً ينزل فيه الجيش . وفي ٩ منه شرعت الجنود الانكليزية بالنزول الى البر فاطلق عليهم من الزنل عدة قنابل من طاية تحصن فيها متسلم الاسكندرية بالف وخسماية رجل اما الانكليز . فلم يكتروا بذلك بل استمروا على النزول بسرعة والقنابل تتساقط حول قواربهم حتى امتلكوا البر ولم يلحقهم الا ضرر يسير

ثم شخصوا الاسكندرية فلاقاهم الفرنسيون باربعة آلاف وخمسة مقاتل وفيهم حامية الرحمانية . وانتشبت الحرب بين الطرفين طول ذلك النهار ولم يظهر أحد منها . وكانت خسائر الفرنسيين خمسمائة رجل والانكليز ألفاً ومائة . ومما أعاق الانكليز قلة فرسانهم فعسكروا بجوار الاسكندرية وبنوا الطوابي والحدائق وحفروا آباراً لاستخراج الماء . اما القاهرة فكانت على عهدك بها لفساد سياسة مينو . وفي ٤ مارس وصلته الاخبار بوصول العمارات الانكليزية الى ابي قير فبدلاً من الاسراع في النجدة جعل يتوهم أوهاماً لا طائل تحتها . وبعد اللتيا والتي بعث فرقة الى بليس وأخرى الى دمياط وأخرى الى ابي قير براً وأخرى في النيل

بجي الانكليز الى مصر

وفي ١١ منه جاءته الاخبار باحتلال الانكليز ابا قير وهجومهم على الاسكندرية فارتبك في امره فجمع اليه مشايخ الديوان وقال انه ذاهب الى السواحل وقد استخلف الجزال يليارد مكانه وزعم ان سبب ذهابه قدوم بعض المالطية والايطالين الى ابي قير ثم استقدم الفرقة التي أرسلها الى بليس وأمر من بقي من الجيش في مصر أن يسيروا الى الرحمانية . فبرح مينو القاهرة في ١٢ منه لكنه لم يصل الاسكندرية الا في ١٩ منه وقد تحصن الانكليز محصناً لا يقوى هو على مقاومته فاستشار قواده فأشاروا عليه بالهجوم على ذلك الحصن الايمن لانه أقوى حصونهم لكنه لم يجسر على ذلك نهراً فجهم ليلاً فلم ينجح

وفي اليوم التالي ٢١ مارس (اذار) أمر أن تهجم الجيوش كلها دفعة واحدة باكرأ بلا ضرب النفير وكان الانكليز في يقظة تامة في الساعة الثالثة بعد نصف الليل سمعوا دوي المدافع عن يسارهم فوجهوا نيرانهم نحوها ثم سمعوا مثلها عن يمينهم فأجابوا بمثلها وبعد معركة كبيرة تهاوى الفرنسيون بجانبهم ابر كرومي غرضهم من ذلك فعزز

ممينه معسكره واتخذ قيادتها بنفسه فأصيب بجرح قتال ألقاه على الصعيد فقدم السير سدني سميث وانفضه وما زالت الحرب قائمة حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وقد قتل كثير من الضباط الفرنسيين . فأمر الجزال مينو بالراحة فعادت رجاله وعدد قتلائهم وجرحاهم نحو ألفين اما خسائر الانكليز فكانت ٢٤٠ قتيلاً و ١٢٥٠ جريحاً من جملتهم السير رلف ابر كرومي فنقلوه الى احدى الدوارع فعاش بضعة أيام وتوفي فتحولت قيادة العمارات الى الجزال هتشنسون

نجدة العثمانيين للانكليز

وفي ٢٥ مارس (اذار) جاءت الانكليز بنجدة عثمانية بقيادة حسين قبطان باشا . فرأى الجزال هتشنسون أن يبعث اربعة آلاف من الجنود العثمانيين وفرقتين من الانكليز وثمانية مدافع بقيادة الكولونل سبنسر لاحتلال رشيد . فاتصل ذلك بالجزال مينو فأرسل اركان حربيه لاستطلاع قوة تلك التجريدة فقدرها أقل مما هي كثيراً فاستخف بها فلم ينجد رشيداً

أما الكولونل سبنسر فما زال ساراً حتى أتى رشيداً فدخلها بسلام ولما استقر بها بعث الطوبجية بمدافعهم لضرب حصن جوليان وفيه حامية من الفرنسيين فضيقوا عليهم حتى سلموا فامنهم ثم أخرجوهم من الحصن . فاتصل ذلك بحامية الرحمانية فاستمدت الجزال يليارد في القاهرة فاجاب معتذراً بعدم امكانه الاستغناء عن لديه من الجنود فبعثت الى مينو في الاسكندرية فامدها بما استطاع

فاصبحت الجيوش الفرنسية بذلك أقساماً متفرقة لا تقوى على دفاع : الجزال يليارد بالقاهرة في خمسة آلاف يتأهب لدفع الجيوش العثمانية القادمة بطريق الصحراء بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا . وحامية الرحمانية لما بلغها سقوط رشيد خارت قواها والجزال مينو كان محاصراً في الاسكندرية لا يدي حراكاً وقد ضايقه الانكليز بقطع الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط وزد على ذلك أنهم قطعوا المياه عن الاسكندرية فلم يبق عنده الا مياه الصحاريج

أما الجنود العثمانية والانكليزية فبعد أن احتلوا رشيداً صعدوا في النيل في ٨ مايو (ايار) حتى أتوا العطف فاستلموها ثم ساروا الى الرحمانية واستولوا عليها أيضاً فقررت الجنود الفرنسية الى القاهرة وأعلموا يليارد بما كان فأمر بعقد مجلس حربي للمفاوضة بالدفاع النهائي لان العدو تكاثف عليهم : هتشنسون من الجهة الواحدة والصدر الاعظم

يوسف باشا من الجهة الاخرى وكان قد استولى على دمياط وسار قاصداً القاهرة في ثلاثين الف مقاتل حتى عسكر في بليس في ١١ مايو (ايار). أما مراد بك فبعد محالفته الفرنسيين على ما تقدم توفي وتولى مكانه على الصعيد عثمان بك البرديسي فلما علم هذا بقدم العثمانيين والانكليز نقض الحالفه

فلما اجتمع المجلس الحربي تفاوضوا في جميع ذلك فأروا ان الجيوش الفرنسية الموجودة في القاهرة وفي جملتها حاميه الرحمانية لا يزيد على اثني عشر الفا نصفهم جرحى ومرضى وليس لديهم من المال الا اليسير. فلم ير يليارد حل هذا المشكل الا وجهين اما أن يسير بما لديه من الجند في النيل لملاقاة مينو فيتكاتفان على الدفاع أو ان يسير الى دمياط. ولم يبدأ على الحالين من اخلاء القاهرة وكان يفضل المسير الى دمياط لأنها تصلح للحصار اذا طال. وفيها من الحاصلات ما يقوم باحتياجات جيشه وهو في الحالين عالم بمجزه عن مناهضة عدوه

ثم حدثته نفسه أن يلاقي الجنود العثمانية والانكليزية جميعاً عند اقترابهم من القاهرة. فخرج في خمسة آلاف في ١٦ مايو (ايار) متمثلاً بكلاير وعسكر في نقاب فوصلت اليه مقدمة جيوش يوسف باشا فلم يستطع الوقوف أمامها فعاد الى القاهرة

انسحاب الفرنسيين من مصر

وفي ٢٣ مايو وصل هتشنسون الى طرامة فقطع رعة منوف وسار بنفسه الى معسكر يوسف باشا وفأوضه في الطريقة التي يجب اتخاذها لاتمام مشروعهم فأقروا على طريقة. ثم عاد هتشنسون الى طريقه وسار في رجاله على فرع النيل الغربي حتى أتى الحيزة في ٣٠ منه وواصل يوسف باشا سيره من الجهة الاخرى فاحصر يليارد في القاهرة لا يستطيع حراكاً ف عقد مجلساً حرياً أقر فيه على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية أو دمياط فبعث الى معسكر الانكليز مندوباً بشأن ذلك وبعد الخيرة تقرر أن تنسحب الجيوش الفرنسية الموجودة في القاهرة انسحاباً قانونياً بما لديهم من المهات والاسلحة الى فرنسا وأن يكون ذلك على نفقة الانكليز وكتب بذلك معاهدة أمضيت في ٢٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠١ وتثبتت في ٢٦ منه على أن تنفذ بعد ١٥ يوماً

ففي ١٠ يوليو (تموز) (٤ ربيع اول سنة ١٢١٦ هـ) برح يليارد القاهرة ومعه ١٣٧٣٤ من العساكر والضباط قاصدين رشيداً على أن يسافروا منها الى فرنسا

حتى لم يبق منهم في الازبكية رجل واحد واستمر اطلاق النار على المدينة من القلعة وباقي الطوابي الى منتصف الليل فوقع الرعب في قلوب الاهلين وهم المشايخ بالفرار فأمسكتهم الرعية قهراً. وكان في بعض بيوت المدينة مدافع فأخرجها الاهلون ورتبوها على هيئة بطارية أحاطوها بطاية وحظروا على الناس الخروج من تلك الطاية ولم يكن عندهم قنابل فاستخدموا عيار الموازين عوضاً عنها. وبعد مضي يومين على تلك الحال أنبىء ناصيف باشا بقدم جند فرنساوي من جهة المطرية لتجدة حاميه القاهرة فبعث اليهم سرية من الفرسان فلم ينالوا منهم مارباً فوصل الفرنسيون منادين بانتصارهم في مواقعهم مع العثمانيين. وكانت المدينة برمتها في يد الوطنيين فعجز الفرنسيون عن الدخول اليها ثم جاءت نجدة أخرى ولم يستطيعوا اخذ الثورة. ثم جاء الجنرال كلاير وقد كادت مؤن حيوشه في القاهرة تنفذ وخرج جميع المسيحيين من الاقباط والسوريين فارين من على السور طالين الالتجاء الى معسكر الفرنسيين ثم تضايق الاهلون لقلّة الماء لان الفرنسيين قطعوه عنهم

وفي ٢٧ شوال او ١٤ ابريل (نيسان) طلب كلاير الى سكان بولاق أن يسلموا فأجابوا انهم تابعون للمدينة بما يلحق بها فأطلق عليهم قنابل لا تزال بعض آثارها باقية الى هذه الغاية فسقطت البيوت ودخل الفرنسيون بولاق ولم يبقوا عليها نهياً وقتلا فلما تأتى ذلك لكلاير عرج نحو المدينة بالمدافع والحراريق وكانت ليلة ليلاء ممطرة اختلطت فيها أصوات المدافع بقصف الرعد وشرارها بلع البرق وهجمت العساكر على المدينة خائضين في الاحوال يثبون من حائط الى آخر بين البيوت التي هدمتها مدافعهم وفي أيديهم خرق مبتلة بالزيت مشتعلة يرمونها ذات اليمين وذات اليسار لاحتراق المدينة فعلا الصياح من النساء والاطفال خوفاً من النيران حتى كانوا يلقون بأنفسهم عن الجدران والسطوح تخلصاً من اللهب

فهم ناصيف باشا بالفرار فتبعوه فدخل بيتاً لبعض ذويه واختفى. فأمر كلاير أن ينادى في الناس « وما النصر الا من عند الله وهو سبحانه وتعالى قد أمر الظافرين بالرفق وعليه فان الصاري عسكر يعفو عن أهل القاهرة وسائر البلاد المصرية عموماً ولو انحذوا مع الاتراك فليرجع كل الى شأنه » فكف الناس عن القتال وهدأت الاحوال فبعث كلاير أن تنظف الاسواق وترفع الجثث وأمر أن تتور المدينة ثلاثة أيام احتفالاً بالنصر ودعا اليه العلماء والمشايخ وأعد لهم وليمة حافلة وبعد يومين جمعهم في مجلسه وأخذ يعنفهم على ما أتوه من الخيانة فأجابه الشيخ المهدي « اتنا لم نأت خيانة أما اتحادنا مع

العثمانيين فكان بأمر منك » وحجر كلابر على خمسة عشر شيخاً لم يتركهم حتى أخذ منهم غرامة مقدارها ١٢ مليوناً من الفرنكات . وسكنت بعد ذلك الاحوال واطمأنت القلوب

ثم علم مراد بك بما حل بالمدينة وما كان من نصرة الفرنسيين فأحب الانحياز الى الجانب الاقوى فجاء الى ضواحي القاهرة وكتب الى كلابر ثم اجتمع معه وتفاوضا فتعاهدا على الاتحاد وتهاديا هدايا فاخرة فولاه مصر العليا مكافأة لصداقته

مقتل كلابر

فاطمأن كلابر من قبيل مصر بعد اتحاده مع المالك وعظم في عيون الاهلين



ش ٤٧ : سليمان الحلبي قاتل الجنرال كلابر

وسكن في بيت مراد بك في الحيزة وأمر بترميم الاماكن التي هدمت بسبب تلك الثورة وفي جملتها ديوان الجيش غربي الازبكية في اول شارع بولاق الى اليمين . وفي ١٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠٠ م دعي كلابر الى غداء عند اركان حربه الجنرال داماس في منزله قرب ديوان الجيش . فبعد مناولة الطعام خرج كلابر والمسيو بروتين مهندس الحملة يمشيان في رواق (ممشى) موصل بين بيت الجنرال داماس والديوان

نحو الساعة الثانية بعد الظهر . فبينما كانا يتحدثان وثب رجل من آخر الرواق عليه ثوب خلق وفي يده خنجر طعن به صدر الجنرال كلابر فنادى الحرس وهجم بروتين على الرجل فقال منه مثلما نال من كلابر فسقط بروتين على الارض فتركه ذلك الشقي



ش ٤٨ : مقتل كلابر

وعاد الى كلابر وطعنه ثانية وثالثة حتى أجهز عليه ثم سمع ضجة ففر الى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط . فلما أتى الحفر لم يروا الا ذينك

الرجلين نخبطان بدمهما خملاهما الى البيت وأتوا لها بالطبيب فمات كلاهما حالا اما بروتين فبقي تحت المعالجة

ونودي في المدينة بالقبض على ذلك الفاعل حيثما وجد وكان بروتين قد أفهمهم شيئاً عن ملابسه وشكله . وبعد يسير جيء برجل عليه لباس رث وأوقفوه أمام بروتين فعرفه وقال هذا هو الجاني . ثم قرر آخرون انهم رأوه منذ بضعة أيام يتردد بين البيوت ويختلط بخدمة الديوان

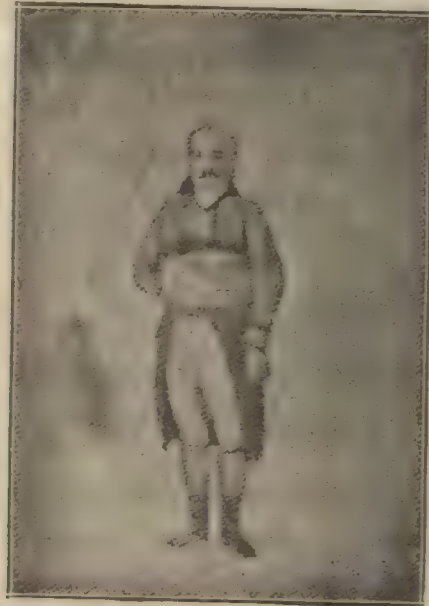
وبعد استطاقه بسبل مختلفة وجد ان اسمه سليمان الحلبي التقى به أحد أغوات الانكشارية في بيت المقدس وكان قد ذهب الانكشاري اليها للتفتيش عن رجل يقدم على قتل كلابر . فخاطب سليمان الحلبي بذلك فاجاب على شرط أن ينجي أباه في حلب من ضرائب فادحة يطلبها منه والي تلك الولاية . فجاء به الى غزة وهناك أتاه بكتب توصية من آغا غزة لعلماء الازهر . فبرح سليمان غزة في ٨ مايو فوصل القاهرة في ١٤ فنزل في بيت مصطفى افندي ليله ثم تمشى الى بعض العلماء قابو مشاركته بالجناية اما هو فلم ينفك حتى اغتم تلك الفرصة وفعل ما فعل فاستدعي المشايخ المتهمون وهم ثلاثة وبلاستفهام منهم أجابوا انهم لم يروا الرجل ولم يعرفوه قبل تلك الساعة . ثم عين الجنرال مينو لجنة لفحص القضية فحكمت باعدام المشايخ الثلاثة لانهم عرفوا عزم القتل على القاتل ولم يخبروا عنه . اما القاتل فحكم عليه بالاعدام على الحازوق لكنهم أوقفوا تنفيذ الحكم بعد دفن الفقيد . فشيعوا جنازته باحترام واحتفال ولما واروه التراب جاءوا بالجائزين وأعدموهم

الجنرال مينو

وأقاموا على القيادة العامة بدلاً من كلابر الجنرال مينو وكان ممن يرغبون في البقاء بمصر فاسلم ودعى نفسه عبد الله وولد له غلام دعاه سليمان . ثم ظهر من تصرفه بالاحكام انه ليس على شيء من الهمة والدراية فسخر به الفرنسيون وكرهوه وكان ديوان القاهرة مؤلفاً من طائفتي المسلمين والمسيحيين فجعله من المسلمين فقط وهذه أسماء المشايخ الذين تألف منهم الديوان بأمر الجنرال مينو وهم تسعة مع من يلحقهم :

الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان والشيخ المهدي كاتب السر والشيخ الامير والشيخ الصاوي وكاتبه والشيخ موسى السرسى والشيخ خليل البكري . والسيد علي الرشيدى نسيب صاري عسكر والشيخ الفيومي والقاضي الشيخ اسماعيل الزرقاوي .

وكاتب سلسلة التاريخ السيد اسماعيل الخشاب . والشيخ علي كاتب عربي . وقاسم افندي كاتب افرنجي . وترجمان كبير القس رفائيل . وترجمان صغير الياس نخر الشامي . والوكيل الكساري فوريه ويقال له مدير سياسة الاحكام الشرعية . ومقدم وخمسة قواسم وأخذ ميو جانب المسلمين فعهد اليهم جباية الخراج بعد أن كانت في ايدي الاقباط . على ان ذلك كله لم يغير شيئاً من كره الوطنيين لتلك الامة الاعجمية التي جاءت لامتلاك بلادهم ومن جهة ما جرهم الى ذلك انه أعلن حماية فرنسا على مصر .



ش ٤٩ : الجنرال مينو

وان مصر قد أصبحت مستعمرة فرنساوية . وشق ذلك على قواد الحملة فجاءوا اليه بصفه رسمية وبلغوه ان الجيش الفرنسي غير راض عن هذه البدع وان الجمهورية الفرنسية لا تقصد بحملتها على مصر ما قد صرح به هو فلم يجيبهم بشيء وانما وعدهم انه سينظر في ما قالوا

وكانت انكسرت لا تنفك عن السعي في اخراج الفرنسيين من مصر صيانة لمصالحها في الهند على الخصوص . فاعدت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ مركباً وخمسة عشر الفاً من الرجال وارسلتها الى مصر بقيادة السير رلف ابر كرومي فسار اليها

ودخل جون ابي قير في ٢ مارس (اذار) سنة ١٧٠١ م فشهد آثار العارة الفرنسية التي حطمتها عمارة نلسون . وفي ٧ منه نزل السير رالف المذكور في قارب لاستكشاف الشاطئ ليختار محلاً ينزل فيه الجيش . وفي ٩ منه شرعت الجنود الانكليزية بالنزول الى البر فاطلق عليهم من الرمل عدة قنابل من طاية تحصن فيها متسلم الاسكندرية بالقب وخمسية رجل اما الانكليز . فلم يكثرثوا بذلك بل استمروا على النزول بسرعة والقنابل تتساقط حول قواربهم حتى امتلكوا البر ولم يلحقهم الا ضرر يسير

ثم شخصوا الاسكندرية فلاقاهم الفرنسيون باربعة آلاف وخمسمائة مقاتل وفيهم حامية الرحمانية . وانتشبت الحرب بين الطرفين طول ذلك النهار ولم يظهر أحد منهما . وكانت خسائر الفرنسيين خمسية رجل والانكليز ألفاً ومائة . ومما أعاق الانكليز قلة فرسانهم فعسكروا بجوار الاسكندرية وبنوا الطواني والحدائق وحفروا آباراً لاستخراج الماء . اما القاهرة فكانت على عهدك بها لفساد سياسة مينو . وفي ٤ مارس وصلته الاخبار بوصول العارة الانكليزية الى ابي قير فبدلاً من الاسراع في التجهدة جعل يتوهم أوهاماً لا طائل تحتها . وبعد التثا والتي بعث فرقة الى بليس وأخرى الى دمياط وأخرى الى ابي قير براً وأخرى في النيل

مجيء الانكليز الى مصر

وفي ١١ منه جاءته الاخبار باحتلال الانكليز ابا قير وهجومهم على الاسكندرية فارتبك في امره فجمع اليه مشايخ الديوان وقال انه ذاهب الى السواحل وقد استخلف الجنرال بيلارد مكانه وزعم ان سبب ذهابه قدوم بعض المالطية والايطاليين الى ابي قير ثم استقدم الفرقة التي أرسلها الى بليس وأمر من بقي من الجيش في مصر أن يسيروا الى الرحمانية . فبرح مينو القاهرة في ١٢ منه لكنه لم يصل الاسكندرية الا في ١٩ منه وقد تحصن الانكليز تحصناً لا يقوى هو على مقاومته فاستشار قواده فأشاروا عليه بالهجوم على ذلك الحصن الايمن لانه أقوى حصونهم لكنه لم يجسر على ذلك نهراً فهجم ليلاً فلم ينجح

وفي اليوم التالي ٢١ مارس (اذار) أمر أن تهجم الحيوش كلها دفعة واحدة باكرراً بلا ضرب النفير وكان الانكليز في يقظة تامة ففي الساعة الثالثة بعد نصف الليل سمعوا دوي المدافع عن يسارهم فوجهوا نيرانهم نحوها ثم سمعوا مثلها عن يمينهم فأجابوا بمثلاً وبعد معركة كبيرة تقهقر الفرنسيون مجانبه ففهم ابر كرومي غرضهم من ذلك فعزز

مينة معسكره واتخذ قيادتها بنفسه فأصيب بجرح قتال ألقاه على الصعيد فقدم السير سدي سميت وانفضه وما زالت الحرب قائمة حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وقد قتل كثير من الضباط الفرنسيين . فأمر الجنرال مينو بالراحة فعادت رجاله وعدد قتلاهم وجرحاهم نحو ألفين اما خسائر الانكليز فكانت ٢٤٠ قتيلاً و ١٢٥٠ جريحاً من حملتهم السير رلف ابر كرومي فنقلوه الى احدى الدوارع فعاش بضعة أيام وتوفي فتحولت قيادة العارة الى الجنرال هتشنسون

نجدة العثمانيين للانكليز

وفي ٢٥ مارس (اذار) جاءت الانكليز بنجدة عثمانية بقيادة حسين قبطان باشا . فرأى الجنرال هتشنسون أن يبعث اربعة آلاف من الجنود العثمانيين وفرقتين من الانكليز وثمانية مدافع بقيادة الكولونل سبنسر لاحتلال رشيد . فاتصل ذلك بالجنرال مينو فإرسل اركان حربه لاستطلاع قوة تلك التجريدة فقدرها أقل مما هي كثيراً فاستخف بها فلم ينجد رشيداً

أما الكولونل سبنسر فما زال ساراً حتى أتى رشيداً فدخلها بسلام ولما استقر بها بعث الطوبجية بمدافعهم لضرب حصن جوليان وفيه حامية من الفرنسيين فضيقوا عليهم حتى سلموا فامنومهم ثم أخرجوهم من الحصن . فاتصل ذلك بحامية الرحمانية فاستمدت الجنرال بيلارد في القاهرة فاجاب معتذراً بعدم امكانه الاستغناء عن لديه من الجنود فبعث الى مينو في الاسكندرية فامدها بما استطاع

فاصبحت الحيوش الفرنسية بذلك أقساماً متفرقة لا تقوى على دفاع : الجنرال بيلارد بالقاهرة في خمسة آلاف يتأهب لدفع الحيوش العثمانية القادمة بطريق الصحراء بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا . وحامية الرحمانية لما بلغها سقوط رشيد خارت قواها والجنرال مينو كان محاصراً في الاسكندرية لا يدي حراكاً وقد ضايقه الانكليز بقطع الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط وزد على ذلك انهم قطعوا المياه عن الاسكندرية فلم يبق عنده الا مياه الصحاريح

أما الجنود العثمانية والانكليزية فبعد أن احتلوا رشيداً صعّدوا في النيل في ٨ مايو (ايار) حتى أتوا العطف فاستلموها ثم ساروا الى الرحمانية واستولوا عليها أيضاً ففرت الجنود الفرنسية الى القاهرة وأعلموا بيلارد بما كان فأمر بعقد مجلس حربي للمفاوضة بالدفاع النهائي لان العدو تكاثر عليهم : هتشنسون من الجهة الواحدة والصدر الاعظم

يوسف باشا من الجهة الاخرى وكان قد استولى على دمياط وسار قاصداً للقاهرة في ثلاثين ألف مقاتل حتى عسكر في بليس في ١١ مايو (ايار) . أما مراد بك فبعد مخالفته الفرنسيين على ما تقدم توفي وتولى مكانه على الصعيد عثمان بك البرديسي فلما علم هذا بقدم العثمانيين والانكليز نقض الحاققة

فلما اجتمع المجلس الحربي تفاوضوا في جميع ذلك فأرأوا ان الجيوش الفرنسية الموجودة في القاهرة وفي جملتها حامية الرحمانية لازيد على اثني عشر ألفاً نصفهم جرحى ومرضى وليس لديهم من المال الا اليسير . فلم ير بيلارد حل هذا المشكل الا وجهين اما أن يسير بما لديه من الجند في النيل لملاقاة مينو فيتكاتفان على الدفاع أو ان يسير الى دمياط . ولم يربداً على الحالين من اخلاء القاهرة وكان يفضل المسير الى دمياط لأنها تصلح للحصار اذا طال . وفيها من الحاصلات ما يقوم باحتياجات جيشه وهو في الحالين عالم بعجزه عن مناهضة عدوه

ثم حدثته نفسه أن يلاقي الجنود العثمانية والانكليزية جميعاً عند اقترابهم من القاهرة . فخرج في خمسة آلاف في ١٦ مايو (ايار) متمثلاً بكلاير وعسكر في نقاب فوصلت اليه مقدمة جيوش يوسف باشا فلم يستطع الوقوف أمامها فعاد الى القاهرة

انسحاب الفرنسيين من مصر

وفي ٢٣ مايو وصل هتشنسون الى طرامة فقطع ترعة منوف وسار بنفسه الى معسكر يوسف باشا وقاوضه في الطريقة التي يجب اتخاذها لاتمام مشروعهم فاقروا على طريقة . ثم عاد هتشنسون الى طريقه وسار في رجاله على فرع النيل الغربي حتى اتى الحيزة في ٣٠ منه وواصل يوسف باشا سيره من الجهة الاخرى فاحصر بيلارد في القاهرة لا يستطيع حراكاً ففقد مجلساً حربياً أقر فيه على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية أو دمياط فبعث الى معسكر الانكليز مندوباً بشأن ذلك وبعد الخيرة تقرر أن تنسحب الجيوش الفرنسية الموجودة في القاهرة انسحاباً قانونياً بما لديهم من المهمات والاسلحة الى فرنسا وأن يكون ذلك على نفقة الانكليز وكتب بذلك معاهدة أمضيت في ٢٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠١ وتثبتت في ٢٦ منه على أن تنفذ بعد ١٥ يوماً

ففي ١٠ يوليو (تموز) (٤ ربيع اول سنة ١٢١٦ هـ) برح بيلارد القاهرة ومعه ١٣٧٣٤ من العساكر والضباط قاصدين رشيداً على أن يسافروا منها الى فرنسا

فانذهل هتشنسون لما أوتيه من الفوز العظيم وكاد لا يصدق به حتى ٧ اغسطس (آب) عند ما علم بركوب الجيوش الفرنسية راجعين الى بلادهم

أما مينو فكان في الاسكندرية ومعه عشرة آلاف مقاتل فتفاوض مع من كان باقياً لديه من القواد فأصروا على المخاربة وفي ٢ نوفمبر من تلك السنة عقدوا معاهدة الانسحاب وانسحبوا في أثناء ذلك الشهر مثل انسحاب بيلارد . واذا أمعنت النظر رأيت هذه المعاهدة ومعاهدة العريش التي عقدت في ٢٤ يناير (ك) سنة ١٨٠٠ م شيئاً واحداً ولم تكن نتيجة ذلك التأخير الاسفك الدماء

وكانت الحكومة الانكليزية قد أمرت الجزال برد أن يقدم من الهند في ٦ آلاف من الجنود الهندية المنظمة الى مصر امداداً لابركرومي في البر نجاء إلى القصير على سواحل البحر الاحمر ومنها سار في الصحراء إلى قنا ثم زل إلى القاهرة فوصلها بعد التوقيع على الانسحاب فنزل إلى الاسكندرية وحضر انسحاب مينو وجماعته

هذه هي الحملة الفرنسية فتأمل كيف كانت نهايتها وكيف أنها بعد قضاء ثلاث سنوات ونيف كلها حروب ومقاومات عادت بخفي حنين . وقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢١٥ هـ ما أحدثه الفرنسيون من العار وغيرها وما غيروه أو أخربوه فليراجعها من شاء

من انسحاب الفرنسيين الى ولاية محمد علي باشا

من سنة ١٢١٦ — ١٢٢٠ هـ أو من سنة ١٨٠١ — ١٨٠٥ م

فبعد انسحاب الفرنسيين استلم يوسف باشا الصدر الاعظم زمام الاحكام في القاهرة باسم جلالة السلطان بمساعدة الجزال هتشنسون وكان حسين قبطان باشا أميرال العارة العثمانية لا يزال في أبي قير والاسكندرية بعد سفر مينو . أما الانكليز فلم يكن غرضهم إلا تثبيت سلطة الباب العالي والانسحاب فدخلوا معسكرهم في مصر القديمة . وكان الماليك لا يزالون يحاولون التسلط ولم زل بقية منهم بقيادة اثنين من كبارهم وهما عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي وكان معسكرهم في الحيزة

الكيد بالماليك ولم ينجح

فأخذ القائدان العثمانيان يوسف باشا وحسين قبطان باشا يدبران مكيدة تذهب

بمن بقي من الممالك فاتفقا على أن يدعوا قبطان باشا بعض أمراءهم إلى حفلة يعدها لهم في أبي قير وإن يهجم يوسف باشا على من بقي منهم في الجزيرة فيأتيان على أهلاكهم. فبعث قبطان باشا إلى بعض أمراء الممالك يدعوهم إلى وليمة وقال أنه أعدها لهم في معسكره بأبي قير وإن غرضه من ذلك الاجتماع المفاوضة معهم فيما يجب اتخاذه من الوسائل لإصلاح البلاد. فأجابوا دعوته وهم في ريب من مقاصده على أنهم لم يكونوا يستطيعون رفض الدعوة خيفة أن يجعلوا للقوتين العثمانية والانكليزية باباً للارتياح بمقاصدهم.

فلما وصلوا أبا قير رحب بهم حسين باشا ودعاهم إلى النزول معه في قاربه الخصوصي ليسيروا معاً إلى القومندان الانكليزي على إحدى الدوارع للمفاوضة معه ببعض الشؤون فركبوا حتى صاروا على مسافة من البر فالتقوا بقارب آت من الدوارع قال من فيه ان لديهم كتباً باسم قبطان باشا ومخابرات أخرى مهمة. فوثب القبطان عند ذلك إلى القارب الآخر وأمره أن يسير فصاروا بقي الممالك وحدهم فأوجسوا خيفة ثم سمعوا إطلاق المدافع عليهم من قارب العثمانيين فتأكدوا أنها مكيدة فحاولوا الرجوع إلى البر ولم يصلوه حتى قتل عثمان بك الطمبورجي وثلاثة آخرون وجرح عثمان بك البرديسي واثنان آخران. وفي نحو ذلك الوقت أرسل يوسف باشا في القاهرة فرقة من رجاله يهاجمون الممالك في الجزيرة فوثبوا عليهم وأحرقوا بيوتهم فالتجأ كبارهم إلى الانكليز فحموهم رغم اصرار يوسف باشا على طلبهم.

ثم انسحبت الجيوش الانكليزية من مصر بأمر الاميرال كيت وبقيت مصر يتنازعها الجنود العثمانية والممالك. وكان يوسف باشا في القاهرة نائباً عن الباب العالي. ولم يكن بد من تولية والٍ عثماني يقوم بأعباء الولاية فسعى يوسف باشا بمساعدة حسين قبطان باشا في تولية خسرو باشا نكحاً حسين قبطان باشا فكتبنا بذلك إلى الاستانة فأجاب الباب العالي طلبهما وبعث لهما الفرمان المؤذن بذلك.

ولاية خسرو باشا

قتولى خسرو باشا على مصر في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ هـ ولم يكن ينقصه لاستتباب الراحة إلا إبادة من بقي من الممالك. وكانوا مع ما ألم بهم منذ قديم الفرنسيين لا يزالون قادرين على المقاومة نظراً لمعرفتهم بأحوال البلاد

وأحزابها. وبعد وفاة مراد بك واعتزال ابراهيم بك عن الاعمال أصبحوا تحت قيادة عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي كما تقدم وقد دانت لهم مصر العليا. فهاضهم خسرو باشا فلم ينجح ولم يكن إذ ذاك في سلطة الباب العالي إلا القاهرة والاسكندرية وما بينهما.

ولم يستطع خسرو باشا تحصيل ما يقوم بدفع مرتبات العساكر فثاروا في ٢ مايو سنة ١٨٠٣ م وأحاطوا بالجزندار وحبسوه في بيته. فأمر خسرو باشا أن تطلق عليهم المدافع حتى علت الضوضاء واشتد الحصار فتوسط طاهر باشا أركان حرب خسرو باشا في صرف ذلك المشكل فلم يوافقهم خسرو على قصده واتهمه باتحاده مع العصاة. فاحتفظ طاهر باشا وأخذ جانب العصاة وأمرهم أن يهدموا الاسوار تخاف الباشا ولم ير إلا الفرار بحريته وحاشيته على ضفة النيل الشرقية نحو المنصورة. ثم سار منها إلى دمياط وحاصر هناك. فانغمط طاهر باشا تلك الفرصة وجمع اليه القضاة وأرباب الديوان فأقروه على مصر بصفة قائم مقام مؤقتاً لينتظر رد الارادة السنية بتولية من يتولى عوضاً من خسرو باشا.

في ٢٥ مايو (ايار) سنة ١٨٠٣ م لاقى طاهر باشا من القوة العسكرية ما لاقاه خسرو باشا. وذلك ان اثنين من الاغوات وهما موسى واسماعيل تشكيا اليه من تأخر الرواتب فاتهمهم فأغلظوا له فاشتد الحصار فخردا السيف وقطعا رأسه ورمياه من الشباك وانتهى الحصار باحترق القصر.

فأصبحت مصر بغير والٍ يدير أعمالها. وفي هذه الفرصة تأتى لذلك الرجل العظيم محمد علي باشا ارومة العائلة الخديوية اظهار ما اختص به من البسالة وعلو الهمة وما جعله الله فيه من الفضائل التي قدّر له أن يثبتها في هذا القطر السعيد

الأسرة المحمدية العلوية

من سنة ١٨٠٥ ولا تزال

ش ٥٠ : محمد علي باشا
مؤسس الأسرة الخديوية بمصر

محمد علي باشا

من سنة ١٨٠٥ — ١٨٤٨ م

أولاً - صباه وطفولته

انظر إلى خارطة بلاد الرومي في سواحلها الجنوبية على مسافة ٣٢٠ كيلو متراً من الاسطانة غرباً تر قرية اسمها قواله لا يزيد عدد سكانها على الثمانية آلاف نفس . وكان في تلك القرية في أواسط القرن الماضي رجل اسمه ابراهيم آغا كان متولياً خفارة الطرق ولده له سبعة عشر ولداً لم يعيش منهم الا واحد . وفي سنة ١٧٧٣ توفي هذا الرجل وامراته عن ذلك الولد وسنه اربع سنوات واسمه محمد علي

فاصبح الغلام يتيماً ليس له من يعوله الا عمّاً اسمه طوسون آغا وكان متسلماً على قواله فجاء به الى يته شفقة عليه . غير ان المنية عاجلت طوسون فقتل بأمر الباب العالي بعد ذلك يسير فاصبح الغلام يتيماً قاصراً وليس من ينظر اليه

وكان لوالده صديق يعرف بجربنجي بر اوسطه فشفق على الغلام وجاء به اليه وعني بتربيته مع اولاده . غير ان ذلك لم يدم حاله من اليم فكان يشعر بالذل وضعة النفس . ويروى عنه بعد ان ارتقى ذروة المجد واعتلى منصة الاحكام انه كان يحدث عما قاساه في صباه من الذل الى ان يقول :

« ولدت لابي سبعة عشر ولداً لم يعيش منهم سواي فكان يحبني كثيراً ولا تغفل عينه عن حراستي كيفما توجهت ثم توفاه الله . فاصبحت يتيماً قاصراً وأبدل عزي بذل وكثيراً ما كنت اسمع عشرائي يكررون هذه العبارة التي لا انساها عمري وهي (ماذا عسى ان يكون مصير هذا الولد التعس بعد ان فقد والديه) فكننت اذا سمعتهم يقولون ذلك اتعافل عنه ولكنني اشعر باحساس غريب يحركني الى النهوض من تحت هذا الذل . فكننت اجهد نفسي بكل عمل استطيت معاناته بهمة غريبة حتى كان يمر عليّ أحياناً يومان ساعياً لا آكل ولا انام الا شيئاً يسيراً . وفي جملة ما قاسيته اني كنت مسافراً مرة في مركب فتعاطم النوع حتى كسره . وكنت صغيراً فتركني رفاقي وحدي وطلعوا الى جزيرة هناك على قارب كان معنا فجعلت أجاهد في الماء وسعي تتقاذفني الامواج وتستقبلني الصخور حتى تهشمت يداي وكأنا لا تزالان يانعتين وما زلت حتى أراد الله ووصلت الجزيرة سالماً وقد اصبحت هذه الجزيرة الان قسماً من مملكتي »

ومما يحكى عنه في أيام صباه انه كان يتردد على رجل فرنساوي مقيم في قواله اسمه المسوي ليون وكان من كبار التجار محباً للفضيلة . وحالما رأى محمد علي للمرة الاولى أشقى عليه وأحب مساعدته لما توسم فيه من الفطنة والنباهة فكان يقدم له كثيراً من حاجياته ويسعفه بكل ما في وسعه حتى ألفه محمد علي كثيراً . وهذا هو سبب وثوقه بالامة الفرنسية بعد توليه الاحكام في مصر واستخدامه أفراداً منهم في مصلحة البلاد . ويقال انه رحمه الله بعث سنة ١٨٢٠ الى الموسوي ليون المشار اليه يدعو الى مصر يقضي فيها زمناً في ضيافته فأجاب دعوته ولكنه مات قبل قدومه فأسف عليه محمد علي كثيراً وبعث الى شقيقته هدية تساوي عشرة آلاف فرنك قلنا انه ربي في صباه بيت جرجي براوسطه وتعلم في صغره ما يتعلمه أبناء تلك البلاد من العاب السيف والجريد والحكم وما شا كل قنبغ فيها حتى اذا بلغ أشده انتظم في سلك الجهادية تحت ادارة مريه فأظهر في جباية الضرائب مهارة وبسالة عجيبتين فرقاه الى رتبة بلوك باشي وزوجه احدى أزواج قرابته وكانت مطلقة ولها مال وعقار فترك الجهادية وتعالى التجارة وعلى الخصوص في صنف التبغ لانه اكثر أصناف التجارة في بلاده . وقد برع في تلك التجارة حتى اكتسب شهرة واسعة وثقة عظمى لدى عملائه . وكان قد ذاق لذة التجارة وأحبها مذكاً يتردد على المسوي ليون المتقدم ذكره ولذلك رأيناه بعد أن تولى مصر يوجه انتباهه بنوع خاص لتنشيط التجارة وما زال يتعالى التجارة الى سنة ١٨٠١ حينما عزم الباب العالي على اخراج الفرنسية من مصر بمساعدة انكلترا . فبعثت الحكومة العثمانية اليهم عمارة قوية تحت قيادة حسين قبطان باشا وفيها قوات انكليزية وبعث الصدر الاعظم في حملة من جهة البر كما تقدم

ثانياً - ارتقاءه منحه الامم

وكان محمد علي في جند القوة البحرية وقد تجند اليها في حملة من تجند في بروسطة بصفة معاون لعللي آغا بن مريه على ثلاثمائة جندي الباني (ارناؤوط) فجاءت العارة الى ابي قير وكانت الغلبة هناك للفرنساويين ثم عاد علي آغا الى بلاده تاركاً رجاله تحت قيادة محمد علي وكان هذا قد ترقى الى رتبة يكباشي ثم تغلب العثمانيون بمساعدة العمارة الانكليزية وحملة الصدر الاعظم ودخلوا البلاد وأخرجوا الفرنسيين وجعلوا يهتمون في تأييد سلطة الباب العالي فيها

وكان في الجنود العثمانية جماعات من الارناؤوط والانكشارية والغليونجية ففرقت هذه الجنود لحماية مصر السفلى وبعض مدن الصعيد . اما الانكليز فكانوا تحت قيادة الجنرال هتشنسون فزلوا الاسكندرية ريثما يقيمون في القطر المصري والياً عثمانياً يؤيد سلطة الباب العالي ويكبح جماح المماليك الذين كانوا لا يزالون يحاولون الاستقلال فأقاموا محمد خسرو باشا المتقدم ذكره وكان في الاصل من ممالك حسين قبطان باشا وهو الذي سعى له في هذه الولاية . فجاء القاهرة وعاقب الذين كانوا فيها من محالقي الفرنسية . وكان في يده أوامر سرية بإعدام المماليك باي وسيلة كانت فبعث الى محاربتهم وكانوا في الصعيد قضايقوا ولم يروا وسيلة الا الالتجاء الى فرنسا فكتبوا اليها يستجدونها متعهدين باجراء كل ما تطلبه منهم فلم يسعدهم الحظ بمساعدتها

محمد علي وخسرو باشا

أما الحملة التي بعثها خسرو باشا الى الصعيد فانها عادت ولم تأت بفائدة ثم حاربهم مراراً في اماكن مختلفة . وفي جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده وكان محمد علي قد ترقى الى رتبة سر ششمه وصار قائداً لاربعة آلاف من الابانيين فأمره أن يسير في رجاله مدداً لتلك الحملة فسارت الحملة وحاربت المماليك وانكسرت قبل وصول محمد علي ورجاله . فنسب قائدها انكساره الى تأخر محمد علي عن المجيء وابلغ ذلك لخسرو باشا . وكان هذا حاقداً على محمد علي فاستقبل ذلك البلاغ بالصدق وأقر على اتمامه سرّاً . وكتب اليه أن يوافيه في منتصف الليل للمخاطبة ببعض الشؤون فأدرك محمد علي مراده ولم يحجب الدعوة

ولم ير وسيلة لنجاته من مكيدته وعدوانه إلا بالالتجاء الى المماليك فأنحاز اليهم واخذ في مخاطبتهم سرّاً وجهراً فتمكنوا بذلك التحالف من اخراج خسرو باشا من القاهرة قهراً . ففر الى دمياط وأقاموا مكانه طاهر باشا . ولما قتل طاهر احتل محمد علي القلعة برجاله فقام احمد باشا والي الشرطة إذ ذاك يطلب الولاية فأخرجه المماليك من القاهرة ذليلاً ثم اتحد الجميع وساروا لمحاربة خسرو باشا في دمياط فأسروه وجأوا به الى القاهرة وحجروا عليه في القلعة

أما الباب العالي فلما بلغه ما حصل في مصر بعث اليهم والياً اسمه علي باشا الجزائري فلم يصل القاهرة إلا بعد شق الانفس ولما وصلها عمد إلى الكيد بالمماليك ومحمد علي فعادت العائدة عليه

الافني والبرديسي

وكان الافني والبرديسي زعيما المماليك يتنازعان السلطة . وكان الافني قد سار الى انكلترا يطلب مساعدتها على رفيقه للاستئثار بالسيادة . فلما عاد من سفرته اغتتم محمد علي تلك الفرصة وأوغر صدر مناظره البرديسي عليه فصب له مكيدة لم يقع فيها ولكنه فرّ إلى الصعيد . فظن البرديسي ان جو القاهرة قد خلا له ولكن محمد علي كان له بالمرصاد فحرك الالبانيين عليه وأوعز اليهم أن يشيروا ويطلبوا بمرتباتهم فقاموا وهددوا البرديسي بالاذى إذا لم يدفع اليهم المتأخرات . فضرب على اهل القاهرة أموالاً واستبد في تحصيلها بقساوة فتاروا جميعاً عليه فاضطر إلى مغادرة القاهرة ولم يعد يرجع اليها . وكان ذلك سنة ١٨٠٤

فلما فرّ الاميران لم يبق في القاهرة من رجال السلطة إلا محمد علي وقد فرغت حاجته إلى الممالك بعد ان كاد لهم كيداً وشتت شملهم فرأى ان يستعين بالاهلين في نيل ما تنوق اليه نفسه من المطالب فجمع اليه العلماء والمشايع وتفاوضوا في اخلاء سبيل خسرو باشا فأقروا على ذلك وان يعود إلى منصبه فأعادوه ولكنه لم يمكث فيه إلا يوماً واحداً ثم أخرجوه من القاهرة إلى رشيد ومنها إلى الاسنانة . وكل ذلك بمساعي محمد علي وحسن درايته واتقان سياسته

خورشيد باشا

ثم تظاهر ان الامور لا تستقيم في مصر إلا بتتصيب وال عثمانى حر وأشار بتتصيب خورشيد باشا وكان في الاسكندرية . فوافقه العلماء والمشايع في ذلك على ان يكون هو نائباً عنه في الاحكام بصفة قائمقام وبعثوا الى الباب العالي يخبرونه بذلك ويسترحمونه بتثبيت انتخابهم فاجيب طلبهم بفرمان مؤرخ في مارس سنة ١٨٠٤ هذا نصه :

« اتنا كنا صفحنا ورضينا عن الامراء المصرية (الممالك) على موجب الشروط التي شرطناها عليهم بشفاعه علي باشا والصدر الاعظم نفاوا العهود ونقضوا الشروط وطفوا وبنوا وظلموا وقتلوا الحجاج وغدروا علي باشا المولى عليهم (يريد علي باشا الجزائري) وقتلوه وهبوا أمواله ومتاعه فوجهنا عليهم العساكر في ثمانين مركباً حربية وكذلك احمد باشا الجزائر بعساكر برية للانتقام منهم ومن العسكر الموالين لهم فورد الخبر بقيام العساكر عليهم ومحاربتهم لهم وقتلهم واخراجهم فعند ذلك رضينا عن العسكر لجبرهم ما وقع منهم من الخلل الاول وصفحنا عنهم صفحاً كلياً وأطلقنا لهم السفر والاقامة متى شاؤوا وايضا أرادوا من غير حرج عليهم وولينا حضرة احمد باشا خورشيد كامل

الديار المصرية لما علمنا فيه من حسن التدبير والسياسة ووفور العقل الخ » ثم جرت بعد ذلك وقائع كثيرة بين محمد علي والممالك في اما كن مختلفة من القطر فأصبحوا بعد ما قاسوه من الحروب المتوارة مدة سنين على غير ما كانوا عليه من النفوذ قبلاً واصبحت قوتهم لا تزيد عن خمسة او ستة آلاف من الفرسان وكانت مآلتهم آخذة في الانحطاط



ش ٥١ : أرناؤوط محمد علي

وكانت العساكر مؤلفة من الالبانيين (الارناؤوط) وهؤلاء قضوا تحت قيادة محمد علي مدة طويلة وكانوا يحبونه فشق ذلك على خورشيد باشا وصار يخاف هؤلاء الالبانيين فاستقدم اليه جنداً من الدلاء (المغاربة) فوصلوا مصر في أول سنة ١٢٢٠ هـ وكان محمد علي يوم وصولهم في جهات الصعيد يحارب الممالك فبلغه ان احمد باشا خورشيد استقدم هؤلاء الدلاء يستعين بهم على الارناؤوط فعاد الى القاهرة برجاله مظهرأ طلب العلوقة ولولا ذلك لمتعه الدلاء من الدخول اليها . أما خورشيد فأوجس خيفة من قدومه فجعل يراقب حركاته . أما الدلاء فانتشروا في البلاد ينهبون ويقتلون ويصادرون الناس ويأخذون أموالهم فاشتكوا الى خورشيد باشا أولاً وثانياً وثالثاً وهو يعدم بكف هؤلاء ثم يخلف ولا تزيد الاحوال الا اضطراباً فشق ذلك خصوصاً على علماء البلاد ومشايخها وكرهوا خورشيد باشا كرهاً شديداً وصاروا يتوقعون تخلصهم منه وعلم هو بذلك فلم يزد الا فجوراً

الاجماع على تولية محمد علي

وفي ٢ صفر سنة ١٢٢٠ ورد لمحمد علي باشا خط شريف بولاية جدة فألبسه خورشيد باشا الفروة والقاوق الخفين بهذه الرتبة وقد توسم قرب تخلصه منه فخرج محمد علي باشا يريد الذهاب الى جدة وفي نفسه أن لا يخرج من مصر فقامت العساكر وطالبوه بالعلوفة فقال « هذا هو الباشا طالبوه بها » وسار الى منزله في الازبكية (قرب أوتيل شبرد) وهو ينثر الذهب على الناس فازدادوا له حباً ولخورشيد باشا كرهاً وبعد ثلاثة أيام (لا ندري ما دار في أثنائها بينه وبين علماء البلاد ومشايخها) سار المشايخ والعلماء جميعاً الى محمد علي في منزله ينادون بصوت واحد « لا تقبل خورشيد باشا والياً علينا » فقال « ومن يريدون اذاً » قالوا « لا نريد أحداً سواك » فامتنع أولاً وجعل يرغبهم في خورشيد ويحملهم على الاذعان والسكينة وهم لا يزدادون الا اصراراً على طلبهم فوافقهم فاحضروا له السكر والفقطان واليسوه اياها وبعثوا الى خورشيد أن ينزل من القلعة فأبى فاحصروه فيها وكتبوا الى الباب العالي بذلك فورد الفرمان بولاية محمد علي في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ ٩ يوليو (تموز) ١٨٠٥ وعزل خورشيد باشا فخرج هذا من القلعة بأمر من الاستانة وغادر البلاد وفي نفسه من الغيظ على محمد علي ما ليس وراءه غاية

الالفي ومحمد علي

وكان المماليك لا يزالون منتشرين في جهات القطر يحكمون ويستبدون وكان الالفي مقبياً في الصعيد وقد التف حوله جمهور من المماليك وحالما علم بتولية محمد علي باشا نزل بفرسانه طالباً خلعه وتخبر مع خورشيد باشا ليساعده في غرضه وتعهده انه اذا فعل ذلك يعيد الاحكام ليده ويكون بعد ذلك خاضعاً لاوامر الدولة العثمانية ضارباً بسيفها هذا اذا كانت تخلع محمد علي باشا . وخبر من الجهة الثانية دولة انكلترا ووعدها أنها اذا عضدت مشروعه هذا يكون مستعداً أن يسلمها أبواب القطر المصري حالاً . فلم بذلك فنزل فرنسا فعزل مسعاه فكف على مصالحة محمد علي باشا على شيء يرضى به الاثنان فحصلت الخبرات فلم يتفقا فعاد الالفي الى مسعاه ثانية بواسطة سفير انكلترا في مصر فطلب هذا الى الباب العالي بالنيابة عن دولته ارجاع سلطة المماليك الى البلاد وتعهده بأمانة الالفي وخضوعه لاوامر الدولة . فقبل الباب العالي بذلك فأصدر عفواً عاماً عن المماليك باسم أميرهم الكبير الالفي فوصله في غرة ربيع

آخر سنة ١٢٢١ هـ وفي ١٤ الشهر المذكور وصل القاهرة خبر قدوم عمارة عثمانية تقل موسى باشا مرسلًا من قبل الباب العالي والياً على مصر ومعه عدة من العساكر المنظمة على النظام الجديد وخط شريف الى محمد علي باشا أن ينتقل الى ولاية سلاطيك وأن يرجع المماليك المصرية الى مراكزهم في الامارات والاحكام

سمي محمد علي وحزمه

تخاف محمد علي من حبوط المسعى فاخذ الامر بالحزم والحكمة فرأى أن احزاب المشايخ والعلماء جميعها معه وانضم اليهم بعض المماليك الذين كانوا في الاصل من الجيش الفرنسي وظلوا في مصر بعد سفر الحملة لعدم امكانهم مرافقتها واعتقدوا الديانة الاسلامية وانضموا الى المماليك فاستكتبهم كتاباً الى الباب العالي يطلبون فيه استبقاء محمد علي باشا وارجاع موسى باشا ويبينون الاسباب الموجبة لذلك . فكتبوه وامضوه وارسلوا منه نسخة الى الاستانة وأخرى الى قبطان باشا قائد العماره التي أتت بموسى باشا . فاجابهم القبطان أن ما قدموه من الاعذار غير مقبول ولا بد من خروج محمد علي باشا من مصر حالاً . وكان لسفير فرنسا في الاستانة رغبة شديدة في بقاء محمد علي باشا على مصر لما علم من عزم الالفي على تسليم البلاد للدولة الانكليزية فسمى جهده مع قبطان باشا في بقاء محمد علي باشا وعلم بعد ذلك أن المماليك لم ينفكوا منذ وجودهم في مصر عثرة في سبيل حقوق الدولة وأنهم منقسمون فيما بينهم لا يتفقون على أمر

فرأى طلب أهل البلاد أقرب الى الصواب فكتب اليهم ان يعيدوا طلبهم وأن يعيشوا الطلب مع ابن محمد علي باشا . فكتبوه وأرسلوه مع ابنه ابراهيم بك على يد قبطان باشا . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٢١ برحت العماره العثمانية الاسكندرية وعليها قبطان باشا وموسى باشا وابراهيم بك

وفي أواخر شعبان (نوفمبر) سنة ١٨٠٦ م) وردت الاوامر الشاهانية بتثبيت محمد علي باشا على ولاية مصر مع الايعاز اليه أن لا يتعرض للمماليك بعد ذلك لصدور العفو عنهم قبلاً . وفي الشهر التالي مات عثمان البرديسي . وفي ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٢١ هـ (يناير) سنة ١٨٠٧ م) توفي محمد الالفي وهما زعيما احزاب المماليك فولوا عليهم شاهين بك رئيساً الا أنهم مع ذلك لم تعد تقوم لهم قاعه وقد خلا الجو لمحمد علي باشا

مقاومة الانكيز محمد علي

ثم ان الحكومة الانكليزية اعتبرت تثبيت محمد علي محلاً بنفوذها ومضراً بمصالحها فجددت حملة من ثمانية آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال فرازر لارجاع سلطة المالك وكانوا قد تبعثروا في البلاد فوصل الانكليز الاسكندرية في ٩ محرم سنة ١٢٢٢ هـ (١٧ مارس (اذار) سنة ١٨٠٧ م) مظهرين حماية القطر من الفرنسيات فاستولوا على المدينة في ٢١ محرم وظلوا فيها ستة أشهر لا يستطيعون انتقالاً الى ما وراءها . وكانوا قد أرسلوا فرقة منهم الى رشيد فزقتها سيوف الإرتاؤوط كل ممزق . وفي يوم الخميس ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٣ هـ استقال السلطان مصطفى وسنه ٢٣ سنة فبويع السلطان محمود بن عبد الحميد (محمود الثاني)



ش ٥٢ : السلطان محمود الثاني

وفي ١٣ رجب سنة ١٢٢٢ هـ (١٤ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٠٧) انسحبت الجيوش الانكليزية باتفاق صلح مع القطر فاستتبقت القوة لمحمد علي باشا وقد رضي جلاله السلطان عنه ودخلت الاسكندرية في ولايته . ثم سعى بعضهم في المصالحة بينه وبين المالك فتمت بقدم شاهين بك الى مصر بالهدايا الثمينة فآكرمه محمد علي وفي له قصرأ نفيساً لسكناء في الجزيرة ثم تبادلوا الزيارات وكل علائق المودة وهكذا فعل سائر المالك

ثالثاً - أعماله الحربية

١ - الحملة على الوهابيين

فلما وسخت قدم محمد علي باشا في مصر أخذ في تسليم مصالح حكومته الى من يثق به من ذوي قرياه لانه كان شديد الحجة لعائلته ولا شك أن ازده اشتد بهم . ثم استفحل أمر الوهابيين في شبه جزيرة العرب فارسل السلطان محمود يعهد الى محمد علي باشا أمر اخضاعهم وتخليص البلاد من أيديهم



ش ٥٣ : زعيم الوهابيين

والوهابيون طائفة من المسلمين تذهب الى اغفال الكتب الدينية الاسلامية الا القرآن والحديث . زعيمها الاول محمد بن عبد الوهاب ولد في العينة من اقليم العارض من نجد سنة ١١٠٦ هـ (١٦٩٦) وكان أبوه شيخاً فقيهاً فربي في حجره على المذهب الحنبلي ثم انتقل لاتمام دروسه في البصرة وهم بزيارة مكة والمدينة وعاد الى بلده . ثم تزوج في الحرمل بالعارض وأقام فيها واشتهر بين قومه بالتقوى وصدق الدين . وأحى عليهم باللامعة لتقاعدتهم عن الفروض الدينية واهلهم قواعد الدين الاساسية وبالغ في تعنيفهم حتى تأمر بعضهم على قتله وترصوا له في مكن فادرك غرضهم ففر

الى بلده العينة وأخذ يجتذب الاحزاب اليه من أهله وأبناء قبيلته بالوعظ والمراسلة والاقناع فالتف حوله جماعة من الانصار في بلده وما يحيط بها من البلاد وجاءته امرأة عاهرة تلمس التوبة على يده فردها أولاً وثانياً . فجاءته ثالثة فاستغرب أمرها وسأل القوم اذا كانت مجنونة فقالوا انها في كمال عقلها لكنها شردت عن طريق التقوى ورید الرجوع اليها . فحكم عليها بالاعدام لان ضميرها لم يوبخها يوم ارتكبت تلك الرذائل . وعلم بهذا الحكم الجائر أمير الحسا فبعث الى شيخ العينة أن يقتل محمد بن عبد الوهاب أو ينفية . فامر باخراجه من بلده على أن يدس له من يقتله

وبلغ نفيه مسامع بعض اتباعه في الدرعية من اقليم العارض المذكور وأميرهم يدعى محمد بن سعود فتقدموا اليه أن يأذن باستقدامه اليهم فاذن لهم بذلك فبعثوا الى شيخ العينة أن يوجهه اليهم . فبعثه في خفارة فارس أسراً اليه أن يقتله غيلة في أثناء الطريق . فهم الفارس أن ينفذ ذلك الامر مراراً وهو يؤجله واتفق انه هم بالعمل اخيراً وهو على مقربة من الوفد الذي أرسله ابن سعود لاستقبال ذلك المنفي . ولم يكبد الفارس بطعنه حتى جاء أولئك للدفاع عنه وقد كاد يقتل

فدخل محمد بن عبد الوهاب الدرعية فاحسن ابن سعود وفادته اكراماً لاتباعه ووعد بحمايته ممن يناوئه واذن له في نشر تعاليمه . ففعل ونفوذ يزداد وانصاره يتكاثرون وشهرته تتسع . فاخذ يكتب مشايخ القبائل يدعوهم الى نبذ الرذائل والرجوع الى الكتاب والسنة وانهم اذا لم يفعلوا حمل عليهم باهل درعية جهاداً في سبيل الحق . فاذعن له كثيرون وقاومه آخرون فمن وافقه انتقل اليه في درعية . فزاد انصاره فيها وفي غيرها من اقليم العارض واكثرهم في العينة وحرمة ودرعية والحامية والمنفوحة

تعاليم الوهابية .

وأساس مذهب ابن عبد الوهاب انه لا يعرف الا الله ولا يتوسل الى سواه — وأهم تعاليمه :

- ١ الصلاة خمس مرات في اليوم
- ٢ الصوم في رمضان
- ٣ الامتناع عن المسكرات
- ٤ منع البغاء

- ٥ منع اليسر والسحر
- ٦ تقريظ جزء من مئة من الاموال زكاة على الفقراء
- ٧ التشديد في عقاب شهادة الزور
- ٨ ابطال الربا
- ٩ الحج مرة على الاقل
- ١٠ منع التدخين
- ١١ منع الرجال من لبس الحرير أو الزين لانه من شأن النساء
- ١٢ هدم المزارات وقباب الاولياء لانها من ظواهر الوثنية وتشغل الناس عن مخاطبة الله راساً

هذه خلاصة تعاليم محمد بن عبد الوهاب أخذ ينشرها بالاقناع والموعظة ومحمد ابن سعود ينشر معها نفوذه وسلطانه في نجد . فعارضه أهل الرياض من ذلك الاقليم بقيادة أميرهم ادحم بن دواس وحمل برجاله على المنفوحة فعادوا خائبين . فتشدد ابن سعود وشيخه ابن عبد الوهاب وتمكنا من الثبات في الدعوة . فزوج ابن سعود ابنة محمد بن عبد الوهاب فولدت عبد العزيز خلف اباه عند موته سنة ١٧٦٥ وكان الوهابيون قد تكاثروا وصاروا جنداً كبيراً فحمل بهم على أطراف جزيرة العرب وكان عبد العزيز شجاعاً حازماً شديد البطش مع تقوى وورع فغدره رجل من فارس بطعنة خنجر وهو يصلي فقتله سنة ١٨٠٣ خلفه ابنه سعود وكان قد تعود الحرب من صغره فقاد بعض رجال ابيه وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره . ثم ما زال يقود الجند في الحروب حتى هدد الدولة العثمانية في الشام والعراق . وكان جميل الخلقة عاقلاً حكيماً وقد قام في اعتقاد العرب انه لا يلبث ان ينشر هذا المذهب في العالم كله فاموا حوله . فخافت الدولة العثمانية بطشه فجندت اليه حملة بقيادة سليمان باشا فقهرها ثم حمل بعشرين الف مقاتل على كربلاء وفيها قبور أئمة الشيعة وصاح برجاله « اقلوا هؤلاء الكفار الذين يشركون بالله » فاخذوا في هدم المزارات كلها من قبر الحسين الى أقل الابنية . فلم يتركوا حجراً على حجر واستولوا على ما كان هناك من التحف والاموال واستعانوا بها على أمورهم

وفي السنة التالية فتحوا مكة ودخل سعود الكعبة رسمياً في ٢٧ ابريل سنة ١٨٠٣ وأستولى على ما فيها من التحف وشد في نشر تعاليمه هناك . فبطل التدخين وكف الناس عن تعاطي المسكرات وعكفوا على الصلوات . وبادر سعود فكتب الى السلطان

سليم الثالث وهو يومئذ على العرش العثماني كتاباً هذا معناه :

« من سعود الى سليم : أما بعد فقد دخلت مكة في الرابع من المحرم سنة ١٢١٨ هـ وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعد ان هدئت ما هناك من اشياء الوثنية والقيت الضرائب الا ما كان منها حقاً وثبت القاضي الذي وليته أنت طبقاً للشرع الاسلامي فعليك ان تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من الحجيء الى هذا البلد المقدس بالحمل والبطول والزور فان ذلك ليس من الدين في شيء وعليك رحمة الله وبركاته »

ولم تمض تلك السنة حتى دخلت المدينة في حوزة الوهابيين واجرى سعود فيها اصلاحه الديني فهدم قبة القبر النبوي ونزع الستائر التي كانت هناك . وأخذ في نشر سيادته على بلاد العرب فاصبحت حدود مملكته سنة ١٢٠٩ من الشمال صحراء سوريا ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج العجم ومن الغرب البحر الاحمر وقد استفحل أمرهم ولم ير الباب العالي بدأ من تكليف بطل مصر ومحبي معاليها رحمه الله فاجاب محمد علي مطيعاً وجعل يجمع القوات اللازمة لتلك الحملة لكنه فكر في أمر المماليك فحشي اذا سارت الحملة أن لا تكون البلاد في مأمن منهم فيجمعوا كلتهم ويعودوا الى ما كانوا عليه من القلاقل فعمد الى اهلاكم قبل مسير الحملة . لكنه في الوقت نفسه أخذ في اعداد المهات فجدد أربعة آلاف مقاتل تحت قيادة ابنه طوسون باشا ثم طلب الى الباب العالي ان يبعث الى السويس بالاخشاب لبناء المراكب اللازمة لنقل الجند ومعدات الحرب فارسل اليه ما طلب فابتنى ثمانية عشر مركباً وأعدها عند السويس في انتظار الحملة

مذبحة المماليك

أما المماليك فكانوا قد يتسوا من الاستقلال بالاحكام بعد ان رأوا ما حل بسلفائهم وما عليه محمد علي باشا من العزيمة فكفوا عن مطامعهم واكتفوا بالتمتع بارزاقهم وممتلكاتهم في حالة سلمية . فقطن بعضهم الصعيد وبعضهم القاهرة وتشتتوا في انحاء القطر . وكان شاهين بك وهو الذي تولى رياستهم بعد وفاة الاني قد اذعن لمحمد علي باشا كما تقدم . فقطعه أرضاً بين الجزيرة وبني سويف والفيوم قاوى اليها . وفي محرم سنة ١٢٢٦ هـ فبراير (شباط) سنة ١٨١١ م) سار قواد الحملة من القاهرة وعسكروا في قبة العزب في الصحراء ينتظرون سائر الحملة ومعها طوسون باشا . وتعين يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله الى قبة العزب فاعلن ذلك في المدينة ودعي كل الاعيان لحضور ذلك الاحتفال وفي مجلتهم المماليك وطلب اليهم أن يكونوا بالملايس الرسمية

ففي يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ (أول مارس) سنة ١٨١١ م) احتشد الناس الى القلعة وجاء شاهين بك في رجاله فاستقبلهم الباشا في قصره بكل ترحاب . ثم قدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة أمر محمد علي بالمسير فصار الموكب وكل في مكانه منه جاعلين المماليك الى الورا يكشفهم الفرسان والمشاة . حتى اذا اقتربوا من باب العزب من أبواب القلعة في مضيق بين هذا الباب والحوش العالي أمر محمد علي فاغلقت الابواب وأشار الى الالبانيين (الارناؤوط)



ش ٥٤ : أمين بك (المملوك الشارد)

فهمجوا على المماليك بغتة فاندعر أولئك وحاولوا الفرار تسلقاً على الصخور ولكنهم لم يفوزوا لان الالبانيين كانوا أكثر تعوداً على تسلقها . واقتحم المشاة المماليك من رؤسهم بالرصاص فطلب هؤلاء الفرار بنحيولهم من طرق أخرى فلم يستطيعوا لصعوبة المسلك على الخيول ولما ضويق عليهم ترحل بعضهم وفروا سعيّاً على أقدامهم

والسيوف في أيديهم فتداركتهم الجنود بالبنادق من الشبابيك فقتل شاهين بك أمام ديوان صلاح الدين . وحاول بعضهم الانتحاء الى الحرم أو الى طوسون باشا بدون فائدة . ثم نودي في المدينة أن كل من يظفر بأحد المماليك في أي محل كان يأتي به الى نكاح بك فكانوا يقبضون عليهم ويأتون بهم اليه أفواجاً وهو يقتلهم

وكان عدد المماليك المدعوين الى الوليمة أربع مئة فلم ينج منهم الا اثنان أحدهما أحمد بك زوج عديلة هانم بنت إبراهيم بك الكبير كان غائباً بناحية موش والثاني أمين بك أتى القلعة متأخراً فرأى الموكب سائراً نحو باب العزب فوقف خارج الباب ينتظر خروج الموكب . ثم لما أقفلت الابواب بغتة وسمع انطلاق النار أدرك المكيدة فمز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والمتناقل على اللسنة أن أمين بك هذا كان داخل القلعة فعندما حصلت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو وقد صوروا تلك الاشاعة في الرسم (ش ٥٤) والاقترب للحقيقة أن هذه الاشاعة مختلفة أو مبالغ فيها . ثم نودي في الاسواق أن شاهين بك زعيم المماليك قتل تخافت الناس ثم طافت العساكر في المدينة ينهبون بيوت المماليك ويأخذون حريمهم وجوارهم وعلا الصياح

وفي اليوم التالي نزل الباشا من القلعة وطوسون معه وظاف المدينة يأمر الناس بإيقاف النهب وقتل كل من حاول ذلك ولكنه حرض على قبض من يظفرون به من المماليك في سائر أنحاء القطر فكانوا يأتون بهم أفواجاً يسوقونهم كالغنم الى الذبح . فبلغ عدد من قتل من البكوات ٢٣ يكا . وفي اليوم التالي نزل طوسون باشا الى الاسواق في فرقة من الجنود لتسكين القلوب وإيقاف النهب . أما الجثث التي كانت في القلعة فاحتفروا لها حفراً جعلوا فوقها التراب وصرح محمد علي باشا بحماية نساء المماليك ولم يسمح بتزويجهن الا الى رجاله

عود الى الوهابيين

ولما خلت البلاد من المماليك عكف محمد علي على المهام الاخرى وأخصها مسألة الوهابيين فكتب الى غالب شريف مكة يخبره باعداد حملة تنقذه من الوهابيين فيفتح طريق الحرمين لجميع المسلمين وطلب اليه أن يمهده له السبيل . فاجابه شاكراً ووعد بالمساعدة

أما سعود أمير الوهابيين فانبأته الجواسيس بما نواه محمد علي فأمر فاجتمع حوله خمسة عشر ألفاً ليدفع بهم جنود مصر . أما حملة طوسون فركبت البحر من السويس

حتى أتت ينبع على الساحل الشرقي من البحر الاحمر ومنها يتصل الى المدينة فتملكوا ينبع وساروا منها الى صفر وفيها معسكر الوهابيين وقد تأهبوا للدفاع فهجم طوسون باشا فتهقهر سعود ورجاله أولاً ثم ارتدوا على الجيوش المصرية فانهزموا وتركوا مؤنهم وذخائرهم وجمالهم وعادوا الى ينبع . فلم محمد علي باشا بذلك فجدد جنداً كبيراً مدداً لابنه فاشتد أزر طوسون وجمع اليه القوتين وسار حتى أتى المدينة فاطلق عليها القنابل فهدم بعض السور ثم دخلها وأنخن في حاميته حتى سالت فكف السيف عنها . فانتشر خبر افتتاح المدينة في سائر الحجاز تخاف الوهابيون وفرح أعداؤهم ولا سيما الشريف غالب . وقد كان في جدة لا يدري ماذا يكون من أمر تلك الحملة فلما علم بانتصارها كاد يطير من الفرح

وأجلى الوهابيون عن مكة خوفاً من أهلها فجاءها طوسون واحتلها وكتب الى أبيه ففرح فرحاً لا مزيد عليه لما أتاه الله من النصر على يد ابنه نصرأ لم يتأت لغيره من القواد العثمانيين وجيء اليه بقائد حامية المدينة من الوهابيين فارسله في خفر الى الاستانة فقتلوه حال وصوله اليها . أما من بقي من دعاة الوهابيين فكانوا لا يزالون في مأمن خارج مكة تحت قيادة كبيرهم سعود

فلما جاء صيف سنة ١٨١٣ (سنة ١٢٢٨ هـ) علموا أن جنود طوسون لا يحتملون حر تلك البلاد وأنهم اذا ناهضوهم اذ ذاك ربما تغلبوا عليهم فجددوا وساروا الى تربة شرقي مكة فخاربوها واستولوا عليها ثم ساروا الى المدينة وهددوها بعد أن استولوا على كل ما بين هاتين المدينتين من القرى والمدن . فاتصل الخبر بمحمد علي فلم يرد أن يذهب بنفسه لتصرة الجنود المصرية وقد أصبحت مصر في مأمن من المماليك وغيرهم فسار في جند عظيم حتى أتى جدة فزها في ٣٠ شعبان سنة ١٢٢٨ هـ (٢٨ أغسطس (آب) سنة ١٨١٣ م) فلاقاه الشيخ غالب شريف مكة ورحب به . وبعد أن أدى فروض الحج رأى أن الشريف ليس بمن يعول عليهم في الدفاع فعمد الى خلعه بطريقة تضمن حقن الدماء ففاز ثم وضع يده على ممتلكاته وبعث به وبمائلته الى القاهرة ومنها الى سالونيك فبأش فيها أربع سنوات ومات

أما الوهابيون فمات قائدهم سعود في درعية في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ هـ (١٧ ابريل (نيسان) سنة ١٨١٤ م) فانحطت سطوتهم فقاموا عليهم ابنه عبد الله ولم يكن كفواً فحصلت بينه وبين الجنود المصرية مناوشات كثيرة لم تات بنتيجة . وفي ٢٨ محرم سنة ١٢٣٠ هـ (١٠ يناير (٢٠) سنة ١٨١٥ م) حصلت معركة كبيرة

بين جنود محمد علي والوهابيين تحت قيادة فيصل أخى عبد الله شفت عن انتصار المصريين فتقدم طوسون الى نجد الا أنه اضطر أخيراً الى التوقف لقلّة المؤن وهو لم يبلغ درعية

ثم اقتضت الاحوال عود محمد علي الى مصر فعاد وقد فتح طريق الحرمين ولكنه لم يبد جميع الوهابيين؛ فوصل القاهرة في ٤ رجب سنة ١٢٣٠ هـ فاهتم بتدريب الجند على نظام جند أوربا وهو أول من فعل ذلك في مصر فاصدر أمراً عالياً في شعبان سنة ١٢٣٠ هـ مؤداه أن الجنود المصرية ستدرب على النظام الحديث وهو النظام الفرنسي فاعظم على الجهادية ولا سيما الارناؤوط الامثال الى هذه الاوامر فرأى أن يدخل هذا النظام أولاً بين الجنود الوطنية لانهم أقرب الى الطاعة من هؤلاء الالبانيين ومن كان على شاكلتهم - وسنعود الى ذلك

وفي أثناء ذلك عاد طوسون باشا من الحجاز فخرج الناس لملاقاته بالاحتفال والاكرام ثم نزل الاسكندرية حيث كان أبوه مقبلاً فوجد امرأته قد وضعت في أثناء غيابه غلاماً دعتة عباساً . وبعد يسير أصيب طوسون بألم شديد في رأسه وحسب لم يعش بعدها الا قليلاً واختلفت الروايات في أسباب موته وكيفيته ومكانه ولكنهم اتفقوا أن موته كان شديد الوطأة على أبيه . ونقلت جثة طوسون باشا الى القاهرة ودفنت قرب متجد الامام الشافعي وراء جبل المقطم حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم وبعد قليل عاد محمد علي الى روعه فاخذ يهتم في أمر الوهابيين خشية أن يعودوا الى ما كانوا عليه فكتب الى عبد الله بن سعود أن يأتي اليه بالاموال التي استخرجها الوهابيون من الكعبة وأن يتأهب متى قدم للسير الى الاستانة . فأجابه يعتذر عن الشخوص وقال « ان تلك الاموال قد تفرقت على عهد أبيه » وأرسل له هدايا فاخرة فأرجع اليه محمد علي تلك الهدايا وأوسعته تهديداً . ثم جرد اليه حملة عهد قيادتها الى ابنه ابراهيم باشا وكان باسلاً مقدماً وقائداً مجرباً لا يهاب الموت شديد الغضب سريعه . ولكنه كان سليم القلب حرّ الضمير ولذلك كانت احكامه عادلة صارمة

وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هـ سار ابراهيم باشا بحملته من القاهرة في النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى القصير على شاطئ البحر الاحمر ومنها بجرراً الى ينبع ثم الى المدينة وتربص هناك بجميع قواته يستعد لهجوم شديد امتثالاً لمشورة أبيه . فالتف حوله عصبة جديدة من القبائل المتحابة ولما تكاملت قواته أقام الحرب سجالاتاً وما زال بين هجوم ودفاع حتى فاز وقبض على زعيم الوهابيين عبد الله فاوصله الى أبيه فوصل

القاهرة في ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ هـ فاذن له بالمشول بين يدي الباشا وتقييل يديه فرحب به كثيراً لانه كان يعجب بشجاعة الوهابيين . ثم سأله ما ظنه بابراهيم فأجابه قائلاً « انه قد قام بما عليه ونحن قننا بما علينا وهكذا أراد الله » . وفي ٢٠ محرم أرسل الى الاستانة وطاقوا به في أسواقها ثلاثة أيام ثم قتلوه . وخلع السلطان على ابراهيم باشا خلعة شرف مكافأة له وسماه والياً على مكة . فاتصلت هذه الاخبار



ش هـ ابراهيم باشا بلباسه العسكري

بدرعية فخاف أهلها فهدموا المدينة وفروا من وجه الموت فاحتلتها الجنود الظافرة وانتهى أمر الوهابيين . أما محمد علي باشا فانه نال من انعام السلطان لقب خان مكافأة لاختلاصه وبسالته وهو لقب لم يمنح لاحد من وزراء الدولة الا حاكم القرم

٢ - فتح السودان

ولما انتهى هذا الرجل الخطير من حروبه في بلاد العرب فكر في فتح السودان على أمل ان يلاقي فيها الكنوز الثمينة من مناجم الذهب بجوار البحر الازرق ناهيك بما هنالك من المحصولات والواردات العجيبة من الصمغ والريش والعاج والرقيق وغير ذلك . فجدد خمسة آلاف من الجند النظامي وبعض العربان وثمانية مدافع وجعل

الجميع تحت قيادة اسماعيل باشا أحد أولاده . فسارت الحملة من القاهرة في شعبان عام ١٢٣٥ هـ (يونيو (حزيران) ١٨٢٠ م) في النيل فقطعت الشلال الاول فالثاني فالتفت حتى السادس فانت شندي والمتمة وقد أخضعت كل ما مرت به من القرى والبلدان بدون مقاومة . ومن شندي سارت إلى سنار على البحر الازرق وراء الخرطوم . ولم يكن لمن القبائل التي يعتد بها هناك الا الشائقية فقاوموا قليلا ثم ساموا ودخلت سنار وكردوفان في املاك مصر . فسار اسماعيل باشا في جنوده الى فزغل وهناك ظن نفسه اكتشف معادن الذهب . ثم فشا في رجاله الوباء فانت منهم كثيرون وأنته نجدة من ثلاثة آلاف رجل بقيادة صهره احمد بك الدفتردار فاشتد أزوره فأقام صهره هذا على كردوفان وسار في جيش الى المتمة على البر الغربي من النيل ثم عدى الى شندي في البر الشرقي لجباية المال وجمع الرجال . فاستدعى اليه ملكها واسمه النمر وقال له « أريد منك ان تأتي الي قبل خمسة أيام ببلد قاري هذا من الذهب والفين من العساكر » فجعل ذلك الملك يستعطف اسماعيل باشا ليتنازل عن ذلك القدر فقبل منه اخيراً عوضاً عن الذهب مبلغ عشرين ألف ريال من الفضة

فاجابه الى ما أراد ولكنه لم يكن يستطيع جمعها في تلك المدة فطلب اليه تطويل الاجل فضربه اسماعيل بالشبق (الغليون) على وجهه قائلاً « لا . ان كنت لا تدفع المال فوراً ليس لك غير الحازوق جزاء » . فسكت الملك النمر وقد أضمر له الشر وصمم على الانتقام فطيب خاطره ووعد به باتمام ما يريد . وفي تلك الليلة جعل يرسل التبن الجاف احمالاً الى معسكر اسماعيل علفاً للجمال ولكنه اقامه حول المعسكر كأنه يريد إشعاله . وفي المساء أتى الى اسماعيل في سرب من الاهلين ينفخون بالزمار ويرقصون رقصة خاصة بهم . فطرب اسماعيل وضباطه لذلك ثم أخذ عدد المتفرجين من الوطنيين يزايد شيئاً فشيئاً حتى أصبح كل أهل المدينة هناك . فلما تكامل العدد أمرهم ملكهم بالهجوم فجمعوا بغية على اسماعيل ورجاله ثم داروا بالنيران على التبن فأشعلوه فانت اسماعيل باشا وكثيرون ممن كانوا معه بين قتل وحرق . وفي اليوم التالي أعموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة

فاتصل الخبر باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظاً وأقسم انه لا يقبل أقل من عشرين ألف رأس انتقاماً لاسماعيل قتل بجيشه القليل حتى أنفذ قسمه فقتل ذلك العدد من الرجال متفتناً في طرق قتلهم على أساليب مختلفة . فهذأت الاحوال بعد ذلك وهكذا

ثم افتتح السودان . وما زال احمد بك الدفتردار على حكومة سنار وكردوفان الى عام ١٢٤٠ هـ (عام ١٨٢٤ م) ثم أبدل برسم بك

٣ — حرب المورا

وفي عام ١٢٣٩ هـ أرسل محمد علي باشا بأمر الباب العالي حملة مصرية تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا لمحاربة المورا في بلاد اليونان فسار وحارب وأظهرت العماره المصرية في تلك الحروب شجاعة الابطال ولولا اتحاد الدول مثنى وثلاث على الجنود العثمانية والمصرية لما قامت لليونان قائمة في تلك الحرب ولكننا نقول ان ابراهيم باشا عاد عود الظافرين بعد أن بذل في سبيل ذلك عشرين مليون فرنك وثلاثين ألف مقاتل

٤ — فتح سوريا

ثم كانت حملة ابراهيم باشا على سوريا لافتتاح عكا لأسباب ترجع الى مطامع محمد علي في توسيع مملكته وإنشاء دولة مستقلة . وأما البواعث الظاهرة لتلك الحملة فهي أن الأمير بشيراً الشهابي الكبير أمير لبنان جاء مصر سنة ١٨٢١ يلتمس من محمد علي التوسط لدى الباب العالي في العفو عن عبد الله باشا والي عكا لأن الدولة كانت تحب محمد علي باشا وتعد خطره على أثر ما أوتيه من النصر في حرب الوهابيين بعد ان تعبت هي في قهرهم

وكان محمد علي باشا إذ ذاك في شاغل من أمر الحرب في المورا وكانت الدولة قد بعثت اليه ان يجند جنداً لمحاربتها فلما جاءه الأمير بشير مستنجداً طيب خاطره ووعد به بالمساعدة وكتب الى الباب العالي بذلك واسكن الأمير في بني سويف ريثما يرد الجواب وشدد في طلب العفو تشديداً كبيراً لانه كان راغباً في امتلاك قلب الأمير ولسانه ليكون له عوناً في ما نواه من فتح الشام

ولبت الأمير في مصر حتى وزدت الأوامر بالعفو عن عبد الله باشا فحملها شا كراً بعد ان تداول مع محمد علي باشا سرّاً بشؤون كثيرة تعود الى مقاصد الباشا في بر الشام . وسار الأمير من مصر الى عكا بكل اكرام مصحوباً بسلاحدار الباشا حاملاً فرمان بالعفو فوصلوا عكا فسر عبد الله باشا بفوزه . ولكن الجنود العثمانية في الشام طلبت النفقات المعينة في مثل هذا الصلح ولم يكن عند عبد الله باشا نقود وكان الأمير قد جاء بنحو نصف القدر اللازم من محمد علي فضرب عبد الله باشا الباقي على المقاطعات وأخذ بعضها من الأمير

وجرت حوادث كثيرة انتهت بالتباعد بين الأمير وعبد الله باشا . وكان محمد علي

لما جاءه الامير بشير بواسطة العفو عن عبد الله باشا اسر اليه عزمه على فتح الشام وطلب نصرته فوعده سرّاً ولبث ينتظر فرصة أو حجة . وكان يظن ان صنعه الخيل مع عبد الله باشا والامير يكفي لبلوغ أمانيه ولكنه رأى من عبد الله باشا اعوجاجاً عن غرضه . والغالب ان عبد الله كان طامعاً بمثل مطامع محمد علي فلما علم بما نواه هذا صار يحاذره



ش ٥٦ : الامير بشير الشاهي الكبير

وادرك محمد علي ذلك فعزم على اختباره والتعويل على تنفيذ مقاصده بالقوة فبعث الى الامير بشير ان يبعث اليه بجانب من الاخشاب التي يحتاج اليها في بناء المراكب . فباشر الامير اجابة طلبه فنعى عبد الله باشا فشق ذلك على محمد علي واعتبره بظاهر الامر مخالفاً لاوامر الدولة العلية لأن تلك المراكب انما هي للحكومة السنية فجرد لمقاصته حملة بقيادة ولده ابراهيم باشا

جرد محمد علي باشا عام ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) حملة في البر والبحر فأرسل القيادة والطبجية عن طريق العريش برّاً وسار ابراهيم باشا في رجاله بحرّاً . أما حملة البر فاستولت على غزة ويافا بغير شديد مقاومة . ثم وصل ابراهيم باشا الى يافا وسار في جيشه الى عكا فوصلها في ٢١ جمادى الأولى سنة ١٢٤٧ هـ فحاصرها برّاً وبحرّاً الى ٢٦ ذي القعدة منها فهجم عليها هجمة نهائية شفت عن تسليمها . ثم سار قاصداً دمشق فاحضرها ولم تدافع الا بيسيراً وبرحها الى حصن حيث كانت تنتظره الجنود العثمانية

تحت قيادة محمد باشا والي طرابلس فوصلها في ٨ يوليو (تموز) سنة ١٨٣٢ م وبعد الاخذ والرد استولى ابراهيم باشا على حصن نخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها من مدن سوريا . فتغير وجه المسألة باعتبار الباب العالي فبعث حسين باشا السر عسكر بحيش عثماني لايقاف ابراهيم باشا عند حده فجاء وعسكر في اسكندرونة فلاقاه ابراهيم باشا وحاربه وانتصر عليه ولم يعد يلتقي بعد ذلك مقاومة تستحق الذكر . ثم تقدم في آسيا الصغرى تاركاً طورس وراءه وكان الباب العالي قد أرسل رشيد باشا في جيش لملاقاة فخذ ابراهيم باشا جنداً كبيراً من البلاد التي اقتتحتها وسار نحو الاسفانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في ديسمبر (ك ١) سنة ١٨٣٢ م في قونية جنوبي آسيا الصغرى فتقهقر رشيد باشا برجاله واخترق ابراهيم باشا آسيا الصغرى حتى هدد الاسفانة

فتوسطت الدول وفي مقدمتهن الدولة الروسية فانفذت الى مصر البرنس مورافيف لحاطبة محمد علي باشا بذلك وتهديده فبعث الى ابراهيم باشا ان يتوقف عن السير . ثم عقدت بمساعي الدول معاهدة من مقتضاها ان تكون سوريا قسماً من مملكة مصر و ابراهيم باشا حاكماً عليها وجاياً لخراج ادنه . وقد تم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٨ (١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ م) وهو المدعو وفاق كوتاهيا . فنادى ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير أحكامها وجعل مقامه أولاً في انطاكية وابتنى فيها قصراً وقشلاقات وولى اسماعيل بك على حلب واحمد منكلي باشا على ادنه وطرسوس . أما الاجراءات العسكرية فلم يكن يسوغ لأحد سواء ان يتولاها

وكان ابراهيم باشا سائراً بالاحكام بكل دراية وحكمة خشية سوء العقبى الا انه مع ذلك لم ينجح من ثورة ظهرت في ضواحي السلط والكرك في أواخر سنة ١٢٤٩ هـ (منتصف عام ١٨٣٤ م) وامتدت الى اورشليم وبعد الاخذ والرد اضطر ابراهيم باشا الى الحاصرة في اورشليم لانها ذات أسوار منيعة ثم امتدت الثورة الى السامرة وجبال نابلس

وفي ١٦ يونيو (حزيران) منها هجم المسلمون على صفد وفيها جماعه من اليهود فهدموا منازلهم وقتلوا رجالهم وقتكوا بنسائهم وأصبحت تلك المدينة في حوزتهم ثم اجروا مثل هذه التعديات على المسيحيين في الناصرة وبيت لحم واورشليم ولكنهم لم يتمكنوا مما تمكنوه بصفد . ويقال بالجملة ان سوريا أصبحت بسبب ذلك شعلة ثورية فاقصّل الخبر بمحمد علي باشا فبرح الاسكندرية الى يافا فتقرب منه وجهاء البلاد وسراةها

ثم عمدت الجيوش المصرية الى قمع الثائرين فتشتت العصاة الالبالبيين فانهم قاوموا طويلاً لكنهم اذعنوا أخيراً. ثم هاجم المصريون السلط والكرك وهدموها. وبعد قليل عادت الثورة الى جبال النصيرية فاعترض أهلها فرقة من الجند كانت سائرة من اللاذقية الى حلب واعادوها الى حيث أتت. فارسل المصريون سبعة آلاف مقاتل اتحدوا بثمانية آلاف من الدروز والمارونيين بقيادة الامير خليل بن الامير بشير أمير لبنان وسار الجميع الى النصيرية وأخضعوهم. ثم سعى ابراهيم باشا في تجريد السوريين من السلاح خوفاً من عودهم الى الثورة ففعل لكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين. وكان الامير بشير و ابراهيم باشا على وفاق تام كأنهما خلقا ليتحدا

وبعد ان أمم ابراهيم باشا جمع سلاح السوريين بمساعدة الامير بشير هجم برجاله على أهالي الشوف والتمن من لبنان وجمعوا ما استطاعوا من الاسلحة وحملوا كل ما جمعوه منها الى عكا وكانوا يصططعون منها نعالاً لحيوهم. فاستتبت الراحة في سوريا وأذعن البلاء. الا ان محمد علي باشا لم يقف عند هذا الحد فاحب استخدامها لتوسيع دائرة حكمه فجعل يجمع منها الرجال والحيل بطرق قهرية فغضب الباب العالي فعقد مجلساً في يناير سنة ١٨٣٩ للنظر في مقاصد المصريين فأقر المجلس على تجريد حملة من ثمانين ألف مقاتل منهم خمسة وعشرون ألفاً من الباشبوزق طبقاً لارادة السلطان محمود وان تسير تحت قيادة حافظ باشا لمحاربة المصريين

وكان محمد علي باشا قد سار الى السودان تاركاً القاهرة بقيادة حفيده عباس باشا. فلما عاد علم باعدادات الباب العالي فاندعر لها فكتب الى ابنه يستحثه فأخذ ابراهيم في الاستعداد للدفاع فحشد جيوشه في حلب لدفع الجنود العثمانية القادمة برأ. ثم علم ان معظم الاهلين راغبون في دولتهم الاصلية ومستعدون للتسليم وعلى الخصوص الدروز تحت قيادة شبلي العريان أحد أبطالهم الممدودين. فحصلت مواقع شديدة بين الجيوش العثمانية والجيوش المصرية في زيب انتهت بانهزام الاولى الى مرعش. وكان السلطان محمود قد أرسل عمارة بحرية لمحاربة المصريين فجاءت الاسكندرية فأصابها ما أصاب الحملة البرية ولكنه توفي قبل بلوغه خبر تلك الوقائع خلفه السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩

ثم توالى الحوادث الى ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٠ م فانعقدت معاهدة لندرا تقضي باعتبار محمد علي باشا من تابعي الدولة العثمانية. الا ان ذلك لم يكن ليوافقه عن مقاصده ولديه اذ ذاك نحو ١٤٦ ألفاً من الجنود النظامية و ٢٢ ألفاً من الباشبوزق

منها ١٣٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم في سوريا والباقيون متفرقون في الحجاز وسنار وكريد ومصر. لكنه علم بعد ذلك ان هذه القوات قليلة في جانب ما



يلزمه لآعام مشروعه فجعل يضم اليها تلامذة المدارس حتى استخدم المرضى والجرحى. ثم عمد الى انشاء خفر وطني احتياطاً ولكنه لم ينجح به كل النجاح على

انه مع ذلك لما عرضت عليه معاهدة لندرا لم ش ٥٧ : قود السلطان محمود الثاني يصادق عليها فعرض عليه ان يأخذ ولاية عكا ترضية له ويضمها الى مصر وينسحب من سوريا فرفض أيضاً

خروج ابراهيم باشا من سوريا

وبعد ذلك يسير جاءت الجيوش الانكليزية الى صيدا وفر ابراهيم الى الجبل. وكان الكومودور نايبه قد سار في عمارة بحرية انكليزية لحاصرة بيروت وكانت تحت قيادة سليمان باشا الفرنسي وقد حصنها تحصيناً منيعاً ومعه فرقان من الجند. ولكن لسوء الحظ جاءته الانباء ان ابراهيم قتل وتشنت رجاله نخاف سليمان ورأى ان لا بد له من تأكيد حقيقة ذلك الخبر حتى اذا تحقق موت ابراهيم يضم اليه ما بقي من الجيوش للدفاع فبرح بيروت بعد ان جعل عليها صادق بك احد اميرالايات الفرقين. اما هذا فلما رأى نفسه منفرداً في بيروت خاف وترك المدينة وفر فاستولى عليها الانكليز ثم اتصل به من سليمان ان ابراهيم باشا لا يزال حياً ويأمره بالثبات أمام العدو ريثما يحضر. فخاف صادق بك الوقوع في شر أعماله فانضم الى الانكليز هو ورجاله. ثم سار نايبه من بيروت الى عكا وحاصرها فقر اسماعيل بك ومن فيها من الرجال وسلمت المدينة

ثم سار نايبه الى الاسكندرية بست سفن وعرض على محمد علي باشا الصلح فقبل وعقدوا معاهدة وقع عليها الطرفان ولما أرادوا تثبيتها مانعت الدول في ذلك وبقيت الامور على حالها حتى دارت الخبرات بين الباب العالي ومحمد علي باشا فأراد السلطان ارضاء محمد علي فاعطاه ان تكون ولاية مصر وراثية لنسله بشرط ان يكون لجلالة السلطان الحق المطلق ان يختار من عائلة محمد علي من يريد توليتها. فتردد محمد علي في بادىء الرأي. ثم أمر جيوشه ان تنسحب من سوريا وكان عددها عند ذهابها اليها مئة وثلاثين ألفاً فلم يرجع منها الا خمسون ألفاً وقد اخذ التعب منهم مأخذاً عظيماً

فلم يبدأ من قبول انعام السلطان . فبعث إلى الباب العالي بذلك فأرسل إليه خطاً شريفاً بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م بتبنيته على مصر مع حقوق الوراثة لاعتقابه وان يكون لجلالة السلطان ان يختار منهم من يريد لهذا المنصب هذا نصه :

فرمان ولاية محمد علي على مصر

« رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدها بامتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالي . فطول اختباركم وما لكم من الدراية باحوال البلاد المسلعة ادارتها لكم من مدة مديدة لا يتركان لنا ريباً بانكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة في ادارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهاني على حقوق جديدة من تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فتقدرون في الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها ومجتهدون ببيت هذه المزايا التي امتزمت بها في اولادكم . وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم في الحكومة المصرية المينة حدودها في الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الاعظم ومنحناكم فضلاً عن ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتية يانها :

« متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخه سدتنا الملوكية من اولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة نفسها بحق اولاده وهلم جرأ . وإذا انقرضت ذريعتكم الذكور لا يكون لاولاد نساء عائلتكم الذكور حق اياً كان في الولاية وارثها . ومن وقع عليه من اولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور إلى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة . على ان حق التوارث الممنوح لوالي مصر لا يمنحه رتبة ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه . وجميع أحكام خطنا الشريف الهايوني الصادر عن كلخانة وكافة القوانين الادارية الجاري العمل بها أو تلك التي سيجري العمل بموجبها في ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التي ستعقد في مستقبل الايام بين الباب العالي والدول المتحابية يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها في ولاية مصر أيضاً . وكلما هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجري تحصيله باسمنا الملوكي . ولكي لا يكون أهالي مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالي معرضين للمضار والاموال والضرائب غير القانونية يجب ان تنظم تلك الاموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانية وربيع الايرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقي الضرائب التي تحصل في الديار المصرية يتحصل تمامه

ولا يخصم منه شيء ويؤدى إلى خزينة بابنا العالي العامرة والثلاث الارباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بنفقات التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالي وبأمان الغلال الملزمة مصر بتقديمها سنوياً إلى البلاد المقدسة مكة والمدينة . ويبقى هذا الخراج مستمراً دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات بتبدىء من عام ١٢٥٧ هـ أي من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ ومن الممكن ترتيب حالة اخرى بشأنهم في مستقبل الايام تكون اكثر موافقة لحالة مصر المستقبلية ونوع الظروف التي ربما يجد عليها . ولما كان من واجبات بابنا العالي الوقوف على مقدار الايرادات السنوية والطرق المستعملة في تحصيل العشور وباقي الضرائب وكان الوقوف على هذه الاحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة في تلك الولاية فينظر في ذلك فيما بعد ويجري ما يوافق ارادتنا السلطانية . ولما كان من الزوم ان يعين بابنا العالي ترتيباً لسك النقود لما في ذلك من الاهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت ارادي السنية أن تكون النقود الذهبية والفضية الجاز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهاني معادلة للنقود المضروبة في ضربنا العائمة بالاستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها « ويكفي أن يكون لمصر في اوقات السلم ثمانية عشر الف نفر من الجند للمحافظة في داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى ولايتكم هذا العدد . ولكن حيث ان قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالي كسائر قوات المملكة العثمانية فيسوغ أن يزداد هذا العدد في زمن الحرب بما يرى موافقاً في ذلك الحين . على انه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة في كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد أن نخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة . فهذه القاعدة يجب اتباعها ايضاً في مصر بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة في الخدمة حالا عشرون الف رجل ليتدثروا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر الفا في مصر وترسل الالفان لها لانياء مدة خدمتهم . وحيث ان خمس العشرين الف رجل واجب استبدالهم سنوياً فيؤخذ سنوياً من مصر أربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط أن تستعمل في ذلك مواجب الانسانية والزاهة والسرعة اللازمة فيبقى في مصر ثلاثة آلاف وسبعمائة من الجنود الجديدة والاربعمائة يرسلون الى هنا ومن اتم مدة خدمته من الجنود المرسلة الى هذا الطرف ومن الجنود الباقية في مصر يرجعون الى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية . ومع كون مناخ مصر

ربما يستلزم أقشة خلاف الاقشة المستعملة للمبوسات العساكر فلا بأس من ذلك فقط يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلامات التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقي الجنود العثمانية . وكذا ملابس الضباط وعلامات امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية أن تعين ضباطاً برية وبحرية حتى رتبة الملازم اما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين اليها راجع الى ارادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالي مصر ان ينشئ من الآن فصاعداً سفناً حربية الا باذنا الخصوصي . وحيث ان الامتياز المعطى بوراة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه في عدم تنفيذ احد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغائه للحال . وبناء على ذلك قد اصدرنا خطنا هذا الشريف المملوكي كي تقدروا انتم وأولادكم قدر احساننا الشاهاني فتعتوا كل الاعتناء باتمام الشروط المقررة فيه وتحملوا أهالي مصر من كل فعل اكرهي وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم مع التحذر من مخالفة أوامرنا المملوكية واخبار بابنا العالي عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم اه

فرمان ولايته على السودان

ثم صدر فرمان آخر ثبت ولايته على النوبة ودارفور وكردوفان وسنار هذا نصه : « ان سدتنا المملوكية كما توضح في فرماننا السلطاني السابق قد ثبتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة . وقد قلدتم فضلاً عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة والدارفور وكردوفان وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث . فبقوة الاختبار والحسكة التي امتزجتم بها تقومون بادارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الاسباب الآيلة لسعادة الاهلين وترسلون في كل سنة قائمة الى بابنا العالي حاوية بيان الإيرادات السنوية جميعها . وحيث انه يحدث من وقت لآخر أن تهجم الجنود على قرايا المقاطعات المذكورة فيأسرون القتيلين من ذكور وإناث ويبقونهم في قبضة يدهم لقاء رواتبهم وحيث ان هذه الامور مما تقضي معها الحال ليس فقط لانقراض أهالي تلك البلاد وخرابها بل انها أمور مخالفة للشريعة الحقة المقدسة وكلاهما من الحالتين ليست أقل فظاعة من أمر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بحراسة الحرم ذلك مما ليس ينطبق على ارادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادئ العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المائوس على عرش السلطنة السنية . فعليكم مداركة هذه

الامور بما ينبغي من الاعتناء على حدوثها في المستقبل ولا يبرح عن بالسك ان فيما عدا بعض اشخاص توجهوا الى مصر على أسطولنا المملوكي قد عفوت عن جميع الضباط والعساكر وسائر المأمورين الموجودين في مصر . نعم بموجب فرماننا السلطاني السابق ان تسمية الضباط المصريين لما فوق رتبة المعاوم تستلزم العرض عنها لاعتابنا المملوكية الا انه لا بأس من ارسال بيان باسماء من رقيتم من ضباط جنوكم الى بابنا العالي كي ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم في رتبهم . هذا ما نطق به ارادتنا السامية فعليكم الاسراع في الاجراء على مقتضاها اه

فاصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان . وبمقتضى ذلك تنازل محمد علي باشا عن عشرة آلاف من جنود سوريا فلم يبق عنده الا ثمانية عشر ألفاً بين مشاة وفرسان وغيرهم . فاضطر اذ ذاك الى الاقتصاد لاصلاح مالية البلاد فاقف كثيراً من المدارس العمومية التي كان قد خصص مبالغ معلومة للنفقة عليها ومن ضمنها مدرسة شبرا الزراعية وأبدل الاساندة الاورباويين لما بقي من المدارس باساندة أراك أو وطنيين وسار من ذلك الحين في خطة الاصلاح قانعاً بما قسم له من البلدان فعمل على ارضاء جلاله السلطان فانفذ الى جلالته ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية

أواخر أيامه

ثم أصيب ابراهيم باشا بانحراف في صحته فسار الى أوربا لقضاء فصل الصيف سنة ١٨٤٥ فاصاب ترحاباً عظيماً في سائر الممالك الاوربية ولا سيما في فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في أواخر صيف عام ١٨٤٦ م وكان والده قد توجه قبل وصوله يسير الى الاستانة بدعوة رسمية ليقيم عبوديته لجلالة السلطان فوصلها في ١٩ يوليو (تموز) عام ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا باشا ثم تشرف بالثول بين يدي جلاله السلطان فرحب به . ولما أراد تقبيل الاعتاب الشاهانية أمسكه جلالته وأجلسه بجانبه ومكثا ساعة يتحادثان . ثم انصرف شاكرًا وزار عدوّه القديم خسرو باشا وتضافيا . وفي ١٧ أغسطس من تلك السنة برح الاستانة قاصداً قواله مسقط رأسه فاقام فيها عدة امنية لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين ثم برحها الى الاسكندرية فقبول بالانوار وسار منها الى القاهرة تتقاطر اليه المهنئون من الاصدقاء أفواجا فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تلالاً كالشمس

وفي منتصف عام ١٨٤٨ توقع مزاج محمد علي باشا وازدادت فيه ظواهر

الخرف فلم يعد ثم بد من تولية إبراهيم باشا توجه هذا الى الاستانة في أوغسطس من تلك السنة لاجل تتيته على ولاية مصر خلفاً لايه قبته السلطان بنفسه فعاد لمعاطاة الاحكام . ثم راجعه العياء واشتد عليه بغته ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ م وبعد وفاته باحدى عشر ساعة دفن في مدفن العائلة الخديوية بجوار الامام الشافعي بالقاهرة

وكان عباس باشا غائباً في مكة فاستقدم حالاً لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ ديسمبر بعد أن قضى فروض الحج ولم يكن ثم اعتراض على توليته فجاء الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذناً بذلك فتولى الامور

كل ذلك ومحمد علي باشا في الاسكندرية وقد أخذ منه المرض مأخذاً عظيماً وما زال يهزل جسداً وعقلاً الى ٢ اغسطس عام ١٨٤٩ م فتوفي ولم يستغرب الناس وفاته لانه مكث في حالة النزاع مدة طويلة . وفي ٣ منه تقاطر الناس من الاعيان والقناصل الى سراي رأس التين في الاسكندرية لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم . فاذا هو في قاعة الاستقبال في تابوت تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن الكريم وعلى رأسه طربوشه الجهادي أحمر تونسي وحوله العلماء في الملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام التجويد . وكان سعيد باشا أكبر من وجد في الاسكندرية من عائلة الفقيد فكانت توجه نحوه خطابات التعزية . ونقلت جثة الفقيد ودفنت في جامعته في القلعة ولا تزال هناك الى الآن

اصلاحات

استولى محمد علي على مصر وهي في معظم الخراب والفساد سياسياً وتجاريّاً وزراعياً وأديباً فآخذ على نفسه اصلاح شؤونها وبذل في ذلك من الجهد والعناية ما ليس وراءه غاية وقد فاز بما أراد فاحيا الديار المصرية وأنعشها وأنماها من سائر الوجوه حتى أصبحت تجاري ممالك اوربا ولذلك لقبه كتاب عصره بموجد الديار المصرية يريدون أنه أوجدها من العدم وهذه أهم اصلاحاته :

١ - الاصلاح الاداري

واول شيء باشره من الاصلاح مسح الارضين والانتفاع بزرعها وتوزيعها . وتفصيل ذلك ان الديار المصرية كانت منقسمة من حيث ملكها الى قسمين أحدهما الارضون التي كاد يكون لواقع اليد عليها الحق في ملكها ملكاً مطلقاً وكانت معفاة من

الضرائب . والقسم الثاني التي لم يكن لزارعها الا حق التمتع بريتها وهي الارض التي كانت عليها الضريبة الخراجية . أما نفس العقار في هذين القسمين فكان ملك بيت المال او الحكومة او السلطان

هذا كان شأن الارضين المصرية قبل الفتح العثماني وبعده الى القرن السابع عشر حينما استأثر الامراء المماليك بالقوة والسلطة واحتل نظام الارضين وعار الناس يهاجرون فأهملت الاشغال العمومية وقل ريع الارض فأصبحت الحكومة في عجز كلي عن استحصال النفود فالتجأت الى تلزيم الخراج - وذلك ان الحكام كانوا يضمنون خراج النواحي والبلاد لانس وكان ذلك الضمان أو الالتزام يقرر اما بالمزايدة أو بالاتفاق بين الملتزم من جهة والرزنامة بالنيابة عن الحكومة من جهة أخرى . حتى اذا تم الأمر أعطت الرزنامة للملتزم تقسيطاً أي عقد تلزيم يصدق عليه شيخ البلد وهو كبير أمراء المماليك

فاذا دفع الملتزم الضريبة يعطى له حق التصرف في تحصيل المال الذي عجله وعلى فوائده التي كان يقرر سعرها هو بنفسه كما يريد . وكانت الحكومة تتعهد بمساعدته في التحصيل وتجعل له في مقابل ما ينفقه ويكابه في ذلك التحصيل بقاعاً غير التي التزمها معفاة من كل ضريبة تعرف بالاواشي . أما الفلاحون فلم يكونوا يملكون أرضاً قط على ان الملتزمين أنفسهم كانت تنزع منهم الالتزامات اذا تصدى لهم من كان أكثر صولة منهم وأشد بطشاً . ولا يخفى ما كان ينجم عن هذا التصرف من الاختلال وضيع الحقوق والاعتاب

فلما استقام الامر لمحمد علي باشا أمر بمسح كل أرض مصر المزروعة ثم قسمها الى مديريات والمديريات الى مراكز أو أقسام وهذه الى نواحي وعين فيها من يقوم بادارة أمورها وآخرين لحياية الضرائب وابطل الالتزامات جملة ووزع أرض كل ناحية بين أهل تلك الناحية بنفسها بحيث يصيب كل فلاح قادر على الشغل جانب من الارض بقدر جانب الآخر فبلغ نصيب كل فلاح ثلاثة أفدنة وبعضهم أربعة أو خمسة وجعل لمشايخ البلاد جانباً من الارض أعفاه من الضريبة في مقابل نفقات ضيافة جياة الاموال الاميرية الذين كانوا يعمرون في بلادهم وما كانت الحكومة تكلفهم به من المهام ودعا تلك العطايا مسموح المشايخ أو مسموح المبسطة وهي تقابل الاواشي المتقدم ذكرها

ثم رأى رحمه الله ان الفلاح لا يستطيع من نفسه أمراً يكفل إخراجه مما هو

فيه من الضيق الذي تراكم عليه بمرور الاجيال وكان قد انتهى من أعماله الحربية ولم يعد ثم حاجة الى بقاء ضباط الجهادية منقطعين الى وظائفهم العسكرية مع رواتبهم جارية عليهم في حالة السلم وان ليس من التدبير والحكمة ان يتناولوا معيشتهم وهم عطل من الاعمال . ورأى من الجهة الثانية ان الفلاح يحتاج الى مرشدين يهديه الى الطرق اللازمة لاستقامة أمره ووأزع يدفعه الى النهوض بواجباته . وعلم أيضاً ان المرء مهما كان صادقاً في خدمة الحكومة يشغل لنفسه أكثر مما يشغل لغيره فارتأى ان يعهد بأمر البلاد من حيث الزراعة الى أولئك الضباط فقوض اليهم تعميمها واصلاحها بأنفسهم ولم يحرم الفلاح مع ذلك من ثمرة اتعابه بل جعل لهذه الطريقة التي اعتمدها أصولاً وقوانين تقضي بأن لا تعطى الاطيان للمتعهد ما دامت راحته ومقدرة على اداء ما عليها من الاموال في أوقاتها . أما الاطيان غير الراضية فتحال الى عهده باختيار اربابها وهو يتعهد باداء المال المطلوب للحكومة وبهذه الوساطة نشطت الزراعة وتحسنت تحسناً عظيماً وما زالت تلك الارضين في يد المتعهدين الى أيام المغفور له عباس باشا وهو الذي استردها

مساحة الارض الزراعية في أيامه

كانت الارض الزراعية في عهد المماليك لا تزيد على مليون فدان وبعض المليون فلما تولى محمد علي مسحها سنة ١٨١٣ وأعطاها الى الفلاحين كما تقدم وأخذت مساحة ما يزرع منها يزداد حتى بلغت سنة ١٨٢١ نحو مليوني فدان متفرقة في المديرية على هذه الصورة نقلاً عن فيلكس منجن في كتابه المنشور سنة ١٨٢٣

فدان	
١٩٤١٥٠	منوف
٢٢٥٩٦٠	غربية
١٠٠٧٩٢	البحيرة
١٦١٢٠٤	الشرقية
١٥٥٨٦٠	المنصورة (الدقهلية)
٨٠٠٠٠	القليوبية
٨٥٩٠٠	الجيزة
٧٠٢٠٠	الفيوم
٥٥٠٠٠	الاطفيحية
١٦٦٤٦٠	بني سويف
١٤٨٣٤٠	المنيا
١٧٨٥٨٤	اسيوط
١٩٠٤٠٠	جرجا
١٤٣٩٩٠	اسنا
١٩٦٦٨٤٠	الجملة

ثم اخذت مساحة الارض الزراعية تتسع تدريجاً بالاسباب التي اتخذها محمد علي

من تحريض الناس على الزراعة وتسهيل الري حتى بلغ ما احتفروه من الترع نحو اربعين ترعة بين كبيرة وصغيرة مجموع مكعبها جميعاً ٦٦٢ ٣٦٦ ١٠٤ متراً مكعباً ناهيك بما بذله من العناية في انشاء الجسور والقناطر والسدود وغيرها . فلا عجب اذا بلغت مساحة الاطيان المزروعة التي كانت تأخذ عليها الحكومة الاموال حوالي سنة ١٨٤٠ ضعف ما كانت عليه قبل بضع عشرة سنة . واليك تفصيل ذلك عن كتاب الدكتور كلوت بك :

فدان	فدان
٣٠٠٠٠٠	منوف
٤٥٠٠٠٠	الغربية
٢٤٥٠٠٠	البحيرة
٣٦٠٠٠٠	الشرقية
٣٢٠٠٠٠	المنصورة
٢٩٠٠٠٠	القليوبية
٢٥٤٠٠٠	الجيزة
١٢٤٠٠٠	الفيوم
١٤٨٢٠٠	بني مزار
١٣٩٤٠٠	بني سويف
١٥٢٨٠٠	المنيا
١٦١٠٠٠	الفشن
٨٤٦٨٢٦	اسيوط وجرجا واسنا
٣٧٩١٢٢٦	(الجملة)

وبمقابلة مساحة اطيان كل مديرية على حدة بين ما كانت عليه سنة ١٨٢١ وما صارت اليه سنة ١٨٤٠ يتضح لك مقدار ذلك النجاح

ومن أعماله الادارية انشاء الدواوين ومنها ديوان المعاونة وقائده النظر في ما يعرض من الدواوين الاخرى والمديريات وسائر الجهات . ثم الديوان الحديوي وكان يقوم بأشغال ديواني الداخلية والخارجية والضابطة . ثم ديوان الاشغال وديوان المبيعات وديوان الفرده . ثم أنشأ بعد ذلك ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة المالية وما يتعلق بها وديوان الاوقاف وديوان المعامل وديوان التفتيش والحمامية والترسخانه والابنية وديوان المدارس . وجميع ذلك أو معظمه عهد بادارة أعماله إلى مديرين ورؤساء من أبناء هذا القطر وكلها ترجع بأحكامها إلى ديوان المعاونة

ثم أنشأ مجالس للقضاء وما يقتضي لها من القوانين والاحكام ورتب البريد يحمل على يد السعاة برّاً وبالسفن بحراً . وأنشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الاشارات بواسطة ابنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة بين البناء والاخر مسافة تكفي لفهم الاشارة لا يزال بعضها منها قائماً أثراً لهمة ذلك الرجل

وأنشأ لتأييد السلم وتوطيد الأمن فرقة الضابطة وفرقهم في أنحاء البلاد فأمن الناس غائلات السبل ولا سيما الأوربيون فانهم كانوا يقاسون في أثناء تجوالهم في القطر أهانات ومشاق جسيمة فأصبحت السبل في مأمن وتسهلت الصلات التجارية على الخصوص بين إنكلترا والهند على طريق البحر الأحمر فاستعاضوا بها عن طريق رأس الرجاء الصالح في أمور كثيرة

٢ - الإصلاح الزراعي

ولم تقف إصلاحاته عند هذا الحد ولكنه رأى خصب التربة المصرية وامكان استخدامها لغير أنواع المزروعات المعروفة بمصر فجاء إليها بالقطن البذار (التقاوي) الأميركي وجاء بنبات النيلة من جهات الهند ونبات الأفيون من آسيا الصغرى . وجاء بغير ذلك من أنواع المغروسات المفيدة وجاء باناس عالمين بكيفية زراعتها واستغلالها . واكثر من غرس الحدائق والاشجار في القاهرة وضواحيها لتلطيفاً لحرارة الهواء واستزادة للغيث - من جملة ذلك مغارس الليمون في شبرا والحدائق في الروضة وحديقة الأزبكية فقد كان في مكانها قبل أيامه بركة كبيرة يتصل إليها الماء من النيل أيام فيضانه وكان الناس يأتون إليها في المواسم والاعیاد في قوارب عليها الأنوار وسائر الزخارف فاحفر محمد علي حولها ترعة ينصرف إليها الماء فظهرت أرض البركة فجعل حول هذه التربة صفوفاً من الاشجار تحيط ببقعة كلها غرس طيب . أما الحديقة التي نراها الآن فهي من آثار الخديوي الاسبق اسماعيل باشا



ش ٥٨ : انقناطر الخيرية

ومن آثاره الزراعية السدود التي أقامها في أبي قير وترعة الفرعونية واشتوم الدية واشتوم الجليل وغيرها . وأنشأ كثيراً من الجسور والترع ونظر في تطهيرها

وأنشأ الترعة الصيفية لانماء الزراعة الصيفية وأبدل الخول بالمهندسين في أعمال الري وبعث كثيراً من أبناء البلاد إلى أوروبا لدرس فن الزراعة واتقانه لخدموا بلادهم به

ومن مشروعاته الخطيرة من هذا القبيل القناطر الخيرية القائمة عند رأس الذلث والسبب في بنائها انه رأى النيل لما يصل إلى رأس الذلث ينقسم إلى فرعين هما فرعا رشيد ودمياط أو الفرع الغربي والشرقي ورأى ان الغربي اكبرها ويعر في بقاع معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب كثير من مائه هدرأ والشرقي يخرق ارضين واسعة



ش ٥٩ : لبنان باشا مهندس انقناطر الخيرية

الارعاء حسنة التربة فاذا كانت أيام التحاريق لا يبقى من مائه ما يكفي للري فأراد اتحاد وسيلة ينتفع بها بما يزيد من ماء الفرع الغربي باضافته إلى الشرقي . ورأى الصعيد في زمن التحاريق يشح فيه الماء لارتفاع أرضه وقد لا يرتوي جيداً إلا في زمن الفيضان فأقر على بناء قناطر على عرض الفرعين عند أول تفرعها عند رأس الذلث وأن يجعل لهذه القناطر أبواباً من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء فاذا أقفل قناطر هذا الفرع انصرف جانب من الماء المنحدر اليه إلى الفرع الآخر فيستطيع صرف المياه كيف شاء وإذا كان الفيضان قليلاً يقلل قناطر الفرعين جملة فيرتفع الماء في الصعيد فيروي أرضه ثم لا ينصرف منه إلا ما يلزم لري الوجه البحري فاذا كانت أيام التحاريق تفتح القناطر فتفيض المياه والارض في حاجة اليها

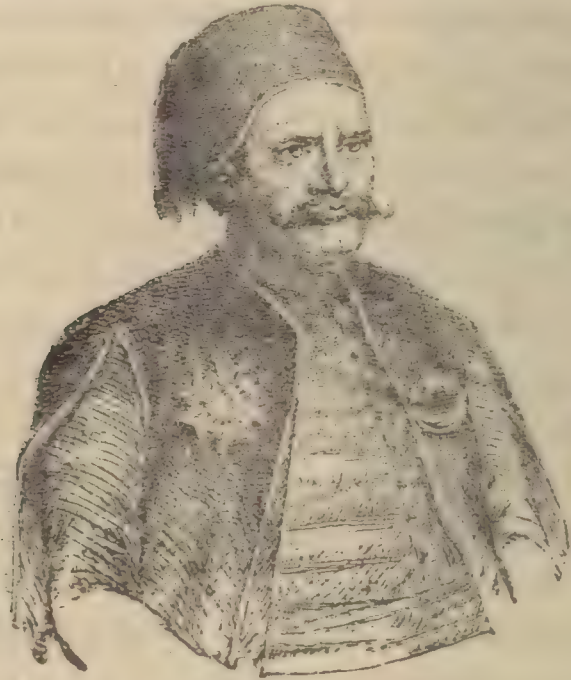
فباشر هذا العمل الخطير ولم يضع الحجر الاول منه إلا عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) ولم ينتن عن عزمه حتى أتم بناءً بدرية لبنان باشا المهندس الفرنسي . غير ان ذلك المشروع لم يأت بالفائدة المطلوبة تماماً بما يتعلق بارتفاع الماء في الصعيد ولكن الحكومة جمعت همها في السنين الأخيرة اصلاح ما هو فاسد منها وسد ما فيه من الخلل

٣ - الاصلاح العسكري

كانت القوة العسكرية في مصر لما تولاها محمد علي اخلاطاً من الالبانيين (الاناؤوط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية ومن جرى مجراهم ونظامهم الحربي النظام القديم الذي كان متبعاً في الازمنة السالفة عند الدولة العلية قبل القرن الماضي . فرأى رحمه الله أن يدرّبهم على النظام الفرنسي الذي اتبعه بونابرت في غزواته وأخذته عنه دول اوربا . فحاول ذلك مراراً فعظم على رجاله ولا سيما الاناؤوط وعصوا أوامره فيه لانهم اعتبروا ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . ولما ألحّ عليهم ثاروا وتجمهروا إلى القلعة يطلبون الرفق بهم فرأى من الدراية والحزم أن يعاملهم بالحسنى فأجابهم إلى ما ارادوا وأخذ يدخل ذلك النظام رويداً رويداً بالحيلة فانتخب قتياناً كان قد قبض عليهم في جملة ما قبضه من اموال المالك الذين ذبحهم وكان قد جعل أولئك القتيان من حراسه واستبقى صفارهم في القلعة يتربون فيها على جاري العادة من تربية الغلمان المالك في ذلك العهد استعداداً للخدمة العسكرية أو غيرها . فكانوا يحفظونهم القرآن ويعلمونهم الخط واللغة التركية والرياضة البدنية

فاما عزم على تنظيم الجند انتخب أكبر أولئك المالك وأرسلهم إلى الصعيد يتعلمون النظام العسكري الحديث على أساتذة من الافرنج . وعلم ان هؤلاء التلاميذ لا يلبثون أن يصيروا جنداً فتفرغ أماكنهم من تلك المدرسة فأنشأ في قصر العيني بمصر القديمة سنة ١٨٢٥ مدرسة اعدادية سهاها المدرسة التجهيزية الحربية أدخل فيها نحو ٥٠٠ غلام بعضهم من صفار المالك والبعض الآخر من أبناء الاتراك والاكراذ والالبانيين والارمن واليونان وغيرهم ممن كانوا في خدمته وليس فيهم وطني . فكانوا يعلمونهم القرآن والنحو وآداب اللغة التركية والفارسية والعربية واما لغة التعليم فهي التركية . ونظراً لانهم ينوون ادخالهم المدرسة الحربية فكانوا يعلمونهم مبادئ الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الايطالية لان أكثر أساتذة المدرسة الحربية كانوا يومئذ من الايطاليين

واستبقاً محمد علي ثمار هذه المدرسة لرغبته في سرعة تنظيم الجند فأوفد جماعة من أولئك المالك الى ليفورن وميلان وفلورنسا ورومية لدرس الحركات العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها من الفنون الحربية - أشار عليه بذلك الاساتذة الايطاليان . ثم أرسل غملماناً آخرين الى انكلترا لدرس الميكانيكات وسلك الاجر ونواميس السائلات . ولما تحقق فوزه بتنظيم الجند احس بحاجته الى مدرسة طبية تخرج الاطباء لمعالجة الجند فأنشأها سنة ١٨٢٥ واختار تلامذتها من الوطنيين أبناء الارياض أو تلامذة الازهر خلافاً للمدرستين التجهيزية والحربية وسياً ذكرها



ش ٦٠ : سليمان باشا الفرنسي

وتعجيلاً لثمار سعيه في اعداد الجند المنظم وأطبائه أوفد سنة ١٨٢٦ اربعين من تلامذة المدرستين التجهيزية والطبية الى فرنسا لاتقان الفنون الحربية والطب والادارة الملكية والعسكرية وغير ذلك مما يحتاج اليه في ادارة حكومته ويقتصر فيه الى استخدام الافرنج لاقتصار الوطنيين الى ذلك الحين على درس العلوم الازهرية وهي يومئذ قاصرة على العلوم الدينية واللسانية وأنشأ مدرسة للطبجية وجعل في القاهرة معامل لسكب المدافع واصطناع سائر حاجيات الجند

والفضل في تدريب الجند على النظام الجديد راجع لفائد من قواد فرنساويين اتسمه الجزال « سيف » ولكنه أسلم ودعى نفسه سليمان باشا وقد خدم الحكومة المصرية خدمات صادقة في حروبها ببر الشام وغيرها

وأصله من ليون في فرنسا وُلد سنة ١٧٨٧ وسمي يوسف سيف وكان أبوه متوسط الحال يتعاطى الصناعة فلما بلغ يوسف أشده أراد والده ان يستعين به في أعماله ولكن الغلام كان يشعر بأنه أرفع من ذلك المكان فضلاً عن ميله الفطري الى التنقل فلم يستطع المواظبة فشق ذلك على أبيه فتوعدده اذا لم يثابر على العمل بأن يدخله في سلك الملاحة عقاباً له فكان ذلك موجباً لسروره فأدخله في مهنة البحرية سنة ١٧٩٩ وهو لم يتم السنة الثالثة عشرة من عمره فأعجبه جوب البحار وركوب الاخطار في سفن كانت الى ذلك العهد تسير بلا بخار . حتى كانت حروب ترافلغار سنة ١٨٠٥ بين الاسطول الانكليزي بقيادة الاميرال نلسون والشهير والاساطيل المتحدة لدول فرنسا واسبانيا تحت قيادة الاميرال فيلنوف واميرالين إسبانيين وكان الفوز للانكليز لكن صاحب الترجمة أظهر على صغر سنه أعمالاً تدل على استعداداته للشؤون الحربية . وكان المنتظر ان ينال في مقابل ذلك مكافأة تستحق الذكر فاتفق انه تخاصم وأحد رؤسائه وكان سيف عنيماً خشناً فجرتها المعاناة الى المضاربة فبدأ الضابط بضرب سيف ضربة جرحته فلم يستطع صبراً على ذلك فهم بالضابط وما زال يضربه حتى قيل كفى فقبض عليه فحوكم فحكم عليه بالاعدام وهو حكم عسكري لا مرد له

ولكن العناية سخرت له رجلاً من الاشراف اسمه الكونت بول دي سيغور يقال ان سيف كان قد أنقذه من الموت مرة فذكر له هذا الجليل فلما علم بالحكم عليه توسط في أمره فأنقذه وأرسله الى الجيش الفرنسي الذي كان إذ ذاك في ايطاليا

ولما شبت الحرب بين فرنسا والنمسا كان سيف في حملة الاسرى عند النمساويين وبقي مغترباً عامين حتى اذا كانت حملة نابليون الشهيرة على روسيا سنة ١٨٠٢ فكان سيف في حملة جندها وأظهر في أثناء وقائعها الهائلة بسالة أوجبت التفات نابليون الخصوصي حتى أراد ان يقلده نشان اللجيون دونور فدعاه اليه بهذا الشأن فأنس منه استخفافاً فحنق عليه وحرمه من ذلك الشرف . على انه ما لبث ان رقي في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونيل (أميرالاي) بعد رجوع تلك الحملة السيئة الحظ

ثم كانت الوقائع المشهورة التي قضت على رجل فرنسا (نابليون) بالاسر والتقي فقضى على الكولونيل سيف بالخروج من الجندية والانتطاع الى التجارة التماساً لتعيش

ولكن انى للجندي المحارب ان يساوم امرأة أو غلاماً على مبيع سلعة فيبيع صوته قبل ان تمام المبيعة وخصوصاً صاحب الترجمة فقد كان قليل الصبر على مثل ذلك فأنتت نفسه التجارة ولم يفلح فيها . وسمع في أثناء ذلك ان شاه العجم في حاجة الى ضباط حاذقين في تدريب الجند فكتب الى صديقه الكونت دي سيغور المتقدم ذكره يلتمس كتاب توصية منه الى الشاه فنصح له الكونت ان يتوجه الى محمد علي باشا بمصر

فجاء مصر سنة ١٨١٩ ومعه كتاب توصية فأحسن محمد علي باشا مقابلته وكلفه بالبحث في جهات السودان عن معادن فخ الحجر ولكنه لم يعثر على شيء منه فعاد الى القاهرة واتفق وصوله اليها يوم الاحتفال بغلبة الجنود المصرية على الوهاية

وكان محمد علي قد شاهد الجنود الفرنسية بمصر وأعجبه نظامها وكانت الجنود المصرية عبارة عن فرق أو وجقات وفيها الارناؤوط والانكشارية والمغاربة ونحوهم والكل من هذه الفرق قائد فاذا زلوا ساحة الوغى ركب كل جواده واستل حسامه أو بندقيته أو رمحه وهجم على ما يترأى له

فقاوض محمد علي الكولونيل سيف في تنظيم الجند فرغبه فيه فعهد اليه تأليف الجند على هذه الصورة وتدريبه على الحركات العسكرية . وقد حارب سليمان باشا تحت علم الحكومة المصرية في المورة وسوريا وغيرها وتوفي بمصر سنة ١٨٦٠

وبنى محمد علي في الاسكندرية ترسانة أتى اليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية وأقام فيها مدرسة جاء اليها بالاساتذة من فرنسا وانكلترا وبني حوله الاسكندرية حصناً منيعاً وحصوناً أخرى في أماكن أخرى

٤ - الاصلاح التجاري

ولما أصلح الزراعة وكثرت حاصلات البلاد وجه التفاته الى تنشيط التجارة فأراد انشاء ميناء أمين تأوي اليه السفن التجارية فلم تعجبه رشيد ولا دمياط لحشونة مرساها فاختار الاسكندرية فاحتفر ترعتها الموصلة بينها وبين النيل ودعاها ترعة المحمودية نسبة الى السلطان محمود الثاني فكثر نقل البضائع فيها بين الاسكندرية وداخل القطر فاكتملت الاسكندرية بذلك أهمية كبرى وتقاطر اليها التجار من أماكن مختلفة من أوروبا وغيرها وأقيمت فيها البنايات الكبيرة على النمط الافرنجي ووجدت فيها الفنادق والنزل للغرباء . وأصلح مرفأ بولاق وغيره ووسع للاجانب في الاستيطان والاتجار فانتعشت التجارة وكثرت العلائق وعاد كل ذلك بالنفع الجزيل . وتوطيداً لأعماله هذه أنشأ مجلساً تجارياً مؤلفاً من الوطنيين والاجانب للحكم في القضايا التجارية

حاصلات البلاد

قد رأيت أن محمد علي عهد بالاطيان المهمة الى رجاله ليزرعوها ويستغلوها فاشتغل هو في تصريف حاصلاتها فاحتكر غلات هذا القطر ومصنوعاته وتولى بيعها رأساً للتجار السوريين والافرنج واليونان والارمن . وكان يلاحظ سعر السوق ويهتم به مثل اهتمام سائر التجار في الاسعار . وكثيراً ما كان يربح الارباح الفاحشة وقد يخسر تبعاً لحال السوق وكان يبيع البضاعة تسليم الاسكندرية فينقلها هو على نفقته في أثناء الفيضان على السفن . وكان له في بولاق وكالات لحزن الاقطان والسكر والكتان والحناء التي ترد من الارياض وعلى تلك الخازن وكلاء لا يسلمون منها شيئاً الا بأمر الباشا . وكان يتجر أيضاً بالتبر والعاج وغيرهما من واردات السودان وأصناف اخرى كثيرة . ناهيك بارباج الجمارك وما يرد على مصر من تجارات أخرى . وكان يدون ارباحه من هذه التجارة في دفاتر حكومته . واليك ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١ وفيها أصناف التجارات ومقدار ارباحها وكيفية الاتفاق منها وغير ذلك :

ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١

الدخل	كيس	قرش
مال الميري	١٣٢٣٠	١٣١
ارباج الاتجار بالمقطن والشع والسكر والكتان والنيلة والعسل والحناء وماء الورد وبزر الكتان والسمن والقرطم وغيره	٢١٠٠٠	
أرباح المنسوجات الحريرية والقطنية	٢١٠٠٠	
» من مبيع الجلود	٨٠٠٠	
» » » الحصر	١٢٠٠	
» » » الرز	١٣٢١٢	٢٥٠
» » » النظرون	٦٠٠	
» » » الصودا	٩٠٠	
» » » ملح النشادر	٢٨٠	
» » » القصب (خيوط الذهب)	٤٥٠	
» جمرك السويس	٥٠٠٠	

١٨	ارباج جمرك القصير
٢٠٠	عوائد بضائع سنار
٢٦٠	» » » تجارة دارفور في اسوط
٥٠٠	» » » » في مصر القديمة
٣٠٠٠	» » » » في بولاق
٣٦٠٠	» » » » في دمياط
٥٠٠	» » » » في ترعة المحمودية
٢٥٠٠	» » » » في الاسكندرية
٣٥٠٠	» » » » على النقود
٥٠٠٠	ضمان الملح والمشروبات
٣٢٠	» المذبح
٧٥٠	» عوائد الخمة
١٢٠	» السناء
٨٠٠	أثمان الاسماك في المنزلة
١٥٠	ضرائب بيع الاسماك بمصر وبولاق
٥٠	» » » الحيوانات في امبابه والرميلة
٣٠٠	» » » على الرقاصات والمشعوذين وغيرهم
٢٠٠	عوائد التوارث
٦٠٠	» المعديات
٢٠٠	أجرة نقل البضائع
٣٥٠	قبالة المشروبات بالصعيد
١٤٠٠	عوائد الاسواق والوكالات في الصعيد وغيره
١٠٠٠٠	» التخييل
٧٢٠	» ادخال الحبوب للقاهرة
٢٣٩٩٤٠	(جملة الدخل)
كيس	اخراج
١٠٠٠٠٠	نفقات الجند

١٢ ٠٠٠	المرسل الى الاستانة
١٥ ٠٠٠	على المعامل وأجرة العمال
١٦ ٠٠٠	أجرة الموظفين الملكيين
٦ ٠٠٠	نفقات على الملزمين
١٨ ٠٠	» الجوامع والمدارس الخ
١٢ ٠٠	مرتبات الملزمين
٢٤ ٠٠٠	نفقات بيت محمد علي باشا وأولاده
١٠ ٠٠٠	هدايا من المشايخ للعربان الخ
١٧ ٠٠	نفقات الحج
٣ ٠٠	» الكسوة
١٤ ٠٠	» على وادي الطملات للغرس وغيره
١٨٩ ٤٠٠	(جملة الخارج)

وكان ينفق الباقي في بناء الشكنات والمعامل والمنازل وغيرها . ولعمرة حقيقة قيمة هذه المبالغ ينبغي تحويلها الى الفرنكات والسكيس يومئذ عبارة عن ١٥٠ فرنكا فيكون دخل الحكومة المصرية سنة ١٨٢١ نحو ٣٦ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنكا نحو ثلثها من الارباح التجارية . ونشر الدكتور كلوت بك ميزانية كهذه عن سنة ١٨٣٣ كان مجموع الدخل فيها ٦٢٧٨٧٥٠ فرنكا منها نحو ١٥ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنكا من التجارة . وبلغ الخارج ٤٩ ٩٥١ ٥٠٠ فرنكا ثلثها لنفقات الجيش

ومن أعوان محمد علي في المسائل المالية والتجارية بوغوص بك الارمني المتوفى سنة ١٨٤٤ وقد ترجمناه في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق الطبعة الثانية

٥ - الاصلاحات الصناعية

أما الاصلاحات الصناعية فكثيرة ولكن لم يبق منها الى الآن الا آثاراً بالية مع ما توهاه رحمه الله من انشاء المعامل واستجلاب الصناع من أقطار أوروبا فانه أنشأ في هذا القطر معامل عديدة لمعالجة القطن والتيلة واصطناع الطرايش التونسية والورق والغزل وأنواع الاقمشة من الحرير والسكتان والقطن والصوف في سائر جهات القطر ومعامل الاسلحة على أنواعها وغيرها . أما سبب جبوط معظم تلك المعامل فعائد الى عدم وجود معادن الفحم الحجري في القطر المصري

٦ - الاصلاحات الصحية

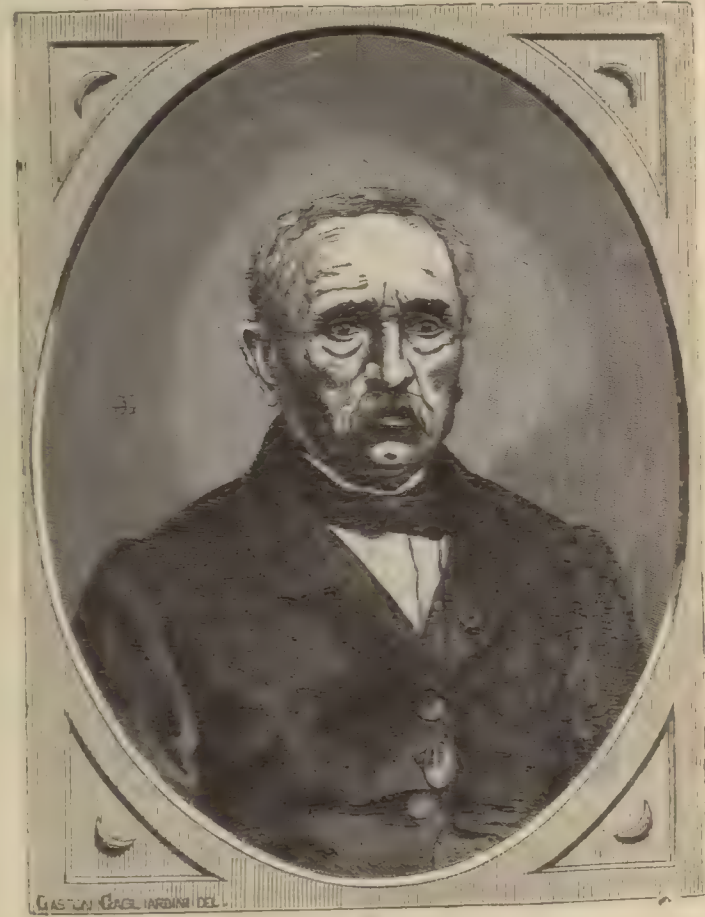
رأى ذلك الرجل العظيم أن البلاد في احتياج كلي لهذه الاصلاحات لانتشار التدجيل والتطبيب بالكتابة والحجاجة وما شاكل فاستقدم أحد مشاهير الاطباء الفرنسيين واسمه الدكتور كلوت (ثم صار كلوت بك) واليه ينسب شارع كلوت بك في القاهرة . فأنشأ المدارس الطبية والمستشفيات وفي مقدمتها المدرسة الطبية في قصر العيني (وكان هذا القصر قبلاً مسكناً لابراهيم بك الكبير من أمراء المماليك)



ش ٦١ : بوغوص بك أحد أعوان محمد علي في المسائل المالية

يدرس فيها الطب والجراحة ومدرسة أخرى في فن القوابل ومستشفى كبيراً في أبي زعبل (قرب المطرية) وأنشأ مجلساً صحياً ومدرسة بيطرية ورتب مستشفيات وأطباء للعساكر وأخرى للاهالي وعين أطباء لمراقبة الاحوال الصحية في المديرات وكان معوله في تلك الاصلاحات على الدكتور كلوت بك وهو فرنساوي الاصل واسمه الاصلي انطون برطلي كلوت وُلد في غرينوبل

بفرنسا سنة ١٧٩٣ م من أبوين فقيرين وربي في شظف من العيش وضيق ذات اليد وكان على صفه ولعاً بتشريح الحشرات ودرس طبائعها . وتوفي والده سنة ١٨١١ م بعد أن تزح الى برينول وكان له صديق اسمه الدكتور سايبه فلما عين ما في الغلام من المواهب على حاله من الفقر جعله مساعداً له يرافقه في أعماله الطبية ويتمرن في الجراحة وكان كلوت يطالع ذلك العلم بنفسه ساعات الفراغ حتى قرأ كتاب الجراحة



ش ٦٢ : كلوت بك مؤسس الاصلاحات الطبية بمصر

تأليف (لافه) ثم رأى أن برينول لصغرها لا تنفي بما تجمع اليه نفسه ولا زوي مطامعه فزح الى مرسيليا رغم ارادة والدته التي كانت كثيرة التعلق بولدها هذا لانه كان وحيداً لها ولكنه أصر على عزمه وضغط على عواطفه طلباً للعلی وسعيّاً وراء العلم

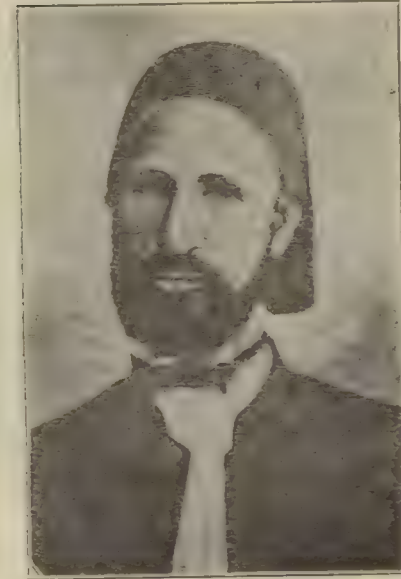
وهو لا يملك الا بعض الدرهمات وشيئاً من الثياب على أنه لم يلاق في مرسيليا الا الحية فحدثته نفسه أن يسافر في سفينة جراحاً لبحارتها ويتحمل مشاق الاسفار وأخطارها سداً لعوزة وهو في التاسعة عشرة من سنه فلم يقبله ربانها وكان ذلك لحسن حظ المترجم لان السفينة غرقت في ذلك السفر فاضطره العوز لتعاطي مهنة الحلاقة فصار يختلف الى حلاق يعالج بالفصد والجراحة الصغرى . ثم عاد الى بلده ودخل المستشفى بعد عناء وتكرار الالتماس واكب على الدرس والمطالعة حتى نبغ بين أقرانه . وفي سنة ١٨٢٠ نال شهادة الدكتورية فعاد الى مرسيليا وعين طبيباً ثانياً بمستشفى الصدقة ومستشاراً جراحياً بمستشفى الايتام فم به بعض ذوي الحمد فاقيل من منصبه ولكنه لم يسع في الانتقام بل تضاعفت همته في العمل

وفي سنة ١٨٢٥ اجتمع به المسيو تورنو وكان تاجراً فرنسواً من نزالة مصر بعث به المغفور له محمد علي باشا لاختيار من يليق بمنصب طبيب لحيشه فحب اليه المسير الى مصر في ذلك المنصب فقدم عن طبيب خاطر فرأى أمامه باباً واسعاً للعمل لما علمت من حاجة البلاد الى الاصلاح الطبي فاخذ يعمل ليله ونهاره مفكراً في الوسائل المؤدية الى المراد . وكان محمد علي باشا يركن اليه ويثق برأيه ويحب مطالبه فأسس أولاً مجلساً صحياً ليستعين بأعضائه على الاجراء والتنفيذ وبث الوصايا الصحية فرتبه على مثال المجالس الصحية الفرنسية ولا تمام النظام العسكري أنشأ المستشفيات العسكرية ومصلحة الصحة البحرية . ولا يخفى ان المستشفيات تحتاج الى عملة من الاطباء والتومرجية وغيرهم ولم يكن في مصر شيء من ذلك فاضطر ان يعلم كلا من هؤلاء واجباته من التطبيب وملاحظة المرضى وغير ذلك . وأشهر المستشفيات التي بنيت بناء على اشارته مستشفى ابي زعبل وأنشأ في المستشفى إستانا للتيات

وفي نحو ١٨٢٦ م أسس المدرسة الطبية في تلك القرية أيضاً أراد بذلك ان لا يقتصر الطب على الجيش بل يتعلمه أبناء البلاد حتى يفيدوا أبناء جلدتهم بتطبيهم وتعليمهم . وكان في البنين الاولى من تأسيس هذه المدرسة هو وحده يلقي الدروس بواسطة المترجمين تسهيلاً لفهمها فترجمت كتب عديدة إذ ذلك وفي جملتها قاموس نستين الطبي وغيره من كتب الطب والجراحة والعلوم الطبيعية . وما كان عقبة في طريق التشريح العملي ان تشريح جثث الموتى كان أمراً منكراً في عيون المشاركة فبذل كلوت جهده حتى أيسح له التشريح سرّاً على ان ذلك لم ينجه من غضب الاهالي

عليه حتى ان احدهم جاءه يريد قتله خلسة بنحجر ولكنه لم يفر
وفي سنة ١٨٣٢ سار الدكتور كلوت بك في ١٢ تلميذاً من تلاميذ مدرسته هذه
لامتحانهم في باريس فامتحانهم الجمعية الطبية العلمية فحازوا استحسانها وأظهروا كل
نجابة وذكاء وبراعة . وهالك أسماء هؤلاء التلاميذ :

احمد الرشيدى	حسين المهياوي
حسن الرشيدى	عيسوي التجرأوي
محمد منصور	مصطفى السبكى
ابراهيم التبرأوي	محمد الشباصى
محمد السكرى	محمد علي البقلى
محمد الشافعى	احمد نجيت



ش ٦٣ : محمد علي باشا البقلى الجراح الشهير احد تلامذة الارسالية

وقد كان نجاح هؤلاء المصريين في امتحانهم موجياً لسرور استاذهم كلوت بك
سروراً زائداً لانهم سيكونون له عوناً في نشر الفوائد الطبية والصايا الصحية في
هذه الديار وقد نبغ منهم غير واحد بالتأليف والتطبيب والجراحة وغيرها وترجمت
بعضهم في الهلال أو مشاهير الشرق

وفي سنة ١٨٣٧ نقلت المدرسة الطبية من أبي زعبل الى القاهرة وهي المعروفة
بمدرسة قصر العيني . ثم أنشأ فيها فرعاً لدرس فن القبالة يتعلمها النساء لان عوائد
المشاركة لا تسمح بولادة النساء على أيدي أطباء من الرجال وأنشأ هن مستشفى خاصاً
بهن وكان لهذه الخدمة فائدة عظيمة خصوصاً لان النساء لمباغتهن في التحجب لا يؤذن
للطبيب بمساعدتهن في الولادة ولا الكشف عليهن في تشخيص بعض الامراض .
فكم كان يموت منهن لنقص المعالجة

٧ - الاصلاحات العلمية

أما الاصلاحات العلمية فلا تقل أهمية عما تقدم لانه ألف مجلساً للمعارف العمومية .
قصد به تعليم خدمة الحكومة المالكين والجهاديين ما يؤهلهم القيام بمهام أعمالهم وفتح
مدارس كثيرة لتعليم الشبان من أهل البلاد وبعث بعضاً منهم الى أوروبا لاتقان الدروس
على مثال الارساليات العلمية بعد ذلك . وبلغ عدد التلامذة الذين أرسلوا الى أوروبا
في زمن محمد علي ٣١٩ تلميذاً أنفق عليهم ٢٢٤٠٠٠ جنيه

وكان غرضه من الارساليات على الغالب تخريج شبان في الفنون العسكرية
والاقتصاد والميكانيكات والطب والتعدين والترجمة . وقد نشرنا أسماء تلامذة احدى
الارساليات ومواطنهم والغرض من تعليمهم في السنة ١٥ من الهلال (صحيفة ٢٢٠) .
وكانت المدارس المصرية في أول أمرها تابعة للعسكرية فاعتنم رجوع جماعة من
طلبة احدى الارساليات من أوروبا سنة ١٨٣٦ وأنشأ مجلساً خاصاً بالمدارس سماء ديوان
المدارس برئاسة مختار بك أحد الطلبة القادمين من أوروبا وهالك أسماء أعضاء ذلك المجلس .

كلوت بك	رفاعة بك
كياي بك	يومي افندي
ارتين بك (والد يعقوب باشا ارتين)	لامبر
هكيكيان بك	هامون
وارين بك	دوزول (سكرتير)

فترى أن بعض هؤلاء الاعضاء من أبناء المصريين والارمن ممن تخرجوا في
مدرسة باريس والبعض الآخر من الفرنسيين . فلاتغرو اذا ساروا في التعليم على
طرق فرنساوية ونشطوا اللغة فرنساوية . وكان من جملة ما حملوه معهم من أوروبا أو
تولد فيهم بعد الاطلاع على تواريخ الأمم أن ينشئوا في مصر دولة اسلامية عربية .
تقابل الدولة الاسلامية التركية وكانت الحرب قائمة بينهما في الشام وما وراءها

فلما تألف ديوان المدارس وتحقق أعضاؤه حاجة الجيش الى ضباط لم يروا مندوحة عن الاستعانة بالوطنيين فاستأذنوا محمد علي في الاكثار من المصريين في المدارس وكانوا الى ذلك الحين لم يدخلوا منهم الا عدداً قليلاً فاذن لهم . فانشأوا مدارس ابتدائية وثانوية في أنحاء القطر المصري على نمط المدارس الفرنسية . وهذه العلوم التي كانوا يعلمونها فيها :



ش ٦٤ : مختار بث أول ناظر لمعارف بمصر

القرآن	مبادئ الحساب
الخط	» التاريخ
اللغة العربية	» الجغرافيا
» التركية	الرسم
» الفرنسية	

ونظراً لتغلب العنصر العربي في هذه المدارس جعلوا التعليم كله في اللغة العربية واستقدموا لها الاساتذة في بادىء الرأي من تلامذة الازهر لتعليم القرآن واللغة واستعانوا بالمتقاعدين من ضباط الجيش القديم المتخرجين في أوربا لتعليم مبادئ

العلوم ثم نشأت طائفة من الاساتذة المبرزين في العلم - على أن روح الازهر ظلت سائدة عليها كلها مدة طويلة

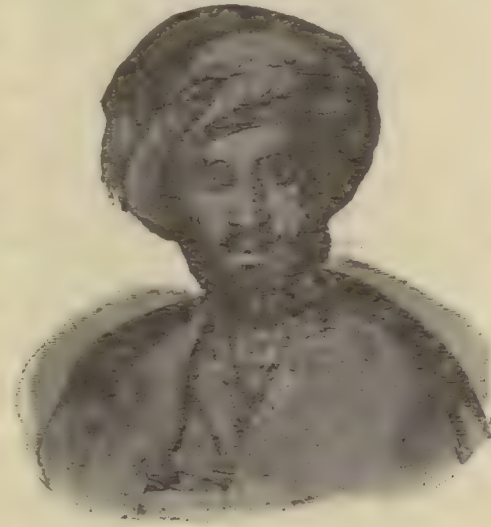
ولم تمض بضع سنوات حتى أصبحت المدارس التابعة لديوان المذكور سبعين مدرسة منها ١٦ مدرسة كبرى وهي :

١٨٢٤	سنة	تأسست	مدرسة الموسيقى العسكرية
١٨٢٥	»	»	المدرسة الحربية في قصر العيني
١٨٢٧	»	»	مدرسة الطب والصيدلة
١٨٢٩	»	»	» الكيمياء العملية
١٨٣١	»	»	» المشاة
١٨٣١	»	»	» الفرسان
١٨٣١	»	»	» الطبجية
١٨٣١	»	»	» البحرية
١٨٣١	»	»	» طب الحيوان
١٨٣٤	»	»	» التعدين
١٨٣٤	»	»	» الهندسة
١٨٣٧	»	»	» الزراعة
١٨٣٧	»	»	» الولادة
١٨٣٧	»	»	» الادارة الملكية والحسابات
١٨٣٧	»	»	» اللسن والترجمة
١٨٣٩	»	»	» الصنائع والفنون

وبلغ عدد التلامذة في المدارس كلها نحو ٩٠٠٠ تلميذ تنفق الحكومة على تعليمهم ولبسهم وطعامهم وسكنهم . والسبب في مكابذتها الاتفاق عليهم ان معظمهم في الاصل من غلمان الممالك فهم ملك الحكومة وهي بالطبع مكلفة باعاليتهم . فلما استكثر من الحكومة من التلامذة الوطنيين عاملتهم تلك المعاملة فجعلت تعليمهم مجانياً . ولم يكن لها بد من ذلك لانهم كانوا يدخلون تلك المدارس رغم ارادتهم وهم يكرهون التعليم فيها كما كانوا يكرهون الجندية . وظل ذلك شأن التعليم بمصر الى آخر أيام محمد علي سنة ١٨٤٨

المدرسة المصرية في باريس

ولما افضت ولاية مصر الى ابنه ابراهيم توقع اناس تغييراً في التعليم لانه كان قد أعدّ اصلاحاً مهماً على أثر رحلته في أوروبا ولكن الاجل عاجله قبل مباشرة العمل . وكان ديوان المدارس قد نظر منذ تأسيسه سنة ١٨٣٦ في التعليم العالي وقرر عجز مصر عن القيام به لسببين : الاول خلوها من أساتذة قادرين على تدريس العلوم العالية . والثاني خلو اللغة العربية من الكتب اللازمة لهذه العلوم - ولهذين السببين قررت الحكومة الاستمرار على ارسال التلامذة الى أوروبا للتخرج بالعلوم العالية . ولكنها أصبحت لا ترسل غير النجباء المتخرجين من المدارس الكبرى . ولم يكن بد



ش ٦٥ : رفعه بك اول ناظر لمدرسة اللسان والترجمة

للتلامذة المشار اليهم من معرفة لغة البلاد التي سيتسولون علمهم في مدرستها فأنشأوا لهذه الغاية مدرسة مصرية في باريس يديرها رجل مصري اسمه اسطفان بك معه وكيل ارمني اسمه خليل افندي جراكيان . واما الاساتذة فعينتهم نظارة الحرية الفرنسية من ضباط جندها

فأرسلت الحكومة المصرية الى هذه المدرسة نحو اربعين طالباً فيهم جماعة من أمراء العائلة الخديوية وفي جملتهم البرنسان حليم وحسين أبناء محمد علي والبرنسان احمد واسماعيل (الخديوي) أبناء ابراهيم . واتفق ان ابراهيم باشا مرّ بتلك المدرسة في أثناء سياحته بأوروبا ومعه سكرتيره نوبار باشا فأعجب بنجاحها من حيث التعليم .

ولكنه انتقد تقصيرها في التربية لان التلامذة كانوا يرسلون اليها وهم في حدود الشباب فارتأى ان يأتوها وهم صغار بين الثامنة والتاسعة من العمر ليتعلموا ويتشققوا معاً . وعزم انه حالما يرجع الى مصر يأمر رجاله جميعاً بارسال أولادهم الى هذه المدرسة وهم احدث . ولكن المنية عاجلته والثورة الفرنسية آلت الى اقفال المدرسة سنة ١٨٤٨

المطبعة الاهلية

وانشأ محمد علي المطبعة الاهلية في بولاق على انقاض مطبعة أتى بها بونابرت معه لما أتى لفتح مصر كما تقدم فلما خرجوا منها سنة ١٨٠١ أهملت تلك المطبعة ولم يلتفت أحد اليها حتى تولى عرش الحكومة المصرية سنة ١٨٠٥ المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية وعمل على اصلاح هذا القطر وكان في جملة مساعيه العلمية احياء هذه المطبعة وتجديدها . فاستحضر لها العدد والحروف واستخدم العمال من أوروبا وسوريا فأداروها واصطنعوا حروفاً جديدة تشبه حروفها الاصلية من وجه وتختلف عنها من وجه آخر . وهي قاعدة حروف بولاق المشهورة وقد طبعت بها كتب جمّة طيبة وتاريخية ودينية ما لا يحصى ولا يعد . وفي شهرة مطبعة بولاق

منها ما يغني عن تعداد فضائلها

واما الذي اصطحق قاعدة تلك الحروف فجماعة من عمالها يومئذ لم نطلع الا على اسم واحد منهم وهو الياس مسابكي من أهل دمشق الشام . وكان في جملة حروف بولاق قاعدة فارسية جميلة أهملت الآن وأمر بترجمة كثير من الكتب المفيدة في التركية والعربية والفارسية وانشأ الجريدة المصرية الرسمية (الوقائع المصرية) وديوان المهندسخانة وغير ذلك

صفاته ومناقبه

كان محمد علي متوسط القامة عالي الجبهة اصلعها بارز القوس الحاجبي أسود العينين غيرهما صغير الفم باسمه كبير الانف متناسب الملامح مع هية ووداعة . أبيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة . جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة . اذا مشى يجعل يديه متصالبتين وراء ظهره غالباً وعلى الخصوص اذا مشى في داره مفكراً في أمر وكذلك كان يفعل بونابرت . وقلمها كان يفاخر باللباس فكان لباسه غالباً على زي المالك يلبس العامة أو الطربوش . وأبدل

اللباس العسكري في أواخر أيامه بلباس واسع بسيط لا يمتاز به عن بعض أتباعه وكان يكره التفاخر بالحاشية فلم يكن على بابيه إلا رجل واحد يخفّره . وإذا استوى في مجلسه لا يتقلد السلاح بل يجلس وفي يده حقة العطوس والمسبحة يتلاهي بها وكان يحب ألعاب البليارد والداما ولا يأنف من مجالسة صغار الضباط . وأما جلسائه العاديون فالفنّانين وكبار السياح وكانوا يحبونه ويحترمونه ويلقبونه بمسيد الممالك أو مصلح الديار المصرية . وكان سليم القلب مع دهاء وسياسة سريع التأثر لا يعرف الكظم فكثيراً ما كان ينقاد بدسائس المفسدين . وكان كريم النفس سخّي العطاء وفي



ش ٦٦ : محمد علي باشا بالظربوش

بعض الأحوال مسرفاً . وكان يتفاخر بعصاميته ويرتاح للتكلم عن سابق حياته . وكان محباً للاطلاع ولا سيما على الأخبار السياسية وكان يحل الجرائد ويعتقد تأثيرها في الهيئة الاجتماعية فكانوا يترجمونها له فيطالعها بتمعن أما هواجسه السياسية فكانت تقلق راحته فلا ينام إلا يسيراً وقلما يرتاح في نومه ولا ينفك متقبلاً من جانب إلى آخر فكان يجعل عند فراشه اثنين من خدمته يتناوبان اليقظة لتغطيته إذا انكشف عنه الغطاء من القلب . ويقال إن من جملة دواحي أرقه الشبهة المرجفة التي كانت تتردد إليه كثيراً وكان قد أصيب بها في حملته على الوهابيين على أثر رعب شديد . على أن ذلك الأرق لم يكن يضعف شيئاً من سرعة حركته فكان

يستيقظ نحو الساعة الرابعة من الصباح ويقضي نهاره في المشاغل المختلفة بين مفاوضة مع ذوي شؤراه أو مراقبة استعراضات العساكر أو استطلاع أمور أخرى تتعلق بمصالح الأمة . وكان بارعاً في الحساب بغير تعلم لأنه شرع بتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والأربعين من عمره . ويقال إنه ابتداءً يتعلم أحرف الهجاء على أحد خدمة حريمه والكتابة على أحد المشايخ وهذا ما يزيد شرفاً وفخراً ويبرهن على ما فطر عليه من قوة الإدراك والحدائق والمقدرة على المهام السياسية . وكان صارم المعاملة مع لين ورقة وحسن أسلوب . وكان متمسكاً بالاسلام مع احترام التعاليم الأخرى ولا سيما التعاليم المسيحية فكان يقرب أصحابها منه ويعهد إليهم أهم أعماله

ويقال إنه كان بالاجمال أباً حنوناً لرعيته وصديقاً مخلصاً ونصيراً مسعفاً لذوي قرياه وأباً حقيقياً لأولاده ولذلك تراه بعد أن أصيب بفقد أكثرهم غلب عليه الحزن حتى أثر في صحته تأثيراً رافقه إلى اللحد . أما حبه للرعية فلا يحتاج إلى دليل فهذه الديار المصرية عموماً إذا قصرت السنة أهلها عن تعداد ما تراه ينطق حمادها بمزيد فضله . هذه الترع والجسور والبنائات والشوارع والجنان . هذه المطابع والمدارس . هذه المنظمات الجهادية والملكية والقضائية . هذه الزراعة والفلاحة . هذه شبه جزيرة العرب تردد ما لاقته من نجاته . وقد كان موضع احترام رعيته وذويه حتى الأجانب البعيدين منه وطناً ودينياً ومثرباً وكثيراً ما تقربوا إليه بالنياشين والهدايا اقراراً بفضله على العالم عموماً بتمهيد سبل التجارة بين أوروبا والهند على الخصوص.

ابراهيم باشا بن محمد علي

ولد سنة ١٢٠٤ هـ وتولى سنة ١٢٦٥ هـ



ش ٦٧ : ابراهيم باشا في آخر أيامه

هو نجل محمد علي باشا وقد تقدم في سيرة أبيه معظم سيرة حياته لأنها عملاً معاً في مصر وكان ابراهيم ساعد أبيه الأمين في فتوحه وسائر أعماله العسكرية . ولد في قواله عام ١٢٠٤ هـ ومال من صغر سنه للأعمال الحربية وفيه مواهب أعظم القواد يشهد بذلك ما أتاه من الأعمال العظمى في مصر والشام والمورة والسودان وغيرها مما فصلناه في ترجمة أبيه . وكان يعرف الفارسية والتركية والعربية وله اطلاع واسع في تاريخ البلاد الشرقية تولى الامارة المصرية بعد تنازل أبيه عام ١٢٦٥ فسار على خطواته سيراً حسناً وإن كان في الحقيقة يختلف عنه بمواهبه الأصلية . فقد كان ابراهيم صارم المعاملة صعب المراس شديد الوطأة كما يغلب أن يكون رجال العسكرية . وكان أبوه لين العريكة حسن السياسة ذا دهاء وحكمة . ولم يبق حكم ابراهيم الا ١١ شهراً وتوفي قبل والده وكان ربيع القامة متمتعاً الجسم قوي البنية مستطيل الوجه والاقف أشقر الشعر في وجهه أثر الجدري وكان كثير اليقظة قليل النوم . وكان نقش خاتمه «سلام على ابراهيم»

عباس باشا الاول

ولد سنة ١٢٢٨ هـ وتولى سنة ١٢٦٥ هـ وتوفي سنة ١٢٧٠ هـ



ش ٦٨ : عباس باشا الاول

هو عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ولد عام ١٢٢٨ هـ أو ١٨١٣ م وربى أحسن تربية وكان محباً لركوب الخيل فرافق عمه ابراهيم باشا في حملته الى الديار الشامية وشهد أكثر الوقائع الحربية وفي سنة ١٢٦٥ هـ تولى زمام الاحكام على الديار المصرية بعد وفاة عمه ابراهيم وكان على جانب من العلم والمعرفة لأن المرحوم جده كان يحبه كثيراً فاعتنى بتعليمه في مدرسة الخانكاه ومن مشروعاته المهمة الشروع في انشاء الخط الحديدي بين مصر والاسكندرية وتأسيس المدارس الحربية في العباسية ومد الخطوط التلغرافية لتسهيل سبل التجارة وغير ذلك

وكان له غلام يدعى البرنس ابراهيم الهامي كان على جانب عظيم من الجمال والذكاء

واللطف والمعرفة والعلم زار الاستانة سنة ١٢٢٠ هـ وتشرف بمقابلة السلطان عبد المجيد فأحبه وزوجه بابنته وعمره بنعمه. فرجع الى مصر حامداً شاكراً والمرحوم الهامي باشا هو والد ذات العفاف والعصمة حرم المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق ووالدة مولانا الخديوي عباس الثاني

وعباس باشا هو الذي وضع الحجر الاول لمسجد السيدة زينب بيده وقد كان لذلك احتفال عظيم حضره كثير من الاعيان ورجال الدولة وذبحت فيه الذبايح وفرقت الصدقات على الفقراء كميات كبيرة

وفي أيامه كانت بين الدولة العلية والروسين حروب فبعثت لتجدة الدولة حملة كبيرة سارت عن طريق بولاق في البحر وسار هو بنفسه لوداعها هناك وقبل ركوبها النيل نهض لوداعها فألقى في الجمهور خطاباً بليغاً منشطاً

وتوفي عباس باشا في شوال سنة ١٢٢٠ او يوليو سنة ١٨٥٤ م في قصره بمدينة بنها العسل ثم نقل ودفن في مدفن العائلة الخديوية في القاهرة

سعيد باشا

ولد سنة ١٢٢٤ هـ وتولى سنة ١٢٢٠ هـ وتوفي سنة ١٢٧٩ هـ

هو ابن محمد علي باشا وُلد في الاسكندرية عام ١٢٣٠ هـ (١٨٢٢ م) وكان محباً للعلم بارعاً فيه وعلى الخصوص في اللغات الشرقية والعلوم الرياضية وسلك الابحر والرسم وكان يتكلم الفرنسية جيداً. تولى زمام الاحكام عام ١٢٧٠ هـ او ١٨٥٤ م بعد وفاة عباس باشا ابن أخيه وكان مؤثراً للعدل والفضيلة مهتماً بالاصلاح الاداري. ومن أعماله المبرورة اتمام الخطوط الحديدية والتلغرافية بين اسكندرية ومصر والشروع في مد غيرها وتنظيم لوائح الاطيان واسترجاعها من المتعدين الى اربابها. وقد عدل الضرائب فجعلها عادلة ورنع كثيراً من الضرائب التي كان يتظلم منها الرعايا وزح ترعة المحمودية وفي أيامه تمت معاهدة ترعة السويس وقد نشطها تنشيطاً كبيراً واقام على طرفها الشمالي مدينة حديثة دعيت باسمه وهي بورت سعيد وغرس الاشجار في طريق المنشية

وفي السنة الثانية من توليه على مصر وضع الحجر الاول لأساس القلعة السعيدية عند رأس الدلتا فيما بين القناطر الخيرية تداعت أركانها الآن وقد عثرنا على قطعة فضية مستديرة قطرها قيراطان ونصف على أحد وجهيها رسم النيل عند تفرغه والقناطر

الخيرية يليها على الجانبين برجا القناطر وينتهي عند رأس الدلتا القلعة السعيدية وكل ذلك في أجمل ما يكون من الرسم. وعلى الوجه الآخر كتابة تركية تفيد « ان المغفور له سعيد باشا بن محمد علي باشا المشهور قد وضع أساس القلعة السعيدية وما يليها من الاستحكامات بيده في يوم الأحد ٢٣ جمادى الآخرة عام ١٢٧١ هـ لأجل حماية الديار المصرية » هذا نصها التركي :



ش ٦٩ : سعيد باشا

« قوله لى مشهور محمد على صلبندن بيك ايكيوز اوتوز يدي سنه هجريه سنه اسكندريه ده دنياه كلوب يتمش سنه سى شوال المكرمده خطه جسيمه مصره حكى جارى اولان محمد سعيد محافظه ام دنيا ايجون اشبو استحکامات قويه به بيك ايكيوز يتمش بر سنه سى جمادى الثانى بيكرمي اوجنچى دوشنبه كوفى ومولودينك اوتوز درنجى سنه سى كندى يديله وضع اساس ايتشدر »

وفي أيامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فبعث اليها واخذ الثورة فهدأت الاحوال. ولما اختلن نجه طوسون اطلق كل من كان في السجون من المجرمين حتى

القاتلين . وفي أيامه اعطيت بلاد السودان بعض الامتيازات وتولى عليها البرنس حليم باشا حكاماً . وفي عام ١٢٧٦ هـ او ١٨٥٩ م توجه لزيارة سوريا فمكث في بيروت ثلاثة ايام ونزل ضيفاً كريماً على وجهاء المدينة وكان في اثناء مروره في الطرقات ينثر الذهب على الناس .

وفي عام ١٢٧٨ هـ او ١٨٦١ م توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولى السلطان عبد العزيز . وفي يوم السبت ٢٦ رجب عام ١٢٧٩ هـ او ١٧ يناير ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا في الاسكندرية ودفن فيها

اسماعيل باشا

ولد سنة ١٨٣٠ وتولى سنة ١٨٦٣ وخلع سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٥



ش ٧٠ : اسماعيل باشا

(ترجمة حاله) هو اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير . وكان لوالده ثلاثة اولاد ذكور اكبرهم البرنس احمد (وُلد عام ١٨٢٥) ثم البرنس اسماعيل

(وُلد عام ١٨٣٠) ثم البرنس مصطفى (وُلد عام ١٨٣٢) وكان البرنس احمد من نوابغ الزمان ذكاء وفطنة كثير الشبه بوالده شكلاً وأخلاقاً ولكنه توفي في اثنى سني حياته بين الشباب والسهولة فاصبح صاحب الترجمة كبير أبناء ابراهيم

وربى اسماعيل باشا في حجر والده وتعلم وتشقف بحياطة جده لان جده رحمه الله كان قد أنشأ لاولاده الصغار واولاد اولاده الكبار مدرسة خصوصية في القصر العالي فيها نخبة من مهرة الاساتذة فتلقي صاحب الترجمة فيها مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية ونذراً يسيراً من الرياضيات والطبيعات . فلما بلغ السادسة عشرة من عمره بعث به جده مع ولديه المرحومين البرنسين حليم باشا وحسين بك والمرحوم البرنس احمد باشا مع ارسالية فيها نخبة من شبان مصر الاذكياء الى مدرسة باريس يتولى رياستهم وجيه ارمي اسمه اصطقان بك . فقصوا في تلك المدرسة بضع سنوات تلقوا بها العلوم العالية ثم عادوا الى مصر الاحسين بك فان المنية أدركته هناك . ومن العلوم التي تلقاها اسماعيل اللغة الفرنسية والطبيعات والرياضيات وخصوصاً الهندسة وعلى الاخص فن التخطيط والرسم . وهذا هو سبب شغفه بعد ذلك بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء

ولما عادت الارسالية كان عباس باشا الاول والياً على مصر فمكث اسماعيل معه على صفاء ومودة حتى وقع بين عباس باشا وسعيد باشا نفور متبني على اختلاف في اقتسام التركة وانجاز سائر افراد العائلة الخديوية الى سعيد وفي جملتهم اسماعيل . فساروا كافة الى الاستانة ورفعوا دعواهم الى جلالة السلطان فصدرت الارادة الشاهانية بانفاذ المرحوم فؤاد باشا الصدر الاعظم وكان يومئذ فؤاد افندي وجودت افندي وهو جودت باشا المؤلف الشهير الى مصر . فأتيا وسوياً الخلاف وتصالح افراد هذه العائلة الكريمة فعادوا الى مصر الا اسماعيل فانه بقي في الاستانة وتعين عضواً في مجلس احكام الدولة العلية

وفي سنة ١٨٥٤ توفي عباس باشا الاول وتولى عمه سعيد باشا فعاد صاحب الترجمة الى مصر فولاه عمه المشار اليه رئاسة مجلس الاحكام فاهتم بشأنه أعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس احكام الدولة العلية

وفي عام ١٨٦٣ توفي المغفور له سعيد باشا فأفضت ولاية مصر الى اسماعيل باشا وهو خامس ولاتها من السلالة المحمدية العلوية فأخذ منذ تبوئه الاحكام في رفع شأن هذه الديار واعادة رونقها الذي كان لها في عهد محمد علي باشا فأطلق يده في النفقة

لتنظيم الشوارع وتشديد الابنية وانشاء المشروعات النافعة على أنواعها مما سيأتي تفصيله غير مبال بما قد يجري اليه ذلك من الضيق

وكانت ولاية مصر تنتقل في الاسرة الخديوية الى من يختاره جلالة السلطان الاعظم بقطع النظر عن علاقته بالوالي السابق . وكان ولاية مصر يلقبون بالعزيز أو الوالي أو الباشا وإذا لقبوا أحياناً بالخديوي فأنما يكون ذلك على سبيل التجميل والتفخيم أما اسماعيل باشا فهو أول من نال رتبة الخديوية ولقب الخديوي فأصبحت ولاية مصر ارنأ صريحاً في نسله ينتقل منه الى أكبر أولاده ومنه الى أكبر أولاده وهكذا على التعاقب . وهالك أهم نصوص الفرمان المؤذن بذلك الصادر في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ٨ يوليو عام ١٨٧٣

الفرمان الخديوي

« ان كيفية وراثه الحكومة المصرية المقررة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الآخر عام ١٢٨٥ هـ قد غيرت على وجه ان تنتقل الخديوية من متبوي كرسيا الى بكر أبنائه ومن هذا الى بكر أبنائه أيضاً وهلم جرأ علماً بأن ذلك أدنى الى المصلحة واشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية . واختصاصاً لك بانعطافي الذي صرت له أهلاً بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك وأثباتاً لذلك اجعل قانون الوراثة الخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائماتية سواكن ومصوع وتوابعها كما تقدم بيانه . بحيث تكون الولاية لبكر أبنائك ثم لبكر أبنائه من بعده . فاذا لم يرزق من تولى الخديوية ولداً ذكر آكانت الولاية من بعده لا كبر اخوته أو لا كبر بني أخيه الا كبر كما تقرر . ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات . ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغي أن تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصراً على الصورة الآتية وهي :

« اذا توفي الخديوي وكان كبير ولده قاصراً أي غير بالغ من العمر ثمان عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديوياً بحق الوراثة فيصدر اليه فرماننا بوجه السرعة . واذا كان الخديوي المتوفي قد نظم قبل وفاته أسلوباً للوصاية وعين كيفيتها وذوي ادارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك على أزمة الاعمال عقب وفاة الخديوي . ثم ينهون بذلك الى الباب العالي فيثبتهم في مناصبهم . ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنه قاصراً فجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولي ادارة الداخلية والخيرية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش المديرية . فيجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون

للخديوي وصياً باجماع الرأي أو بأغليته فاذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبة باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها . ويشكل مجلس الوصاية من الباقيين فيباشرون جميعاً أمور الخديوية ويعرضون ذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما انه لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها في الصورة الاولى أي فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوي المتوفي فكذلك لا تغير في الصورة الثانية . وأما اذا توفي الوصي أو أحد اعضاء مجلس الوصاية في خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول احد اعضاء المجلس وبديل الثاني احد ذوات المملكة . وبمجرد بلوغ الخديوي القاصر ثمان عشرة سنة يكون راشداً فيباشر ادارة أمور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضته ارادتنا السنية

« ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من أهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدة على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات المنوحة سابقاً للحكومة المصرية . وذلك أنه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصص على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم أن ادارة أي مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمرائها وسعادة سكانها مما لا يتم الا بالتوقيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والموقع وأمزجة السكان وطبائعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة وال لزوم . ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أو من قبل الحكومة مع الاجانب وتوسيع نطاق الصناعة والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضاً الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المفاولات مع مأموري الدول الاجنبية في أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موجباً للاخلال بمعاهدات الدول السياسية

« ولكن خديوي مصر حازراً لحق التصرف المطلق في الامور المالية قد أعطيت له الرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عندما يجد لذلك لزوماً على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية . وبما أن أمر المحافظة على المملكة وصياتها من الطوارق (وهو أهم الامور وأحوجها الى العناية) من أقدم الوظائف المختصة بخديوي مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتدبيرها على

مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير أو تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد . وأبقينا كذلك لخدوي مصر امتيازها القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة في مصر باسمنا الشاهاني وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية في القطر المصري كأعلام عساكرنا السلطانية بلا فرق أو تميز . ولا يجوز لخدوي مصر أن ينشئ البوارج المدرعة بغير استئذان أما سائر السفن والبوارج ففي استطاعته أن ينشئها متى شاء » انتهى

وقد امتاز اسماعيل باشا عن سائر ولاة مصر قبله أنه حجب سكنى الديار المصرية الى الاجانب من جالية أوربا وأميركا وغيرها بما مهده من وسائل الراحة والطمأنينة مع الاخذ بناصرهم وتأييد مشاريعهم وتنشيطهم وتوسيع نطاق التجارة فتقاطروا اليها أفواجا وأقاموا فيها على الرحب والسعة لما آتسوه من الكسب الحسن والعيش السهل وفي عام ١٨٦٩ احتفل اسماعيل باشا بافتتاح ترعة السويس وكان قد بوشر بحفرها على عهد عمه سعيد باشا فحضر ذلك الاحتفال ملوك أوربا أو من يقوم مقامهم . وكان له رنة بلغ صداها أربعة أقطار المسكونة لما أعده فيه اسماعيل من وسائل الزينة مما قد تقصر عنه همم الملوك العظام . وفي جملة ذلك أنه بنى الاوبرا الخديوية بالقاهرة لتكون مسرحاً يشاهد فيه ضيوفه صنوف التمثيل وكانت المدة غير كافية لتشيد ذلك البناء فبذل الدرهم والدينار فلم تمض خمسة أشهر حتى تم البناء وسائر معدات التمثيل على ما نشاهده الآن وهو من المسارح التي لا مثيل لها الا في عواصم أوربا العظمى

قناة السويس

ويجدر بنا في هذا المقام أن نأتي على تاريخ هذه القناة من أقدم أزمانها فنقول : لا يخفى أن الفاصل بين البحرين الأبيض والأحمر برزخ السويس وما برح ملوك مصر من عهد الفراعنة يسعون في الوصل بينهما لتسهيل طرق التجارة بين الشرق والغرب ولم يكن الناس اكتشفوا رأس الرجاء الصالح فكان برزخ السويس فاصلاً بين الشرق والغرب فاهتم رجال السياسة من الملوك وغيرهم في الوصل بينهما بحيث تجري السفن من الواحد الى الآخر ولو بقناة صغيرة . ولكن القدماء كانوا يعتقدون أن البحر الأحمر أعلى من البحر الأبيض المتوسط فخافوا اذا فتحوا ما بينهما أن تطوف الماء وتغرق البلاد فوجهوا عنايتهم الى الوصل بين البحرين بطرق أخرى . ويقال

بالاجمال أن مساعيهم كانت ترمي الى احدى ثلاث طرق وهي (١) الوصل بينهما بواسطة النيل والصحراء (٢) بواسطة النيل وفروعه (٣) بواسطة ترعة مألحة - واليك خلاصة السعي في كل منهما :

١ - الوصل بين البحرين بالنيل والصحراء

هذه أقدم طرق الاتصال بينهما وأول من شرع بها ميريح أحد ملوك العائلة السادسة الفرعونية في القرن السابع والثلاثين من قبل الميلاد وأمه حنو من العائلة الحادية عشرة . وبعض المؤرخين يذهب الى أن بطليموس فيلادلفوس هو أول من أوجد هذا الاتصال في القرن الثالث قبل الميلاد ولعل الصواب أنه أعاده بعد أهاله وكان الاتصال المذكور يتم بطريق الصحراء بين برنيس على البحر الأحمر وقفت على النيل بقرب قوص بمصر العليا . فكانت المنقولات تحمل على الجمال أو نحوها من برنيس الى قفت ومن هناك تنقل على مراكب نيلية الى البحر المتوسط عن طريق دمياط أو رشيد . وما زالت هذه الطريق عظيمة الأهمية حتى اكتشفوا رأس الرجاء الصالح جنوبي أفريقيا سنة ١٤٩٧ م فانحطت أهميتها ولما فتح خليج السويس كادت تهمل بالكلية لكنها لا تزال تستعمل في بعض الاحوال . وقد أصبح الاتصال الآن بين القصير على البحر الأحمر وقنا على النيل عوضاً عن برنيس وقفت وقد يكون الى قفت ولا تستعمل الا اذا كان المقصود المواصلة بين البحر الأحمر ومصر العليا رأساً

٢ - الوصل بواسطة النيل فقط

لا بد قبل الكلام في ذلك من كلمة نقولها في تاريخ فروع النيل لأنها الآن غير ما كانت عليه في عصر الفراعنة والبطالسة والرومان . فالنيل الآن ينقسم بقرب القاهرة الى فرعيه الكبيرين فيسيران شمالاً يمر الشرقي منهما بينهما فبت غمر فسمنود فالتصورة وينتهي الى البحر المتوسط بالقرب من دمياط . والغربي يمر بمنوف فكفر الزيات ففسوق الى أن يصب في ذلك البحر بالقرب من رشيد . وهذان الفرعان هما الفرعان الوحيدان للنيل الآن وقلما يتفرع منهما غير الترع الاصطناعية

أما في الأزمنة الحالية فكانت لها فروع أخرى كبيرة أكبرها متشعب من الفرع الشرقي . وكيفية ذلك ان هذا الفرع بعد أن يصل الى قرب بنها يسير منه فرع غربي ينقسم الى عدة فروع تنتهي الى البحر المتوسط بثلاثة تصب عند بحيري المنزلة والبرلس أهمها فرع كبير شرقي يقال له فرع بلوسيوم كان يخرج من الفرع الشرقي قرب بنها ويسير نحو الشمال الشرقي فيمر ببواسميس (تل بسطة) فالصالحية فدقنة الى أن يصب

في البحر المتوسط بالقرب من بلوسيوم (طينة) شمالي القرما . أما بحر القلزم أو البحر الأحمر فكان متصلاً بالبحيرة المرة الكبرى بمضيق صالح لسير السفن وكانت هذه البحيرة خليجاً يدعى خليج هيروبوليس نسبة إلى مدينة كانت قائمة على مسافة قصيرة من رأسه بالقرب من فيثوم (تل المسخوطة)

والوصل بين البحرين بواسطة النيل يتم بحفر ترعة موصلة بين النيل والبحر الأحمر أما البحر المتوسط فإن النيل يصب فيه . وأول من فكر في ذلك سيقى الأول من ملوك العائلة التاسعة عشرة فاراد أن يصل النيل بالبحيرة المرة بترعة . ويظن ارستوتل وسترايو وبلينيوس أن سيزوستريس (رعمسيس الثاني أو الأكبر) هو أول من فعل ذلك في الجيل الرابع عشر قبل الميلاد . وربما كان ظنهم هذا مبنياً على أن هذا الملك هو الذي أسس مدينة فيثوم المتقدم ذكرها فرجعوا أنه احتفر إليها ترعة من النيل لريها . وهذه التربة توصل بين النيل وخليج هيروبوليس فيم الاتصال المطلوب . أما المعول عليه بالاسناد إلى المصادر التاريخية الوثيقة أن أول من أخرج ذلك إلى حيز الفعل إنما هو الملك نحاو الثاني من العائلة السادسة والعشرين (سنة ٦١٠ ق م) فاحتفر ترعة تنشأ من فرع بلوسيوم عند بوباسيس بالقرب من الزقازيق وتسير فيما يدعى الآن وادي القتال حتى هيروبوليس ويقال إن امتداد هذه التربة كان ٦١ ميلاً من الأميال الرومانية (نحو ٥٢ ميلاً إنكليزياً)

فلما استولى الفرس على مصر آتتها الملك داريوس (دارا) بن هستاسيس سنة ٥٢٠ ق م وكان المضيق بين هيروبوليس والبحر الأحمر كاد يمتلئ من الرواسب فامر بحفره وتوسيعه وكان طوله نحو عشرة أميال . ولا تزال آثاره باقية إلى هذا العهد بالقرب من شالوف عند الطرف الجنوبي للبحيرة الكبرى وترعة الاسماعيلية . ويشاهد هناك بعض الآثار الفارسية الدالة على صحة ذلك . وكان المعروف آنذاك أن البحر الأحمر أعلى من النيل كما تقدم فلم يجسر نحاو ولا داريوس على إيصال ترعتهما هذه إلى الخليج تماماً خشية أن يختلط الماء أن أو يطوف المالح على العذب . فتمت المواصلة آنذاك على هذه الصورة : تسير السفن من البحر المتوسط في فرع بلوسيوم إلى بوباستس ومنها في تلك التربة إلى هيروبوليس ومن هذه كانوا ينقلون المحمولات إلى مراكب البحر الأحمر على الدواب أو غيرها فكانوا يقاسون في ذلك بعض المشقة . فلما تولى بطليموس فيلادلفوس وجه اهتمامه إلى إصلاح ذلك الحلل سنة ٢٨٥ ق م فاحتفر ترعة موصلة بين هيروبوليس ورأس البحر الأحمر وترعة

أخرى من هيروبوليس إلى خليج هيروبوليس ووسع المضيق . فأصبح هناك ترعتان كلتاهما متصلة بالبحر الأحمر وأخذ حواجز واحتياطات أخرى لمنع طفو المياه المالحة على العذبة بحيث يمكن للسفن أن تمر إلى الخليج وإلى البحر الأحمر مع توقي الطغيان . وابتقى عند مصب الخليج في البحر الأحمر مدينة دعاها ارسينوا جعلها محطة بحرية تنتهي إليها المراكب القادمة عن طريق النيل وتقلع منها السائرة في البحر الأحمر

ثم أخذ ماء النيل يتحول عن فرع بلوسيوم شيئاً فشيئاً حتى جف ماؤه فبطلت تلك التربة . حتى إذا كان الاسلام وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص أمره الخليفة بإنشاء ترعة يسهل نقل المؤن عليها إلى الحجاز فاحتفر قناة دعاها خليج أمير المؤمنين فابتدأ بها عند مصر القديمة حيث يبتدىء خليج مصر اليوم فسار بها في ظاهر القسطنطينية حتى القاهرة ومنها إلى المطرية ومنها إلى بوباستس حيث تبتدىء التربة القديمة ومن بوباستس إلى البحر الأحمر . وما زالت تسير السفن في خليج أمير المؤمنين إلى أيام الخليفة المنصور فأمر بردمه منعاً لأمداد العلويين الذين ثاروا في المدينة . وما زال مردوماً إلى الآن . ويقال إن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر بحفره سنة ١٠٠٠ للميلاد لتسير فيه السفن الصغيرة ثم أهمل فطمرته الرمال . وظل من آثاره إلى عهد غير بعيد الخليج الذي كان يقطع القاهرة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وهو المعروف بخليج مصر . كان ينشأ من ثم الخليج عند مصر القديمة ويسير نحو الشمال الشرقي وقبل أن يبلغ نظارة المالية ينعطف نحو الشرق الجنوبي حتى جامع السيدة زينب فيعود إلى سيره نحو الشمال الشرقي فيمر بجانب بركة القيل ثم سراي درب الجماميز فتكية الجبانية ثم يقطع شارع محمد علي فيمر بجانب سراي منصور باشا إلى أن يقطع السكة الجديدة قرب اتصالها بشارع الموسكي فيمر تاركاً كنيسة اللاتينيين وكنيسة السريان إلى يمينه وكنيسة الأرمن وكنيسة القبط إلى يمينه إلى أن يصل إلى بداية سكة مرجوش فيتركها إلى يمينه ثم يقطع سور القاهرة عند باب الشعرية ويسير خارج القاهرة إلى شارع الظاهر فيمر تاركاً جامع الظاهر إلى يمينه حتى يلتقي بترعة الاسماعيلية وهناك ينتهي

وكانت فائدة هذا الخليج قاصرة على ري المدينة وبعض ضواحيها وكانوا يحتفلون بفتحه سنوياً عند وفاء النيل فلما توزعت المياه في القاهرة بالانابيب إلى المنازل لم يبق له فائدة فأذنت الحكومة لشركة ترمواي القاهرة بردمه ومد خط الترمواي فوقه وهو الفرع المعروف بترماوي الخليج الآن

٣ - الوصل بينهما بقناة مألحة

وهي الباقية الى الآن نعتي قناة السويس . وقد فكر في حفرها الفراغنة ولكنهم خافوا طغيان الماء كما تقدم . وفكر فيه أيضاً المسلمون منذ فتحوا مصر - فذكروا ان عمرو بن العاص أراد فتح قناة توصل بين البحرين فمنعه عمر بن الخطاب لئلا يتخذها الروم طريقاً الى الحجاز . وأراد ذلك الرشيد بعده على ان يحفر ترعة مما يلي بلاد الفرمانحو بلاد تيس بحيث يكون مصب البحر الاحمر في البحر المتوسط كما هو حاله اليوم فشاور وزيره يحيى بن خالد فقال له « اذا نخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف وذلك ان مراكبهم تنتهي من بحر القلزم (الاحمر) الى بحر الحجاز فطرح سراياها مما يلي جدة فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة » فامتنع عن ذلك . وربما فكر فيه غيره من ملوك المسلمين ولم يخرجوه الى حيز الفعل

ثم ذهبت دولة العرب وأخذ الافرنج يهون من سباتهم وسعوا في اكتشاف الطرق التجارية - وكانت التجارة بين اوربا والمشرق في الاجيال الاخيرة محصورة على نوع ما في فينيسيا (البندقية) وكان الفينيسيون ابرع الناس فيها وأكثرهم اشتغالا بالاسفار بين البحرين عن طريق مصر . فلما اكتشف رأس الرجاء الصالح تحولت تلك التجارة الى يد البرتغاليين فشق ذلك على الفينيسيين فاهتموا بانشاء ترعة توصل بين البحرين فخابروا سلطان مصر إذ ذاك (قنسو الغوري) وما زالت الاخبارات بهذا الشأن دائرة حتى الفتوح العثمانية سنة ١٥١٧ م فبطلت وأعمل المشروع . فلما كانت الحملة الفرنسية اهتم نابليون بونابرت بذلك الاتصال بواسطة برزخ السويس فاستكشف البرزخ ومعه المهندس الشهير موسيو لاير سنة ١٢١٣ هـ او ١٧٩٨ م وتفحصاه تفحصاً مدقّقاً فزعم لاير ان البحر الاحمر يعلو المتوسط ٣٠ قدماً فعدل عن فتح ترعة موصلة بين البحرين رأساً وقدم التقرير الآتي ويتضمن أفضل ما رآه من الطرق :

(١) الاتصال بواسطة النيل وفروعه وذلك بترعة من الاسكندرية الى الرحمانية على فرع رشيد . وفي النيل من هناك الى القاهرة وبحلج امير المؤمنين من القاهرة الى البحيرة المرة حيث يقام حواجز . ومن هناك الى السويس بترعة مألحة

(٢) الوصل بين البحرين رأساً بان يحفر ترعة بين السويس والبحيرة المرة وترعة اخرى بين البحيرة المرة وبلوسيوم . الا ان هذا التقرير لم يباشر تنفيذه قبل ان قضى على تلك الحملة بالانسحاب من مصر

وفي سنة ١٢٥٥ هـ أو ١٨٣٧ م أنشأت شركة البواخر الشرقية خطاً تجارياً بين الهند وانكلترا عن طريق برزخ السويس بأن تأتي المنقولات في البحر المتوسط الى أول البرزخ فتنتقل في البر الى السويس ومنها في البحر الاحمر الى الهند وغيرها

وفي سنة ١٢٦٤ هـ أو ١٨٤٦ م تعينت لجنة مختلطة للنظر في تقرير لاير فقروا أن الفرق بالارتفاع بين البحرين لا يعاب به الا أنها انحلت ولم تصل الى نتيجة وتركت ذلك الى أحد أعضائها الموسيو تالابوت فكان من رأيه تتبع التربة القديمة من السويس الى تل بسطة (قرب الزقازيق) رأساً واحتفار ترعة من هناك الى رأس الدلتا حيث القناطر الخيرية الآن فتقام لها قناطر تسير عليها مياه تلك التربة الى البر الغربي ومن هناك تم التربة الى الاسكندرية . فكانه يريد ايصال البحرين بترعة تمر بين السويس والاسكندرية وتقطع رأس الدلتا فلم يصادف مشروعه استحساناً لما كان يحول دون ذلك من المشاق . ثم قدم الحواجات بارولت تقريراً من مقتضاه أن يوصل البحر الاحمر ببحيرة المنزلة الى دمياط ثم يقطع النيل وتم التربة الى رشيد فيقطع فرع رشيد أيضاً وتوصل التربة الى الاسكندرية فلم يصادف هذا مجاحاً أيضاً لمشابهته بمشروع تالابوت

وفي سنة ١٢٧١ هـ أو ١٨٥٥ م اهتم لبنان بك وموجل بك تحت ادارة الموسيو دلبيس في أمر هذه المواصلة بعد أن حصل هذا الاخير على البراءة في ذلك من سعيد باشا والي مصر اذ ذاك فأقروا على وجوب فتح ترعة في خط مستقيم بين السويس وبلوسيوم مارة في البحيرات المرة ببحيرة التماسح بالمنزلة . وأن تتصل هذه التربة من طرفيها بحواجز عند التقائها بالبحرين . وأقر أيضاً على احتفار ترعة عذبة من بولاق مصر توصل المياه الى بلوسيوم . فعمل الموسيو دلبيس تقريراً في ذلك وعرضه سنة ١٨٥٦ على لجنة دولية مؤلفة من نواب دول أوستريا وانكلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وبروسيا واسبانيا فدخلت فيه تعديلات من مقتضاها أن تنتهي تلك التربة من طرفها الشمالي في نقطة على مسافة ١٧ ميلاً ونصف الى الغرب من بلوسيوم حيث بورت سعيد الآن وسبب ذلك أن مياه البحر المتوسط هناك عمقها بين ٢٥ و ٣٠ قدماً على مسافة ميلين من الشاطئ أما عند بلوسيوم فلا تبلغ هذا العمق الا على مسافة خمسة أميال . وأن تغفل الحواجز عند طرفي التربة . وتم الاتفاق على ذلك وأخذوا في العمل وانتهى حفرها في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ في زمن الخديوي اسماعيل فاحتفل

بفتحها احتفالاً عظيماً حضره ملوك أوروبا أو مندوبوهم كلف مصر نحو مليون جنيه القناة والحكومة المصرية

تم إنشاء هذه القناة بعقود مبرمة بين الحكومة المصرية والشركة التي أنشأتها. فأول عقد أبرم في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ بين سعيد باشا والي مصر وبين فردينان دلبس صاحب المشروع وأذن له بمصادقة السلطان عبد المجيد بتشكيل شركة من متبوعي العالم لجمع المال اللازم لحفر القناة الموصلة بين البحرين ويكون لها حق الاتقاع بريعها ٩٩ سنة من يوم فتحها. وأنه بعد انقضاء المدة المذكورة تحل الحكومة محل الشركة فيأول إليها جميع حقوقها وتصير التبعة وما يتبعها من الابنية ملكاً لها الا الادوات والاثاث فانها تدفع أثمانها. وتعهد سعيد باشا في ذلك العقد أن يشارك الشركة هو وحكومته لاجراج هذا المشروع لحيز الوجود. وتعهد في لائحة صدرت بعد سنتين أن يكون أربعة أخماس الفعلة الذين يشتغلون في حفر القناة من المصريين واشترطت أشياء أخرى لمصلحة الشركة

وتعهدت الشركة من الجهة الاخرى أن تنجز العمل في ست سنوات وأن تتكفل هي بالنفقات اللازمة وان القناة تكون طريقاً حراً لكل طارق بلا تفریق بين الدول أو الامم وأن يكون للحكومة المصرية ١٥ في المئة من صافي الربح ولها أن تشتري من أسهم الشركة المقدار الذي تريده

واضطرت الحكومة سنة ١٨٦٦ الى عقد وفاق ثالث مع الشركة يقضي على الحكومة بغرامة - وذلك ان السلطان عبد العزيز اعترض على تعهد سعيد باشا بتشغيل المصريين في القناة رغم ارادتهم واعتبر ذلك من قبيل السخرة الجبرية وهي تخالف الحرية الشخصية فاضطر اسماعيل باشا وهو الخديوي يومئذ أن يدفع للشركة غرامة مقدارها مليون ونصف من الجنيهات

ابتدأت الشركة بالحفر سنة ١٨٥٩ واعلنت الاكتاب باسمها فاشترت الحكومة المصرية على عهد سعيد باشا ١٧٧٦٤٢ سهماً وذلك يعادل نحو ٤٤ في المئة من رأس مال الشركة واشترت فرنسا ٢٠٧١٦٠ سهماً أي نحو ٥٢ في المئة ولم تشتتر انكلترا الا ٨٥ سهماً

فتفتحت القناة للملاحة سنة ١٨٦٩ وبهد الحكومة المصرية ٤٤ في المئة من أسهمها ثم كان ما سيأتي ذكره من تهور اسماعيل في النفقات على البلاد وعلى نفسه واضطر للاموال فجعل يبدد بما في يديه من الاسهم. واحتاج أخيراً الى مبلغ كبير وكان لا يزال

عنده من الاسهم ١٧٦٠٠٠ فتقدمت فرنسا لاقتباها فانتهت انكلترا لما يترتب على ذلك من تغلب نفوذ فرنسا في ذلك الطريق. فما زالت تسعى حتى ابتاعت تلك الاسهم بمبلغ ٤٠٠٠٠٠٠ جنيه وهي لو بقيت الى اليوم لبيعت بثلاثين مليوناً أو أكثر وتورط اسماعيل في السخاء فاحتاج الى مال آخر فاقترض مليون جنيه من شركة السديكات الكبرى ورهن عندها حصة مصر من ارباح القناة أي ١٥ في المئة. فلما اقتضى اسرافه ن داخل أوروبا في الشؤون المالية المصرية ظهر المولحين بالبحث والتفتيش ثقل ما تحمته مصر من الديون فوضعوا قانون التصفية وعجزت مصر عن دفع المليون المذكور فتنازلت عن الرهن وتألفت شركة فرنساوية دفعت الدين وقامت مقام مصر في الاستيلاء على حصتها المشار إليها. ويقدررون جملة ما وصلها من ذلك بأربعين مليون جنيه

وكان اسماعيل قبل بيع أسهم القناة قد باع ارباحها لعشرين سنة فلما باع الاسهم لانكلترا سوت مسألة تلك الارباح بأن تسدها الحكومة المصرية بأقساط مقدارها ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه كل سنة الى سنة ١٨٩٦

وأرادت الشركة أن تمد أجل امتيازها فعرض المستشار المالي ذلك بصفة مشروع يقضي بأن تزيد الحكومة مدة امتياز الشركة ٤٠ سنة فضلاً عن السنين الباقية بحيث يصير آخرها سنة ٢٠٠٨ وتقض مصر في مقابل ذلك أربعة ملايين جنيه تستولي عليها في أثناء أربع سنوات (من سنة ١٩١٠ — ١٩١٣) ويكون لها من سنة ١٩٢١ حصة من الربح تبدأ بأربعة في المئة وتزداد الى ستة قنانية فعشرة فاثني عشر في المائة الى سنة ١٩٦٩ وهي نهاية مدة الامتياز الاصلية. ومتى دخلت مدة الامتياز الجديد تستولي الحكومة المصرية فيه على خمسين في المئة من أرباح الشركة الصافية. ومتى انتهت هذه المدة سنة ٢٠٠٨ تصير القناة وأبنيتها ملكاً لها الا الادوات والاثاث فتدفع قيمتها ولما نشر المستشار مشروعه طلب الاهلون عقد الجمعية العمومية لاخذ رأيها فيه وفوضت الحكومة اليها الحكم القطعي بشأنه فقررت رفضه

عود الى اسماعيل

وفي السنة الاولى من ولاية اسماعيل حلت ركاب السلطان عبد العزيز في القطر المصري فلاقي ترحاباً جديراً به

وفي عام ١٨٧٢ تعدى الاحباش على حدود مصر مما يلي بلادهم وأمسروا بعضاً

من رعايا مصر فبعثت الحكومة المصرية تطلب ردهم فجرت المخابرات قال ذلك الى حرب جرد فيها اسماعيل حمله لم تقل غرضاً فانتهدت الحرب بالصلح . وفي عام ١٨٧٣ شخص رحمه الله الى دار السعادة فاحتفل بقدمه فعاد وقد حاز رضى الحضرة الشاهانية ورجال المايين الهياوني . وفي تلك السنة احتفل بزواج أمجاله الثلاثة وهم المغفور لها توفيق باشا الحديوي السابق والبرنس حسن باشا والبرنس حسين باشا احتفالاً واحداً تحدث به الناس زمناً طويلاً ومما زاد ذلك الاحتفال بهجة انهم نالوا عندئذ رتبة الوزارة الرفيعة معاً

الديون المصرية

ولنأت الآن الى أمر هو أهم الامور المتعلقة بصاحب الترجمة وعليها مدار ما آل اليه أمره - نريد به أمر الديون التي تعاظمت على مصر في أيامه . وايضاحاً لذلك نذكر ملخص تاريخ الدين المصري . فأول من وضع جرثومة الدين المصري المغفور له سعيد باشا عام ١٨٦٢ وقدره الاسمي ٣٢٩٢٠٠٠ جنيه بفائدة ٢ بالمائة وفي السنة التالية تولى صاحب الترجمة تحت الحكومة المصرية فأخذ في البذل والانفاق في التشييد والبناء وغير ذلك حتى زادت النفقات على الدخل . فكان اذا أراد عملاً جنح الى الاستقراض لا يبالي بعاقبة ذلك حتى بلغت ديون مصر نحو مئة مليون جنيه فأصبحت حملاً ثقيلاً على الخزينة المصرية وعلى أهالي البلاد لانه كان يضرب الضرائب الفادحة لينفي منها فائدة تلك الديون ويستخدم العنف في تحصيلها من الاهالي حتى آل الامر الى مداخلة الدول الاجنبية للمحافظة على أموال رعاياها أصحاب الديون

فتخبرت الدول وتشاورت في أحسن الوسائل لضمان تلك الاموال واستهلاكمها فألفت لجنة دولية مشتركة سموها صندوق الدين العمومي صدر الامر العالي بتشكيله في ٢ مايو عام ١٨٧٦ وورد في ذلك الامر ان هذا الصندوق قد انشئ لتأمين أرباب الديون على ديونهم واستلام ما يستحق لهم من الفوائد وغيرها وان الحكومة لا يجوز لها تجديد قرض الا بالاتفاق مع صندوق الدين وان الدعاوي التي يترأى لصندوق الدين رفعها على الحكومة تنظر في المجالس المختلطة

وكانت الديون المصرية قسمين دين الحكومة ودين الدائرة السنوية فضموها في ٧ مايو من تلك السنة الى دين واحد فبلغ قدره ٩١ مليون جنيه وسموه الدين الموحد بفائدة ٢ بالمائة ويتم استهلاكه في ٦٥ عاماً . ثم رأى اسماعيل باشا ان توحيد الدين على هذه الصورة لا يتيسر له اتعاه فصدر في ١٨ نوفمبر منها أمراً يقول فيه ان

تصدر الحكومة المصرية عليها سندات بمبلغ ١٢ مليون جنيه تكون ممتازة برهن خصوصي هو السكة الحديدية المصرية وميناء الاسكندرية وفائده ٥ بالمائة وسماه الدين المماز على ان كل هذه الوسائل لم تكن كافية لاقناع الدول لان الحكومة لم تكن تقوم باستهلاك الديون حسب الشروط فبذت الدول عام ١٨٧٨ لجنة مالية مختلطة لمراقبة حسابات الحكومة المصرية فرأت فيها عجزاً مقداره مليون ومائتا ألف جنيه فتنازل اسماعيل باشا عن املاكه الخاصة واملاك عائلته للحكومة وهي التي تعرف باملاك الدومين وتقرر في تلك السنة استقراض ثمانية ملايين جنيه ونصف وجعلوا املاك الدومين رهناً لها وهذا هو الدين المعروف بدين روتشيلد

اقلته

وكانت اعمال الحكومة المصرية تجري بمقتضى ارادة الحديوي رأساً اما بعد مداخلة الاجانب باحوال المالية فلم ير اسماعيل بدءاً من جعل حكومته شورية فشكل مجلس النظار برئاسة نوبار باشا وصادق على تعيين ناظرين احدهما انكليزي وهو المستر ولسن للمالية والاخر فرانسوي وهو المسيو بلينيير للاشغال العمومية . فرأى مجلس النظار ان يقتصد شيئاً من نفقات الجند فرفت جانباً منهم قنار المرفوتون وجاء جماعة منه وفيهم ٤٠٠ ضابط الى نظارة المالية وامسكوا بنوبار باشا والمستر ولسن وطلبوا اليها دفع ما تأخر لهم من رواتبهم وخاطبوهم بعنف وشدة حتى علت الضوضاء وكادت تأول الى ثورة لولا ان اقبل اسماعيل باشا وخاطب الجند ووعدهم وأمر بانصرافهم اما هم فخلفوا رأوه ذعروا وكأنه جاءهم برقية أو سحر فانكفأوا راجعين . والمظنون ان ذلك حصل بالتواطؤ من قبل وهي أول ثورة عسكرية حدثت في هذا العهد

ثم استقال الوزيران نوبار ورياض تخلصاً من عبء التبعة لما آتسوه في اعمال الحديوي من الخطر فشكل مجلساً آخر برئاسة ابنه توفيق باشا (الحديوي الاسبق) على ان ذلك لم يقلل شيئاً من القلاقل لأن الداء لم يكن في المجلس ولكنه كان في مقاصد اسماعيل لأنه استعظم اغلال يديه بمجلس فيه ناظران اجنيان قلب هيئة ذلك المجلس في ٧ ابريل عام ١٨٧٩ وأخرج الناظرين الاجنبيين وعهد برئاسة المجلس الى المرحوم شريف باشا فعظم ذلك على دولتي انكلترا وفرنسا لأنها اعتبرتا تلك المعاملة اهانة لها فعمدتا الى الانتقام فسمتا في ذلك لدى الباب العالي سرّاً وجهرّاً . وفي ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩ صدر الأمر الشاهاني باقلته وتولية المغفور له توفيق باشا

وفي ٣٠ منه سافر اسماعيل باشا من القاهرة الى الاسكندرية ومنها الى اوربا ويقال انه خاطب ابنه توفيق باشا عند سفره قائلاً :

« لقد اقتضت ارادة سلطانتنا المعظم ان تكون يا أعز البنين خديوي مصر فأوصيك باخوتك وسائر الآل برّاً واعلم اني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك ان ازيل بعض المصاعب التي أخاف ان توجب لك الارتباك على اني واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأي ذوي شورك وكن أسعد حالاً من أيك »

وما زال بعد سفره مقيماً في أوربا حتى افضت به الحال الى الإقامة في الاسكندرية العلية فأقام فيها الى ان توفاه الله فيها في ٦ مارس عام ١٨٩٥ وله من العمر ٦٥ سنة فحملت جثته الى مصر ودفنت فيها

أعماله وآثاره

قلنا ان اسماعيل باشا كان شديد الشغف بتنظيم المدن حتى قيل انه يريد ان يجعل القاهرة تضاهي باريس بالنظام والترتيب فنظم طرقها ووسع واكثر من فتح الشوارع الجديدة وابتداء الابنية الفاخرة كالاوربا الملوكية والقصور الباذخة في القاهرة والاسكندرية وأعظم تلك الابنية سراي الجزيرة وهي مما تقصر عنه هم الملوك حتى ضربت بها الامثال وانشأ المتحف المصري في بولاق ودار الكتب المصرية وهما من اجل الآثار وأفعها . اما المتحف فقد انشأه بأمره مارييت باشا وقبره فيه . وكان المتحف أولاً في بولاق ثم نقل على عهد الخديوي توفيق الى سراي الجزيرة ثم نقل في عهد الخديوي عباس الى بناية بنوها له خاصة بجوار قصر النيل

ومارييت باشا فرنساوي الاصل وُلد في بولون سيرمير سنة ١٨٢١ وانشأ على حب الآثار المصرية ودرسها . ثم اتفق سنة ١٨٥٠ ان الانكليز انفذوا الى مصر وفداً لغوياً يبحث في مكاتب الديور المصرية عن الكتابات القبطية القديمة فعثروا في دير بوادي النطرون على أوراق كثيرة أرسلوها الى لندن فاقصدى الفرنسيون بهم وكانوا انما يرجون بالمخاتم هذه العثور على حقائق جديدة تتعلق بتاريخ اليونان . وكان مارييت قد اشتهر بينهم بمعرفة هذه اللغة فعينوه في هذه المهمة براتب مقداره ثمانية آلاف فرنك فسافر في ٤ سبتمبر سنة ١٨٥٠ حتى جاء القاهرة فرأى انه لا يستطيع الذهاب الى ذلك الدير أو غيره الا بوصية من بطريرك القبط وكان البطريرك قد غضب من تصرف الوفد الانكليزي لانهم حملوا ما حملوه من الكتب جبراً . وبعد السعي والالتماس رضي أن يكتب الى مارييت كتاب توصية باسم رئيس دير الانبا مقار . على ان مارييت لم

يكن يرجو الحصول على ذلك الكتاب قبل مضي ١٥ يوماً . فلكي لا يضيع فرصة أخذ يتعهد مشاهد القاهرة فسار الى القلعة . وكان ذهابه اليها سبباً لتغير عظيم في مستقبل حياته لانه أشرف من سورها على ضواحي العاصمة فرأى اهرام الجزيرة واهرام سقارة فتأقت نفسه الى زيارتها وقد نسي ما جاء من أجله فركب الى سقارة وتوغل في صحرائها يتوقع العثور على آثار مهمة لقربها من ايقاض منهف العظمى فوقف يتفرد في تلك الرمال القاحلة فرأى فيها حجراً نائماً يشبه رأس الانسان فتأمله فاذا هو رأس



ش ٧١ مارييت باشا مؤسس المتحف المصري

أبي الهول . وكان قد شاهد أمثال هذا التمثال قبلاً فلم يهجمه ذلك الاكتشاف لغرابته ولكنه توسم منه خيراً لما سبق الى ذهنه مما قرأه في استرابون عن آثار منف وما زال حتى وفق الى اكتشاف السراييون في تاريخ طويل فصلناه في ترجمته في مشاهير الشرق الجزء الثاني ولما تولى اسماعيل هم بإنشاء متحف للآثار المصرية فلم يجد أولى منه . وتوفي مارييت سنة ١٨٨٠

أما دار الكتب المصرية فما زالت في درب الجمالين حتى نقلت الى بناية بنوها لها وللمتحف العربي يباب الخلق تفتخر بها مصر على سائر الامصار الشرقية لما حوته

من الآثار العلمية وبينها جانب كبير من الكتب الخطية التي يعز وجودها
ومن أعمال اسماعيل انه جرّ الماء بالانابيب الى بيوت العاصمة وكان الناس يستقون
قبلاً بالقرب والصهاريج وعم زرع الاشجار في المدن وضواحيها واناار القاهرة بالغاز
وتدارك ما ينجم عن الحريق باستجلاب آلات الاطفاء
وهو الذي نظم معظم فروع الادارة على ما هي عليه الآن فقسم القطر المصري



ش ٧٢ : نوبار باشا معين الحديوي اسماعيل في انشاء المجالس المختلطة

الى ١٤ مديرية وعين لها المراكز وأسس مجلس النواب ونظمه . ونظم مجالس القضاء
الاھلي والقضاء الشرعي وجعل لكل روابط وحدوداً . ووضع نظام المجالس الحسبية
وأنشأ مجلس حسي القاهرة . وعلى عهده أنشئت المجالس المختلطة بمساعي وزيره نوبار
باشا فانفذه سنة ١٨٦٧ الى أوربا مندوباً مفوضاً لخبرة الدول العظمى في انشاء محاكم
مختلطة تقوم مقام المحاكم القنصلية التي كانت مرجع محاكمة الاجانب في ذلك الحين
ففضى في سعيه هذا سبع سنوات يتردد في أثنائها بين ممالك أوربا ويفاوض عظماءها

وملوكها والخزينة المصرية مفتوحة بين يديه فانفق أموالاً طائلة ولكنه عاد ظافراً
غنائماً . وقد أراد اسماعيل بتلك المجالس تقليل نفوذ القناصل وحصر التوسط الاجنبي
ولكنها كانت سبباً لزيادة النفوذ واتساع دائرته . وكانت مصلحة البريد قبلاً شركات
أجنبية فأنشأ مصلحة البوسطة المصرية وجعلها من المصالح الاميرية كما هي الآن

البريد المصري

كان البريد المصري في زمن محمد علي ينقل على الخيل أو على أيدي السعاة بين
القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد . ونا تكثر الاجانب شعروا بالحاجة اليه فأنشأوا



ش ٧٣ : موتسي بك - أول مديري البريد المصري

بريداً افرنجياً تولاه رجل ايطالي سنة ١٨٤٠ وتولاه غيره حتى دخل في خدمته ايطالي
آخر اسمه جاكمو موتسي وكان نشيطاً درياً فعمل على توسيع نطاقه فأنشأ له نحو
سنة ١٨٥٤ فروعاً في دمياط والمنصورة وزفتى ودمنهور ورشيد وطنطا وغيرها
فقامت المناظرة بين البريد الاوربي وبريد الحكومة المصرية ولم تكن الحكومة
تستطيع الغاء ذلك البريد احتراماً للامتيازات الاجنبية فسعت في ضم البريدين وجعلت
فاتحة ذلك الاتفاق رخصة وقية أعطتها لصاحبي البريد الاوربي تيتوكين وموتسي

تحويلها إدارة البريد بمصر الى عشر سنوات على أن تنقل المراسلات بالسكة الحديدية المصرية مجاناً فكان ذلك فاتحة تنظيم البريد

وتوفي يتوكن بعد سنتين واستقل موتسي بالعمل وخطر له الرجوع الى بلده فأراد ان يبيع الرخصة لبعض البنوك الافرنجية فاعتنمت الحكومة هذه الفرصة وعرضت على موتسي المذكور ان يعيد البريد للحكومة قبل انتهاء مدة الرخصة ويتولى ادارته بنفسه على شروط رضاها وانضم البريدان سنة ١٨٦٥ وسميا معاً «البوسطة الحديدية» وسمي جاكو موتسي مديراً عاماً عليها وأنعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب بك فصار اسمه موتسي بك وهو أول مديري البريد المصري

وتكاثر قدوم الاجانب الى مصر في عصر اسماعيل وزادت الحركة التجارية زيادة كثيرة وزادت الحاجة الى البريد فانشأ موتسي بك فروعاً له في البلاد والقرى الكبرى في مصر السفلى والعليا وعلى شواطئ البحرين الابيض والاحمر وجعل ديوانه المركزي في الاسكندرية وسن له لأئحة وقوانين رسمية وجعل مراسلاته تعريفة عمومية . وكانت المراسلات تنقل في أول عهد البريد بلا طوابع . فاصطنع موتسي بك طوابع البريد المصري لأول مرة سنة ١٨٦٦ وجعل رسمها في وسطه صورة أبي الهول والاهرام بشكل بيضي وحوله اسم البريد وقيمة الطابع

وما زال البريد المصري مستقلاً عن البرد الافرنجية الى سنة ١٨٦٨ ففقد أول معاهدة في هذا السبيل مع بريد النمسا ثم عقد معاهدة أخرى مع بريد ايطاليا وفي سنة ١٨٧٣ عقد معاهدة ثالثة مع بريد انكلترا وفي السنة التالية (١٨٧٤) دخل البريد المصري في اتحاد البوسطة العام

﴿المطابع والجرائد﴾ وحسن اسماعيل مطبعة بولاق وزاد فيها وأمر بترجمة الكتب المفيدة وطبعها ونشرها وأسس معملًا للورق ونشط المطبوعات فلم يكن في القاهرة إلا جريدة الوقائع المصرية تصدر على غير نظام فجعل لها ادارة خاصة بها . وتكاثرت على عهده المطابع والجرائد العربية كجريدة التجارة ومصر والوطن والاهرام والكوكب الاسكندري وروضة الاسكندرية وروضة المدارس والعسوب ونزهة الافكار وحديقة الابصار وبالجملة فقد كانت للعلم في أيامه نهضة مرجع الفضل بها اليه لأنه كان يحب العلماء ويحيز المجيدين منهم ويأخذ بتأصرهم مادياً وأدبياً وكان يشهد الاحتفال بامتحان التلامذة بنفسه ويسلم الجوائز لمستحقها بيده وقد ينهض عند تقديمها تذهيباً لهم

﴿المواصلات﴾ ولم يكن في القطر المصري يوم توليه الا خط حديدي ممتد بين القاهرة والاسكندرية فانشأ كثيراً من الخطوط الأخرى الممتدة الى سائر أنحاء القطر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ومد أسلاك التلغراف حتى أوصلها الى السودان وقد بلغت نفقات الخطوط الحديدية والآلات التجارية والعربات والآلات التلغرافية التي أحدثها بين عام ١٢٨١ و ١٢٩٠ هـ ٩٦٥٨٣٢٧ جنباً على تقدير المرحوم صالح مجدي بك

﴿الابنية﴾ ومن آثاره مدينة الاسماعيلية بناها على قنال السويس وسماها باسمه وجعل فيها الحدائق والقصور وأنشأ المنارات في البحرين الابيض والاحمر وزين حديقة الازبكية بغرس أشجارها وتسورها ورتب فيها الموسيقى وبني بنايات كثيرة



ش ٧٤ : سوق الرقيق في الخرطوم - تاجر يساوم على جارية

بالقرب من طره على طريق حلوان لمعامل البارود والاسلحة الصغيرة أنفق على بنائها مبالغ كبيرة ولكنه لم يستعملها . وبني ليمان الاسكندرية والحمامات المعدنية في حلوان ولولاها لم تعمر حلوان وبني المرصد بالعباسية وكثيراً من معامل السكر في سائر أنحاء القطر هذا فضلاً عن الترع الكثيرة والجسور الهائلة . ومن أشهر تلك الترع الابراهيمية بالصعيد والاسماعيلية بين القاهرة والسويس . ومن أعظم الجسور كبرى

قصر النيل الموصل بين القاهرة والجزيرة وبنى جواً لترميم السفن في السويس ومما تم على يده من الأعمال العظيمة ابطال تجارة الرقيق واتمام فتح السودان واخضاعها فافتتح مملكة دارفور عام ١٢٩١ هـ وما بعدها حتى بلغت جنوده الدرجة الرابعة من العرض وراء خط الاستواء . وعني في تحسين أحوال السودان فهد شلال عبكه . وفتح سكاً كبيراً جنوبي مديرية فشوده طوله ستون ميلاً كان يعيق مسير السفن في النيل الايض فتسهلت طرق التجارة كثيراً . ومن مآثره تسهيل اكتشاف ما غرض من قارة أفريقيا بمد اصحاب الخبرة كما سيأتي في مقدمة الكلام عن الحوادث السودانية

النهضة العلمية في أيامه

وقد علمت ما كان من رواج العلم في زمن محمد علي ثم أصابته صدمة في زمن عباس وسعيد . والاول حالما تولى اقفل المدارس كلها إلا واحدة سماها المدرسة المفروزة لتخريج الضباط البرية والبحرية - حتى مدرسة الطب فانه أبدلها بمدرسة بسيطة لاجراج الاطباء للجيش فقط . وكان يختار من تلامذة هاتين المدرستين جماعة يرسلهم الى اوربا لاتمام دروسهم كما كان يفعل جده محمد علي

وجاء بعده سعيد باشا ولم يكن أكثر رغبة من سلفه في التعليم وكان مع ذلك متقبلاً بنشئ المدارس ثم يأمر باقفلها ثم يفتحها ويقفلها على ما يبدو له أو تمس الحاجة اليه أو تبعث الحالة عليه . وكان عباس الاول لما أقفل المدارس استبقى ديوانها فأجهز سعيد باشا على ما بقي وحل ذلك الديوان وما زال محلولاً حتى أعاده اسماعيل

تولى اسماعيل باشا سنة ١٨٦٣ وليس في مصر الا مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية ومدرسة حرية ومدرسة طبية صيدلية . وكانت هذه المدارس في حالة يرثى لها من الاختلال والتضعف فأمر بتنظيمها وعهد بذلك الى آدم باشا وكان قد تولى ديوان المدارس بعد مختار بك سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤٩ فقوض اليه احياء التعليم مها كلفه احياءه . فأنشأ في ناحية العباسية مدرسة ابتدائية ومدرسة تجهيزية ومدرسة حرية للفرسان والمشاة ومدرسة هندسية ومدرسة للطب . واستقدم للمدرسة الحرية مديراً وأساتذة من اوربا وعهد بالمدارس الاخرى الى أساتذة من الوطنيين المتخرجين في فرنسا . ولو أمعنت النظر في الاحوال السياسية التي كانت محيطة باسماعيل لرأيت انشأ هذه المدارس لثل الغرض الذي أنشأها له جده محمد علي منذ اربعين سنة . لأن عناية البكري كانت متجهة على الخصوص الى المدارس الحرية والى ما يعيها رجالا

يخدمون حكومته . واقتدى بجده أيضاً في ارسال الشبان الى اوربا لاتمام علومهم وسهل اسماعيل قدوم الاجانب الى مصر ورغهم فيها فأنشأوا المدارس على ما يلائم أغراضهم ولكنها عادت بالنفع على الشبيبة المصرية وكثيراً ما كانت الحكومة تنشط هذه المدارس بالرواتب السنوية . وحدث في أيام اسماعيل نهضة أدبية بمن وفد على مصر من رجال الادب من كل الطوائف وأنشئت الصحف وتألفت الجمعيات . فرأى الحال ماسة الى زيادة العناية في التعليم فأنشأ نظارة المعارف العمومية وعهد اليها بتنظيم المدارس



ش ٧٥ : علي باشا مبارك - وزير المعارف المصرية

على نمط جديد . فالحقوا مدرسة الحرية بنظارة الحرية وسموا ما بقي من المدارس المدارس « الملكية » تحت نظارة المعارف العمومية وقسموها الى ثلاث طبقات باعتبار درجة التعليم : ابتدائية وثانوية وعليا وأنشأوا مدارس لم تكن من قبل كمدرسة الادارة ثم صارت مدرسة الحقوق ومدرسة دار العلوم ومدرسة الصنائع والفنون في

بولاق ومدرسة المعلمين وأعادوا مدرسة الالسن لتخريج شبان يتولون الترجمة والتحرير في الدواوين. أما التعليم العالي فظل محصوراً في المدرسة التجهيزية وأكثروا وزراء اسماعيل عملاً في ذلك المرحوم علي باشا مبارك.

ولم تـمـنـ عشر سنوات من حكم اسماعيل حتى كمل نظام هذه المدارس وعينت الحكومة بإنشاء الكتاتيب في سائر أنحاء القطر فبلغ عددها بضعة آلاف وزاد عدد التلامذة على مئة ألف وفي جملتها مدارس للبنات. غير ما أنشأ الأجانب من المدارس الخصوصية وأكثرها لجماعة المرسلين من الطوائف النصرانية



ش ٧٦ : السيد جمال الدين الافغاني في موقف الخطابة

وفي عهده تأسست الحافل الماسونية الوطنية وبجايته تعزز شأن الجمعية الماسونية في مصر وانتشرت مبادئها حتى انتظم في سلكها نجله المغفور له الخديوي السابق وجماعة كبيرة من أمراء البلاد ووجهائها

وحدثت في أواخر أيام اسماعيل حركة فكرية وافقت قدوم السيد جمال الدين

الافغاني الى مصر فزادت الحركة. وجمال الدين من كبار الرجال كان له مطمع في الإصلاح السياسي فأتى مصر سنة ١٨٧١ على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستأذنه مساعيه الى المقام واجرت عليه الحكومة راتباً مقداره ألف قرش مصري كل شهر نزلاً أكرمه به لا في مقابلة عمل. واهتدى اليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده قاوري واستفاضوا بحره ففاض. وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلى والحكمة النظرية من طبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم اصول الفقه الاسلامي. وكانت مدرسته ينته فـعـظـ أمره في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الاخذ عنه وأعجبوا بعلمه وأدبه وانطلقت الالسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية. ثم وجه عنايته لتزويق حجب الاوهام عن أنوار العقول فذشطت لذلك الباب واستضاءت بصائر وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمة والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه. وكان القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة قليلين

فنبغ من تلامذته في القطر المصري كنية لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضارهم وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قد المتصلين به وقد ترجمناه مطولاً في الجزء الثاني من تراجم مشاهير الشرق وخلاصة القول ان مصر كانت في أيام اسماعيل زاهرة والناس في رغد ورخاء وخصوصاً بعد ارتفاع أمان الاقطان في أثناء حرب أميركا فان ثمن الفنطار الواحد بلغ ١٦ جنياً فكان سكان هذا القطر السعيد وفيهم الكاتب والشاعر والتاجر والصانع يتحدثون بما تـره وانعامه وتنشيطه. على ان العقول منهم كانوا لا يغفلون عن ذكر ما كان من أسرافه فوق ما تحتمله حال البلاد وتنبأ بعضهم بـنـقـلـب تلك الحال ووقوع مصر في وهدة الدين وتعرضها لمطامع الدول الاجنبية. والواقع انه لم يترك هذه الديار الا وقد بلغت ديونها زهاء مئة مليون جنيه كما رأيت. وهي لا تزال تثق من وطأتها الى الآن وكان ذلك من أعظم الاسباب لمداخلة الأجانب في ادارة البلاد ومراقبة أعمالها

على اتنا لا نـكـر ان الاصلاحات التي أجراها ببعض تلك الاموال قد عادت على البلاد بالنفع الجزيل. ولكننا لا نرى انها تعوض الخسارة كلها وزد على ذلك انه لو

أحسن التصرف في النفقات وسار بها سيراً قانونياً لكانت العواقب أحسن كثيراً ولا أصبحت مصر في غنى عن كل هذه التقلبات . ويقال ان مقدار الاموال التي دفعت من خزينة الحكومة المصرية بأمره بتبر تسمية المدفوع اليه - بمعنى انه كان يرسل الى المالية تذكرة بمضائه يقول فيها ادفعوا الى رافعه المبالغ الفلاني فيدفعونه وهم لا يعلمون مصيره - فقد جمعت هذه المبالغ فبلغت ٨٤ مليوناً من الجنيهات . فاذا صحت هذه الرواية كان هذا المبلغ وحده كافياً لوفاء دين مصر

صفاته

كان اسماعيل باشا ربة ممتلىء الجسم قوي البنية عريض الجبهة كثيث اللحية مع ميل الى الشقرة أما عيناه فكانتا تتقدان حدة وذكاء مع ميل قليل نحو الحول أو ان احداها أكبر من الاخرى قليلا

وكان جريئاً مقداماً ذا قوة غريية على اقامة المشروعات كثير العمل لا يعرف التعب ولا الملل ولا مستحيل عنده . وكان ساهراً على ماجريات حكومته لا تقوته فائتة وأما أعمال الدائرة السنية فقد كان يطلع على جزئيات أعمالها وكتباتها فلا يباع قطار من الفحم الا بمصادقته

وكان عظيم الهية جليل المنام لا يستطيع مخاطبه الا الانبياد الى رايه حتى قيل على سبيل المبالغة ان الذين يخاطبونه يندفعون الى طاعته بالاستهواء أو النوم المنطيسي وكان حسن الفراسة قل أن ينظر في أمر الا استطلع كنهه فاذا نظر الى رجل عرف سره أو تنبأ بمستقبل أمره . ومما يتناقضونه عنه انه ادرك مستقبل احمد عرابي وهو لا يزال ضابطاً صغيراً فأوصى المغفور له الخديوي السابق أن لا يرقيه لثلا يتمكن من بث روحه الثورية فتقود الى ما لا محمد عقباه

وكان يتكلم الفرنسية جيداً وهي اللغة التي يخاطب بها الاجانب ويحسن العربية والتركية والفارسية ويحب الفخر والبذخ والابهة وكان منغمساً في الترف مكثراً من السراري والحظايا شديد الوطأة على العامة

ولكنه مع ذلك كان كثير الميل الى تنشيط المعارف ورفع منار العلم . ويؤيد ذلك ان مصر بليت عام ١٨٧٤ م بطغيان النيل فاصابها جهد عظيم فوجه التفاه الى حال المزارعين والتجار فاراد جماعة من تجار الاسكندرية أن يقيموا له تمثالا تذكاراً لفضله فأمر أن يقام بدل ذلك التمثال مدرسة للتعليم

تركته ووصيته

يعسر تقدير تركه اسماعيل تقديراً مدققاً لكثرة فروعها واختلاف جزئياتها وتفرقها في البلاد ولكن المعروف من تركته انه استبدل معاشه قبل مماته بأثنين وعشرين الف فدان من الاطيان باع الفين منها للاوقاف العمومية و ١٥٠٠ للجناح العالي فبقي له ١٨٥٠٠ فدان منها ١٢ الف فدان في تفتيش ايتاي البارود وقفها على زوجته الثلاث في حياتهن ثم يرثها ورثته بعدهن . والباقي وقدره ٦٥٠٠ فدان يقسم على الورثة . وترك غير ذلك مما ورثه عن والده وهو ٥٠٠٠ فدان وهبها لها المرحوم عباس باشا الاول وهي مرهونة و ٩٠٠ فدان وقصراً في حلوان وسراي القصر العالي و ٣٤ فداناً تابعة لها . وما ورثه عن ابنه المرحوم البرنس علي باشا جمالي الذي توفي منذ بضع عشرة سنة وهو ٦٠٠ فدان . وترك في العباسية قصر الزعفران وفي الاسكندرية قصر ميركون وهو يحتوي على قصرين كبيرين وقصرين صغيرين . وترك فيها أيضاً قناق بازيد وتقدر قيمة أرضه بثلاثين الف جنيهه وأصله للمرحوم البرنس حليم باشا ورثه عن اخته زينب هانم فاخذته جلالة السلطان منه ووهبه للفقيد . فهذه التركة كلها ما عدا سراي الزعفران تقسم على الورثة بعد ايفاء ديونه التي تقدر بنحو ١٨٠ الف جنيه

أما وصيته فانه كان قد أضاف ٤٧٠٠ أو ٤٨٠٠ فدان من أطيانه في أيام ولايته الى الاطيان الموقوفة على أهل قواله وقدرها ١٠ آلاف فدان في كفر الشيخ وجعل لنفسه الشروط العشرة في هذا الوقف بما فيها من حق التغير والابدال . ثم آلت نظارة هذا الوقف اليه ففصل ٤٧٠٠ فدان التي اضافها اليه عملاً بحقه ووقفها على حاشيته كلها ولم يستثن أحداً منهم فرنساوياً كان مثل سكرتيره أو انجليزياً مثل طبيبه أو غيرهما من الاتباع والجواري التي يبلغ عددهن ٤٥٠ جارية عدا ٤٠٠ يضاء كان قد زوجهن باعيان مصر قبل مفارقتها هذه البلاد

وقد أقام صديقه الحميم راتب باشا وكيلاً لحرمه وأوصى أن يعطى ١٥٠ جنيهاً شهرياً وأن تعطى حرمه ٥٠ جنيهاً شهرياً وان يضاف راتبها الى راتبه اذا توفيت في حياته ويؤخذ راتبها كليهما من تفتيش ايتاي البارود

وتأول نظارة وقف قواله بعده الى البرنس زبيدة هانم بنت محمد علي باشا الصغير ابن محمد علي باشا الكبير . وتأول نظارة وقف القصر العالي الى البرنس عثمان باشا فاضل ولهذا الوقف بيوت ونحو ١٢٠٠ فدان من الاطيان ويبلغ دخله نحو ٥ آلاف

جنيه سنوياً . وقد ترك سراي الزعفران لحرمه الثلاث . وكذلك كل منقولاته وقيمتها غير معلومة

محمد توفيق باشا الخديوي السابق

وُلد سنة ١٨٥٢ وتولى سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٢

هو أكبر أنجال المرحوم اسماعيل باشا الخديوي وُلد سنة ١٨٥٢ وأدخله والده مدرسة النيل وسنه تسع سنوات فدرس فيها اللغة والجغرافيا والتاريخ والطبيعات والرياضيات واللغات العربية والتركية والفرنساوية والانكليزية وكان ميالا للعلم



ش ٧٧ : محمد توفيق باشا الخديوي السابق

من صغر سنه فاحرز منه جانباً أهله لرئاسة المجلس الخصوصي في حياة والده وسنه ١٩ سنة . ثم تقلد نظارة الداخلية ونظارة الاشغال العمومية ورياسة مجلس النظار ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره تزوج بكرمة المرحوم الهادي باشا وهي مشهورة بالجمال والعقل والكمال . وفي السنة التالية (١٨٧٤) وُلد له بكره (الخديوي السابق)

فسماه عباس حلمي . ثم وُلد البرنس محمد علي سنة ١٨٧٦ والبرنس خديجة هانم سنة ١٨٧٧ والبرنس نعمت هانم سنة ١٨٨١

وما زال يتقلد المناصب في عهد المرحوم أبيه حتى قضت الاحوال باقالته كما تقدم في ترجمته . فاستلم رحمه الله أزمة الاحكام في ٢٦ يونيو سنة ١٨٨٩ وجاءه التلغراف من الصدر الاعظم يؤذن بذلك هذا نصه :

« بناء على ان الحطة المصرية هي من الاجزاء المتمة لجسم ممالك السلطنة السنية وان غاية حضرة صاحب الشوكة والاقتدار انما هي تأمين أسباب الترقى وحفظ الامن والعجارة في الممالك وبناء على ان الامتيازات والشرائط المخصوصة الممنوحة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المفاصل المذكورة الحيرية . وبناء على تزايد اهمية ما حصل في القطر المصري ناشئاً عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالي اسماعيل باشا . ثم انه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السنية الآصفية من الرشد وحسن الروية على ما ثبت لدى ملجأ الخلافة الاسمي من ان جنابكم الداوري ستوفقون الى استحصال أسباب الامنية والرفاهية لصنوف الاهالي والى ادارة أمور المملكة على وفق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العلية بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئصال آصفانيتكم وبناء على فرمان العلي الشأن الذي سيصدر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التي صار شرف صدورها . وبناء على ما كتب في التلغراف الى حضرة المشار اليه اسماعيل باشا من تخليه عن النظر في أمور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله . وقد محرر تلغراف هذا العاجز لكي يعان حال وصوله للعلماء والامراء والاعيان وأهل المملكة جميعاً وتباشر من بعده أمور الحكومة . وهذا من التوجيهات الوجيهة الى اثر استحقاق آصفانيتكم لتجري التنظيمات والترقيات مبدأً ومقدمة ويصير تكرير الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى ايفاء لوازم التهئة لحضرتكم أيها الخديوي المعظم والامر والفرمان على كل حال لمن له الامر اقدم »

الامضاء

خير الدين

فصدرت الاوامر باعداد ما يلزم للاحتفال بذلك وجلس سموه في القلعة يستقبل المهنيين من الوزراء والعلماء يتقدمهم نقيب الاشراف ثم القاضي ثم شيخ الجامع الازهر ثم جاء القناصل وبعد ذلك دخل الذوات وامراء العسكرية والمملكة ثم رجال الحفانية

ثم النواب ووجهاء البلاد ثم أرباب الجرائد ثم الموظفون والمستخدمون وغيرهم . ومن جملة من وفد للتهنئة وفد ماسوني جاء بالنيابة عن الشرق الاعظم المصري فقدم ببوديته فقال من سموه عواطف الرضاء عنهم وعن أعمالهم ووعدهم رعاية محافلهم وحمايتهم فانصرفوا شاكرين . وبعد ذلك أرسل الجناب الخديوي تلغرافاً الى الباب العالي جواباً على التلغراف المؤذن بارتقائه الى كرسي الخديوية

كيف كانت حالة مصر

لما تولاهما توفيق باشا

اقبل اسماعيل ومصر تحت المراقبة المالية وقد فرغت خزينتها من المال وافسدت قلوب جندها على امرائهم حتى كسروا قيد الحرمة بالثورة التي احدثها اسماعيل . وقد تنافرت قلوب سكان هذا القطر بسياسة خديويها المعزول فانه اغضب العامة بشدة وطأته عليهم وجعل الاتيئاء في خطر على أموالهم وبعث الاجانب على سوء الظن بالحكومة لتأخرها عن دفع ديونهم ولم يتفق الدول على العمل في حفظ حقوقها . وقد اشتد كره العرب للأتراك وخوف الأتراك من الافرنج فلم يكن ثمة مندوحة عن الاستعانة باوروبا لتسوية الاحوال واستمرارها

وكان في جملة المشاكل التي خلفها اسماعيل بمصر اضطراب العلائق بينها وبين الباب العالي . وكان الباب العالي قد منح اسماعيل امتيازات أهمها أربعة (١) جعل ولاية العهد في الانشاء (٢) حق عقد المعاهدات التجارية مع الدول (٣) عقد القروض المالية (٤) زيادة عدد الجند حسب الحاجة . فلما اقبل اسماعيل أراد السلطان إلغاء هذه الامتيازات وتصدت للدفاع عنها انكلترا وفرنسا صاحبتا المراقبة على احوال مصر . وكانت فرنسا تحب قطع علاقة مصر مع الباب العالي أو حلها على الاقل . وأما انكلترا فكانت لا ترى خروج مصر من سيادة الدولة العثمانية . واتفقت الدولتان على بقاء الارث في البكر من الانباء لانه ادعى الى منع الفتن والدسائس ودافعا عن تفويض مصر في عقد المعاهدات التجارية وعقد القروض . لكن السلطان اقلح في تحديد عدد الجند فجعله لا يزيد على ١٨.٠٠٠ جندي وصدر فرمان بذلك في ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٩ وهذا نصه :

الفرمان بولاية توفيق باشا

« الدستور الاكرم والمعظم الخديوي الانخم المحترم نظام العالم وناظم منازم الامم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي الصائب مهذب ببيان الدولة

والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناهوس السلطنة العظمى الخفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوي مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلاً الحامل لنيشتاتنا الهيايوني المرصع العثماني ونيشتاتنا المرصع الجيدي وزيري سمير المعالي توفيق باشا أدام الله تعالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله

« انه لدى وصول توقيعنا الهيايوني الرفيع يكون معلوماً لكم انه بناء على انفصال اسماعيل باشا خديوي مصر في اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ هـ وحسن خدماتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا ان لكم وقوفاً ومعلومات نامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفؤ لتسوية بعض الاحوال للغير المرضية التي ظهرت بمصر منذ مدة واصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضي المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقاً للقاعدة المتخذة بالفرمان العالي الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى اكبر الاولاد وحيث انكم اكبر اولاد الباشا المشار اليه قد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية . ولما كان تزايد عمران الخديوية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر ان بعض احكام فرمان العلي الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيه الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديماً نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد التي لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدا وصار تبديل المواد المقتضي تبديلها وتعديلها واصلاحها فما تقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية وهي :

« ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون محصيلها واستيفائها باسمنا الشاهاني . وحيث ان أهالي مصر أيضاً من تبة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة أمور المملكة والمالية والعادلة بشرط ان لا يقع في حقهم أدنى ظلم ولا تعد في وقت من الاوقات لخديوي مصر يكون مأذوناً بوضع النظمات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وأيضاً يكون خديوي مصر مأذوناً بعقد وتحديد المشاركات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجمر والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولأجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب أو بين الاهالي والاجانب بشرط عدم وقوع خلل

بمعاهدات دولتنا العلية البولوتيقية وفي حقوق متبوعية مصر اليها . وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وايضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة في أمور المالية لكنه لا يكون مأذوناً بعقد استقراض من الآن وصاعداً بوجه من الوجوه وانما يكون مأذوناً بعقد استقراض بالاتفاق مع المدائنين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسمياً . وهذا الاستقراض يكون منحصراً في تسوية أحوال المالية الحاضرة وخصوصاً بها . وحيث ان الامتيازات التي أعطيت الى مصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لأي سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضي المصرية الى الغير مطلقاً . ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ الف ليرة عثمانية وهو الوركو المقرر دفعه في كل سنة في أوانه . وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني . ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر ألفاً لأن هذا القدر كاف لحفظ أمانة إيالة مصر الداخلية في وقت الصلح . وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا يجوز ان يزداد مقدار العساكر بالصورة التي تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة . وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياسينهم . ويباح لخديوي مصر ان يعطي الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة أميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية . ولا يرخص لخديوي مصر ان ينشئ سفناً مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية . ومن الواجب ، وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها . وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمراً هذا الجليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهايوني وهو مرسل بحجة افتخار الاعالي والاعاظم ومختار الاكابر والافاضل علي فؤاد بك باشكاتب المايين الهايوني ومن أعظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والحجيدية ذات الشأن والشرف »

« حرر في ١٩ شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العزة والشرف »
وكان توفيق باشا من أشد الخديويين غيرة على الوطن المصري ولم يكن له بد من تشكيل وزارة يثق بها تعيينه على الحكومة مع تحديد سلطته وسلطانها وعلاقة البلاد بالدولة العثمانية . فانتدب المرحوم شريف باشا لتشكيل وزارة فلي الدعوة لكنه عرض عليه لأخذه في انشاء الدستور فلم يوافق الخديوي عليها فقدم استعفاؤه في ١٨ اغسطس

سنة ١٨٧٩ فقبل . فعزم الخديوي رحمه الله ان يتولى رئاسة الوزارة بنفسه . ولم يطل ذلك فانتدب رياض باشا لتشكيل الوزارة فشكلها في ٢٢ سبتمبر تحت رئاسته . وفي أثناء ذلك وافق الخديوي على تعيين المفتشين الماليين لمراقبة مالية مصر وهما المسيو بارنج (اللورد كرومر) عن انكلترا والمسيو بلينيار عن فرنسا . وكانت الحكومة الخديوية قد أصدرت أمراً عالياً بحدود سيادة هذين المفتشين فجعلت لهما حق الحضور في مجلس النظار على ان يكون لهما رأي استشاري . فلم تمض بضعة أشهر حتى استقرت أحوال الحكومة وتشكلت الوزارة وتقررت العلائق بين مصر والسلطان وبينها وبين المراقبين أو المفتشين الماليين . ولم يتم حسن التفاهم بينهما وبين الوزارة الا بعد حين وكان في جملة العراقيل في سبيل الازمة المالية مسألة تصفية الديون وتقدير الميزانية الجديدة

تصفية الديون

أما تصفية الديون فتعينت لها لجنة في ٥ ابريل سنة ١٨٨٠ من خمسة أعضاء أورباويين وعضو وطني هو المرحوم بطرس باشا غالي لينوب عن الحكومة المصرية . وأخذت اللجنة في عقد جلساتها والعمل مع المفتشين الماليين وفرغت من ذلك في ١١ يوليو من تلك السنة ووضعت قانوناً صادق عليه الجنب الخديوي هذه خلاصته :

(١) ان صافي إيرادات السكك الحديدية والتلغرافات ومينا الاسكندرية يكون مخصصاً لتسديد فوائد واستهلاك الدين الممتاز دون غيره أما قائلته فتبقى ٥ بالمائة على القيمة الاسمية . والقيمة التي تدفع سنوياً لفائدة واستهلاك هذا الدين تكون ١١٥٧٧٦٨ جنبها سنوياً

(٢) ان صافي إيرادات الجمارك وعوائد الدخان الوارد ومديريات الغريبة والمنوفية والبحيرة وأسيوط بما فيه جميع الرسوم المقررة إلا ايراد الملح والدخان البلدي . جميع صافي هذه الإيرادات تبقى مخصصة لتسديد الدين الموحد والفائدة باعتبار أربعة بالمائة

(٣) ان املاك الدائرة السنية واملاك الدائرة الخاصة المذكورة في الكشفوف والرهون العقارية المسجلة وغيرها تكون ملكاً للحكومة وهي تكون مخصصة لضمان دين الدائرة السنية العمومي

(٤) تسوية الدين السائر تكون من البواقي من سلفة الاملاك الاميرية ومن النقود الباقية لغاية سنة ١٨٧٩ في خزينة النظارات والمديريات والمصالح التي لم تخصص للدين

المنتظم ومن الزائد من دفعات المقابلة وموجود نقدية في صندوق الدين العمومي ومن المبالغ التي يمكن تحصيلها من المآخرات لغاية ١٨٧٩ م ومن العوائد والرسوم والاموال من أي نوع كانت . ومن العقارات الجائز للحكومة التصرف بها ولم تكن مخصصة . وما ينتج من تغير الثبونات أو السندات . ومن سندات الدين الممتاز التي توجد على مقتضى المدون في البند السادس من قانون التصفية . ومن الجزء المخصص لاستهلاك الدين المنتظم حسب المدون في البند ١٥ من القانون . ومن الزيادات التي تظهر في الموازين كما هو مبين في البند السابع من قانون التصفية

هذه شذرة صغيرة من قانون التصفية ومن أحب التفصيل فليراجع القانون نفسه فإنه مؤلف من ٩٩ بدأ ومعه كشفان عن التسويات التي حصلت وغيرها

وبذلت الحكومة جهدها باثاء ذلك في تخفيف ائقال الاهلين وفي نشر الامن فأصدرت أمراً بالغاء الضرائب الدينية والشخصية وابطلت بون حليم باشا . ثم دأمتها الثورة العسكرية المعروفة بالحوادث العراية فأحدثت فيها انقلاباً سياسياً لا يزال باقياً الى الآن واليك تفصيلها :

الثورة العسكرية أو الحوادث العراية

تمهيد في العرب والترك

ما زالت مصر منذ دخلت في حوزة الاتراك قبل العثمانيين وبعدهم وهي ترى للتركي حقاً في السيادة تهابه وتخشى بأسه وتتوقع منه الاستبداد - رغم قلة الاتراك وكثرة العرب . وقد ظهر نفوذهم على الخصوص في الجندية فقد كانت المناصب العالية والرواتب الفادحة والكلمة النافذة للتركي وما على العربي الا الطاعة . ويندر فيهم من يجسر على الشكوى أو التظلم جهاراً ولعل أول من فعل ذلك منهم أحمد عرابي وهو جندي صغير . وقد جراه على ذلك سعيد باشا بما كان له من الرغبة في رفع شأن أبناء العرب . وهاك ما رواه احمد عرابي نفسه في اثناء كلامه عن سيرة حياته قال :

« وكان المرحوم سعيد باشا عليه سحائب الرحمة والرضوان قد تولى الحكومة الخديوية في ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ وأمر بدخول أولاد مشايخ البلاد وأقاربهم في العسكرية فدخلت من ضمنهم وانتظمت في سلك الاورطة السعيدية المصرية بقناطر قم البحر في شهر ربيع أول عام ١٢٧١ وجعلت فيها وكيل بلوك أمين من أول يوم صار انتظامي في سلك العسكرية بعد امتحاني بحضور ابراهيم بك أمير الالاي وحسن

أقندي الالاي حكيم الالاي . ثم ترقيت الى رتبة بلوك أمين في شهر رجب من السنة المذكورة . بعد اعادة الامتحان مع الطالبين لذلك من غير واسطة أحد غير الجد والاجتهاد . وبعد عام نظرت فرأيت بعض الباشجاويشية المصريين ترقى الى رتبة الملازم الثاني وعلمت أن البلوك أمين لا يترقى الا الى رتبة الصول قول اغاسي وفيها يفني عمره . فجزعت من ذلك وذهبت الى أمير الالاي وطلبت منه ترتبي في رتبة جاويش في اورطة كانت أفرزت لارسالها الى مدينة المنصورة . فسألني الميرالاي المذكور عن سبب ذلك حيث ان راتب الجاويش أقل ١٠ قروش من راتب البلوك أمين وان كانت الرتبتان متساويتين . فافصحت له عما خالج فكري واني اذا صرت جاويشاً سهل علي الحصول على رتبة الباشجاويش ثم الانتقال الى رتبة ضابط . فعجب لذلك الخاطر وأمر في الحال بمجلي جاويشاً . فكشفت في هذه الرتبة سنتين وفي تلك المدة حبس الي الاعزال عن الناس والاشتغال بدراسة قوانين العسكرية مع التدبر في معانيها حتى أتقنت قانون الداخلية وقوانين تعليم النفر والبلوك والاورطة وبعض فصول من تعليم الالاي . وفي أوائل عام ١٢٧٤ أمر سعادة راتب باشا بجمع الصف ضباط فاجتمعنا حوله في فسحة قصر النيل وبلغنا ارادة المرحوم سعيد باشا وقال :

إن أقندينا بلغه انكم تقولون فيما بينكم كيف يصير ترقى الصف ضباط الجدد وتأخير من هو أقدم منهم في الرتب وانه أمر أن لا يترقى أحد بعد الآن الا بعد الامتحان علماً وعملاً فمن فاق أقرانه في الامتحان ترقى الى الرتبة التي يستحقها ولو لم يلبث في رتبته الاولى غير شهر واحد فمن أراد منكم الامتحان فليتقدم الى الامام . فعند ذلك تقدمت أمام سعادته وأحجم الآخرون خوفاً وهلعاً ظناً منهم أنه يريد عاقبة من يتظاهر بذلك . ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ عدد الراغبين في الامتحان نحو ٣٠ شخصاً فصار امتحانهم بحضوره تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا الفريق فكشفت أول فائز في الامتحان « اه

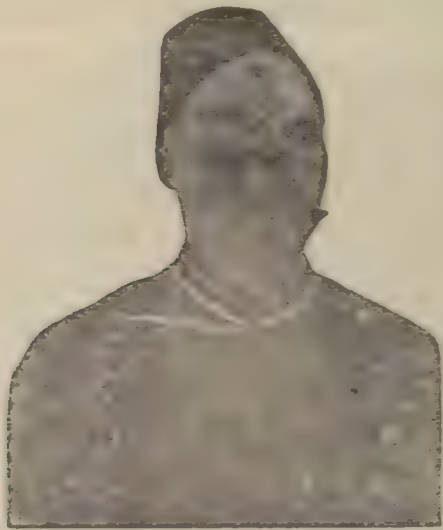
وخفي ذلك أن الوطنيين يشكون من ترقية سوامم وتأخيرهم . فلم يكن ذلك إلا ليزيد الضغائن في صدور الاتراك والشراكة من كبار الضباط . وخصوصاً في زمن اسماعيل فإنه لم يكن يرى رفع شأن الوطنيين فكشفت الضغائن تتزايد بينهم وبين الاتراك والشراكة ولكن اسماعيل كان شديد الوطأة بخافه العرب والاراك فلم يحدث في أيامه ما يخشي عاقبه وان يكن هو أول من جرأ الجند على التمرد وطلب الحقوق كما تقدم في سيرة حياته

فلما أفضت الخديوية الى المرحوم توفيق باشا وكان محباً للوطنين رقيقاً بهم راغباً في رفع شأنهم تنفسوا الصعداء . وأنعم على الضباط بالرتب وفي جملتهم أحمد عرابي أول نشأة عرابي

هو في الاصل من أبناء الفلاحين ويرجع بنسبه الى الامام الحسين وقد قص رحمة حياته للهلاك في بضع وعشرين صفحة نشرت في راجم مشاهير الشرق الجزء الاول تقتطف منها قوله في نشأته الاولى قال :

« ومولدي بقرية هرية رزنة بمديرية الشرقية على ميلين من شرقي الزقازيق وهي بلدة قديمة جداً من ضواحي مدينة بوابسة كرسي مملوكة العائلة ٢٢ في زمن شيشاق ابن عمرو التي يقال لها الان (تل بسطة) . وعشيرتي فيها نحو ربع تعدادها وكان والدي رحمه الله تعالى شيخاً عليها الى أن توفي في شهر شعبان سنة ١٢٦٤ هـ في زمن الهواء الاصفر عن ثلاث نسوة وأربعة أولاد وست بنات . وكنت ثاني أولاده الذكور وسني ٨ سنوات وترك لنا ٢٤ فداناً ولو شاء لاستكثر من الاطيان الزراعية ولكنه كان رحمه الله راعي مصلحة أبناء عمومته حيث ان اطيان القرية كغيرها كانت مكلفة بأسماء المشايخ يوزعونها بمقرتهم على أهل بلادهم بحسب الاحتياج وظلت كذلك الى عهد المغفور له عباس باشا الاول وهو أول من كلف الاطيان بأسماء الافراد وألزمهم بدفع خراجها ومازاد عنهم بترك للبري ويسمونه المتروك . وكان والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان علماً فاضلاً تقياً نقياً أقام بالجامع الازهر ٢٠ سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير وبرع في كثير من العلوم الثقيلة والعقلية على كثير من المشايخ كشيخ الاسلام القويسني رحمه الله تعالى وغيره من العلماء الاطهار — ولما آلت اليه وظيفة الشياخة على عشيرته جدد عمارة المسجد المنسوب الى عشيرته بالقرية وفيه أربعة أعمدة من الحجر الصوان القديم ومنبر من الخشب عجيب الصنعة . وأنشأ بجوار المسجد مكتباً لتعليم القرآن الشريف وجعل له فقيهاً صالحاً عالماً يسمى الشيخ نجم من سلالة السيد العازي وألزم الاهالي بتعليم أولادهم . وكان رحمه الله يشدد عليهم في ذلك حتى صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة يحسنون القراءة والكتابة وكل منهم يعرف واجباته الدينية . ومنهم نحو مائة وخمسين فقيهاً عالماً ومنهم المرحوم الشيخ محمد حسين الهراوي من علماء الجامع الازهر والشيخ العارف بالله ابراهيم المصلي نعم الله به المسلمين . فلما بلغ سني ٥ سنوات أرسلني والدي الى المكتب المذكور . فافت فيه ثلاثة أعوام ختمت فيها القرآن الشريف وعمرني إذ ذاك ثماني سنين وبضعة شهور . فلما توفي

والدي كفاني أخي الاكبر المرحوم السيد محمد عرابي الذي توفي في ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨ رحمه الله تعالى وأخذت عنه مبادئ علم الحساب وتحسين الخط مع ملاحظة بعض أشغال الزراعة . ثم بدا لي المجاورة في الازهر حين بلغت اثني عشر عاماً فكنت أجود القرآن على أقاربي وأهل بلدي نهائياً وأتوجه الى بيت عمي ليلاً وتلقيت قليلاً من الفقه والنحو وبعد سنتين رجعت الى بلدي اهـ



ش ٧٨ : احمد عرابي بلباسه العسكري

وقد تقدم ما قاله عن نفسه في زمن سعيد باشا وقد ارتقى في أيامه الى رتبة قائمقام وظل في هذه الرتبة كل أيام اسماعيل . فلما تولى توفيق باشا أحسن اليه برتبة أميرالاي على الالاي الرابع . ولما تشكلت الوزارة الرياضية التي تقدم ذكرها كان ناظر الجهادية فيها عثمان رفقي باشا وهو شركي متعصب على العرب وفي جملة مساعيه أن يمنع ترقية المصريين من العسكر العامل في الالايات والاكتفاء بما يستخرج من المدارس الحريسة وصدرت أوامر بذلك . ثم أردفها بإحالة عبد العال حلمي بك أميرالاي السودان على ديوان الجهادية ليكون معاوناً وكان عمره اذ ذاك أربعين سنة . ورتب بدله خورشيد نهمان بك من جنسه على الالاي المذكور وكان سنه فوق الستين وهو ضعيف لا يقدر على الحركة العسكرية وأمر برفق احمد بك عبد الغفار

قامقام السواري وترتيب شاكر بك طرازه من جنسه بدله وهو طاعن في السن ثم ختمت تلك الاوامر وقيدت بدفاتر الجهادية

وكان احمد عرابي قد نال منزلة بين أقرانه لما فطر عليه من الجرأة والغيرة فاراد الضباط أبناء العرب الاجتماع للاحتجاج على هذه المعاملة فاختروا ليلة أقيمت فيها وليمة يتلى فيها القرآن بمنزل نجم الدين باشا بمناسبة عودته من الحج في ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ قال احمد عرابي يروي الواقع بنفسه وهو من جملة المدعويين

« ولما وصلت الى منزل الداعي وجدته غاصاً بالدوات العسكرية وغيرهم جلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردي الاصل وبجانبه المرحوم اسماعيل كامل باشا الفريق وهو شركسي الاصل ولكنه يتظاهر بحب العدل والانصاف فاخبرني نجيب بك بما صار وانه نصح لناظر الجهادية بالاعراض عن هذا الاحجاف فلم يصغ لقوله ولذا فهو ساخط ومضطرب ثم اوعز اليه ان يخبرني بما سمع منه . فأخبرني نجيب بك بحقيقة الحال همساً في أذني فقلت لاسماعيل باشا كامل « أحق هذا ؟ » فقال « نعم وأعطيت الاوامر الى الكتبة للاجراء على مقتضاها » فقلت له « ان تلك لقمة كبيرة لا يقوى ناظر الجهادية عثمان رقيقي على هضمها » وبعد تناول طعام الوليمة حضر لي احد الضباط وأخبرني بأن كثيراً من الضباط ينتظرونني بمنزلي وفيهم عبيد العال بك حلمي وعلي بك فهمي . فاسرعت اليهم وهم في هياج عظيم وقد بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأوني أخبروني بما سمعته من المرحوم اسماعيل باشا كامل . فقلت لهم « قد سمعت من غيركم فاذا تريدون » فقالوا « انه ليس ذلك فقط بل انه قد كثر اجتماع الشراكة بمنزل خسرو باشا الفريق صغيراً وكبيراً وهم يتناكرون كل ليلة في تاريخ دولة الممالك بحضور عثمان رقيقي باشا ويلغنون حزبك ويقولون قد حان الوقت لرد بضاعتنا وانهم لا يغلبون من قلة وظنوا أنهم قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل اولئك الممالك » . وقد تحققت ذلك ممن يوثق بخبره . فقلت لهم « وماذا تريدون اذا ؟ » فقالوا انما جئناك لاختار رأيك فيما دهننا من الخطب العظيم » . فقلت لهم « أرى ان تطيخوا نفوسكم وتهذبوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا لهم النظر في مصالحكم وهم ينتخبون لكم رئيساً منهم يتقنون به كل الوثوق ويطيعون أمره ويحفظونه بمعاضدتكم » فقالوا كلهم « قد فوضنا الامر اليك وليس فينا من هو أحق به واقدر عليه منك » . فقلت لهم « لا . انظروا غيري وانا اسمع

له واطيع وانصح له جهدي » فقالوا « لا نبغي غيرك ولا تتق الابك » فقلت « فارجعوا لا تفكسكم فان هذا أمر عصيب لا يسع الحكومة الاقتل من يقوم به أو يدعو اليه » . فقالوا « نحن نقديك ونفدي الوطن بأرواحنا » . فقلت لهم « اقساموا لي على ذلك »



ش ٧٩ : رياض باشا

فأقسموا . وفي الحال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رقيقي لجنسه والاحجاف بحقوقي الوطنيين والتمست فيها

أولاً تشكيل مجلس نواب من نبيهاء الامة المصرية تنفيذاً للأمر الخديوي الصادر ابلت توليته . ثانياً ابلاغ الجيش الى ثمانية عشر ألفاً تطبيقاً لمنطوق فرمان السلطاني . ثالثاً تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواة بين جميع اصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب . رابعاً تعيين ناظر الجهادية من أبناء البلاد على حسب القوانين العسكرية التي بأيدينا . ثم تلوت العريضة هذه على مسامع الجميع فوافقوا كلهم عليها فأمصيتها بامضائي وختمتها بختمتي وختم عليها أيضاً علي فهمي بك أمير الاي الحرس الخديوي وعبد العال بك أمير الاي السودان « اه

ويظن اللورد كرومر ان الحرك الاصلية لهذه الحركة الاميرالاي علي فهمي قومندان الاي الاول وعليه حراسة القصر الخديوي . وكان قد استاء من معاملة الخديوي فاراد ان ينتقم لنفسه فدبر هذه المظاهرة

فوز العرايين الاول

ولما وصلت العريضة الى رياض باشا استخف بها وأهمل الرد عليها أياماً وهو يحرض أصحابها على سحبها وهم يرفضون . ثم بلغهم أن عريضتهم كان لها وقع سيء عند الخديوي وحاشيته الأتراك . ثم أرسل الخديوي يلح على الوزارة بسرعة الرد فقررت سرّاً محاكمة العارضين في مجلس عسكري بعد أن يقبض عليهم ويسجنوا . لكن ذلك السر وصلهم فاستعدوا للدفاع . فلما جاء أمر النظار بدعوتهم الى قصر النيل دبروا شأنهم مع الاالات وذهبوا الى القصر فجددوهم من السلاح وأوقفوهم تحت المحاكمة وإذا برجال آلايتهم قد دخلوا بالقوة وأتخذوهم وساروا بهم الى سراي عابدين وألحوا في طلب عزل ناظر الجهادية . فلم نجد الحكومة بدءاً من اجابة الطلب لان القوة في غير أيديها . فاجابهم الخديوي بعزل رفيقي باشا وتعيين محمود باشا سامي البارودي مكانه وهو من حزبهم ويقال انه هو الذي أبلغهم قرار مجلس النظار بالقبض عليهم

وأثر خضوع الحكومة لمطالب الوطنيين هذه المرة تأثيراً شديداً اذ تحقق لديهم انهم اذا اتحدوا وثبتوا لا بد من نيل ما يطلبونه . وقام في نقوسهم حقد على رياض باشا والخديوي وقوى هذا الاحساس فيهم فنصّل فرنسا يومئذ البارون درين لانه كان يحسن أعمال رجال العسكرية في أعينهم فيزدادون تمرداً وبلغ ذلك الى الجنب الخديوي فشكاه الى حكومته فاقالته . وبعث الخديوي الى كبار الضباط وطيب خاطرهم وأكد لهم ثقته في رياض باشا وانه سيزيد الرواتب ويساوي بينهم على اختلاف أجناسهم

أما زعماء الثورة فلم يزالوا خائفين من نجاحهم السريع واعتبروا تلك الحاسنة مكيدة من الحكومة لتسكين جأشهم ثم تحتال للاغتيال بهم فاكثروا من التحفظ وشرعوا في عقد مجالس سرية ليلية في منزل أحمد عرابي يدعون اليها خواصهم ويتفاوضون في أمر اجتماع كلتهم والوقاية من الاغتيال . فاقترحوا على ديوان الجهادية اقتراحات عديدة تعزز جانبهم فتسكن عرابي بذلك من استمالة قوم العسكرية فطفق يثأر أوفكاره بين الاهلين من مشايخ العربان وعمد البلاد وأعيانها وعلمائها وتجارها استجلاباً لمساعدتهم في مشروعه العائد الى تفهمهم على ما زعم وكتب اليهم في ذلك منشورات ثورية ايقاعاً بالوزارة الرياضية



ش ٨٠ : محمود باشا سامي البارودي

وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ هـ أو ٢٠ أبريل سنة ١٨٨١ م أصدر الجنب الخديوي باقتراح رياض باشا رئيس النظار أمراً عالياً بشأن زيادة مرتبات الضباط والعساكر وتعديل النظمات والقوانين العسكرية بناء على طلب محمود باشا سامي ناظر الجهادية فاحتفل هذا احتفالاً فاخراً في قصر النيل دعا اليه النظار والمفتشين احتفاءً بصور ذلك الامر خطب فيه رياض باشا ومحمود سامي وأحمد عرابي ثناءً طيباً على

المسكارم الخديوية لما منحه لجماعة الجهادية من الانعام

وفي ٢٨ شبان أو ٢٥ يوليو كان الجناح الخديوي في مصيفه في الاسكندرية فاتفق ان عربة أحد تجار الاسكندرية صدمت جندياً من الطبعية صدمة قضت عليه فحمله رفقائه الى سراي رأس التين وطلبوا الى الخديوي النظر في أمره فوعدهم فسكن جاشهم. وبعد بضعة أيام تشكل مجلس حربي أصدر حكمه على النفر الذي حمل رفقائه على المسير الى رأس التين بالاشغال الشاقة طول حياته. أما رفقائه وهم ثمانية حكم عليهم بثلاث سنوات في السجن وبعد ذلك يرسلون الى السودان أنقاراً للجهادية. فبعث عبد العال أميرالاي الفرقة السودانية الى ناظر الجهادية محمود سامي يشكو من قسوة ذلك الحكم فرفع سامي تلك الشكوى الى الخديوي فتبكر واستدعى في الحال الوزراء تلغرافياً الى الاسكندرية فأتوها في ٧ رمضان أو ٢ أغسطس وعقدوا برئاسته مجلساً قدم فيه ناظر الجهادية استغفاه فقبل وعين بدلاً منه داود باشا يكن واستلم الاعمال وعاد النظار الى العاصمة وهدأت الاحوال بحسب الظاهر. والواقع أن الوطنيين ساء لهم قبول استغفاء محمود باشا سامي لانهم يعدونه من اكبر انصارهم

تغير القلوب بين الخديوي والعرايين

فاصبح العرايون ينظرون الى الخديوي ووزرائه بعين الارتياب والحذر وشاع يومئذ ان الخديوي استنقى شيخ الاسلام بقتلهم لانهم خانوا الدولة والامة وهي اشاعة كاذبة لكنها أخذت مأخذ الصدق وازداد العرايون بها حذراً وسوء ظن

وفي ١٥ شوال أو ٩ سبتمبر ١٨٨١ بعد عود الجناح الخديوي من الاسكندرية صدر أمر من نظارة الجهادية الى آلاي القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وأمر آخر الى آلاي الاسكندرية بالجيء الى المحروسة فاعزز عرابي الى آلاي القلعة ان تلك الاوامر لا يقصد بها الا تفريق كلمتهم فصرح ذلك الالاي بعدم امثاله لما أمر به. وفي خلال ذلك كان عرابي يخاطب الآلايات بالاشارة أن يستعدوا للحضور الى ساحة عابدين في أول سبتمبر ثم أرسل كتابه الى الخديوي والى نظارة الحفانية يخبرهم فيها ان الجيش سيحضر الى سراي عابدين لبدء اقتراحات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وكتب مثل ذلك الى قناصل الدول مبنياً أن لا خوف من هذه الحركات على أبناء تابعيتهم لانها متصلة الغاية بالاحوال الداخلية. فأرسل الجناح الخديوي وفداً الى زعماء الثوزة وهم عرابي وعبد العال واحمد عبد الغفار ينصحهم أن يكفوا عن اجرا آتهم وتوجه بنفسه ومعه السير اوكلن كلفن قنصل انكلترا والنظار الى آلاي عابدين وأخذ

ينصحهم فتظاهروا بالاتصاح وتوزعوا في نوافذ السراي وقاية لها. ثم توجه الجناح الخديوي ورفقائه الى القلعة للعرض عيه. فاجابه الجيش هناك « نحن مطيعون لاوامر ولي نعمتنا غير اننا اخبرنا بان المقصود من تسفيرنا اغراقنا عند كوبري كفر الزيات » فقال سموه لمن معه « يظهر ان العساكر مغرورون » ثم تركهم وقصد العباسية لايقاف عرابي فلم يجد له اقل له انه سار في جنده الى عابدين فعاد سموه أيضاً اليها

مظاهرة ساحة عابدين

وأشار عليه كلفن أن يبقى في الساحة ويدعو عرابي اليه ويأمره بالترجل ففعل فسأله عن الغرض من هذا الاجتماع فاجابه انه جاء يطلب أموراً عادلة فقال ما هي: فاجاب « اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام »

قال الخديوي « كل هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية »

فكف عرابي وأشارت القناصل على الخديوي ان ينقلب الى داخل

ثم قال قنصل انكلترا الى عرابي بالنيابة عن الجناح الخديوي « ان اسقاط الوزارة من خصائص الخديوي وطلب تشكيل مجلس النواب من متعلقات الامة ولا وجه لزيادة الجيش لأن البلاد في طمأنينة فضلاً عن ان مالية مصر لا تساعد على ذلك أما التصديق على القانون فينفذ بعد اطلاع الوزراء عليه. أما عزل شيخ الاسلام فلا بد من اسناده الى اسباب »

فأجاب عرابي « اعلم يا حضرة القنصل ان طلباتي المتعلقة بالاهلين لم أقدم عليها الا لأنهم انابوني بتنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر لأنهم اخوتهم وأولادهم فهم القوة التي ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالمنفعة. واعلم اننا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ »

قال القنصل « اذا تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة الامر الذي يخشى منه ضياع بلادكم »

فقال عرابي « ذلك لا يكون ومن ذا الذي ينازعنا في اصلاح داخلينا؟ فاعلم اننا نقاومه أشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا »

القنصل - « وأين هذه القوة التي ستقاوم بها »

عرابي - « في وسعي أن احشد في زمن يسير مليوناً من العساكر طوع ارادتي »

القنصل - « وماذا تفعل اذا لم تمل ما طلبت »

عراي - « أقول كلمة ثانية »

القنصل - « وما هي »

عراي - « لا أقولها الا عند القنوط »

ثم انقطعت الاخبار بين الفريقين نحواً من ثلاث ساعات تداول القناصل والحدوي في أثناءها داخل السراي واستقر الرأي على اجابة طلبات عراي وانفاذها تدريجياً لأن بعضها يحتاج لخبرة الباب العالي

فاصر عراي على تنزيل الوزارة قبل انصرافه فنزلت واستدعي شريف باشا وبعد التيا والتي قبل بأن يشكل وزارة جديدة بشرط ان يتعهد له رؤساء الحزب العسكري بالامثال لاوامره وان يقدم عمده البلاد ضماناً على ذلك فحصل وتمكنت الوزارة وجعل محمود سامي ناظراً للجهادية



ش ٨١ : شريف باشا

فاوعز شريف باشا الى عراي ان يتوجه بالايه الى راس الوادي في مديرية الشرقية والى عبد العال ان يسير بالايه الى دمياط فامتلا وسارا الى حيث امرا باحتفال عظيم وخطب عبد الله نديم محرر جريدة الطائف وحسن الشمسي محرر جريدة المفيد في الحطة خطباً هناؤها الحزب الوطني على فوزه

هذه الثورة العسكرية الثالثة اذا اعتبرنا ثورة الضباط في أيام اسماعيل الاولى وكل

منها انقضت باسقاط الوزارة أو بعزل وزير كبير

ولما استقر عراي في رأس الوادي جعل يتجول في أنحاء المديرية يبيت مباديه في نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان فاستدعته الحكومة الى العاصمة وعرضت عليه رتبة لواء ومنصب وكيل نظارة الجهادية فقبل الثانية ورفض الاولى ليقى الا لاي في عهده ولما استوى على منصبه الجديد جعل يعقد الحافل في منزله علانية ونوسط بالغفو عن حسن موسى العقاد أحد تجار الحروسة وكان مبعداً في السودان . فأجابه الجبابر الحدوي الى ذلك ثم سعى في عزل الشيخ العباسي من مشيخة الاسلام واستبداله بالشيخ الامباني

وفي ٢٨ شوال سنة ١٢٩٨ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨١ م) صدقت الحكومة المصرية على القوانين العسكرية الجديدة وهي من ضمن طلبات الجهادية يوم حادثة عابدين تحتوي على قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية وفروعها وقانون القواعد الاساسية في المنظمات العسكرية وقانون الترقى وقانون الضمان والامتيازات والاعانة العسكرية . وبعد التصديق عليها جاء الى شريف باشا وفد جهادي وقدموا له الشكر على اعتناهم بمطالبهم وبينوا ارياحهم الى وزارته وأكدوا له اخلاصهم

وفي ١١ ذي القعدة أو ٤ اكتوبر من تلك السنة صدر الامر العالي باعتماد اللائحة في انتخاب مجلس النواب بناء على تقرير رفع الى شريف باشا مديلاً بالف وسمائة توقيع يتضمن طلب تشكيل المجلس الثيابي ومن مقتضى تلك اللائحة أن يكون النواب واحداً أو اثنين من كل مديرية و ٣ من مصر و ٢ من الاسكندرية وواحداً من دمياط على شروط مذكورة في اللائحة . ووزعت نظارة الداخلية منشورات بشأن ذلك الى المديريات

مصر والدولة العثمانية

لا يخفى ان مصر نالت امتيازها واستقلت بادارتها رغم ارادة الباب العالي وما برحت الدولة منذ منحت ذلك الامتياز وهي تتحين الفرص لارجاع سيطرتها الى وادي النيل وكان من جملة مطالب العرايين تشكيهم من النفوذ الاجنبي بمصر وامتياز الاجانب على الوطنيين من كل وجه وكتب عراي الى الاستانة يشكو ذلك الى السلطان وهو يومئذ السلطان عبد الحميد وكان قد اخذ في مطاردة الاحرار طلاب الدستور بعد ان قلب دستورهم وأصبح لفظ الدستور يرعبه

فلما جاءته شكوى العرايين من الاجانب وجد باباً للمداخلة بشؤون مصر لكنه يعلم ان من جملة مطالبهم الدستور ومجلس النواب وهو يكره الدستور واسمه فكيف يقبل ان يعلن في بعض ولاياته ؟ فضلا عن الاشاعات التي كانت تتناقل يومئذ عن رغبة العرب في احياء دولتهم وخلافتهم في مصر وسوريا . فأول خاطر بدا للسلطان أن يرسل جنداً عثمانياً يحتل وادي النيل بحجة اتحاد الثورة . وأمر باعداد الحملة في سبتمبر سنة ١٢٨١



٨٢ : السلطان عبد الحميد

ولكن مصر تحت المراقبة الاجنبية فلا يسهل على السلطان احتلالها . وكانت سياسة فرنسا على الخصوص مقاومة كل توسط عثماني بشؤون مصر . أما انكلترا فلم تكن ترى بأساً من أن يرسل السلطان قائداً عثمانياً يتوسط في حل ذلك المشكل . فاحتجت فرنسا بان ذلك قد يقود الى احتلال عسكري . فعرضت الدولة العثمانية لحل هذه المعضلة ان يخضع الخديوي وينصب مكانه حليم باشا - وهو من طلاب العرش المصري وانما منعه منه فرمان اسماعيل القاضي بانتقال الارث الى الابناء - وكانت انكلترا من أشد المعارضين لهذا التبديل وفرنسا تعارض من الجهة الاخرى بارسال جند عثماني . فاكثفت الباب العالي بارسال مندوب ينوب عنه بحجة حقه بالسيادة على

مصر فارسل رجلين هما قواد بك وعلي نظامي باشا فوصلا الاسكندرية في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨١

فاحتجت انكلترا وفرنسا على ذلك وأمرت المراقبين في مصر أن يستقبلوها بالترحاب ويمنعاهما من كل مداخلة سياسية . ولما بلغ الخديوي وصول المندوبين استغربه وسأل وكيل انكلترا وفرنسا عن السبب فاجابا أنهما لا يعلمان . على ان الدولتين انكلترا وفرنسا ألحتا على الباب العالي ان يقصر زمن تلك الزيارة على قدر الامكان . وغاية ما أتاه المندوبان انهما استعرضا الجند وخطب علي نظامي باشا في الضباط يذكركم بأن الجناب العالي نائب جلالة السلطان بمصر وان من يعصى الخديوي يعصى أوامر الخليفة

وعادت الدولتان الى طلب خروج المندوبين حالا فصارا في ٢٠ أكتوبر . وعادت الدولتان الى التفكير في ملاقاته ما يحشى وقوعه في مصر . وأظهر الخديوي بعد حادثة ٩ سبتمبر ريباً في الجند وضباطه وانه لا يرى سيلا الى الامن الا بالخضاع الجيش . وبلغ ذلك العرايين فأتسع الخرق بين الطرفين مجلس النواب المصري

واراد شريف باشا رتق هذا الخرق بسياسة واسلوب فرأى ان يعقد مجلس النواب ويفوض اليه النظر في مطالب الامة وأعضاؤه نوابها فينتقل النفوذ من الجيش اليهم فتوازن القوى . فصدر الامر العالي في ١٨ أكتوبر بعقد مجلس النواب في ٢٣ ديسمبر وتم انتخاب النواب علي لائحة اسماعيل باشا التي وضعها سنة ١٨٦٦ فكان مؤلفاً من اثنين وثمانين عضواً أقيم منهم المرحوم سلطان باشا رئيساً وعبد الله باشا فكري رئيساً للكتبة وأعدت قاعة المجلس في ديوان الاشغال لتكون مقر انعقاده . وحضر تلك الجلسة الجناب الخديوي وقال المقالة الافتتاحية بين فيها شدة رغبته في تأليف ذلك المجلس وتنشيطه . وقال انه يرجو ان يكون مساعداً له في نشر العلوم والمعارف بين أفراد الامة مخلصاً في خدمة مصالحها . وحضر تلك الجلسة أيضاً جميع الوزراء ورجال الدولة فتكلم كل منهم حسب مقتضى المقام . ثم نظر المجلس في بعض الامور الداخلية وارفضت الجلسة . وعكف مجلس شورى النواب على الاهتمام بشؤونه فرتب اقلامه وانتخب رؤساءها ثم وجه التفاته على الخصوص الى اللائحة الاساسية الجديدة التي كان قد وعده من مجلس انظار بارسالها اليه لينظر فيها لان مجلس النواب اقتنع بمقتضى لائحة اسماعيل

وما لبث شريف باشا ان رأى النواب والجند اتحاداً وتكتافاً وانقضت سنة ١٨٨١
والامر والنهي بمصر لعراي وحزبه وصارت الجرائد اذا ذكرته لقبته بالقباب الامراء
وكبار الحكام الفاتحين مع ان الحكومة كانت قد أصدرت قانوناً للمطبوعات تقيد به
أقلام الكتاب



ش ٨٣ : عبد الله باشا فكري رئيس كتبة مجلس النواب

انكلترا وفرنسا

وعادت الدولتان الى المباحثة في الطريقة المؤدية الى سلامة القطر وصيانة حقوق
الاجانب فيه اذا اتقدت شعلة الثورة . ووافق ذلك إفضاء وزارة فرنسا الى غمبتا
الشهير فوافق رأيه وأي انكلترا بوجوب نصرة الخديوي وتأييد منصبه ضد مناوئيه
وهم كثيرون غير الجيش المصري - فقد كان حليم باشا وأنصاره يبذلون المال والسعي
في الرجوع الى التوارث الاصلي والسلطان من الجهة الاخرى يتحين الفرص ليعيد
سيادته الفعلية - فاعلنت الدولتان انهما لا تسمحان بحركة تؤدي الى تغيير حالة مصر
السياسية واتفقتا على احتلال مختلط من الجندين الانكليزي والفرنساوي يؤتي به الى
مصر عند الحاجة وأعلنتا الخديوي بذلك بمذكرة مؤرخة في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ بعثت
بها الى وكيليهما

وصلت هذه المذكرة الى مصر في ٢٦ ديسمبر بعد أن فتح مجلس النواب بحضور
الجناب الخديوي وتلا خطابه الافتتاحي كما تقدم . فلما علم بعزم الدولتين على نصرته

أجاب شاكرًا في ٦ يناير . فأثرت هذه اللائحة في النفوس تأثيراً عظيماً واضطرب منها
الجند فاجتمعوا في سراي قصر النيل للمذكرة في مضمونها فراهم منها أمور كثيرة
وأيقنوا أن المراد منها مزيد المداخلة وجعل البلاد تحت حماية فرنسا وانكلترا . ثم
وفد عليهم ناظر الجهادية (محمود سامي) فقوضوا الرأي اليه فسكن جأشهم وطيب
أنفسهم وتوجه بعد ذلك الى النظار وقاوضهم في الامر وأبلغهم انفعال العساكر من
هذه اللائحة ثم سار معهم الى الخديوي فبسطوا لديه الامر والرأي والتسوا المداخلة
بما يذهب الآثار التي نشأت عن اللائحة المذكورة . فاستقر الرأي على اشعار الباب
العالي بها مع الملاحظة بأنه لا حاجة لقبول مضمونها فسكنت الخواطر بذلك واطمأن
النفوس . وأصبحت القوات العاملة في مصر حزينين : (١) الحكومة بعضها المراقبان
(٢) النواب بعضهم الجند

وكانت الميزانية التي لا بد من عرضها على مجلس النواب للمصادقة عليها مؤلفة
من قسمين الاول الايرادات التي تخصصت لوفاء الدين والثاني النظر في سائر الايرادات
فلما اجتمع مجلس النواب في ٢ يناير سنة ١٨٨١ وفد شريف باشا على المجلس لتقديم
اللائحة الاساسية الجديدة التي أعدها له فقدمها وخطب في ذلك خطاباً أثر في أذهان
النواب وقد جاءت هذه اللائحة مشتملة على أحكام حرة وحدود مطلقة يكون بمقتضاها
لنواب حق النظر في القوانين والنفقات العمومية وأن لا ينفذ قانون ولا يعتبر نظام
ما لم يصادق عليه في مجلسهم مع الحرية التامة لهم في ابداء آرائهم . فتعينت لجنة من
أعضاء المجلس لمراجعة هذه اللائحة . وبعد الاجماع مرات عديدة قررت أكثر بنود
اللائحة ووقع الخلاف بين النواب والنظار في شأن ما يتعلق منها بالميزانية

وفي ٢٧ صفر من تلك السنة أعاد النواب اللائحة المذكورة الى النظار بعد أن
ينوا ما يريدون تعديله فيها . فرأى النظار أن يغيروا شيئاً من تعديلات النواب فلم
يقبل أولئك وأصرروا الا تنفيذ تعديل لجنهم . وفي ١١ ربيع أول سنة ١٢٩٩ هـ
(٣١ يناير سنة ١٨٨٢ م) أعاد النظار اللائحة الى النواب مرفوعة بإفادة مفادها ان
وكلي الدولتين فرنسا وانكلترا لا يريان حقاً لمجلس النواب في تقرير الميزانية ولكنها
مع ذلك يقبلان الحجة في هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين النواب والحكومة
على سائر بنود اللائحة . وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب تصديقهم على
اللائحة مع اغفال ما يتعلق بالميزانية لينبأ يعطي النواب رأيهم النهائي فيه . فنظر النواب
في تلك الافادة عدة ساعات فقرروا إحالتها الى اللجنة التي كانت مكلفة بتقحيح اللائحة

وطلبوا اليها إعادة النظر في التعديلات التي أدخلها مجلس النظار فصدقت على بعضها ورفضت البعض الآخر وأدخلت على البند المتعلق بالميزانية تعديلاً على مقتضى ما أرادت. وقررت في الوقت نفسه عدم قبول توسط القنصلين في ذلك الأمر وفي يوم الخميس ١٣ ربيع أول (٢ فبراير) سارت لجنة مؤلفة من ١٥ نائباً إلى الجنب الخديوي يطلبون تنفيذ ما قرروه أو استعفاء الوزارة. فوعدهم سموه إلى صباح السبت وانصرفوا فقابل مع شريف باشا بحضور القنصلين قاصر شريف باشا على رآيه واستعفى للحال. فاستدعى الجنب الخديوي لجنة النواب وكلفها أن تختار رئيساً للوزارة فقالوا إن ذلك من حقوق الجنب الخديوي فألح عليهم فامتنعوا. ولكنهم قالوا تريد وزارة تنفذ لأمتنا فاختار لهم محمود باشا سامي وقده منصب الوزارة وعهد إليه تشكيل وزارة جديدة. فشكلها وجعل أحمد عرابي ناظراً للجهادية. فسر الحزب الوطني كل السرور ووردت لهم التهاني من سائر أنحاء القطر من وطنيين وأجانب وأقام النواب احتفالاً لفوزهم. وفي ١٥ ربيع أول أو ٤ فبراير اجتمع ضباط الجهادية من رتبة الصاغفول أغامى فما فوق ومثلوا بين يدي الجنب الخديوي لإظهار الطاعة فشكرهم سموه وخاطبهم بما شاف عن حبه لإصلاح البلاد. وفي ١٨ ربيع أول حضر محمود سامي إلى مجلس النظار فقوبل بالتعظيم والتكريم وسر النواب بنفوذ رأيهم فخطب فيهم ونشطهم وأقر لهم على اللائحة كما عدلوا. فلما علم الناس بالتصديق على اللائحة النواب أقاموا الاحتفالات في مصر والاسكندرية سروراً بفوز الحزب الوطني وأصبح الجهاديون القوة المتسلطة في البلاد واليهم بوجه الثناء لأن تلك المني قد أدركت بمساعيهم

ولما جلس عرابي على مسند نظارة الحرية والبحرية احسن عليه وعلى عبد العال بترتبة لواء « باشا » ثم سعى في ترقية كثيرين من رفقاؤه الضباط وقرر قانون الضام والمعايش بصفة جمعت القلوب على ولائه. وعمد إلى التخلص من الحزب الشركسي الذي كان لا يزال متخللاً للجهادية فشكل لجنة لفرز الضباط المستودعين ففرزت نحو السبائة أكثرهم من الأتراك والشراكمة فاصبحت الجهادية وطنية محضة. وذكرت جرائد أوروبا إذ ذاك أن الحزب الوطني وفي مقدمته عرابي كان يهدد مجلس النواب ويتوعدده بالسوء إذا لم يسر على غرضه. فأنشر رئيس المجلس المذكور في الجريدة الرسمية ما ينفي تلك التهمة ثم تخصصت جريدة الطائفة لنشر محاضر مجلس النواب والتكلم بأفكار أعضائه والدفاع عنهم. وفي أواسط ربيع آخر أو مارس استعفى بلينيار

أحد المراقبين الماليين فعين بدلاً منه المسيو بريدف. وفي ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٩ هـ أو ٢٥ مارس سنة ١٨٨٢ م انفض مجلس النواب من أعماله لتلك السنة وقد قرر فيها (١) القانون الأساسي (٢) لائحة الداخلية (٣) لائحة الانتخاب (٤) أمور أخرى مهمة. وقد تقرر في لائحة الانتخاب ثبوت حق الانتخاب والنيابة معاً لأي من كان من رعايا الحكومة سواء كان مولوداً في القطر المصري أو مقيماً فيه منذ عشر سنين. وما ودع النواب الجنب الخديوي سلم سموه كلا منهم أمراً مؤذناً بتعيينه عضواً في المجلس المشار إليه إلى خمس سنوات

استفحال الثورة

فتمكن الارتباط بذلك بين الجهادية والنواب وأضيف إليهما الوزارة لأنها وطنية أيضاً فازدادت مشاكل الخديوي والمراقبين وازدادوا اعتقاداً بوجود احتلال القطر بجند مختلط من الفرنسيين والإنكليز. وانكأ ترى في ذلك باعثاً على سوء ظن الدول الأخرى وتفضل صرف هذا المشكل باحتلال تركي بشروط لا تحشى معها رجوع النفوذ العثماني

على أن العثمانيين كانوا يرون في استفحال أمر الوطنيين على الخديوي فائدة لهم وربما ساعدوا على ذلك تحت طي الحفاء أملاً باسترجاع مصر إلى حوزتهم. فلا غرو إذا تمسك الوطنيون بمطالبهم وأخذ في ذلك العسكر والنواب والوزارة. وقد زادهم تمسكها أغراء بعض المنظرين من الأفرنج فقد كانت منهم جماعة يحسنون تلك الثورة ويطرون القامعين بها ويبشرونهم باستقلال مجيد وأشهر هؤلاء المغرورين الفريد بلانت الإنكليزي

فلا غرو بعد ذلك إذا تهور الوطنيون في مطالبهم وتصوروا في أنفسهم القدرة على كل شيء فأغلوا أيدي المراقبين ونبذوا سلطة الخديوي واحتقروا الأفرنج فعم الحرف أنحاء القطر وسادت الفوضى وضاعت سلطة المديرين

وهم في ذلك نهض الباب العالي يقيم الحججة على لائحة الدولتين القاضية باتحادها في مسألة مصر واحتلالها عند الاقتضاء وخاطب الدول الأخرى بذلك فاجابت روسيا والنمسا والمانيا وإيطاليا أنهم يرغبون في بقاء مصر على حالتها السياسية تحت رعاية السلطان وسمينه في هذا الجواب « Suzerain » ومعنى ذلك في اصطلاح السياسة أن يكون للسلطان السيادة الاسمية على مصر. وهو يريد أن يسمى سوفرين. Sovereign أي صاحب السيادة الفعلية. وعند التحقيق يتضح أن سيادته على مصر

أقرب الى هذا اللقب مما الى ذلك . لانه صاحب الحق الرسمي في خلع الخديويين وتوليهم ولا يقدر صاحب اللقب الاول على ذلك فالسلطان « سوزرين » على بلغاريا لانه لا يقدر أن يولي أميرها أو يعزله ولكنه سوفرين على مصر وتغيرت وزارته فرنسا في أثناء ذلك وتولى حكومتها دي فريسينه بدلا من غمينا وهو مخالفه في سياسته بمصر فلا يرى احتلالها بجند مختلط وعرض على انكلترا رأيه في حل المسألة المصرية بخلع الخديوي وتولية حليم باشا بشرط أن لا يزداد نفوذ العثمانيين فرفضت انكلترا هذا الرأي

مشكل جديد

قد رأيت ان أحمد عرابي رقي كثيرين من الضباط أبناء العرب واضطهد الأتراك والشراكسة وأمر بنقلهم الى السودان فبلغه أنهم يكيدون له ويتآمرون على قتله فأمر بالقبض على جماعة كبيرة منهم وفيهم عثمان باشا رقيقي ناظر الحرية السابق وحاكمهم بمجلس حربي فصدر الحكم على أربعين منهم بالثني المؤبد الى أقصى السودان . قتولت مشكلة جديدة لان رقيقي باشا حائز على رتبة فريق من السلطان وله وحده حق الحكم في هذا الشأن ووافق الخديوي على ذلك فأغضب وزراءه وطال الأخذ والرد في المسألة ثم تقرر تعديل ذلك الحكم بالثني بدون تعيين السودان أو غيرها . فغضب العرايون والوزارة الآن منهم فبعثت تستقدم النواب لتشكو اليهم تصرف الخديوي وأنه يضع امتيازات مصر بدون أن يشاور وزراءه وقد أصروا عزمهم على خلع الخديوي واخراج أسرته وتولية محمود باشا سامي حاكما على مصر

فاجتمع النواب من أنحاء القطر وحاولوا تسوية الخلاف عبثا فتعينت لجنة في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٩ هـ أو ١٤ مايو سنة ١٨٨٢ م لتعرض على سموه قبول الاقتراح بشرط أن ينزل رئيس النظر فقط وأن يجعل مكانه مصطفى باشا فهمي . فتوجهوا وعرضوا ذلك على سموه فقبل بعد التردد . فساروا الى مصطفى باشا يسألونه اذا كان يقبل تلك الرئاسة فأبى . فعادت المسألة الى مركزها الاول بل زادت نجسا فوقفت حركة الاعمال وباتت العيون شاخصة الى ما سيكون . واجتهد سلطان باشا في تسوية ذلك الخلاف بكل طريقة ممكنة وساعده ناظر المعارف فلم ينجح . وهم في ذلك ورد تلغراف من لندن ينبيء بصعود الامر الى الاسطول الانكليزي الراسي في بحر المانش أن يتأهب ليسافر في ٢٨ مايو الى البحر المتوسط فأوجس الناس خيفة

وكان الموسوي دي فريسينه قد عاد الى مخبأه انكلترا في أيهما أفضل لمصلحة مصر

للاحتلال الفرنسي الانكليزي أو التركي . وتقرر ارسال العاريتين الى مياه الاسكندرية وان يطلب من الباب العالي التوقف عن المداخلة الا اذا دعت الدولتان للتحذات الى ارسال جند عثماني . وكان رأي فرنسا أن الدولتين اذا رأتا حاجة الى الاحتلال العسكري تطلبا الى السلطان أن يرسل جندا عثمانيا للاحتلال بشروط معينة وما بلغ السلطان عزم الدولتين على ارسال أسطوليهما الى المياه المصرية غضب ورفع احتجاجه الى الدول ولكن ذلك لم يقف في طريق الاساطيل

ففي مساء الجمعة غرة رجب أو ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ وردت على ميناء الاسكندرية دارعة انكليزية وفي الصباح التالي دارعتان أخريان وثلاث دوارع فرنسوية فاطلقت المدافع للسلام كالعادة . ثم جمعت البواخر ترد الى ذلك الثغر حتى تكمل الاسطولان ولم يكن معها أسطول عثماني . فكثر تقول الناس في سبب قدوم هذه العارات على هذه الصورة . ثم أشيع أن قدومها كان بوافق مع الباب العالي وبارتياح الدول عموما بشرط أن تسرع بعد انتهاء المشاكل الى الانسحاب

وفي ٧ رجب أو ٢٥ مايو من تلك السنة قدم قسلا انكلترا وفرنسا بلاغا نهائيا من دولتيهما تطلبان فيه سقوط الوزارة واخراج عرابي من القطر المصري بان تضمننا له حفظ رتبة ورواتبه ونياشينه وابعاد عبد العال حليمي وعلي فهمي الى الارياض في جهات لا يخرجان منها مع حفظ رتبتهما ورواتبهما ونياشينهما وأن الدولتين عازمتان على تنفيذ كل ذلك . وهما تكلفان الجناح الخديوي أن يصدر عفوا عاما عن الذين لهم دخل في المسألة . فرفض النظر هذا البلاغ ولم يجيبوا عليه بدعوى « أن لا علاقة للدول الأوروبية معنا فاذا شئ فليخبرن الاستانة أما نحن فتنا مستعدون للمقاومة » فأخذ سلطان باشا يسعى في التوفيق فخطب مسعاه . وفي ٨ رجب أو ٢٦ مايو استعفت الوزارة محتجة على بلاغ الدولتين وطلبتهما فكلف شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة فأبى وأصر على الاباءة فأطلعه قنصل فرنسا على تلغراف وارد اليه من وزارة فرنسا هذا نصه :

« الامل أن يقبل شريف باشا رئاسة الوزارة وأكدوا له اتنا نعضده ونؤيده بكل جهدنا » فلم يقمعه ذلك وأصر على الرفض

ثم عقدت جلسة عند الجناح الخديوي حضرها بعض رؤساء الجهادية وفي مقدمتهم طلبة عصمت فقال شريف باشا انه يقبل أن يشكل وزارة جديدة بشرط أن تنفذ الجهادية ما ل طلبات الدولتين فقال طلبة : « نحن مطيعون أما يستحيل علينا تنفيذها

ولا حق للدلتين بطلب ذلك لأن هذه المسائل من اختصاص الباب العالي « قال ذلك وخرج قبعه الضباط . وبتاريخه ورد تلغراف من راس التين بالاسكندرية ان العساكر هناك لا يقبلون غير عرابي ناظراً عليهم وانهم اذا مضت ١٢ ساعة ولم يرجع الى منصبه لا يكونون مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعه . فزاد الاشكال والاضطراب . فتمكن شريف باشا وغيره من اصرارهم على رفض تشكيل وزارة جديدة . وعند الغروب اجتمع النواب ورؤسهم وحضر عرابي وجعل يخطب فيهم وخطب أيضاً عبد العال وغيره يطلبون تنازل الخديوي فتفاقم الخطب فأرسل الجناح الخديوي يخبر الباب العالي أن الجند غير راضين عن استعفاء الوزارة وانهم أقاموا الحجة على طلب الدولتين . فأجابته ان الحضرة السلطانية أمرت بتشكيل لجنة عثمانية تأتي مصر بعد ثلاثة أيام للنظر في هذا الامر . فأمر الجناح الخديوي أن يرجع عرابي الى مركزه مؤقتاً للتأمين على الاجانب لينما يصل الوفد العثماني فسر الجند بذلك . وبعث عرابي مذشوراً الى قناصل الدول يضمن تأييد الامن لجميع سكان القطر المصري من وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين . وفي الوقت عينه اقترح ثلاثة أمور :

١ إعادة لائحة الدولتين وانسحاب أسطوليهما

٢ وضع قانون أساسي تين فيه حدود كل من الجناح الخديوي ووزرائه

٣ قطع المخابرات والعلاقات توأ مع الدولتين ومع سائر الدول الا بواسطة الدولة العثمانية

ثم عمل العرابيون على خلع الخديوي وتولية البرفس حلیم باشا وكثيراً ما كانوا يصرحون بذلك في مجالسهم

وكان السلطان من الجهة الاخرى يسعى في اغتنام هذه الفرصة لاسترجاع نفوذه بمصر واعترفت الدول أن السلطان أولاها من محل هذا المشكل . وبعد ان كانت فرنسا من أكبر المقاومين للتدخل العثماني صرح دي فريسنيه ان كل الوسائل لحل المسألة المصرية يمكن اتخاذها الا الاحتلال العسكري الفرنسي . خلافاً لرأي غمبتا سلفه . وكان الخديوي من الجهة الاخرى راغباً في توسيط الباب العالي لعله يؤيده . وعرض البرنس بسمارك عقد مؤتمر دولي للقرار على هذه المسألة فلم يرض السلطان بالمؤتمر لكنه اتدب رجلين من كبار رجاله أوفدها الى مصر أحدهما درويش باشا والآخر أسعد أفندي وكانت مهمتهما القبض على الجبل من الطرفين لارضاء الحزبين فيكون السلطان مع الفائز منهما . فكانت مهمة درويش باشا توطيد علائق الولاء مع الخديوي

ضد عرابي وبعكس ذلك مهمة أسعد أفندي . وكان في جملة الاوامر المعطاة لدرويش باشا أن يقبض على عرابي ورفاقه ويرسلهم مغلولين الى الاسكندرية وأن يلقي مجلس النواب ويقوي نفوذ أمير المؤمنين وفرق الاوسمة في العرابيين وفي حزب الخديوي فأتت هذه السياسة طبعاً الى زيادة التفريق وتفاقم الفوضى وكره الاجانب قافضى ذلك الى حادثة الاسكندرية في ١١ يونيو

حادثة الاسكندرية

وسببها أن القلق والاضطراب استوليا على سكان القطر وكثرت الاشاعات وزرع النزلاء الاجانب الى الجلاء خوفاً من أمر يأتي فاصبحت الاسكندرية ملجأ الوافدين من جالية الريف على أمل أن يكونوا فيها آمنين من غوائل التعدي لكثرة من فيها من الاجانب أو بالحري للاحتماء بجوار الاسطولين الانكليزي والفرنساوي ثم أحس الاجانب فيها أن سفة الاهالي ومعظم الجهاديين قد اغلظوا في معاملاتهم واستبدوا في أمورهم فكانوا يخطرون في الأزقة تهايمتونهن الرفيع ويستبدون الوضع وقد لاح لهم أن أولئك الاجانب يريدون بهم شراً فجعلوا يتوقعون منهم ما يتدعون به الى الوقعة بهم توها منهم أن أولئك من الد الاعداء لوطنهم . فلم الاجانب بتلك المقاصد فجعلوا يتأهبون سراً للدفاع بما أمكنهم من اقتناء الاسلحة والرجال واخفائهم في منازلهم واستشاروا اميري الاسطولين فوافقهم ثم عرضوا الامر على القناصل الجزالية في القاهرة بواسطة مندوب مخصوص فأنكروا عليهم ذلك فلبثوا يتوقعون المقدور

أما أهل الفتنة فادركوا تحذر الاجانب منهم فهموا بهم في ٢٤ رجب أو ١١ يونيو وابتدأوا الفتنة بنحسام بين حمار ومالطي اتصلوا منها الى الاغارة على البيوت والمنازل والفتك بكل من مروا به في السبل . فلم تكن ترى الا اخلاطاً من السفلة بين صعيدي وسوداني وبدوي وفيهم الحماره والخالون وأمثالهم يهجمون جماعات على من لقوه في طريقهم فقتلوا نحواً من ٣٠٠ نفس وقتل منهم نحو هذا العدد . كل ذلك والاسطولان لم يحركا ساكناً . وتعارض مأمور الضابطة المدعو السيد قنديل ولم ينزل يومئذ الى المدينة وجرح في هذه الواقعة عدد كبير من كبار الاجانب وفيهم قنصل اليونان والمستر كوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية وقنصل ايطاليا وفيس قنصلها وقنصل روسيا وكثيرون غيرهم . فأمر محافظ الاسكندرية (عمر باشا لطفي) الاميرالاي سليمان داود أن يبعث الجند لايقاف

الاهالي ومنعهم من ارتكاب تلك الفظائع . فأجاب انه لا يستطيع ذلك الا بعد أن يأتيه أمر من عرابي . فجاءه الأمر نحو الساعة الخامسة بعد الظهر فصار الجند والحفاظ أمامهم ساعياً على قدميه يسكنون الخواطر وينادون باعادة الراحة . فرأوا المخازن قد نهبت والارزاق قد تبعثرت على قارعة الطريق . وعند الغروب هدأت الغوغاء وكف الناس فدخل كل منزله وانقضى الليل ولم يحدث شيء . وفي اليوم التالي كثر عدد المهاجرين بحراً حتى خيل للناس انه لم يبق في المدينة أحد من الاجانب . فنزل من المدينة في يوم واحد نحو عشرة آلاف تفرقوا في السفن . كل ذلك خوفاً مما كانوا يخشون حدوثه من مثل ما قاسوه . واتصلت هذه الاخبار بالداخلية فانتشر الاضطراب وعمت البلوى وتقاطر الناس من سائر الاقطار الداخلية الى السواحل يطلبون الفرار كما فعل الاسكندريون واستمرت الحال على ذلك بضعة أيام حتى كاد يخلو القطر من الزلاء وقد قدر بعضهم عدد من هاجر في تلك المدة فبلغ زهاء مائة وخمسين ألفاً

ولما بلغ خبر حادثة الاسكندرية الى أهل العاصمة اضطربوا وفي صباح ١٢ يونيو خاطب القناصل درويش باشا معتمد الحضرة السلطانية بكلام غنيف وسألوهم أن يتخذ التدابير الفعالة لصيانة الاوربيين وأموالهم في جميع أنحاء القطر فعقد مجلساً في عابدين حضره الجنباب الخديوي ودرويش باشا ومن معه وشريف باشا ووكلاء الدول العظمى السياسيون وبعد المذاكرة اقروا أن تعطى للقناصل ضمانات أكيدة تكفل اعادة الامن والحفاظة على ارواح الاوربيين وأموالهم ومن أخص هذه الضمانات ان يمثل عرابي لاي الاوامر التي تصدر له من الخديوي فدعي وسئل فلجواب بالقبول وتعهد باجراء ما يضمن الراحة وأخذ درويش باشا على نفسه تبعة تنفيذ الاوامر الخديوية بمعنى ان يكون مشتركاً مع عرابي ومسئولاً معه في تنفيذ تلك الاوامر . فرضي وكلاء الدول بذلك وانصرفوا وأخذ عرابي بهم قياماً بتعهده فنشر المنشورات بمنع الاجتماعات وابطال كل ما يوجب الارتياح . وكانت قد تعينت لجنة بامر الجنباب الخديوي للنظر في أمر حادثة الاسكندرية تحت رئاسة عمر باشا لطفي محافظها وفيها مندوبو القناصل فاجتمعت اللجنة في الاسكندرية وباشرت أعمالها وقررت ما خيل لها أنها تدابير فعالة لاعادة الامن

وفي ٢٦ رجب أو ١٣ يونيو (حزيران) وصل سمو الخديوي الى الاسكندرية بصحبه درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية فصفت لها الجنود من الحطة الى

سراي رأس التين وأطلقت المدافع تحية لها . ثم زاره قناصل الدول الاقتصلا . انكلترا وفرنسا فانهما بقيا في مصر قابدي لهم أسفه الشديد لما حدث ووعدهم بصرف العناية الى اتحاد الفتنة وخطبهم درويش باشا أيضاً بمثل ذلك وزاد عليه انه واثق الثقة التامة باخلاص الجهادية . الا ان الخديوي أسر إلى المستر كولفن المراقب العمومي الانكليزي انه غير واثق باستمرار الامن والراحة وانه يعتبر مهمة درويش باشا كأنها قد انتهت ولم تفلح وانه لا يرى بداً من مجيء جنود عثمانية لاعادة الراحة . وكان في ثكنات الاسكندرية نحو من ثمانية آلاف جندي بالاسلحة الكاملة ومعهم من المهمات ما يكفي خمسين ألفاً

ثم بلغت القناصل رعاياها أن يتخذوا اقرب السبل للتجاة مما ربما يحدث . وأوعزت اليهم أن يهاجروا من المدينة فتناقلت اللسن هذه الاخبار فتأكد الناس أن الساعة آتية لا ريب فيها وعينت كل دولة من الدول الاجنبية سفناً لنقل رعاياها المهاجرين مجاناً فتسارع الفقراء من كل ناحية متقاطرين من مدن الداخلية والارياض الى الاسكندرية وبورت سعيد حيث كانت تلك السفن معدة لتقلهم الى بلادهم . وكان المستر مالت وكيل انكلترا السياسي لا يزال في العاصمة فجاءه أمر من لندن بأن يحضر الى الاسكندرية ويرافق الخديوي حينما توجه قاتاه وأتى معه الميسو سنكوفيتش وكيل فرنسا تخلت العاصمة من رجال السياسة وخلا جوها لعرابي وجماعته واستفحل أمرهم ولا سيما لما بلغهم من انقسام دول اوربا في المسألة المصرية فظنوا أنهم في مأمن من الاغتيال . ثم حسب القناصل ان تغيير الوزارة يأتي بحل هذه المشكلة فأشاروا على الجنباب الخديوي بذلك فشكل وزارة جديدة تحت رئاسة اسماعيل راغب باشا وبقي عرابي ناظراً للجهادية والبحرية فكان رأي هذه الوزارة ان الطريقة المثلى للملافة الامر ان يصدر عفو عمومي وأن يعلن في الجرائد الرسمية « ان كل من عليه مسئولية أو اشتراك بالحوادث الاخيرة فعليهم العفو الا المشتركين في حادثة الاسكندرية وهم تحت الحاكمة » فوافقها الجنباب الخديوي على ذلك . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ أو ٢١ يونيو سنة ١٨٨٢ م بعث الجنباب الخديوي منشوراً الى راغب باشا يطلب اليه التحري الحسن في مسألة حادثة الاسكندرية فأجابه بتبليية الطلب

ثم جاءت الاخبار بعزم الدول على عقد مؤتمر في الاستانة لاجل البحث في المسألة المصرية وتمنع الباب العالي من ذلك بدعوى أن ليس في مصر ما يوجب الاضطراب اعتماداً على تقارير درويش باشا المرسله منه . وكان ذلك مما شدد عزائم

الحزب الوطني ولا سيما لما رأوا الباب العالي واثقاً بهم يأبى عقد مؤتمر دولي . وكان عرابي يؤكد لاتباعه أن وجود هذه الاساطيل في ميناء الاسكندرية لا يخشى منه . البتة لأنها إنما أتت هذا البحر لتنزله كما فعلت مرات عديدة قبل هذه . أما أنكلترا فلم تنفك ساعية في عقد المؤتمر بدعوى أنه يستحيل إعادة الأمن الى مصر بغير واسطة فعالة . وكان الباب العالي يحجب على ذلك بقوله انه بعد تشكيل الوزارة الجديدة صار يرجو استقرار السلام ووافقه على أنه هذا دول المانيا وأستراليا وإيطاليا والروسية . وهذه الموافقة كانت مبنية على خوف الدول من مطامع أنكلترا في مصر . فلما علمت هذه بنياتهم أكدت لهم أنها تتعهد متى عقد المؤتمر مع سائر الدول ألا تسعى البتة الى ضم أرض ما إليها أو الاستيلاء على مصر أو قسم منها أو الحصول على امتياز ما سياسي أو تجاري بدون أن يكون فيه نصيب لسائر الدول فوافقها الجميع على عقد المؤتمر أما الدولة العلية فأصرت على عدم لزومه

وفي ٧ شعبان أو ٢٤ يونيو عقد المؤتمر في الاستانة ولم يكن للدولة العلية معتمد فيه فقرر ما يأتي : « ان الحكومات التي وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على ذيل هذا البروتوكول تتعهد أنها لا تقصد البتة اغتنام أرض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا أن يكون لرعاياها من الامتيازات المتجربة ما لا يستطيع أن يناله غيرهم من رعايا أي الدول في مصر وذلك في أي مسألة حصل الاتفاق عليها بسعيها واشتراكها في المحاربات لتنظيم أمور تلك البلاد » . وقد كانت أنكلترا في أثناء سعيها الى عقد المؤتمر تحشد الجنود استعداداً للحرب وكانت في الوقت عينه تلح على سائر الدول أن تساعدوا في ذلك

وجاء في أثناء ذلك الى عرابي نيشان من لدن الحضرة السلطانية فاتخذته الناس دليلاً على رضا الباب العالي عن أعماله وكان هو يحاول اقناعهم ان جميع الدول تساعد على مقاومة أنكلترا اذا مست الحاجة . وفي ٥ شعبان أو ٢٢ يونيو تمارض المستر مالت وكيل أنكلترا فأنزل الى احدى السفن وبقي فيها بضعة أيام ثم سافر الى برنيزي . وفي ٢٥ منه تنحى المستر كوكسن قنصل أنكلترا في الاسكندرية بدعوى مرضه بسبب الجراح التي كان قد أصيب بها في أثناء حادثة ١١ يونيو وهكذا فعل قنصل مصر . أما باقي القناصل فبقوا في الاسكندرية الى ٩ يوليو . وكان الخديوي ودرويش باشا مقيمين في سراي رأس التين وعرابي مقيماً في الترسانة وحث أمره في تعزيز الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل

وفي جلسة المؤتمر السابعة أقرت الدول على كتابة لائحة مشتركة يقدمونها الى الباب العالي يطالبون منه ارسال جنود عثمانية الى مصر لاختاد الفتنة ففعلوا فأبى فأتخذت أنكلترا ذلك ذريعة لتدخلها بالقوة

ضرب الاسكندرية

أما فرنسا فقد علمت ما كان من تغير سياستها بعد تغير وزارتها وأصبحت لا ترى الاشتراك مع أنكلترا في أمور مصر وإنما هي تشاركها فقط في حماية قناة السويس ولم تشأ مشاركة الانكليز في تحمل تبعه الاحتلال العسكري . ولذلك فلما رسا الاسطولان في ميناء الاسكندرية تفردت أنكلترا بالعمل . فأخذ الاميرال سيمور قومندان العمارة الانكليزية يتربص الاسباب لمباشرة العدوان فادعى أن الجهادية يحصنون القلاع في الثغر وينقلون أحجاراً ضخمة يلقونها عند فم المضيق لسد مدخل الميناء فيمنع المدد ويحصر الاسطول وقال ان هذا التحصين مناف لحقوقه . فكلف الحكومة المصرية أن تكف عن التحصين حالا والا اضطر الى اطلاق مدافعه عليها فيدكها عن آخرها . فأجابه طلبة باشا عصمت أن لا صحة لما يقول وان الجهادية لم يهتموا قط بتحصين القلاع . وشاع ذلك تخافت الناس وأوعز الى الجناح الخديوي بواسطة المستر كولفن أن يتنحى صيانة حياته فأجابه « لا يليق بي أن أترك الكثيرين من ريعتي الامناء في أوان الشدة ولا يليق بي ايضاً أن أترك البلاد في أوان الحرب » ثم توسطت قناصل الدول في الاسكندرية بين الاميرال سيمور وبين الجهادية المصرية فلم ينجحوا . فتقدم عرابي وسامي الى كاتب سر مجلس النظار أن يكتب تقريراً في المسألة مفاده « أن الاميرال تجاوز الحدود فيما يطلب وأنه لا بد من مقاومته وان عرابي وقومه مفوضون في أمر الدفاع عن البلاد » وداروا به على منازل النظار وطلبوا التوقيع عليه فوقع بعضهم اختياراً والبعض اضطراراً ويقال أن الخديوي نفسه صدق عليه أو الجبىء للتصديق ثم أرسلوه الى الاميرال سيمور . وأرسل عرابي منشوراً الى المديرين يطلب اليهم أن يكونوا مستعدين للامداد بالجند والمال

وفي مساء ٢٢ شعبان أو ٩ يوليو جاء المستر كارتر ايت الى الخديوي وأعلنه رسمياً عزم الاميرال سيمور على مباشرة القتال صباح الثلاثاء في ١١ يوليو وألح عليه أن يترك سراي رأس التين ويلجأ الى سراي الرمل ففعل . ثم كتب رسمياً الى درويش باشا يطلب اليه أن يحافظ على حياة الجناح الخديوي والتي عليه التبعة اذا أصيب بسوء

وفي ٢٣ شعبان أو ١٠ يوليو كتب الاميرال سيمور رسمياً الى كل من درويش

باشا وراغب باشا رئيس الوزارة يعلمهما عن خروج رجال الوكالة الانكليزية من القطر المصري اشارة الى قطع العلائق الودية وأعلنت خارجية انكسرتا سائر الدول بذلك. « وانها لم تبدأ منه لكنها تصرح أن ليس لها ارب خفي أو نية غير بيّنة وانما عملها هذا من قبيل الدفاع وحرصاً على مصلحة الجنب الشاهي » وفي مساء ذلك اليوم سافر الاسطول الفرنسي متفهماً تاركاً سفينتين من سفنه فقط

وفي الساعة السابعة من صباح الثلاثاء ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ أو ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ م أطلقت العمار الانكليزية مدافعها على حصون الاسكندرية وما زالت الى الساعة واحدة ونصف بعد الظهر فهدمت معظمها واقعج مستودع البارود في قلعة اطه. فجاء راغب باشا الى الجنب الخديوي في الرمل وأخبره أن الحصون قاومت أشد مقاومة وأن كثيراً من سفن الانكليز قد غرقت وكان يقول ذلك مسروراً. ولكن قوله هذا ما لبث أن نقض بورود الخبر الصحيح. ثم جاء عرابي فوقف بين يدي سموه فسأله عن حالة الحصون فقال « لم يعد في وسعنا المقاومة ولا بد لنا من تدابير أخرى أو أن نتساهل مع الاميرال » وبعد المخاطبة تقرر ارسال طلبة عصمت الى الاميرال وعاد عرابي من حيث أتى. فساد طلبة باشا من عند الاميرال وأخبر الجنب الخديوي أن الاميرال يطلب احتلال ثلاث قلاع والا فانه يستأنف القتال الساعة ٢ بعد الظهر ثم قال « ولكنني قلت له أن هذه المدة لا تكفي لاتمام المخاطبة بشأن ذلك فطلبت تطويلها فاني فأتيت لاعلم سموكم ملتصاً رأيكم » فعقد مجلس تقرر فيه انه لا يحق للحكومة المصرية الترخيص في احتلال جنود اجنبية بدون مخاطبة الباب العالي الا أن الوقت لم يسمح بتبليغ ذلك القرار للاميرال

ولما رأى رجال الحصون المصرية عجزهم عن مقاومة السفن الانكليزية رفعوا العلم الايض اشارة الى ايقاف العدوان فانقطعت السفن عن قذف النار. وكانت الحصون قد تهدمت فلم الثائرون ان ذلك التسليم يعقبه احتلال الجيوش الانكليزية المدينة فوزعوا في غلس ١٣ يوليو فرساناً في احياء المدينة يأمررون الوطنيين بالخروج من الاسكندرية حالا وكانت هذه الاوامر تصدر من الاميرالي سليمان داود وأمر أيضاً زمراً من الرعاع أن تطوف المدينة وتحرقها فابتدأوا من الساعة الاولى بعد الظهر فكانت الاسكندرية مساء الاربعاء مضطربة الجوانب منهوبة المخازن لا ترى فيها الا لهباً متصاعدة واناساً حاملين الامتعة والمصاغ قارين الى داخلية البلاد وكان الخديوي في سراي الرمل وبعيته عثمان باشا واسماعيل باشا الشرعسيان وزير

باشا السوداني والجنرال ستون باشا وفديريكو بك وطونينو بك ودي مارتينو بك واباني بك وتيكران باشا وزهرا بك وغيرهم لا يزيد عدد الجميع على خمسين. وبعد ظهيرة ذلك اليوم جاء الى سراي الرمل نحو أربعمائة فارس وبعض المشاة واحتاطوا بها فسلخوا عن الغاية من بحيّهم فقالوا « قد أتينا للمحافظة على السراي » والحقيقة أنهم جاءوا مأمورين باحراقها وقتل من يخرج منها. وفي الساعة ٧ مساء بعث عرابي يستدعيهم اليه فساروا وتخلّف منهم أحد البكاشية ومعه ٣٥٠ فارساً قتل بين يدي الجنب الخديوي وأقسم أنه يموت بين يديه واقتدى رجاله به وأخبره أنهم كانوا قد أتوا يريدون شراً. وفي خلال ذلك أرسل الاميرال سيمور ثلاث دوارع من أسطوله لترسو بجوار سراي الرمل صيانة لحياة الحضرة الخديوية ويقال أنها هي التي كانت السبب في انسحاب الفرسان العرابيين. ثم جاء المحافظ الى الخديوي يخبره بما كان من النهب والحرق في احياء المدينة. فأرسل سموه كامل باشا الشرعسي وزير باشا لينجأ الناس من ذلك

الاسكندرية بعد الضرب

ونحو الساعة ٢ ١/٢ بعد ظهر ٢٦ شعبان أو ١٣ يوليو كانت جنود عرابي قد انجحت عن الاسكندرية. فجاء زهرا بك بهذا النبا الى الخديوي وأن الاميرال سيمور عازم على ائزال جنود بحرية الى رأس التين وأنه يدعو الحضرة الخديوية الى سفينة حيث يكون آمناً. ففضل سموه التوجه الى سراي رأس التين فسار وبعيته درويش باشا حتى جاء السراي فوجد هناك الاميرال سيمور وبعضاً من جنوده ينتظرونه في ساحة القصر. وفي المساء نزل بعض وكلاء الدول وهناؤه بسلامته وكان في السراي ٣٠٠ من الحامية الانكليزية. وفي الصباح التالي أنزل الاميرال فرقاً أخرى من رجاله

يطوفون الشوارع ومعهم عدد من المدافع تسكيناً لخواطر الباقين فيها وقد قدرت الخسائر بستمائة من الوطنيين وخمسة من الانكليز على الدوارع غير المذابح التي حصلت في أثناء ذلك في طنطا والحلة الكبرى وسمنود وجهات أخرى. وبعد انتقال العائلة الخديوية الى رأس التين استدعى الجنب الخديوي زهرا بك. وجعله ترجماناً بين السراي والضباط الانكليز وعهد اليهم أن يمنع أيّاً كان من دخول القصر لان العرابيين كانوا قد عينوا نفرّاً من الجواسيس لتجسس حالة السراي. أما عرابي وأتباعه ففروا الى كفر الدوار وعسكروا هناك على نية الدفاع. ولما استتب المقام للانكليز في الاسكندرية أخذوا في تنظيف الاسواق ونقل.

الجثث ودعوا المهاجرين ان يعودوا الى منازلهم لاعادة الراحة والطمأنينة واستدعي أثناء ذلك درويش باشا الى الاستانة فتوجه

وكتب راجب باشا الى الاميرال سيمور يخبره ان اجراءات عرابي من الآن فصاعدا مخالفة لاوامر الخديوي وانه هو وحده (عرابي) المسئول عنها

ثم كتب الجناب الخديوي الى احمد عرابي يأمره بالامساك عن جمع العساكر واعداد التجهيزات لان الحكومة الانكليزية لا خصومة بينها وبين الحكومة المصرية وانها مستعدة لتسليم المدينة متى رأت فيها قوة منتظمة والبلاد في أمن وأمره ان يأتي الى سراي رأس التين حالاً

فاجاب عرابي « ان مقاومة العارة الانكليزية حصلت باقرار مجلس النظار ودرويش باشا وان النظار هم الذين أعلنوا الحرب على الانكليز وهكذا حصل فذا كان الاميرال الآن قد عدل عن المحاربة الى المسألة بعد وقوع الحرب فذلك يعد طلباً للصالح ولا يجوز ان يكون انكاراً للحرب » الى أن قال « انه يميل الى الصلح ولكن مع حفظ شرف البلاد والحكومة فاذا كان الاميرال يريد تسليم المدينة فليسلمها وتخرج مراكبه من الاسكندرية وانه للمحافظة على شرف الحكومة الوطنية ينبغي الاستمرار على الاستعداد العسكري حتى تفارق المراكب المياه المصرية وانه يعتبر قول الانكليز هذا مكيدة لان الانكليز لا يزالون في الاسكندرية ولذلك لا يمكنه الحضور اليها » ثم طلب التثام مجلس النظار في مركز الجيش للعداولة في الامر وبعد ذلك يصرف الجيش ويحضر

مع عرابي

فيظهر ان اصرار عرابي هذا هو السبب في اتساع الخرق لان الحكومة الانكليزية لم تكن تطمع باحتلال هذه البلاد على ما يظهر من أقوالها . وكتب عرابي الى وكيل الجهادية يعقوب سامي في القاهرة ايقاعاً في الحضرة الخديوية واتهمها بالتحامل على الجهادية الوطنية وأنها هي التي جلبت كل هذه المتاعب الى القطر المصري وطلب اليه ان يتروى في الامر وينظر في صلاحية هذا الوالي للتولية عليها أو عدمه . فلما وصل كتاب عرابي هذا الى يعقوب سامي جمع اليه الذوات والاعيان والرؤساء الروحانيين في ديوان الحرية في غرة رمضان سنة ١٢٩٩ هـ (١٧ يوليو ١٨٨٢ م) وعقدوا جلسة تحت رئاسة وكيل الداخلية قام فيها عدة خطباء اتهموا الجناب الخديوي ببيع الوطن . واستقر الرأي أخيراً على لزوم الاستمرار على اعداد

التجهيزات الحربية وانت تعين لجنة من ستة أشخاص يتوجهون الى الاسكندرية لاستدعاء النظار الى العاصمة للاستعلام منهم عن حقيقة ما حصل . وبناء على ذلك القرار سار الوفد فمر بكفر الدوار وتداول مع عرابي ورؤساء الجند فاختير منه اثنان هما علي باشا مبارك واحمد بك السيوفي للتوجه الى الاسكندرية للغرض المتقدم ذكره . فوصلا اليها وقابلها الجناب الخديوي صباح الاثنين في ٢٤ يوليو وعرضا له الحالة فأصدر أمراً عالياً يقضي بعزل عرابي عن نظارة الجهادية وأعلن ذلك في البلاد . ثم أرسل الى الباب العالي يخبره بعصيان عرابي وان الجند انحاز اليه وهو المسئول عنه أما عرابي فلم ينفك عن اعداد المعدات والتحصين بمساعدة رفقائه فحاول سد ترعة المحمودية بجهة كفر الدوار فلم يفلح وجعل يشيع في البلاد ان الخديوي مشترك مع الانكليز على اضاءة البلاد الى غير ذلك من اثاره خواطر الاهلين ولما وصل الامر بعزل عرابي الى العاصمة اجتمع المجلس المتقدم ذكره في نظارة الداخلية وقرروا بقاء عرابي للدفاع عن الوطن وايقاف أوامر الخديوي لانه خرج عن قواعد الشرع الشريف

واستولى العرابيون على الخطوط الحديدية والبرقية فنصب الاميرال سيمور سلكاً لتلغرافياً بين الاسكندرية وبورت سعيد وأعلن الخديوي ثانية عصيان عرابي . غير ان هذه الاوامر والمنشورات كانت تذهب أدراج الرياح لان الاهلين أصبحوا منقادين للحزب الوطني انقياداً أمست البلاد به آلة بيد زعيم الثورة يدبرها كيف شاء

ثم نزل العرابيون نحو الاسكندرية وعسكروا في الرملة فخرجت اليهم فرقة من الانكليز في ٥ اغسطس فلم تقو عليهم فتقهقرت الى الاسكندرية ثم عادت اليهم ثانية وقد تشددت فتقهقر العرابيون وتحصنوا بين أبي قير وخطوط الرملة ثم تقهقروا الى كفر الدوار فاعتبر الانكليز من ذلك الحين حالتهم في مصر حالة حرية يحتاجون فيها الى الامداد فاستمدوا انكاثراً فأمدتهم بقوات كانت توارد اليهم عن طريق السويس . أما عرابي فكان في كفر الدوار في أربعة آلايات من المشاة والاي من الفرسان والاي من الطبجية وبطارية من مدافع الرش وكثير من العربان وقد قدرت الجنود الانكليزية التي سارت لمحاربة عرابي بأربعة عشر ألفاً من المشاة وأربع فرق من الفرسان والـ ألف من الطبجية معهم ٣٦ مدفعاً ونحو ست فرق من المهندسين . ثم انضم الى هذه القوة بعد ذلك قوة هندية مؤلفة من تسعة آلاف جندي ويقال بالاجمال ان جميع الحاميات الانكليزية التي كانت في مالطة وقبرص وجبل طارق انضمت الى حملة مصر

على ان هذه الاعدادات لم تكن لثني العرايين عن عزمهم فان عرابي كتب الى المديرين بتاريخ ١٢ اوجسطس ان يجمعوا جنداً يبلغ مجموعه ٢٥ ألفاً . وطلب أن يكون فيهم الحفراء لانهم أقرب الناس الى الحركات العسكرية تلبية لما تدعوه اليه الحالة من السرعة في حشد الجيوش وفرض أيضاً على المديرين أموالاً يجمعونها من الاهالي امداداً للحرب فلا تسل عن الطرق التي كانوا يجمعون بها تلك النقود . وأخذ في تقوية الاستحكامات وتشبيد الطوابي فدها بين ما فوق الرملة بأربعة كيلو مترات الى كفر الدوار وأنشأ في كفر الدوار سداً عرضه ٣٠ متراً وخندقاً عرضه اربعة امتار جعله فاصلاً بين السد وارض أكثر فيها من مواقع الاستحكام . وكان الخط الدفاعي الاول ممتداً مما بعد المحلة بمسافة الف متر على طول الخط الممتد من الرملة الى البيضة وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة الى كفر الدوار فكانت كلها نحو ٥٠٠ موقع . واتم مثل هذه الاعمال الدفاعية من كفر الدوار الى أبي حمص ويوجد بين أبي حمص ودمهور تل يفضل سائر التلال مساحة وارتفاعاً فاختره عرابي موقفاً يقيه من الانكليز اذا قضت عليه الحال بالتقهقر الى دمنهور وعزز دمنهور بالمدافع



ش ٨٤ : مؤتمر الاستانة سنة ١٨٨٢

كل ذلك والتجارب جارية مع السلطان بشأن اشتراكه في المؤتمر للنظر في مصلحة الفطر المصري وهو يأبى الاشتراك حتى اوعز اليه البارون دي رينغ ان فرنسا تحب الاتفاق مع العرايين فرضي أن يشترك فيه فانتدب للنيابة عنه سعيد باشا الصدر الاعظم وعاصم باشا ناظر الخارجية في ٢٠ يوليو . واعلن سعيد باشا المؤتمر في ٢٦

منه ان جلالة السلطان يعد حملة عثمانية الى مصر ولا حاجة الى مداخلة الدول الاوربية في هذه المسألة . وأخذت الدولة في اعداد ٥٠٠٠ جندي لهذه الغاية . فقال اللورد دفرين وهو سفير انكلترا في الاستانة لا بد قبل كل شيء من اصدار منشور شاهاني يعلن عصيان عرابي . فوافقه واصدره فنشر في الجرائد فوجدوه لا يفي بالمرام . فترتب على ذلك تباعد بين الدولة العلية وانكلترا وزاد التباعد سعي السلطان في عرقلة مساعي الجند الانكليزي بمصر أو لوقوفه في سبيل ما يحتاجون اليه من الدواب وغيرها لحمل أثقالهم مما يطول شرحه . فقطع اللورد دفرين العلائق السياسية مع الباب العالي . وانصرفت العناية عن ارسال جند عثماني أو غيره أما في مصر فقد تركنا الجند الانكليزي في الاسكندرية وقد غادرها العرايون وتحصنوا في دمنهور وكفر الدوار وأدرك عقلاء الوطنيين عاقبة تلك المقاومة فقام جماعة منهم يخوفونهم العواقب بلا فائدة والظاهر أن عرابي كان معولاً في مساعيه على مساعدة الباب العالي . ثم ما لبث أن سمع بتصرف السلطان بعصيانته ثم جاءته صورة المنشور السلطاني بهذا الشأن وخواه تعنيف عرابي على عصيانته وانه يجب عليه الرضوخ للجناب الخديوي

وفي أواسط أغسطس وصل الجنرال السير ولسلي الى الاسكندرية واستلم قيادة الجيش . ثم أخذت تنوارد القوات الانكليزية فبلغت في أواخر الشهر المذكور نحو ٢٥ ألفاً وكان قدوم هذا القائد العظيم داعياً لتيقن الناس بفوز الحملة الانكليزية نظراً لما اشتهر به من البسالة والدراية العسكرية . وبعد وصوله الى الاسكندرية نشر اعلاناً مآله أنه لم يأت الى مصر الا لتأييد سلطة الخديوي وهو لا يحارب الا الذين يخالفون أوامر ملك البلاد وتنبأ أنه سيدخل القاهرة في ١٥ سبتمبر من تلك السنة . ثم أخذت العساكر الانكليزية تستكشف مراكز العرايين في كل يوم فكانوا اذا ظفروا بشرذمة من العرايين ولقوا منها مقاومة قابلوها بقوة السلاح فتولي الادبار تاركة في ساحة القتال من جرح منها فينقلونه الى معسكره أما القتلى فكانوا يدفنونهم وفي ٥ شوال سنة ١٢٩٩ هـ أو ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ م حصلت بين الفريقين معركة في كفر الدوار استمرت ساعتين وعدد العرايين ضعفا عدد الانكليز وانجبت عن انهزام قسم عظيم من العرايين وانتقلهم الى تل الوادي واحتل الانكليز بعض مواقع العصاة بعد أن قتلوا منهم ١٦٨ وأسروا ٦٢ . وجرت معركة أخرى في اليوم التالي لم يفز بها أحد الطرفين . وفي اليوم الثالث ٧ شوال اقتتل الفريقان في كفر

الدوار اقتتالا تعزز فيه جانب الانكليز بنجدة جاءتهم على قطار مخصوص فتراجع العرايون وتربصوا تحت امرة طلبة عصمت في مواقعهم يتوقعون فرصة . وكان العرايون بعد كل واقعة يكتبون الى اخوانهم في العاصمة وغيرها انهم ظفروا . أما عرابي فذهب لتحصين التل الكبير في مديرية الشرقية

وبعث سير الاحوال وزارة راغب باشا على الاستعفاء فاستقدم الجناب الحديوي رياض باشا من أوروبا وكان متغيباً فقدم في أواسط أغسطس وبعد قدومه دعا الحديوي شريف باشا الى تشكيل وزارة جديدة فلبى الدعوة وتعين رياض باشا ناظراً للداخلية وعمر باشا لطفى ناظراً للجهادية

وأرسل الانكليز فرقاً من حيوشهم تسير الى مصر عن طريق الاسماعيلية فاشتبكوا في ٩ شوال سنة ١٢٩٩ هـ أو ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٢ م مع العرايين بين المسخوطة والاسماعيلية وكان الفوز للانكليز . واستولى الانكليز أيضاً على الحسمة فأصبحوا على عشرة أميال من التل الكبير . وفي ٢٨ أغسطس حصلت واقعة الفصاين بين الحسمة والتل الكبير . وفي ٢٩ شوال أو ١٢ سبتمبر ورد للجناب الحديوي في الاسكندرية تلغراف من سلطان باشا يني باستعداد الانكليز لمهاجمة التل الكبير حيث تحصن العصاة ثم ورد تلغراف آخر من الاسماعيلية يعلن هجوم الانكليز على التل من كل ناحية وصوب في الساعة الرابعة والدقيقة ٣٠ بعد منتصف الليل وان العرايين لم يقفوا أمام الانكليز الا ٢٠ دقيقة استولى الانكليز بانقضائها على التل فغنموا ٤٠ مدفعاً وقتلوا ألفي رجل وأسروا الفين واستولوا على المؤن والذخائر ثم أخذوا يتعقبون الجند المنهزم

واقعة التل الكبير

وتفصيل ذلك أن عرابي كانت قد وصلت اليه نسخة من جريدة الجوائب وفيها منشور السلطان باعتباره عاصياً فاعتاظ وكاد يقع في اليأس لان حجة الكبرى كانت أنه مدافع عن حقوق الدولة العلية في مصر فتشاور مع عبد الله نديم وأقر على إخفاء ذلك عن الجند . فلما كانوا في التل الكبير وقد تحصنوا فيه بقوة ٣٠ ألف مقاتل و ٧٠ مدفعاً زحفت الجنود الانكليزية بقيادة الجنرال ولسلي بقوة ١٣ ألفاً و ٦٠ مدفعاً وقبل وصولهم الى معسكر العرايين ارسلوا جواسيس من المصريين ومعهم نسخ من الجريدة المشار اليها ففرقوها في الضباط وكبار الجيش . فلما اطلع أولئك عليها خارت قواهم ويئسوا من الفوز لان معظمهم كان يقاتل لاجل السلطان فلم عرابي

بذلك فجمع اليه الضباط وشاورهم فأقروا على استمرار الدفاع محاربة ورياء . وفيه كتب علي بك يوسف أمير آلاي المقدمة الى عرابي أنه قد تحقق أن العدو لا يخرج في هذه الليلة فأصدر عرابي أمره أن يرتاح الجيش . أما العساكر الانكليزية فسارت من أول الليل لا تفتر لها عزيمة وفي مقدمتها بعض الضباط المصريين الذين كانوا من حزب الجناب العالي وأمامهم عربان المهنادي يرشدونهم الى الطريق فبلغوا المقدمة



ش ٨٥ : عبد الله نديم خطيب العرايين

في آخر الليل فأخلى لهم علي بك يوسف الطريق ومروا بين العساكر لا راداً يردم فأطلقوا النار على الاستحكامات وأوقعوا بالجند الراقدة فألقت الاجناد أسلحتها وفرت فاستيقظ عرابي من نومه على دوي المدافع وخرج من خيمته فارتاع لما علم أن العدو قد استولى على الاستحكامات وانهمزمت الجنود المصرية فأخذ يناديهم فلم يلبه مجيب ثم رأى خيمته أصيبت بقنبلة فطارت فعلم أنه لا ينتجيه من الموت الا الفرار . فركب

جواداً كريماً وفراً وتبعه عبد الله نديم خاويل بعض خيالة الانكليز ادراكها فاستطاعوا وما زالوا حتى وصلا محطة أبي حماد فنزلا في القطار وأمر السائق بالمسير فتعلل فهدداه فسار حتى وصل القاهرة

عراي في القاهرة

فتوجه عراي كواً الى قصر النيل وعقد مجلساً من أمراء العسكرية والملكية وأخبرهم بما كان واستشارهم فاختلفت الآراء فهض البرنس ابراهيم باشا وخطب في الناس محرضاً على الدفاع فوافقوه بحسب الظاهر . واستقر الرأي على انشاء خط دفاعي في ضواحي المحروسة . فسار عراي في فرقة من المهندسين نحو العباسية يستشيرهم عن انسب المواقع لبناء ذلك الخط فقال له أحد الضباط « انك بجهلك وسوء تدبيرك قد أحرقت الاسكندرية وتريد الآن ان تحرق مصر فإذا لم يكن لك فيها ما يهملك فاعلم ان لنا فيها نساءً واطفالاً واملاكاً لا نسلم بضيايعها تنفيذاً لا غراضك ألا تدري انك تعرض مصر للخطر بانشاء الاستحكامات وتجعل منازلها هدفاً لسكرات المدافع فنحن لا نوافقك على ذلك واني اقول لك ذلك بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الضباط الحاضرين فلا ترج منا مساعدة ويكفي ما قد جرى »

فانذهل عراي وارتابك في أمره لاسيما لما رأى الباقيين مستحسنين ما قاله رقيقهم فكراً راجعاً على عقبيه كثيراً فاجتمع بأصدقائه ودعاهم الى النظر في الأمر فلم يجدوا أفضل من رفع عريضة الى الجنب الخديوي يعتذرون بها عن أفعالهم ويقدمون له الخضوع فحرروا عريضة وأرسلوها مع وفد مؤلف من بطرس باشا غالي وعلي باشا الروبي ومحمد رؤوف باشا ثم أردفوها بعريضة أخرى أرسلوها مع عبد الله نديم في قطار مخصوص وكان ذلك في غرة ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ أو ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م فأبى الخديوي قبول العريضة وأمر بالقبض على الروبي وسجنه . اما نديم فانه ركب القطار الذي قدم عليه وعاد من فوره بعد ان وصل كفر الدوار ثم اختفى بعد ذلك ولم يتيسر للحكومة القبض عليه الا بعد عشر سنوات قضاه مخفياً في الارياض

دخول الانكليز القاهرة

أما الجنود الانكليزية فانها بعد استيلائها على التل الكبير سارت فرقتين بباييس فالزقاويق واستولت عليها ثم سارت حتى أتت العباسية خارج القاهرة في مساء الخميس ١٤ منه وعسكرت في سفح المنظم تخاف الناس ان يدخل الانكليز مصر محاربين

ولكن الامر جاء بخلاف ما كانوا يتوهمون لأن الجيوش الانكليزية دخلت العاصمة بحالة سلمية في يوم الجمعة ١٥ سبتمبر طبقاً لما تنبأ به الجزال ولسلي وألقت القبض على عراي . وبعد وصول الجزال ولسلي الى القاهرة انفذ السير الجزال افلن وود الى كفر الزيات فوصلها في ١٦ منه فسلمت فأمر بنفس الطاية التي كان قد بناها العراييون في قرية احلان وسلمت باقي الحصون في بورت سعيد ورشيد وأخيراً دمياط فانها لم تسلم الا في ٢١ سبتمبر

وبعد وصول الجنود الانكليزية الى القاهرة احتلوا قشلاقات العباسية والقلة والمقطم وقصر النيل ونزل الجزال السير ولسلي في سراي عابدين وكان من جملة قواد هذه الحملة الدوق دي كنوت ابن ملكة انكلترا . وأودع عراي ومحمود سامي في سجن العباسية والاسرى من الملكية في سجن الضبطية والجهادية في القلة ثم صدرت أوامر الخديوية بتعيين حكام المديرات من أهل النزاهة والاخلاص وصدرت أوامر أخرى بتعيين لجنة مخصوصة في الاسكندرية لتحقيق مواد السرقة والقتل والحرق التي وقعت فيها في حادثتي ١١ يونيو و ١١ يوليو الى غاية ١٦ منه وتقديم التقارير بما تستطلع له . واوامر أخرى بتعيين مثل هذه اللجنة في طنطا لتحقيق مثل هذه الحوادث التي حدثت خارج الاسكندرية . وأرسلت نظارة الداخلية منشورات الى المديرين يستقدمون من وقعت عليهم الشبهة بالاشتراك مع العرايين . ولا تسلم عن التهامي التلغرافية التي وردت للجناب الخديوي وللجنرال ولسلي بما أتاهما الله من النصر المبين

وفي ٢٣ سبتمبر الغيت جريدتا الزمان والسفير وفي ٢٥ منه أقبل الجنب الخديوي الى العاصمة ومعه شريف باشا وسائر النظار فتواردت الجماهير لملاقة سموه في المحطة ثم ركب والى يساره ابن الملكة وأمامه الجزال ولسلي والمستمر مالت الى سراي الاسماعيلية وفي اليوم التالي سار الى سراي الجزيرة للتشريفات الاعتيادية واستمرت الزينة في القاهرة ثلاث ليال متوالية

محاكمة العرايين

وفي ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م أمر سموه بتشكيل لجنة مخصوصة بالقاهرة تحت رئاسة اسماعيل باشا أيوب لتحقيق قضية من كان له يد في الحوادث الاخيرة وان تقدم ما تقرره لنظارة الداخلية لتنفيذه . وأصدر أمراً آخر بتشكيل محكمة شرعية في القاهرة تحت رئاسة محمد رؤوف باشا للحكم في الذعاوى التي

تقدم من اللجنة المختصة وان تكون احكام هذه المحكمة قطعية لا تستأنف. وأصدر امراً آخر بتشكيل لجنة عسكرية بالاسكندرية للحكم في الدعاوى التي تقدم لها من اللجنتين المخصوصتين اللتين تشكلتا في الاسكندرية وطنطا وان تكون احكامها قطعية تحت رئاسة عثمان نجيب باشا

فشرع كل من هذه اللجان والمحاكم في اجراء ما عهد اليه. وفي ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨٢ م عين الشيخ محمد العباسي لمشيخة الجامع الازهر بدلاً من الشيخ الامباي. وكافاً الجناح الخديوي سلطان باشا بعشرة آلاف جنيه على صداقته التي أبداها أثناء الثورة. ثم أصدر الجناح العالي أمراً بالغاء الجيش المصري لصرف العساكر التي جاهرت بالعصيان والاكتفاء بمحاكمة الضباط وكبار القادة كمرابي وعبد العال وغيرها. ثم أمر بتنظيم جند جديد. وفي ١١ ذي القعدة او ٢٤ أكتوبر صدر العفو عن الملازمين واليوزباشية الذين كانوا في جيش عرابي مع بعض الاستثناء.

وانعم الجناح الخديوي بالنيشان المجيدي والعثماني من رتب مختلفة على ٥٢ ضابطاً من ضباط الجيش الانكليزي. وأخذت الحكومة المصرية بمشاركة قناصل الدول تسعى في تسكين البال وتوطيد الراحة والقبض على من اشترك بتلك الثورة ومكافأة الذين ساعدوا في اطفالها وبرهنوا على اخلاصهم للمليك البلاد. وعينت في الاسكندرية لجنة للنظر في تعويض الخسائر التي تكبدها اهلها بسبب الحرق والنهب

واخذت الحكومة في محاكمة زعماء الثورة العرابية على ايدي اللجان المتقدم ذكرها وفرغت من ذلك في ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ثم التأمّت اللجنة مراراً للنظر في تثبيت تلك الاحكام ثم عرضت على الجناح العالي فتكرم بالعفو عن حكم عليهم بالقتل فأصبحت الاحكام بعد ذلك العفو تقضي بتجريدكم من الرتب والالقب والنياشين وتقيهم وهاك ما صدر بشأن ذلك

(١) الحكم الصادر على كل من احمد عرابي وطلبة عصمت وعبد العال حلبي ومحمود سامي وعلي فهمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي المقتضى جزاؤهم بالقصاص وقع تبديله بالنفي الى الابد من الاقطار المصرية وملحقاتها

(٢) ان هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية أو ملحقاتها
ثم ارتأى مجلس النظار ان تضبط أملاكهم المنقولة وغير المنقولة وان يعين لهم في مقابل ذلك راتب سنوي كاف لمعيشتهم فصدر بذلك أمر عال في ٢٠ شوال أو ١٤ ديسمبر من تلك السنة فعينت لجنة لاجراء ذلك. ثم صدرت الاحكام المختلفة على من بقي من اتباع عرابي كل بحسب استحقاقه. وكان الامر بالنفي على ما تقدم يقضي بتسفيرهم حالاً وانما رأت الحضرة الخديوية امهالهم الى ١٦ صفر أو ٢٧ ديسمبر وعند ذلك



ش ٨٦ : احمد عرابي في منفاه

ركبوا في قطار مخصوص مع من أرادوا استصحابه من ذويهم الى السويس ومنها الى جزيرة سيلان منفاهم

وما زالوا هناك الى سنة ١٩٠١ حتى اذن الجناح الخديوي لهم بالعودة الى مصر يقضون فيها بقية حياتهم بدلاً من منفاهم في سيلان. وقد توسط لهم بذلك الدوك اوف كورنول وبورك ولي عهد انكلترا يومئذ بعد زيارته سيلان ومشاهدة المنفيين في منفاهم مع ما يقشعهم من الذل والضعف. وقدم احمد عرابي الى هذا القطر بعد غيابه عنه نحو ١٩ عاماً

ثم أصدر الجنب الخديوي امراً عالياً بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٣ يناير سنة ١٨٨٣ م بالعمو عن أهالي القطر المصري الذين اشتركوا في الثورة العرابية ما عدا الذين سبق صدور الحكم عليهم لغاية تاريخه

ولاحظ رياض باشا ان نيات الانكليز منصرفة الى التساهل مع عرابي ورفقائه في أثناء محاکمتهم وهو يريد التشديد فأبى نفسه الكظم على ما في ضميره فقدم



ش ٨٧ : احمد عرابي عند رجوعه

استعفاءه من نظارة الداخلية وخاضت الجرائد بهذا الشأن ولا سيما جريدة الديب وأبانت ما لهذا الوزير الخطير من المآثر الغراء في التنظيمات الادارية وحرية التصرف بالاحكام . وقد اجمعت تلك الجرائد على استحسان فعله مؤثراً الاستعفاء على قبول خدمة لا يستطيع فيها التصرف بالحربة التي تقتضيها مصالح الامة التي هو اكثر الناس غيرة عليها . فلما قبل استعفاؤه عين بدلاً منه اسماعيل باشا أيوب ثم توفي هذا بعد يسير فعين بدلاً منه خيرى باشا

الثورة المهدوية او الحوادث السودانية

مع ما تقدمها وما انتهت اليه

ولم تكدم مصر تفرغ من الحوادث العرابية أو الثورة العسكرية المصرية حتى ظهرت الثورة السودانية بظهور محمد احمد المهدي السوداني وكان لها تأثير شديد في تاريخ مصر الحديث فرأينا أن نأتي على تاريخها تباعاً من ظهور المهدي الى انقضاء تلك الحركة واسترجاع السودان وان تجاوزنا مدة الخديوي السابق ونعهد الكلام بفذلكة عن تاريخ السودان المصري منذ فتحه محمد علي الى الحوادث المهدوية

تاريخ السودان من فتح محمد علي الى ظهور المهدي

قد تقدم ما كان من فتح السودان في زمن محمد علي باشا على يد ابنه اسماعيل باشا سنة ١٨٢٠ وما بعدها حتى غدر به الملك النمر صاحب شندي وقتله وثأر له الدفتردار . وأول وال عينته الحكومة المصرية على السودان بعد الفتح الاميرالاي عثمان بك سنة ١٨٢٥ ولم يبق فيها الا سنة تخلفه محو بك وغيره فغيره كما ترى في هذا الجدول :

١ - ولاية السودان في زمن محمد علي	٣ - في زمن سعيد باشا
عثمان بك من سنة ١٨٢٥ - ١٨٢٦	علي باشا شركس من سنة ١٨٥٥ - ١٨٥٧
محو بك » ١٨٢٦ - ١٨٢٦	أراكيل باشا من سنة ١٨٥٧ - ١٨٥٩
خورشيد باشا » ١٨٢٦ - ١٨٣٩	حسن باشا سلامه » ١٨٥٩ - ١٨٦٢
احمد باشا ابودان » ١٨٣٩ - ١٨٤٤	محمد باشا راسخ » ١٨٦٢ - ١٨٦٣
احمد باشا المنكلي » ١٨٤٤ - ١٨٤٥	
خالد باشا » ١٨٤٥ - ١٨٥٠	
٢ - في زمن عباس الاول	٤ - في زمن اسماعيل باشا
عبد اللطيف باشا من سنة ١٨٥٠ - ١٨٥١	موسى باشا حدي من سنة ١٨٦٣ - ١٨٦٥
رسم باشا » ١٨٥١ - ١٨٥٢	جعفر باشا سامي » ١٨٦٥ - ١٨٦٦
اسماعيل باشا » ١٨٥٢ - ١٨٥٣	» » مظهر » ١٨٦٦ - ١٨٧١
سليم باشا » ١٨٥٣ - ١٨٥٤	ممتاز باشا » ١٨٧١ - ١٨٧٣
علي باشا سري » ١٨٥٤ - ١٨٥٥	اسماعيل باشا ايوب » ١٨٧٣ - ١٨٧٧
	غوردون باشا » ١٨٧٧ - ١٨٧٩

٥ - في زمن توفيق باشا

علاء الدين باشا من سنة ١٨٨٣ - ١٨٨٤

غوردون باشا » ١٨٨٤ - ١٨٨٥

رؤوف باشا من سنة ١٨٧٩ - ١٨٨٢

عبدالقادر باشا حليمي » ١٨٨٢ - ١٨٨٣

ولكل من هؤلاء الولاة تاريخ لا محل لذكره هنا وإنما نشير الى أهم الحوادث بوجه الاختصار - في أيام محمد باشا ابوودان ذهب محمد علي باشا بنفسه لزيارة السودان سنة ١٨٣٩ فتفقد مستعمرته الجديدة وعاد . وبعد سنتين حمل احمد باشا المذكور لفتح السودان الشرقي ففتح التكا وما زال الولاة يوسعون سيادة مصر على السودان الى أواخر أيام الحديوي اسماعيل . وفي أوائل أيامه بولاية موسى باشا على السودان سنة ١٨٦٣ قدم السير صموئيل باكر الانكليزي لاكتشاف منابع النيل ومعه امرأته فقاسى عذاباً شديداً

وفي ولاية جعفر باشا ثار الجهادية السود من كسلة لتأخر مرتباتهم وسوء معاملة قوادهم فغبت الحكومة في اخاد الثورة وقد سفك بسببها دماء غزيرة ومن أهم حوادث السودان في تلك الفترة سعي الحكومة في ابطال تجارة الرقيق ولم يصدر الامر رسمياً بابطالها الا في زمن اسماعيل باشا بولاية موسى باشا فأصدر أوامره المشددة اليه سنة ١٨٦٣ فتعقب تجار الرقيق وهم يومئذ رجال السطوة والثروة وأصحاب الكلمة العليا هناك . فقبض على سبعين مركباً مشحونة بالارقاء بين كاكافشودة وأتى بهم الى الخرطوم ولم يطلق التجار حتى أخذ عليهم الموائيق أن لا يعودوا الى هذه التجارة

ثم اتدب اسماعيل باشا السير صموئيل باكر سنة ١٨٦٩ لفتح خط الاستواء على ان يكون والياً عليه وعقد له على ١٧٠٠ رجل فسافر الى الخرطوم عن طريق سواكن ومنها خرج الى خط الاستواء والحكومة تعضده فأعلن ضم بعض بلاد خط الاستواء رسمياً الى الدولة المصرية أهمها بلاد يونيورو وخلع ملكها كباريكة وأقام مقامه رجلاً يوالي الحكومة وعقد شروطاً ودية مع ملكها وعاد الى مصر سنة ١٨٧٣ واستعفى من منصبه على خط الاستواء فعين اسماعيل الكولونل غوردون (غوردون باشا) مكانه فسافر الى ذلك المكان سنة ١٨٧٤ وبذل جهده في اصلاح تلك البلاد والسودان يومئذ بولاية اسماعيل باشا ايوب . ثم استقال غوردون سنة ١٨٧٦ وعاد الى بلاده

وظهر في اثناء ذلك الزير باشا وأنشأ دولة لنفسه في بحر الغزال ودارفور وقد

دون أعماله بنفسه ونشرت سيرته في تاريخ السودان لشقير بك . فلما تم له الفتح وعلم اسماعيل بأمره خافه وتمنى لو يقضى عليه وجرت حوادث اقتضت مجيء الزير الى مصر لعرض اختلاف جرى بينه وبين حكامدار السودان وهو حسن الظن في الدولة المصرية وكان يرجو أن يتفق مع الحديوي على تنظيم البلاد التي فتحها فأتى مصر ومعه الهدايا من العساكر وأعمال الريش والسن فأحسن الحديوي وفادته لكنه أمره أن يبقى بمصر

وما زال فيها وانضمت بلاده الى مملكة السودان المصرية



ش ٨٨ : كباريكة ميت يونيورو في خط الاستواء ذاهب الى معسكر صموئيل باكر

وفي سنة ١٨٧٧ عادت حكمدارية السودان الى غوردون باشا وأخذ في تنظيم الحكومة والادارة . وفي تلك السنة عقد اسماعيل باشا معاهدة ابطال تجارة الرقيق مع انكلترا وعهد الى غوردون بتنفيذ ذلك ونشره وهي مهمة شاقة كان لها تأثير شديد في الثورة السودانية التي بدأت في أيام خلفه رؤوف باشا كما ستري

أسباب الثورة السودانية

لا تتورأمة على حاكمها الا لامر هام تلجأ اليه عند فراغ الحيلة من نيل حقوقها . وأما الاسباب التي أعدت السودان للثورة فكثيرة أهمها :

١ — انتظار المسلمين للمهدي

المشهور بين المسلمين من أوائل الاسلام أنه سيظهر رجل منهم يؤيد الدين وينشر لواء العدل ويستولي على الممالك الاسلامية يسمى المهدي ويستندون ذلك الى احاديث نبوية بحث كثيرون من علماء الاسلام في صحتها وفسادها وفي مقدمتهم العلامة ابن خلدون وتمت للموضوع ذكر الذين ادعوا المهدي من اول الاسلام الى الآن :

١ : محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ظهر في المدينة سنة ١٤٥ هـ فدعا الناس اليه وكان له أخ اسمه ابراهيم نصره وقام بدعوة ففتح البصرة والاهواز وفارس ومكة والمدينة وبعث عماله الى اليمن وغيرها وكان ذلك في زمن الامام مالك فافتى له وشد أزره فكثرت دعائه حتى كاد يذهب بالدولة العباسية لو لم يستدرك المتصور أمره ويتغلب عليه ويقتله

٢ : عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب التي فتحت الديار المصرية في أواسط القرن الرابع للهجرة وبنت مدينة القاهرة على يد القائد جوهر . وقد اتسعت دولة الفاطميين وامتدت سلطتهم وطالت أيام حكمهم

٣ : محمد بن عبد الله بن تومرت المعروف بالمهدي الهرعي ويكنى أبا عبد الله . أصله من جبل السوس في أقصى بلاد الغرب رحل الى المشرق حتى انتهى الى العراق واجتمع بابي حامد الغزالي وغيره فأخذ العلم عنهم واشتهر بالنسك والتقوى وساح في الحجاز وجاء مصر ثم سار الى الغرب وأقام عمرا كش وغيرها وتأسست على يده دولة عظيمة في أوائل القرن السادس للهجرة هي دولة عبد المؤمن

٤ : العباس الفاطمي ظهر بالمغرب في آخر المائة السابعة للهجرة وادعى المهدي فتنكأف الناس حوله وعظمت شوكله حتى دخل مدينة فاس عنوة وأحرق سوقها وبعث عماله الى الانحاء لكنه قتل غيلة فانقضى أجله وسقطت دعوة

٥ : السيد احمد ظهر في أوائل القرن التاسع عشر لليلاد في جهات الهند وحارب الاسياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ ولم تقم له قائمة

٦ : محمد المهدي السنوسي بن الشيخ محمد السنوسي الذي ظهر في المغرب في أواسط القرن الماضي وأصله من جبل سوس بمجائر الغرب نبغ (والده) سنة ١٨٣٧ ولاقى من بعض اولي الامر الاسلامي رحاباً ونشر دعوة وأيدها وكان مقامه الرئيسي في جغبوب على مقربة من واحة سيوا نحو الغرب ولكنه انشأ زوايا عديدة في

أما كن أخرى من بلاد الغرب يبلغ عددها ثلاثمائة كلها تعلم طريقته وتعاليمه

٧ : محمد احمد المهدي السوداني وقد نحا في دعواه منجى الشيعة فقال انه الامام الثاني عشر الذي ظهر مرة قبل هذه وفي تسمية اتباعه بالدراويش تأييداً لرغبته في قول الشيعة لان لفظ درويش فارسية

٢ — عنف الحكومة المصرية في معاملة السودانيين

ما برحت الحكومة المصرية منذ دخول السودان في حوزتها وهي تنظر الى السودانيين انهم أحط من سائر رعاياها وتستعمل العنف في معاملتهم يكفي شاهداً على ذلك ما اتاه اسماعيل باشا بن محمد علي من التكيل في الملك الفر صاحب شندي كما تقدم في فتح السودان فقد ظل كثيرون من اعقاب اولئك المظلومين يتحينون فرصة ينتقمون بها من الحكومة وكانوا أول القائمين بنصرة محمد احمد

٣ — جور الحكام في تحصيل الضرائب

كان تحصيل الضرائب في السودان منوطاً بجماعة الباشوزوق فكانوا يسومون السودانيين في تحصيلها أنواع الخسف والذل وقد يقتضونها مراراً . وروى المستر فرنك باور قنصل انكلترا بالخرطوم اذ ذاك ان الضرائب كانت تضرب على أهل السودان بلا شفقة . فيضربون ضريبة على كل فرد منهم وعلى الاولاد والنساء يقتضونها ثلاث مرات في السنة مرة لصاحب القضاء وأخرى للجابي وأخرى للحكدار . وكان الزارع اذا زرع حنطة لا يؤذن له بزراعتها حتى يدفع ثلاثة جنيهات كل سنة ويدفع سبعة أخرى في مقابل التصريح له بريها من ماء النيل . فاذا تردد في الدفع سيق الى السجن واذا صح زرعه دفع ذلك المال مرتين مرة للحكومة ومرة لجيب الباشا . واذا كان من أصحاب السفن التجارية التي تجري في النيل فرض عليه أربعة جنيهات عن كل سفينة فاذا لم يرفع العلم المصري على سفينه غرم باربعة أخرى . ومن تأخر عن تأدية تلك الضرائب اقتضتها الحكومة منه بالكرباج وقد يعاقب ذلك المسكين باحراق منزله أو سلب أمتعته . والحلاصة ان السوداني لم يكن يباشر امراً الا أدى عليه ضريبة

٤ — منع تجارة الرقيق

من المقرر المشهور ان التجارة السودانية محصورة في أصناف معدودة أهمها تجارة الرقيق . والنخاسون أو تجار الرقيق أشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار في حاشية كل منهم مئات أو الوف من الرجال بين خدمة وعمال وعبيد يقومون لقيامه ويقعدون لقعوده . فالنخاسون عمد السودان وعيون أعيانه وقادة أعماله تهاجم الحكام وتخشى

سطوتهم الحكومة . وما زالت تجارتهم رابحة وأعمالهم سائرة حتى قام أهل العالم المتمدن لابطال تجارة العبيد فجاء السودان السير صموئيل باكر للقيام بتلك المهمة ثم انبطت بنوردون باشا فأخذ يطوف الاصقاع والمدن في أنحاء السودان يعلم الناس الحرية الشخصية ويأمر التجار بالكف عن الاسترقاق جملة . وهي صدمة قوية ارتجت لها اركان السودان لأن منع النخاسة لم يقتصر على تقليل ارباح النخاسين ولكنه عرضهم لاستبداد الحياة لانهم كانوا يؤدرون الجانب الاكبر من الضرائب عبيداً أو ماشية فأصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يقوون على تأديتها . فاستبد بهم الحياة وساموهم الذل والعسف حتى خيف عصيانهم ولكن غوردون باشا لحسن سياسته ولين جانبه لم يحدث في أيامه اضطراب . فلما غادر السودان تولاه رجل لم يكن عالماً بحل الضعف ليتلافى خطره . فكان غوردون أوقد ناراً في بعض جهات البيت فجاء غيره لا يدري كيف يطفىء تلك النار فتعاظمت والتهمت المدينة برمتها . فلما قام المهدي يدعو الناس الى رفع المظالم آنس من اولئك التجار اصغاء وكانوا له عوناً في اضرار تلك الثورة

٥ - انتظار السودانيون ان يكون المهدي منهم .

من المتداول بين شيوخ أهل السودان وفقهائهم ان المهدي سيظهر من بينهم استناداً الى أقوال يروونها عن بعض الأئمة منها قول الامام القرطبي في طبقاته الكبرى ونصه « وزير المهدي صاحب الخرطوم » وقول السيوطي وابن حجر « ان من علامات ظهور المهدي خروج السودان » ولذلك رأيتهم رحبوا بالشيخ السنوسي لما قام لكن النجاح قدر لمحمد احمد لاسباب أهمها :

١ استخفاف الحكومة به عند ظهوره وترددها في الضربة القاضية على تلك الثورة كما سيتضح لك من سيرة حياته

٢ قيام العرابين بالثورة بمصر فانه هاج خواطر الاهلين وجرائم على النهوض مع اشتغال الحكومة عنهم

٣ ضعف الحاميات المصرية في السودان فان مجموع الجند الذي كان في اصقاع السودان الواسعة من حلفا الى خط الاستواء لا يتجاوز ٤٠.٠٠٠ رجل موزعة في ١٥ مديرية وليس عندها معاقل حصينة

نشأة محمد احمد المهدي

أصله ومولده



ش ٨٩ : محمد احمد المهدي

في جزيرة ضرار من أعمال دنقلة سنة ١٨٤٣ وهو من ذرية رجل اسمه حاج شريف واسم أبيه عبد الله وأمه زينب وكان أبوه نجاراً يصنع المراكب والسواقي وضاق به الرزق في دنقلة فرحل بأهله الى شندي ثم الخرطوم وابنه محمد احمد طفل ثم مات الوالد . وكان محمد احمد ميالاً الى الدين من صغره فأخذ في درس القرآن وتفهيم قواعد الاسلام وانتهى في دروسه الى محمد الحير في الغبش تجاه بربر واشتهر بين أقرانه بالمبالغة في الزهد حتى قيل انه كان يمتنع عن أكل زاد استاذة لانه يجري

عليه من الحكومة وهو يعتقد أنه مال الظلم

وبعد أن أتم دروسه على محمد الخير مالت نفسه الى التصوف فذهب الى الشيخ محمد شريف حفيد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية وهو إذ ذاك مقيم عند قبر جده في أم مرّحي وسأله الدخول في مصاف تلامذته وذلك في سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦١ م فأجابه محمد شريف الى طلبه فأقام عنده منقطاً الى الصلاة والعبادة وما لبث أن أظهر من التقشف والزهد ما ميزه عن سائر التلامذة حتى أنه كان يشتغل في منزل سيده بما هو منوط بالعبيد والجواري من احتطاب واستقاء وطحن وطبخ وهو غير مكلف بشيء من ذلك وكان كلما وقف للصلاة يبكي حتى يبلل الارض بدموعه وإذا جلس أمام شيخه نكس رأسه ولم يرفع طرفه اليه الا اذا كلفه فيرفع طرفه بأدب واحترام وأقام على ذلك سبع سنين . فلما رآه شيخه على هذه الحالة وأنه سلك طريق المريدين وناهج منهج الصالحين مال اليه وأحبه وجعله شيخاً وأعطاء راية وأذن له في الذهاب حيث شاء لاعطاء العهود وتسليك الطريقة . فذهب الى الخرطوم وتزوج بابنة عم له وأقام مع اخوته بيت طريقته بغيره وجد

وفي سنة ١٨٧١ رحل مع اخوته الى جزيرة ابا وراء الخرطوم وبنى فيها جامعاً وخولوة للتدريس فاجتمع عليه سكان تلك الجزيرة وهم دغيم وكنانة وغيرهم من عرب البادية وأخذوا العهد عنه ودخل بعضهم في تلمذته وفي جملتهم علي ودخلو الذي جعله بعد ادعائه المهديوية خليفته الثاني ولم يمض الا القليل حتى اشتهر صيته وكثر أتباعه وكان أستاذه محمد شريف قد انتقل الى القادرية قرب جبل أولى على النيل الايض فكان يزوره في كل موسم أو عيد لتقديم واجب الطاعة . وقبل الدخول عليه يجعل الرماد على رأسه والشعبة في رقبته وفروة الضأن على صلبه شبيهاً بالعبد في ذله فكان محمد شريف يحل الشعبة من رقبته والفروة عن صلبه ويلبسه آخر الثياب فيقيم عنده أياماً ثم يعود الى مركزه في جزيرة ابا . وفي بعض زياراته حدثه عن خيرات البلاد التي رحل اليها وسهولة العيش فيها وزين له الاقامة في العرايب بين ابا والكوة فانتقل اليها سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧٢ م وكانت العرايب على خصبها خالية من السكان والزراعة فعمرها وأقام فيها على صفاء نام مع محمد احمد برهة ثم لم يلبث أن تكدر هذا الصفاء فصار جفاءً ثم تقوراً ثم عداءً

واختلفوا في سبب العداء والغالب أنه حسد من محمد الشريف لتلميذه لاقبال عربان العرايب اليه فاخذ يخفض من سطوته ويتاوتة . وتعاظم التفور بينهما وظهر.

فاخذ محمد احمد في انتقاد أعمال أستاذه ومن جملتها أن الشريف كان يأذن للنساء في حضور مجلسه وتقييل يده ولم يكن يرى مانعاً من الرقص والغناء فأخذ محمد احمد يعلم تلامذته أن ذلك يخالف الشرع فبعث محمد الشريف اليه ووبخه وبخا اسمه من الطريقة وهي اهانة عظيمة في نظرهم

وكان محمد احمد يحب الطريقة وله خلفاء وتلامذة فيها فلم يكن تركها سهلاً عليه فعمد الى الملاينة فذهب الى أستاذه وأمس العفو وقد ذرى الرماد على رأسه وجعل في عنقه الشعبة وهي عود ذو شعبتين توضع في العنق علامة التذلل والاستعطاف وانهى محمد شريف وطرده وأهانته . فلم يعد محمد يستطيع الكظم فالتجأ الى شيخ آخر من الطريقة المذكورة اسمه الشيخ القرشي وكان بينه وبين الشيخ شريف منافسة تخاف هذا عاقبة الامر فاستقدم محمد احمد واستدناه فأبى وكان لذلك الالباء رنة في آذان أهل السودان . وعظم محمد احمد في عيني الناس وانتقل الى جزيرة ابا . وبعد قليل مات الشيخ القرشي فبنى محمد على قبره قبة . وبالغوا في اكرامه نكابة بالشيخ الشريف وازداد الرجل شهرة بالتقوى والكرامة في معظم أنحاء السودان وهو الى ذلك الحين لم يدع المهديوية

وكان استبداد حياة الاموال ضارباً اطنابه وحال السودان كما تقدم من الفلاقل والاضطراب فكان محمد احمد اذا ذكر الضيق الذي أصابهم من ظلم الحياة نسب ذلك الى خطية بني الانسان وان العالم قد فسد والناس قد ضلوا عن سواء السبيل فناهم ما نالهم من غضب الله وان الله سيبعث رجلاً يصلح ما فسد ويملا الارض قسطاً وعدلاً هو المهدي المنتظر . وقد كان ذلك حديث الناس في سائر أنحاء السودان فحينما اجتمعوا تحدثوا في ما يقاسونه من الضنك وما ينتظرونه من الفرج على يد ذلك المنتظر حتى أصبح لفظ المهدي يدوي في سائر مجتمعاتهم ومنازلهم في الاكواخ والاسواق والمساجد والزوايا على الطرق والعطموح وحينما وجد اثنان أو ثلاثة فلا حديث لهم الا الفرج المنتظر على يد المهدي

قيامه بالدعوة

وكان محمد احمد على بينة من هذا الشعور العام وحدثته نفسه ان يكون هو الرجل المنتظر لكنه لم يصرح به لاحد . وهو في ذلك جاء عبد الله التعايشي من البقارة وكان يشتغل بالتنجيم وكتابة الاحجية وله مطامع كبيرة فاستحث محمد احمد على القيام بالدعوة وأكد له انه هو المهدي المنتظر من علامات زعم ان اياه وصفها

له وانه وجدها كلها في محمد احمد . فجاء ذلك وفقاً لما في خاطر محمد احمد فاعتقد انه المهدي وقرب التعايشي وتعاوننا على بناء قبة له واستقدم تلامذته واقام في جزيرة ابا وأخذ يفتش الكتب ويبحث عما يؤيد دعواه ويتبين صفات المهدي وعلاماته وأخذ يظهر دعواه لتلامذته سرّاً من أواسط سنة ١٨٨١



ش ٩٠ : الدراويش

ثم خرج سائحاً الى بلاد الغرب مع رجاله وعليهم لباس الدراويش وهي الجية المرقعة والسبحة والعكاز وجعل يبث دعواه بين رؤساء القبائل على ان يكتفوا ذلك حتى تأتي الساعة وعاد الى ابا وأخذ في مكاتبة الناس في هذا الشأن . وبلغ ذلك الحكومة فلم تعبأ به حتى اذا جاءتها الوشاية بشأنه من محمد الشريف وأطلعها على بعض تلك المذشورات بدأت تهتم بأمره . وكان حكمدار الخرطوم يومئذ رؤوف باشا فكتبه بما نسب اليه فاجابه بكتاب يؤيد به دعوته . فجمع علماء الخرطوم وأطلعهم على الكتاب فاتهموه بالجدب ولكنهم أجازوا القبض عليه فانتدب لهذا الامر

محمد بك ابو السعود أحد معاوني الحكومة فسار في قلة من الرجال فوصل جزيرة ابا في ٧ أغسطس سنة ١٨٨١ فوجد محمد احمد في الغار جالساً وحوله جمهور من تلامذته فسلم عليه وقال « ان حكمدار السودان بلغه أمر الدعوى التي قت بها وأرسلني لآتي بك اليه بمدينة الخرطوم وهو ولي الامر الذي يجب طاعته » فاجابه محمد احمد « اما ما طلبته من الوصول معك الى الخرطوم فهذا مما لا سبيل اليه وأنا ولي الامر الذي يجب طاعته على جميع الامة المحمدية » ثم شرع في تقديم الادلة على انه المهدي المنتظر فاغظله ابو السعود في الجواب وقال « ارجع عن هذه الدعوى فانك لا تطيق حرب الحكومة ولا ترى معك من يقاتلها » فاجابه محمد احمد وهو يتنسم « أنا أقاتلكم هؤلاء » وأشار الى أصحابه ثم التفت اليهم وقال « أنتم راضون بالموت في سبيل الله » فقالوا نعم . فالتفت الى أبي السعود وقال له « قد سمعت ما أجابوا به فارجع الى ولي أمرك في الخرطوم واخبره بما رأيت وسمعت » فلما رأى أبو السعود صدق عزم محمد احمد وأعوانه على نصرة دعوائهم وان النصح لا ينجع فيهم عاد مسرعاً الى الخرطوم وقص على رؤوف باشا ما رآه وسمعه

مناهضة الحكومة له

فجهز رؤوف باشا حملة من بلوكين بعث بها الى جزيرة ابا وكان محمد احمد قد واعد رجاله على الصبر فاطاعوا فلما أتت جنود الخرطوم هجموا عليهم وقتلوا معظمهم وعاد الباقون ليخبروا بما كان . وهي أول وقعة جرت بين الدراويش والحكومة وعرفت بواقعة ابا واشتهر فوز المهدي فيها فعدّه اتباعه من كراماته لانه غلب الحكومة الظالمة . ولكن محمد احمد لم يكن يحفل مركزه بالنسبة للحكومة فخاف اهتمامها بأمره وهو هناك لا يقوى على مناهضتها وما كل مرة تسلم الجيرة فعزم على الهجرة وجعل وجهته جبل قدير . فقال لأصحابه ان النبي جاءه في المنام وأمره بتلك الهجرة فاطاعوه وساروا وهم يدعون الناس الى طاعة المهدي واعترضه ملك على جبل في الطريق يقال له جبل الجراة فخالف محمد احمد فخاويه فكانت الغلبة للدراويش فاشتد ازهرهم وثبتوا في دعوتهم حتى أتوا جبل قدير في ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨١ فلاقاه ملكه واسمه ناصر وانزله على الرحب والسعة فامر محمد ببناء مسجد للصلاة

وكان على فاشودة في ذلك الحين مدر من قبل الحكومة المصرية اسمه راشد بك علم بقدوم المهدي الى جبل قدير واستأذن رؤوف باشا في تأديبه وطال انتظاره الاذن وبلغه ان المهدي ورجاله في ضيق من المرض فزحف وهو يستتر يريد مباغتتهم

ولكن امرأة مؤمنة اتهم بالخبر فاستعدوا للقاء وعادت العائدة على راشد بك ورجاله وغنم الدراويش ما كان معهم من الزاد والذخيرة في ٩ ديسمبر منها وكان لهذا الخبر وقع شديد على رؤوف باشا في الخرطوم وخاف على فاشودة وأخذ في التجنيد بقيادة جيكر باشا وبعث يستجد مصر فاستضعفته فعزله وولت مكانه عبد القادر باشا حلمي وألح جيكر بوجوب المبادرة فاذن له . فشد جنداً مختلطاً من العساكر والباشبوزوق وعقد لواءه ليوسف باشا الشلالي في أواسط مايو سنة ١٨٨٢ وبعث الشلالي الى المهدي ينصحه في الطاعة فاجابه جواباً يدل على استخفافه به ويدعوه الى طاعته . والتقى الجيشان في جبل الجردة . وفي ٢٩ مايو جرت واقعة قتل فيها الشلالي وجماعة من كبار قواده وغنم الدراويش ما كان معهم من المؤونة والذخيرة والعدة فازدادوا تصديقاً لدعوتهم وشاع ذلك النصر في أنحاء السودان فاعظمه السودانيون وارتفع قدر المهدي عندهم وتوافد اليه الناس يبايعونه حتى بلغ عددهم ٢٠.٠٠٠ في قدير وحدها - وهذه صورة المبايعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . أما بعد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله وألا نشرك به أحداً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي بيهتان ولا نصيبك في معروف بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة . وعلى أن لا نفر من الجهاد »

فلم تمض سنة ١٨٨٢ حتى أصبحت السودان شعله ثوروية تنادي باسم محمد احمد ولي دعوته جماعة من كبار الرجال منهم عامر المكاشف في سنار والشريف احمد طاه من مشايخ السمانية شرقي النيل الازرق ومحمد زين وود الصليحاني وفضل الله ود كريف والحاج احمد عبد الغفار وغيرهم . وبعضهم تفانى في نصرته وقتل في سبيل دعوته . فاهتمت الحكومة بشأن المهدي وأخذ عبد القادر باشا حلمي في تحصين الخرطوم وجند ثلاث أورط من السود وأخذ في تمرينهم واحفر خندقاً وراء سور الخرطوم وأقام عليه الابراج ونصب فيها المدافع قاطعان الموالون للحكومة على أنفسهم ثم حمل عبد القادر باشا بنفسه لاجتماع تلك الثورة فأتى سنار لمحاربة احمد المكاشف وكان قد استفحل أمره هناك فخاربه في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣ ففر المكاشف وغلب رجاله ودخل عبد القادر سنار وطمان الناس ثم حارب احمد عبد الغفار قرب الرصيرص فشنت شمله وأمر العلماء أن يكتبوا الرسائل وينشروها في تكذيب دعوة محمد احمد

سقوط كردوفان

وكانت كردوفان في أثناء ذلك قد أخذت بالثورة واتحد دعاة المهدي على طرد خدمة الحكومة المصرية وكان مديرها سعيد باشا يقيم في عاصمتها الايض فبذل جهده في اتحاد الثورة فلم يفلح والدراويش يزدادون قوة وعدداً حتى هددوا بارا وكشجيل والبركة والحكومة في الخرطوم عد سعيد باشا بالجند ثم رأى المهدي أن يقدم لنصرة دعاة نفسه وفي أوائل سبتمبر سنة ١٨٨٢ أصبح على مقربة من الايض فكتب الى محمد سعيد باشا يدعوه الى التسليم فجمع الباشا رجال مجلسه وشاورهم في الامر فأقروا على شق الرسل وأن لا يبعثوا جواباً ولكن أهل الايض كانوا على دعوة المهدي سرّاً وهم الذين دعوه الى فتحها وفي مقدمتهم الياس باشا أعظم تجار كردوفان وحاكمها السابق فانضموا الى العصاة في تلك الليلة هم وبعض الحامية وبقي محمد سعيد باشا في نحو عشرة آلاف من الجند الباشبوزوق وأما جيش المتمهدي فكان جراراً فيه ٦٠٠٠ تحمل البنادق التي غنموها من الجنود المصرية بالمواقع الماضية وأما سائر قواته فتبلغ ستين ألفاً . ويقول سلاتين باشا في كتابه (النار والسيف في السودان) ان حملة البنادق لم تأت معه الى الايض بل بقيت في قدير

وفي ٨ سبتمبر هجم العصاة على الايض فارتدوا خاسرين وقد غنم منهم الجند المصري ٦٣ راية من جملتها راية المتمهدي نفسه واسمها « راية عزرائيل » وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف وفي جملتهم محمد اخو المهدي ويوسف اخو عبد الله التعايشي ولم يقتل من الحامية الا ٣٠٠ فعظم ذلك على المتمهدي وأدرك خطر الهجوم على الاسوار الحصينة وعول من ذلك الحين أن لا يهاجم سوراً وانما يفتح البلاد بالتضييق عليها بالحصار حتى يضئها الجوع وتعهد الى التسليم . ثم جاء العصاة مدد فاشتد أزرهم فشدوا الحصار على الايض وعلى بارا وكان في بارا نور عنقرة أحد أمراء العرب وكان موالياً للحكومة ولكنه رأى مقامه حرجاً وتحقق الفشل فكتب الى المهدي سرّاً انه اذا أرسل اليه أميراً من اكابر أمرائه سلم له فارسل اليه ولد النجومي نخرج نور عنقرة مع محمد الخير وكان يلقب سر سوارى أي قائد الحيلة وسلم لولد النجومي فقبلها وانقضت سنة ١٨٨٢ والحصار شديد على الايض وبارا والعصاة يتكاثرون في سنار وغيرها

وكان المهدي قد أرسل فرقاً من جنده لنشر دعوته في دارفور وبحر الغزال فانتشرت الثورة هناك ولكنهم لم يفتنوا سنة ١٨٨٢ الا بعضاً من بلادها وفي أوائل

سنة ١٨٨٣ فتحوا بارا في ٥ يناير واضطرت الايض الى التسليم من الجوع في ١٩ منه فدخلت كردوفان في حوزة الدراويش وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخائر والاسلحة والاموال وصار المتمهدي من ذلك الحين حاكماً على كردوفان وقبض على سعيد باشا ورجاله وبعد اسرهم مدة اكتشف على تقرير بعثوا به سرّاً الى الخرطوم وأمر بقتلهم

ثم سلمت سائر بلاد كردوفان

حكومة المهدي

فلما فتح الايض ودانت له كردوفان أخذ في تنظيم حكومته على غير نظام الحكومة المصرية . وأهم أقسام الادارة على أبسط وجوها ثلاثة الجند والمال والقضاء فجعل على الجند خليفته عبد الله التعايشي قائداً عاماً لجماعة الدراويش يدير حركاتهم . وانشأ ادارة سماها بيت المال وفيه تحفظ الاموال كالعشور والغنائم والفطرة والزكاة والغرامات التي يضرّبونها على شارب المسكر أو السارق وعهد بادارة بيت المال الى صديق له اسمه احمد ولد سليمان . أما القضاء فأقام عليه رجلاً اسمه احمد ولد علي كان قاضياً في دارفور وسماه قاضي الاسلام . وكان محمد احمد منذ أوائل ظهوره قد عين خلفاءه وجعلهم أربعة مثل الخلفاء الراشدين يتولون الامر بعده الواحد بعد الآخر اولهم عبد الله التعايشي والثاني علي ولد الحلو والثالث محمد الشريف والرابع محمد السنوسي ولكن هذا رفض الخلافة

وعلم هذا المتمهدي ان الحكومة المصرية ستحمل عليه بكل قوتها لاستخراج كردوفان من يديه فأخذ يحث الناس على الجهاد ويحرق الدنيا في أعينهم ويحجب الآخرة اليهم وهم ينفدون اليه زرافات وقبائل يتبركون به وقد آمنوا بدعوته بعد ان ذاقوا الراحة والاستقلال على يده فتخاصوا من الضرائب ونجوا من الباشيزوق واستبدادهم فاعتقدوا انه المهدي المنتظر الذي جاء « ليملا الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » ومما ساعدهم على هذا الاعتقاد تظاهر هذا الرجل بالقوى والزهد فلم يكن يلبس غير السراويل والحية فوقها منطقة من خوص يقضي نهاره في الصلاة ونشر المنشورات يحث بها الناس على ترك الدنيا والتمسك بالآخرة ويضع لهم القوانين والاحكام ومن أمثلة ذلك منشور نشره من الايض سنة ١٣٠١ هـ . وقعت لنا نسخة منه تنشرها مثلاً لتعاليمه وهاك نصها بالحرف الواحد على علاقتها اللغوية :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد واله

مع التسليم . وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله اعلماً منه الى كافة المشايخ في الدين والامراء والتواب والمقاديم اتباع المذكورين . يا عباد الله اسمعوا ما أقول لكم وكونوا على بصيرة واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصكم بها وهي ظهورنا فهو شرف لكم على سائر الامة ولكن المطلوب منكم يا أحبابنا المهاجرة في سبيل الله والجهادة في سبيل الله والزهد في الدنيا وكل ما فيها فالى البوار ولو كانت لها بال لكان ربكم يحليها وانظروا في أهلها الذين كانت في كل ما يطلبوه وصارت لهم بعد ما كانت عسلاً حنظلًا وسماً صاروا في غاية العذاب والهلاك وشدة التعب والمشقة ولو كان فيها خير لما صاروا هكذا وبعد ذلك فلهم العذاب الشديد فان عجبكم هذا فافعلوا والا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين واجاهدوا في سبيل الله فلهذه سيف مسلم في سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة . ووقفة في الجهاد على قدر فواق ناقة يعني حلبة ذقة أفضل من عبادة سبعين سنة . وعلى النساء الجهاد في سبيل الله فمن صارت قاعدة وانقطع منها ارب الرجال فلتجاهد بيديها ورجليها والشبابة فليجاهدن نفوسهن ويسكن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى ولا يخرجن الا لحاجة سريعة ولا يتكلمن كلاماً جهراً ولا يسمعن الرجال أصواتهن الا من وراء الحجاب ويقمن الصلاة ويطنن أزواجهن ويسترن بتيابهن فمن قعدت كاشفة فاتحة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن تكلمت بفاحشة فعليها ثمانون سوطاً ومن قال لاخيه يا كلب أو يا خنزير أو يا يهودي أو يا ... أو يا ... فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام ومن قال يا فاجر أو يا سارق أو يا زاني أو يا خائن أو يا ملعون فعليه ثمانون سوطاً أو يا كافر أو يا نصراني أو يا لوطي فعليه ثمانون سوطاً ويحبس سبعة أيام ومن تكلم مع أجنبية وليس بعاقده عليها ولا لامر شرعي يجوز ذلك الكلام فيضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن حلف بطلاق أو حرام يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الدخان يؤدب ثمانين ويحرق التنباك ان كان عنده وكذلك من خزنها في فمه ومن عملها بانفه ومن أبقاها فيه يؤدب مثل ذلك ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الخمر ولو مصة ابرة فيؤدب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام وجاره ان لم يقدر عليه يكلم أمير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام ومن ساعد شارب الخمر بشربة ماء أو اثناء فيؤدب كذلك ويحبس ويجاهد نفسه في طاعة الله حقيقة أشد من الجهاد بالارماح لان النفس أشد من الكافر مقاتلة فالكافر ثقاته وتقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب

ومسلحها تعب . ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاصي الله ورسوله قيل كافر وقيل يقتل وجاره ان لم يقدر عليه يكلم أمير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام وقيل اموالهم غنيمة . وبنت خمس سنين ان لم يسترها أهلها فيضربون من غير حبس ومن علم بأمة معها زوج غير عقد وصبر يوماً قيل يقتل وقيل يحبس وماله غنيمة واعلموا أيها الاحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام بالقضايا لاجل ان تشفقوا على الخلق وترهذوهم في الدنيا لتركوها وترغبوهم في الآخرة ليرغبوها ويطلبوها وتعلموهم عداوة نفوسهم ليحذروا منها وتنصفوا من نفسكم اذا ادعوا عليكم فيها فما اشكل عليكم فأمرؤهم فيه بالصبر لغاية طلب الامراء وجههم عندنا ويصير نجيده بحسب الحكم فيه من الله ورسوله واعلموا يقيناً ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وكونوا عباد الله مع الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه واعلموا أيها الاحباب ان القضايا التي كانت من اثني عشر رجب الماضي عام ١٣٠٠ ببقعة ماسة قد صار رفعها مطلقاً ما عدا الامانة والدين ومال اليتيم وأما التي بعد الاثني عشر رجب الماضي وقبل الفتوح نسمع فيه الدعاوي . وأما قتل النفس ففيه تفصيل في كونه مخير ولي المقتول في أخذ الدية أو القصاص وأما بعد الفتوح بالنسبة الى العهد فيتعين فيه القصاص لا غير فاعملوا بذلك طبق المذشور وكذلك مال الخلع أخذه عموماً من الأزواج بعد الدخول بهن والاستمتاع بهن والاستيلاء عليهن فلا يصح أخذه منهن فاحكموا فيه بالحكم الذي فصله الله تعالى في القرآن العظيم واعلموا يا أحبابي ولا تخالفوا وامثلوا الامر وكونوا سامعين طائعين لامري ولا تغيروا ولا تكفروا النعمة التي من الله عليكم بها فقيدها بالشكر . وتزوج الغنية بعشرة ريال مجيدي أو أنقص والعزبة بخمسة ريال مجيدي أو أنقص ومن خالف هذا فعليه الادب بالضرب والحبس في السجن حتى يثوب أو يموت في سجنه ومقطوع من أهل زمردنا ونحن بريئون منه وهو بريء منا والسلام»

(الختم)

وكان مع ذلك لا يغفل طرفه عين عن بث العيون والارصاد لاستطلاع حركات الحكومة ومعرفة اغراضها فكان يعرف كل ذلك في حينه معرفة تامة فلا تحدث حادثة او تنوي الحكومة نية او تخطو الجنود المصرية خطوة الا ويعلم بها هو . وارسل في اثناء ذلك قواده تبث دعوته في انحاء السودان فبعث عثمان دقة الى السودان الشرقي بتولى قيادة العصاة هناك وارفقه بالمشورات الى قبائل السودان الشرقي لتكون عضداً له وكان عثمان دقة هذا من تجار الرقيق في سواكن وكان ناقماً على الحكومة

حملة هيكس باشا

وكانت الحكومة المصرية في اثناء ذلك اخذت الثورة العرابية (في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢) واحتل الانكليز مصر واصبحوا اصحاب الرأي النافذ وقد اقرروا على الغاء جيش عرابي وانشاء جيش جديد وكان بعضهم قد وشى بعبد القادر باشا فاستدعته الحكومة الى مصر وأرسلت علاء الدين باشا حاكماً على السودان في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٣ وحصرت سلطته في الادارة الملكية وعهدت بقيادة الجند الى سليمان باشا نيازي وجعلت هيكس باشا الانكليزي رئيساً لاركان حربه



ش ٩١ : هيكس باشا

وأعدوا حملة لمحاربة المهدي كلها من جيش عرابي والحكومة تسيء الظن به وقد أرسلته اما ليهلك أو ينتصر فيعوض على الحكومة ما أفسده ولكن تلك الحملة كانت مشومة وآلت الى استفحال أمر المهدي ودراويشه لانها هلكت عن آخرها على شكل لم يسمع بمثله ولم تطلع الحكومة على سبب ذلك الا بعد حين واليك هو :

جاء هيكس باشا في بادئ الرأي الى الخرطوم والحكومة لم تصمم على فتح الابيض فأقام هناك مدة فبلغه ان بضعة آلاف من العصاة البقارة بقيادة الامير احمد المكاشف وكيل المهدي هناك نخرج اليهم هيكس وحاربه عند مراية بالقرب من جزيرة ابا فقتل المكاشف وعدد من قواده ورجاله وفر الباقون وكان لتلك الواقعة تأثير حسن في ارجاع ثقة اهل سنار والخرطوم الى الحكومة وقوة جنودها فصممت الحكومة على ارسال حملة تفتح الابيض فكتب هيكس باشا الى الحكومة بالقاهرة انه لا يتحمل تبعه هذه الحملة الا اذا كانت القيادة له وحده فسلمت له بذلك ولكنها أرسلت معه علاء الدين باشا حاكم دار الخرطوم فطلب هيكس مدداً من الرجال والمال . وسار علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاستحضر أربعة آلاف رجل . وفي أواخر اغسطس تمت معدات الحملة فاجتمعت في أم درمان . وفي ٨ سبتمبر استعرض هيكس باشا جنوده وفي ٩ منه خرجت الحملة من أم درمان قاصدة الدويم وبينهما مئة وعشرة أميال . وكانت تلك الحملة مؤلفة من أربع اورط من الجنود المصرية معظمهم من الذين حاربوا في سبيل الثورة العرابية وخمس اورط سودانية واورط من الطنجية والخيالة وكانت الجنود المصرية تحت قيادة سليم بك عوني والسيد بك عبد القادر و ابراهيم باشا حيدر ورجب بك صديق . والباشبوزوق بقيادة خير الدين بك وعبد العزيز بك ووالي بك وملحم بك ويحيى بك والطوبجية والسواري بقيادة عباس بك وهي . وبلغ عدد جنود الحملة احد عشر ألفاً منهم سبعة آلاف من المشاة المصريين والباقيون من الباشبوزوق والخيالة وتوابع الحملة من الجمالة وغيرهم وفيها ٥٥٠٠ رجل و ٥٠٠ فارس وأربعة مدافع كروب وعشرة مدافع جبلية وستة من نوع النوردنفلت وكان فيها من الضباط الافرنج الكولونيل فركوهار رئيس أركان جرب والبكباشية سكندروف وورتر وماسي وايفانس وغيرهم ومكاتبو التمس والدالي نيوز والغرافيك

وفي ٢٠ سبتمبر وصلت الحملة الدويم وهناك اجتمعت بعلاء الدين باشا . اما هيكس فكان لا يزال في الخرطوم وقد ارسل تلغرافاً الى القاهرة انباء الحكومة بخروج الحملة من الخرطوم وبين الصعوبة التي ينتظر ملاقاتها في طريقه نظراً لحرارة الاقليم وقلة المياه . وكان في عزمه ان يجعل مسير الحملة من الدويم الى الابيض عن طريق باره وطول هذه الطريق ١٢٦ ميلاً يقيم في اثنا عشر محطاً فيها قوات عسكرية لحفظ

خط الرجوع (خط الاتصال) الى الدويم فيفتح اولاً بارة ويقيم بها مدة ثم يخرج على الابيض

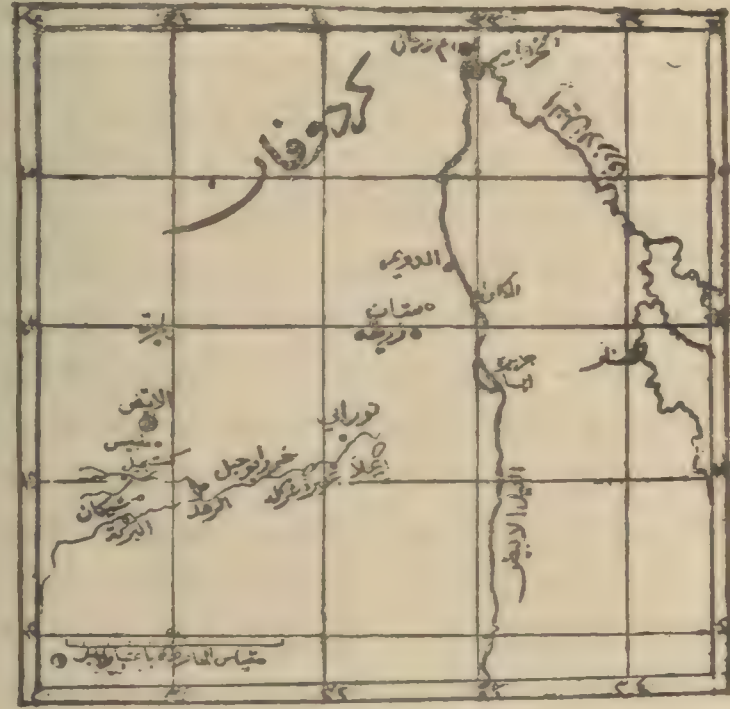
فلما جاء الدويم وانضم الى الحملة تفاوض هو وعلاء الدين باشا في الامر فقال علاء الدين انه ارسل اناساً جسوا الارض فقالوا ان طريق بارة قليلة المياه وان احسن طريق للابيض يمثل هذا الجند الكبير طريق خور ابو جبل والرهدي الى الجنوب فان الماء كثير فيها . نعم ان طولها ٢٥٠ ميلاً ولكن مئة منها سهلة يسير بها الجند بكل راحة والماء كثير الا ان المسافة بين الدويم ونورابي وطولها ٩٠ ميلاً قليلة المياه فاقعه علاء الدين باشا ان الماء في تلك المسافة يسهل الحصول عليه وبناءً على ذلك قررا ان تسير الحملة عن طريق خور ابو جبل فوصلوا في ٢٤ سبتمبر الى شات واستولوا على آبارها وانشأوا نقطة عسكرية . وبدأ الجند منذ خروجهم من الدويم يقدررون العواقب الوخيمة وينتظرون البلاء العظيم . وكان سيرهم على شكل مربع يتأهب للقاء العدو في مقدمته الدليلان فالطلائع فالضباط العظام واركان الحرب ثم المربع وهو مؤلف من المشاه المصريين وفي ساقته الخيالة والجمال والاحمال والانتقال وفي وسط المربع الطوبجية وقد شبه سلاتين باشا ذلك المربع بغاية من الرؤوس والاعناق اذا اطلق العدو عليها رصاصة يستحيل ان تخطئها كلها

وزد على ذلك ان الجمال لم تكن تستطيع المربع بالنظر الى انحصارها في المربع فجاعت واكلت قش ارحالها وخارت قواها حتى مات كثير منها . وفي ٣٠ سبتمبر وصلت الحملة الى قرية تبعد ٣٠ ميلاً عن الدويم اسمها زريقه

كل ذلك والحرارة تشتد واللغط يتعاظم بين الجند وكلهم خائف سوء العاقبة ثم حدث نفور بين هيكس وعلاء الدين وسببه اختلافهما في الرأي بشأن خطة المسير . فرأى علاء الدين ان النقط العسكرية في خط الاتصال لا حاجة اليها لأنها تقل عدد الجند بخلافه هيكس في ذلك لان قطع ذلك الخط يقطع كل امل برجوع احد من رجال الحملة حياً اذا قدر انكسارها في ساحة الحرب على انهم لم ينشئوا نقطة عسكرية بعد شات

اما محمد احمد فخالما علم بمسير حملة هيكس جمع رجاله ودعاهم الى الجهاد في سبيل الله وخرج بنفسه وعسكر بقرب شجرة كبيرة بضواحي الابيض ينتظر وصول الحملة فاقتدى به خلفاؤه وامراؤه فخرج كل منهم برجاله وعسكروا هناك وبنوا الاكواخ والكتول (نوع من العيش)

اما الحملة فما زالت سائرة تسحف سحفاً كأنها مثقلة بالقدر المحتوم حتى وصلت الرهد في ٢٠ أكتوبر فاقامت هناك ٦ ايام شاهدت في اثائها طلائع الدراويش وشرذمات منهم يهاجمونها . وفي ٢٦ أكتوبر سارت ولم تكد تترك معسكرها حتى احتلتها العصاة فلم علاء الدين اذ ذاك خطاه في اعمال خط الاتصال وقد اصبحوا محاطين بالعدو من كل الجهات . وكان في عزمهم المسير الى الايض عن طريق البركة ولكن الجواسيس اخبروا هيدس ان العصاة زلوا البركة ومعهم خلفاء المهدي



ش ٩٢ : خريطة واقعة هيكس باشا

وامراؤهم بعدتهم ورجلهم فتشاور علاء الدين وهيكس في هل يرجعون الى الرهد او يسرون الى كشجيل ومنها الى مليس فالايض . لان خور ابو جبل يتشعب عند الرهد الى شعبتين تسير احدهما الى البركة والاخرى الى كشجيل . فاقرا الرأي على المسير الى كشجيل فساروا في ٣ نوفمبر عشرة اميال بين الغابات والاحراج وقد اخطأوا الطريق ثم وقفوا واشأوا زربية باتوا فيها الى الصباح فاستأنفوا المسير حتى صاروا على مسافة ميلين من شيكان بين كشجيل والبركة وقد اجهدهم العطش فهجمت عليهم شرزمة من العصاة فتبادلوا اطلاق الرصاص وقبضوا على بعض منهم

فعلموا ان الدراويش هناك بكثرة عظيمة فجمع هيكس كبار رجاله وعقدوا مجلساً تشاوروا فيه فلم يقرروا على امر . وكثر اللفظ بين الجنود وتسلبط الرعب على قلوبهم وايقنوا بالهلاك . وفي الصباح التالي عزم هيكس على المسير تحت رحمة الله فجعل جيشه ثلاثة مربعات وساروا في طريق وعر كثير الاشجار والصخور فحصل بينه وبين الدراويش واقعة قتل فيها كثير من رجاله . ثم سار ايضاً فلم يمش ميلاً حتى هاجموا ثانية في شيكان . وقد رأينا في مذكور ارسله المهدي الى عثمان دقة يخبره بتلك الواقعة



ش ٩٣ : سلاتين باشا

ويسمي مكان وقوعها علوبة وكانت تلك الهجمة القاضية لم تبق على تلك الحملة ولم تذر لأت الدراويش هاجموها من كل جانب حتى صار الجنود المصريون يطلقون الرصاص بعضهم على بعض وهم لا يعلمون فقتل هيكس وكل قواده وجنده . ولم ينج منهم الا نحو ثمانمائة رجل اكثرهم من الضعفاء الذين اختبأوا بين الشجر او تحت جث القتلى وفي جملتهم رجل اسمه محمد نور البارودي كان في خدمة هيكس وهو الذي روى اكثر ما تقدم من مهلك هذه الحملة

فرجع المهدي وخلفاؤه وقواده الى البركة وقد سكروا من خمر النصر وتركوا

بعض الامراء يجمعون الاسلاب والغنائم الى بيت المال . وبعد ١٥ يوماً عاد المهدي الى الايض بالمدافع والذخيرة والاموال التي اكتسبها من حملة هيكس . وكان دخوله الايض باحتفال شائق . ولا ريب ان تغلبه في موقعة شيكان جعل حكومة السودان تحت اخضه لان كثيراً من القبائل كانوا يترددون في امره وينتظرون حربه مع هيكس باشا فلما علموا بما كان انضموا اليه وصاروا من اعوانه

وكان سلاتين بك (سلاتين باشا الآن) الى ذلك الحين مديراً على دارفور وقد قامى مشقات جسيمة في مناوأة العصاة وتمردهم . وكان يرجو الفرج على يد حملة هيكس فلما علم بفشلها لم يردّ بداً من التسليم فبعث الى المهدي بذلك وان ينفذ اليه بعض اقاربه ليسلم البلاد له فبعث اليه الامير محمد خالد ويكنى زقل اميراً على دارفور واوصاه بسلاتين خيراً . فوصل الدراويش دارا ونهبوها وارسلوا بعضاً من حسانها هدية للمهدي . وجاء سلاتين مخفوراً الى الايض وبايع المهدي واظهر الاسلام والايمان بالدعوة وسمي عبد القادر

واقام سلاتين من ذلك الحين ملازماً لعبد الله التعايشي يقف عند بابه في جملة الملازمين

السودان الشرقي

وفيما كان هيكس يتجنم الاخطار في قطع الصحاري والقفار ينتظر المقدور كان عثمان دقنة ينشر دعوة محمد احمد في السودان الشرقي وقد اجتمع حوله احزاب كبيرة . وقد حدثنا صديق رافق الحوادث في السودان الشرقي وعرف خفاياها قال : « ان توفيق بك محافظ سوا كن اذ ذاك تصرف مع العربان الذين يتولون خفارة الطريق بين سوا كن وكسلا تصرفاً اوجب تقورهم وذلك انه ولى عليهم شيخاً اسمه محمد الامين ليكون مسئولاً عنهم لدى الحكومة على جاري العادة وكانوا يكرهون هذا الرجل . فالتمسوا من المحافظ ان يبدله بسواه قابى الا توليته ففضبوا جميعاً ونفروا من الحكومة وهم كثار فاتفق مجي عثمان دقنة بمنشور المهدي فانضموا اليه جميعاً فاشتد ازره بهم ثم انضم اليه غيرهم . فسار لمناوأة الحكومة في سوا كن وضواحيها فهاجموا سنكات في ٥ اغسطس سنة ١٨٨٣ ولكنهم عادوا خاسرين فساروا الى طوكر وحاصروها فارسلت الحكومة محمود طلماباشا قائد حامية السودان الشرقي لانقاذها فباغته الدراويش وكسروه شر كسرة . وحاولت الحكومة مقاومة الدراويش بكل وسيلة وحصلت وقائع كثيرة في ثمانين ورتنكات وغيرها فلم تعد

منهم بطائل . وما زالت سنكات وطوكر محاصرتين تطلبان المدد فاعدت الحكومة في اوائل سنة ١٨٨٤ حملة تحت قيادة باكر باشا سارت الى سوا كن لفتح الطريق بين سوا كن وبربر وطرد العصاة من البلاد الواقعة بينهما فسارت ومعها محجة من مصوع وكسلا فلاقها العصاة في التب بقتة في ٢ فبراير فخاربوها ففشلت وعادت بخفي حنين . كل ذلك وحامية سنكات لا تزال محاصرة وفيها توفيق بك محافظ سوا كن المتقدم ذكره وكان رجلاً باسلاً شهماً أظهر في حصاره شجاعة لم تعهد الا بالقليل من الناس وكان قد جاء سنكات عرضاً واحصر فيها . وسنكات قرية صغيرة لا يزيد حاميها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقنة السبل عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد أهلها يهلكون جوعاً فكتب عثمان الى توفيق ان يسلم فلا يقتله قابى الا البقاء على ولاء الحكومة . فلما جاء باكر باشا وعاد خائباً بعث عثمان اليه ان يسلم فيسلم وان الامل بانقاذه قد انقطع فلم يجبه الا بالثبات . ولما رأى توفيق بك أخيراً ان المؤن فقدت والجند جاعت وأهل البلد ملت جمع اليه رجاله وأهل سنكات وشاورهم في الامر وحشهم على الثبات على ولاء الحكومة . فقالوا نحن على ما تريد فقال « قد نقد زادنا والطريق مقطوع بيننا وبين المدد فلنخرج مستقلين قوما ان نسير الى سوا كن وإما ان يلاقينا العصاة فندافع عن أنفسنا حتى الموت »

فخرجوا في اوائل فبراير سنة ١٨٨٤ بعد أن هدموا الطوابي وأخربوا المنازل وما ساروا ميلين حتى لاقاهم عثمان دقنة برجاله وهاجمهم فقاتل توفيق بك حتى قتل شهيد الامانة والبسالة ولم ينج من رجاله وأهل القرية الا نفر قليلون

اخلاء السودان

وكان ذلك من جملة العوامل لتأييد دعوى المتهدي ونشر سطوته وخوف الحكومة عاقبة أمره . وبدلاً من مواصلة العمل في كبج جماع العصاة واسترجاع ما ملكوه من بلادها أقرت بمشورة الحكومة الانكليزية على اخلاء ما بقي من السودان في قبضتهم وسحب جنودها منها والتخلي عن السودان المصري كله للدراويش وأصدرت بذلك أمراً بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٤ وانفذت الحكومة الانكليزية الجنرال غوردون باشا الى السودان للنظر في أفضل الوسائل لسحب حامية السودان وسكانها من الافرنج وغيرهم وتثبيت حكومة منتظمة على سواحل البحر الاحمر وغير ذلك . فاسار غوردون باشا ومعه الكولونيل ستيوارت كاتم أسراراه فوصلا القاهرة فأنباء السير اقلن بارنغ (اليوم اللورد كرومر) ان الحكومة الانكليزية قد فوضت

إليه إخلاء السودان وإعادة حكم الأمراء الذين كانوا يحكمونها لما فتحها محمد علي باشا
ويقال لهم الملوك أو أن يولي غيرهم كما يترأى له
غوردون باشا

فسار غوردون عن طريق كرسكو وأبي حمد فوصل بربر في ٩ فبراير سنة ١٨٨٤
وفي ١٨ منه وصل الخرطوم فتلقاه أهلها بالأكرام . وكان السودانيون يحبونه
ويكرمونه لأن جانبهم وكرم أخلاقهم . ومن الغريب أن يسير غوردون بنفسه بلا جيش



ش ٩٤ : غوردون باشا

إلى بلاد اشتعلت بنار الثورة ولكنه كان كثير الاتكال على الله وقد صرح بذلك عند
وصوله الخرطوم فقال « لم آت لانتقاذ السودان بجيش ولكنني أتكلت على الله فلا
أحارب إلا بسلاح العدل »

سافر غوردون من القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ ومعه مساعده الكولونيل
ستيوارت قاصدين الخرطوم في عظمور أبي حمد فبربر فالخرطوم مصحوبين بأوامر
عالية خلاصتها في ما يأتي :

- ١ ان يسحب الموظفين المصريين وعائلاتهم وأموالهم من سائر أنحاء السودان
إلى مصر
- ٢ ان يقيم مقامهم موظفين من أهل السودان يدبر شؤونهم بحكمته كأنه يؤسس
دولة جديدة
- ٣ ان يجمع كلمة القبائل المجاورة للخرطوم ويحركها على قبائل الهدندوة في
السودان الشرقي فيفتح الطريقين بين بربر وسواكن وبربر وكسلا
- ٤ ان ينقذ سنار وسائر البلاد الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض (الجزيرة)
- ٥ ان يرسل ٥ بواخر لتقل عائلات الجنود المصرية في مديريات خط الاستواء
وبحر الغزال

٦ ان يدبر طريقة لمن بقي في دارفور أن ينسحبوا إلى مصر عن طريق دنقلا
هذه كانت مقاصده عند خروجه من مصر وخلاصتها إخلاء السودان فلما وصل
بربر أراد أن يتلوها على أهلها فتبعه حسين باشا خليفة مدير بربر لأن التصريح بذلك
يجعل على بقية نفوذ الحكومة . فأطاعه ولكنه تلاها في التهمة فكانت داعياً إلى
سرعة سقوط بربر بعد ذلك . وأما غوردون فوصل الخرطوم في ١٨ فبراير كما تقدم
وفي يوم وصوله جمع أعيان الخرطوم كافة في بناية المديرية وأفهمهم مهمته ثم خرج إلى
سراي الحكمادارية فلاقاه مئات من الناس وتراموا على يديه ورجليه يقولونها وهم
يقولون « يا سلطانتا يا والدنا يا مخلص كردوفان » ثم أخذ غوردون وستيوارت في
تدبير شؤون الأحكام فأنشأوا أقلاماً مختلفة في الحكمادارية للنظر في قضايا الناس
وانصافهم على اختلاف طبقاتهم . فأخرج دفاتر الحكومة القديمة وفيها قيود لذمات
مطلوبة من أصحاب الاطيان خراجاً عن أطيانهم فوضع تلك الدفاتر في باحة عمومية
وأوقد فيها النار ولما اتقدت النيران وتعالى لهيبها استخرج الكرايسج والعصي وسائر
أدوات الضرب والصفع التي كان يستخدمها الحكماداريون قبلاً والقاهها في ذلك اللمهيب
وأهل الخرطوم ينظرون . فكان لذلك تأثير حسن في أذهانهم ثم أنشأ مجلساً وطنياً
مؤلفاً من أعيان المدينة وبعد قليل زار الترسانة والمستشفى وأخيراً ذهب لعمهد السجون
ومعه ستيوارت وكوتلجن والمستر بوار فنصل انكلازا هناك . فرأى فيه حوادث تدهنت
لها الأكباد فضلاً عن الفذارة وشاهد بين المسجونين أولاداً وشيوخاً بعضهم قد
ثبتت براءتهم ولا يزالون في السجن وآخرون سجنوا لتهمة فقتلوا ثلاث سنين في
السجن قبل أن تثبت عليهم جناية . ورأى هناك امرأة قضت خمس عشرة سنة مسجونة

لذنب اقترفته في صباحها فامر غوردون باخراج المسجونين كافة وتنظيف السجن فلم يأت المساء حتى خرجوا زرافات ووحدانا وهم يطلبون الى الله تعالى ان يطيل عمره وقضى أهل الخرطوم تلك الليلة سهارى فأضأوا الانوار الملونة وأوقدوا المشاعيل وباتوا فرحين مسرورين

وأراد غوردون أن يمكن محبته من قلوب أهل السودان خفف الضرائب وأنصف المظلومين وأبطل كثيراً من الضرائب ثم أصدر منشوراً يلني فيه الاوامر الصادرة بشأن إلغاء تجارة الرقيق وهاك مفاد المنشور :

منشور الى أهل السودان كافة

اعلموا ان راحتكم هي غاية ما نرجوه وبما اني أعلم ان إبطال تجارة الرقيق قد ساءكم وهاكم ما وضعته الحكومة من القصاص على من يتعاطاها وغير ذلك مما صدر من الاوامر العالية بشأن تأكيد الغائها فقد رأيت التماساً لراحتكم ان أبطل كل تلك الاوامر وأمنحكم الحرية التامة فلا يعترضكم أحد في اتخاذ الرقيق لخدمكم والسلام لكم

الخرطوم غوردون باشا

ففرح تجار الرقيق بهذا المنشور ولكنهم استدلوا منه على ضعف الحكومة وانها انما أصدرته بالرغم منها لانها لم تقو على تنفيذ أمرها في ابطال تلك التجارة. ثم حول نظره الى أمر المهدي فأرسل اليه في الايض كتاباً يطلب فيه اطلاق الاسرى ويؤليه كريدوفان وأرفق الكتاب بخمسة نفيسة فرد محمد أحمد الخليفة وبعث الى غوردون ان يسلم فيسلم وان المهدي لم يقم بدعوته طمعا في الولاية

وكان غوردون باشا في أثناء مسيره الى الخرطوم قد تدبر أمر مهمته هذه فرأى ان ترك السودان وشأنها بعد اخلائها يعود على مصر بالوبال فلا تلبث الثورة ان تنتشر ويضعف الدراويش الى حدود مصر فبعث يوم وصوله الخرطوم رسالة برقية الى الحكومة الانكليزية يطلب فيها ان تبعث اليه الزير رحمت باشا حالا حتى اذا أخلى السودان ودبر حكومته جعل الزير باشا خلفاً له عليه خوفاً من استفحال أمر المهدي وخروجه على مصر فابت الحكومة ارسال الزير فشق ذلك عليه كثيراً

ثم ما لبث ان علم بانتشار دعوة المهدي وانضمام معظم القبائل اليه فاصدر منشوراً يتوعد فيه الثائرين بعذاب اليم وينصح لهم ان يثوبوا الى طاعة الحكومة

وكان الكولونيل ستيوارت قد سار في مئة رجل بالاعلام البيضاء لمسالة القبائل القاطنة على النيل الايض وتلاوة منشورات غوردون عليهم فكان كلما بعد عن الخرطوم

ازداد نقور الناس منه حتى صاروا يعترضون مسيره ويحاربونه وأكثرهم من قبيلة البقارة فعاد الى الخرطوم خاسراً فأرسله غوردون ثانية في ٢ مارس سنة ١٨٨٤ بمنشورات أخرى فعاد بخفي حنين . وما زالت الثورة تقترب من الخرطوم وضواحيها حتى احدثت بها من كل الجهات . وفي أثناء ذلك جاءت حملة من الدراويش لحصار الخرطوم فذهب جمع منهم الى حلفاية شمالي المدينة فانهزمت حاميتها فجرد غوردون في ١٦ مارس عليهم النفي مقاتل بالبنادق وفيهم الباشبوزوق والجند المنظم لاسترجاع حلفاية فاطلمهم الدراويش حتى غدروهم وكسروهم شر كسرة فعادوا القهقري الى الخرطوم وقد قتل منهم جمع كبير ففشل غوردون لهذه الكسرة وحاكم قواد تلك التجريدة وأكبرهم سعيد باشا وحسن باشا وكلاهما من أهل السودان فحكم عليهما بالاعدام لثبوت الخيانة عليهما فقتلا وقطعت أعضاؤهما

سقوط بربر ومهلك ستيوارت

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٤ وصلت الاخبار بسقوط بربر والقبض على مديرها وارسله أسيراً الى الايض وتولى بربر أمير من أمراء الدراويش اسمه محمد الخير . وكان سقوط بربر ضربة قوية على الخرطوم لانها كانت واسطة الاتصال بينها وبين مصر فادرك غوردون صعوبة مركزه وتحقق يقيناً ان انقاذ مهمته لم يعد ممكناً بالحسنى فلا بد من استعمال قوة الجند فطلب الى حكومته ارسال حملة لمساعدة فتددت انكثرا مدة قبل الاقرار على الحملة . على أنها أقرت في مايو على وجوب ارسالها ولكن جنودها لم تبدأ بالمسير الى السودان الا في سبتمبر فتدمر أهل الخرطوم وشكوا الى غوردون حالهم وفي حملتهم الاجانب المقيمون هناك فقال لهم من أراد الذهاب فليذهب أما أنا فلا أستطيع الخروج الا بعد انقاذ الحامية والناس أو أن أموت معهم . ولكنه أشار على ستيوارت ان يسير الى مصر بمن أراد مرافقته من الاجانب وعهد اليه ايصال تقاريره اليومية عن احوال الخرطوم من أول مارس الى ٩ سبتمبر وهو يوم سفر ستيوارت وظن غوردون أن ذهاب ستيوارت بهذه التقارير الى مصر يفيد الحملة القادمة لانقاده فركب ستيوارت باخرة وركب معه بعض الافرنج ورافقته باخرتان فوصل بربر وضربها ومربها فعادت الباخرتان وجرت باخرته حتى اذا تجاوزت أبو حمد الى واد قر ضايقها الدراويش من البر ثم جنحت فزل من فيها فلقبهم الدراويش وقتلهم وحملوا الاسلاب والاوراق الى المهدي . كل ذلك وغوردون يستحث الانكليز ويستنهض همهم وينذرهم باخطر القريب فجاءه خبر هلاك ستيوارت ومن معه قبل

خروج الحملة . على ان تلك الحملة لم تصل الخرطوم الا في ٢٨ يناير سنة ١٨٨٥ أي بعد سقوطها ومقتل غوردون يومين

حركات الدراويش

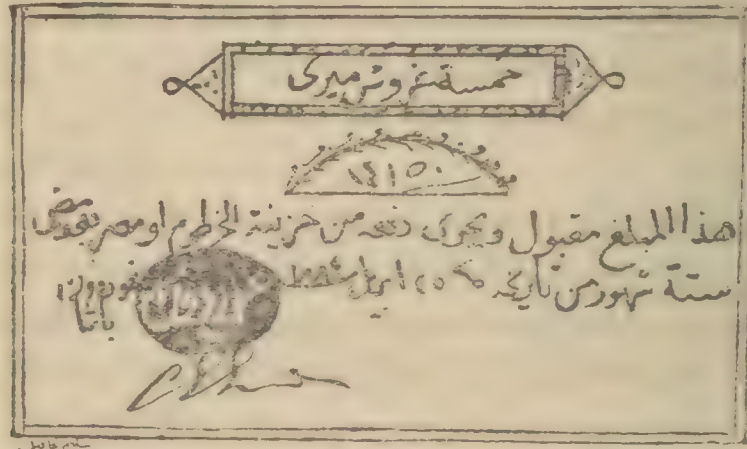
فلتنظر في حركات الدراويش واجراآتهم في معسكرهم في أثناء حصار الخرطوم ملخصاً عما رواه سلاطين باشا في كتابه « السيف والنار في السودان » وما أحكاها غيره من الاسرى الذين رافقوا تلك الحوادث داخل الخرطوم وخارجها تركنا المتهدي وقد عاد ظافراً الى الابيض بخيله ورجله فبعد وصوله اليها انفذ بعض امرائه لتأييد سلطته في دارفور وبحر الغزال وما جاورها ثم علم ما كان من أمر السودان الشرقي وظفر عثمان دقنا في سنكات وتمايب والتب وحصار كسلة

وتكاثر دعاة المهدي بعد انتصاره على هيكس وتناظر الناس اليه قبائل وجماعات قياماً بنصرته وكانوا يعسكرون بخيامهم وابلهم وخيلهم حول الابيض فقلت مياه الايض تخاف المهدي أن يصيبهم جهد فاشار بالانتقال الى الرهد وفيها الماء غزيراً فانتقلوا اليها رجالاً ونساء وأولاداً في أواسط ابريل سنة ١٨٨٤ باحلامهم وأثقالهم ودوابهم وأقاموا هناك والمهدي يقضي نهاره في الصلاة والوعظ والحث على الجهاد . ثم سمع بخروج الجنود المصرية من الخرطوم على أهل الجزيرة فبعث محمد ابا جرجا أميراً عليها في عدد عظيم من الدراويش على أن يد أهل الجزيرة ويحاصر الخرطوم . فحصلت بينه وبين جنود الخرطوم وقائع انتصرت في أولها الجنود المصرية ثم عادت العائدة عليهم بعد ذلك كما رأيت . وارسل المهدي الشيخ محمد الخير أميراً على بربر فسار اليها وحاصرها وفتحها وارسل مديرها حسين باشا خليفة اسيراً الى معسكر المهدي في كوردفن . فالتقى بسلاطين باشا وتشاطرا مصيبة الاسر . أما دنقلا فكان مديرها مصطفى بك ياور (ثم صار مصطفى باشا) قد كتب الى المهدي غير مرة يسلم اليه فلم يركن هذا الى تسليمه بل بعث السيد محمد علي وبعض الشائقة ليجسوه فخاربههم وفرق شملهم وكان الماحور ككتشنر (اللورد ككتشنر باشا) قد جاء بمهمة سرية لاستطلاع نوايا مصطفى بك ياور واحوال السودان فشهد بمض مواقفه مع الدراويش

وخلاصة الامر ان حجار السودان ورماله كادت تنطق بصوت واحد « صدق محمد احمد بدعواه » وكان الى ذلك الحين مقيماً في الرهد فكاتب اليه أمراؤه من انحاء مختلفة أن ينزل برجاله الى النيل الايض فكان يؤجل مسيره مظهراً الازدراء بقوة أعدائه والاعتداد بقوته ويستعرض جنوده كل جمعة استعراضاً عمومياً يحضره

هو بنفسه والجيش إذ ذاك ثلاثة أقسام يرأس كل منها خليفة من خلفائه . ولكن الخليفة عبد الله التعايشي كانت له الرئاسة الكبرى ويلقب « رئيس الجيش » وفرقة تسمى « الراية الزرقاء » ينوب عنه في قيادتها أخوه يعقوب التعايشي . وفرقة الخليفة علي ولد الجلو تدعى « الراية الخضراء » وفرقة الخليفة محمد الشريف تسمى « الراية الحمراء » أو « راية الاشراف » وتحت كل من هذه الرايات الثلاث رايات صغيرة لا يحصيها عدّ يجتمع حول كل راية منها مئات من الدراويش

وكيفية الاستعراض عندهم أن يقف أمراء الراية الزرقاء براياتهم صفّاً واحداً يولون وجوههم المشرق ويقف أمراء الراية الخضراء صفّاً آخر يقابل الصف الاول



ش ٩٥ : نقود غوردون

وجهاً لوجه ويقف أمراء راية الاشراف صفّاً آخر يقابل الشمال فيؤلفون مربعاً ينقصه ضلع كأنه باب يدخل به المهدي وحاشيته فيمر بجانب الصفوف يحياها قائلاً : الله يبارك فيكم »

فلما انقضى رمضان تلك السنة قال محمد احمد انه قد أوحى اليه في الرؤيا « الحضرة » أن ينزل لمحاصرة الخرطوم وأمر رجاله بذلك حصار الخرطوم

فزحفوا برجالهم وأحلامهم وأثقالهم ودوابهم فضرىوا نقارتهم وساروا حتى أشرفوا على الخرطوم وسلاطين معهم فعسكروا هناك تحت راية التعايشي . وسار الامراء الآخرون يبحثون عن مكان آخر يعسكرون فيه . ثم أمر المهدي أن يحرق جنده

بالخرطوم ويشددوا الحصار عليها فأمر أبا جرجا وولد النجومي أن يحاصروا برجالها من البر الشرقي للنيل الأبيض عند مكان اسمه كلا كلا وأمر أبا عنجه وفضل المولى أن يحاصروا طابية أم درمان على البر الغربي. وما زالوا محاصرين تلك الطابية حتى فتحوها في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ وهي أول طابية فتحوها من حصون الخرطوم. ويؤخذ من تقرير كتبه الشيخ المصوّي أحد قواد المهدي في ذلك الحصار أن المهدي كان عازماً أن يشدد الحصار على الخرطوم حتى تسلم من الجوع كما فعل بالابيض وان رجال ولد النجومي وحدهم بلغوا عشرين ألفاً. وربما كانت قوة الدرايش كلها ستين ألفاً أو سبعين أو أكثر.

أما غوردون فلم يقض في الخرطوم شهرين حتى نددت النقود من خزينتها فاصطنع نقوداً من الورق بفتات متفاوتة يتعامل بها الناس إلى أجل مسمى. وقد شاهدنا كثيراً منها عند وصولنا الممتة سنة ١٨٨٥ وفي الشكل ٩٥ صورة احداها برسمها الأصلي تماماً.

على أن ذلك قلما خفف من ضيق أهل الخرطوم وزلاها فانهم ما انفكوا يشعرون بالضغط يوماً بعد يوم والحصار يزيدهم تضيقاً حتى أصبحوا محاطين بالعدو من كل جهة وقل زادهم أو فقد وجاعوا وغوردون يصبرهم ويعدهم بقرب وصول الحملة الانكليزية لانقاذهم ولكنها تأخرت كثيراً فلما الناس الانتظار واشتد الجوع حتى أكلوا لحوم القطط والكلاب ومضغوا سعف النخل وجذور الذرة. كل ذلك وهم واثقون بوعد غوردون ولكنهم أصبحوا يسيئون الظن به أخيراً.

الحملة الانكليزية لانقاذ غوردون

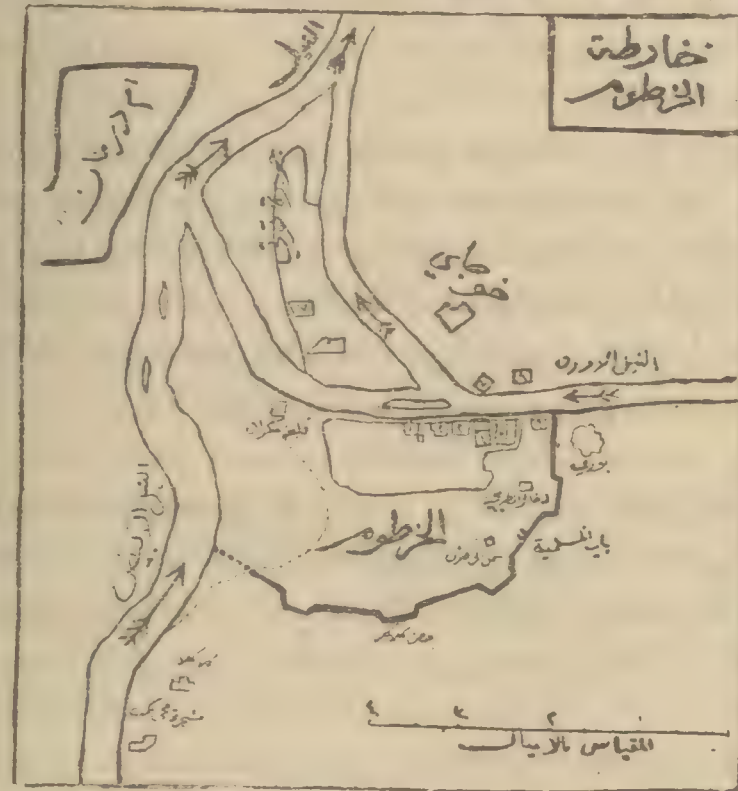
أما الحملة الانكليزية التي أقروا على ارسالها لانقاذ غوردون فبرحت مصر في أوائل الخريف وعدد رجالها ستة آلاف من نخبة الجند الانكليزي وأكثر قوادها من الاشراف إذ تسابق الانكليز إلى الانتظام في سلك هذه الحملة لزعيمهم أنها عبارة عن (ف.ح.ه) على النيل. فلم يصل من رجالها إلى كورني الا بعضهم وتفرق الباقيون في نقط خط الاتصال. ومن كورني سارت حملة في عطور صحراء بيوضة إلى الممتة بقيادة الجنرال ستيوارت والقصد بها سرعة الوصول إلى الخرطوم. وسارت حملة أخرى على النيل إلى بربر بقيادة الجنرال ارل. وكما نحن سار برفقة حملة العطور فشهدنا وقائعها وسمعنا اطلاق مدافعها ورنات قنابلها ورصاصها فقطعت الحملة جكدول فأباً طليح فلاقاها العرب على الآبار ففصلت بين القريتين واقعة شفت عن

انهزام العرب فتعقبهم الانكليز إلى الممتة وساروا بقيادة الجنرال ستيوارت ليلاً وقد كنت في جملتهم في تلك الليلة الليلاء فكنا سائرين لا نرى شيئاً من آثار الطريق المؤدي إلى المكان المقصود لشدة الظلام فاضطررنا إلى الاستدلال عليها بالأبرة المغنطيسية (البصلة) والنجم القطبي وكنا تارة نصعد على آكام متعسرين وطوراً نعر أرجل جملنا بأعشاب أو أنجم شوكية ولم نكن نخرج صوتاً ولا نقدح ناراً لئلا يكون بقربنا من الأعداء من يستطلع أحوالنا فتجلبط مقاصدنا. ولم يأت آخر الليل حتى أصبحنا وليس فينا من لم يأخذ منه النعس مأخذاً عظيماً. وكانت تأخذ من أحدنا سنة الوسن وهو على ظهر الجمل فينتبه وهو على وشك السقوط فيعتدل.

وعندما أصبح يوم غرة ربيع آخر أو ١٨ يناير أشرقنا على النيل المبارك عن بعد والممتة عن يسارنا ولم نكد نقف والغزاة في الضحى حتى خرج الينا من أسوار المدينة (الممتة) جيش جرار من العربان وقفوا على مرمى رصاص منا وقد حالوا بيننا وبين النيل وجعلوا يطلقون علينا النار من وراء الاشجار والصخور فأمر الجنرال ستيوارت بالترجل وانشاء زريبة وما كدنا نفعل حتى احتدمت نيران العدو فأمر الجنرال بتشكيل مربع ثم وقف وراء أحد المدافع وبيده المنظر يراقب حركات العدو فأصابته رصاصة في بطنه فسقط على الأرض وسقطت قلوبنا معه. وكان بجانبني المستر سانكي هربرت كاتب سر الجنرال المذكور فسألته ما ظنه بحياة الجنرال فأجاب متأسفاً أنه لا يرجو له شفاء. وما أتم كلامه حتى أصيب هو برصاصة في رأسه فشقق وسقط ميتاً لا حراك به وكان خادمه بجانبه يخاطبه في بعض حاجاته فلما رآه ساقطاً رفع يده منادياً يا سيدي يا سيدي ولم يتم قوله حتى أصيبت يده عند المعصم برصاصة ثقتبها من الجانب الواحد إلى الآخر. وكنا نرى كثيرين غيره يسقطون مثل تلك السقطعة. فلا تسلم عما حل بالجند من اليأس الا أنهم تجلدوا وأقاموا عليهم أكبر ضباطهم قائداً فآتموا تشكيل المربع بعد أن رفعوا الجنرال جريحاً جرحاً بليغاً لم يعيش بعده أكثر من شهر واحد فمات عند انسحاب الحملة ودفن عند آبار جكدول في وسط الصحراء.

فسار المربع ونحن داخله قاصداً النيل فهاجمنا الأعداء ببسالة غريبة ثم ما لبثوا أن اقتربوا من مربنا حتى تشتت شملهم فسرنا حتى أدركنا النيل عند الظلام بعد مفارقتنا إياه نحواً من أسبوعين فحينئذ تحية ملتح وعسكرنا على ضفته للحييت تلك

الليلة . وفي الصباح التالي جاءت العساكر مع من كان معهم في الزريبة ثم انتقلنا الى قرية جنوبي المتمة يقال لها القبة وكان غوردون قد أنفذ للملاقة تلك الحملة أربع بواخر كانت في مياه الخرطوم ليستعينوا بها في الوصول اليه وبعث يقول لهم انكم اذا لم تصلوا النيل في بضعة أيام ذهبنا هباءً منثوراً وقد علم السير شارلس ولسن خلف الجنرال ستيوارت على تلك الحملة بذلك في ٢١ يناير وكان يجب أن يبادر حالا الى الخرطوم بدلا من أن يقضي أربعة أيام بجوار المتمة بلا داع فغادرها في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ على باخرتين لم تصلا الخرطوم الا في ٢٨ منه وكانت قد سقطت وقتل غوردون في ٢٦ منه فعاد السير شارلس كاسف البال ولم يصل المتمة إلا بعد شق الانفس لان باخريته انكسرتا وأصابه من الخطر ما لا محل لتفصيله هنا



ش ٩٦ : دلالات الأرقام في خريطة الخرطوم
(١) الحكمدارية (٢) السراي (٣) حواصل الخنطة (٤) القنطرة
(٥) القشلاق (٦) طابية بوري (٧) مخازن البارود (٨) قرية توتي
(٩) الطابية البحرية (١٠) السراي الشرقية

سقوط الخرطوم

أما كيفية سقوط الخرطوم فعلى ما يأتي : من تأمل هذه الخارطة (ش ٩٦) علم أن الخرطوم واقعة موقعاً طبيعياً حصيناً للغاية فهي محاطة من الشمال والغرب بالنيل ومن الجنوب والغرب بسور منيع وراءه من الخارج خندق عميق والجند قامون على السور ليلاً ونهاراً وترى بين بنايات الخرطوم وسورها أرضاً لا بناء فيها

وقد ذكرنا أن المهدي حاصر الخرطوم وشدد الحصار عليها لكي تسلم من الجوع فلم تمض مدة حتى أنباء جواسيسه أن حملة انكليزية قادمة لانقاذ الخرطوم وغوردون فبعث اليها جنداً لاقاها في أبي طليح تحت قيادة موسى ولد الحلو وأبي صافية فعادت خاسرة فارسل جنداً آخر الى المتمة بقيادة نور عنجة فانكسر أيضاً كما تقدم . فلما بلغه خبر انكسار رجاله أراد التموه على اتباعه فامر بإطلاق مئة قبلة وقبلة وهي اشارة النصر عندهم فاطمان الدراويش ولكن محمد احمد جمع أمراءه وخلفاءه في جلسة سرية وقال لهم ان الحضرة جاءت فلوحت اليه أن يهاجر الى الأبيض . فاعترضه الامير محمد عبد الكريم قائلاً « ان الهجرة ميسورة لنا في كل حين والطريق الى الأبيض مطلق لنا فلنهاجم الخرطوم أولاً فإذا امتنعت علينا هاجرنا الى الأبيض وإذا فتحنها فلا يقوى الانكليز ولا غيرهم على أخذها منا » فاستحسن المهدي رأيه وصبر بضعة أيام وهو يستقصي أخبار الانكليز وحركاتهم . وفي ٢٥ يناير بلغه قيام الباخريتين من المتمة فاقر على مهاجمة المدينة في صباح اليوم التالي (يوم الاثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) فبعث الى القوات المحاصرة يقول انه علم بالوحي ان الله قد جعل أرواح أهل الخرطوم كلها في قبضته

وفي مساء ذلك اليوم ٢٥ منه قطع المهدي النيل الأبيض من أم درمان وكل من أراد الجهاد معه ووزل الى معسكر ولد النجومي في كلا كلا وخطب هناك خطاباً حث رجاله فيه على الجهاد وأوصاهم أن لا يقتلوا غوردون باشا . ولما أتم خطابه عاد بيطاته الى أم درمان

وفي الصباح التالي ٢٦ منه الساعة الاولى بعد نصف الليل زحف الدراويش من كلا كلا بقيادة ولد النجومي وانقسموا فرقتين فرقة تهاجم السور بين النيل الأبيض وباب المسلمية وفرقة تهاجم من ناحية بوري (انظر الخارطة) وكان السور بين باب المسلمية والنيل الأبيض قد تهدم بعضه مما يلي النيل لجوارته أرضاً يفرها ماء النيل في فيضانه ترى حدودها في الخارطة منقطة . وكان الماء قد انحسر عنه

اذ ذاك وتهدم بعضه فتسكونت فيه تغور دللنا عليه بتقطيع السور هناك الى نقط .
فعول الدراويش على أن يدخلوا المدينة من تلك التغور على أنهم اذا فازوا بالدخول
منها عدلوا عن الهجوم من جهة بوري ودخل القسمان معاً من جهة النيل الايض

مقتل غوردون

فزحفوا سكوتاً حفاة تحت جناح الليل لا تسمع لهم حركة حتى صاروا عند تلك
التغور فردموا الحندق ووسعوا التغور وصاحوا صياح الحرب قائلين « في سبيل الله »
ودخلوا يزاحم بعضهم بعضاً وقد غاصوا في الاوحال الى الركب فبغتت الحامية فاطلقت
بعض الطلقات وكان فرج باشا قائد الحصون على باب المسامية فما انتبه الا وقد قضى



ش ٩٧ : رأس غوردون يريه الدراويش لسلاتين باشا

الامر ولم تبق فائدة بالدفاع ففتح الباب وسلم فانهال الدرايش على المدينة كالسيل وهم
ينادون « للسكنيسة . . للسراي » وامنعوا في الاهالي المساكين قتلا ونهباً لم يبقوا
ولم يذروا . وسار بضعة منهم الى السراي حيث يقيم غوردون وكان قد يتس من
قدوم الحملة وبات تلك الليلة حوالي نصف الليل ولم يكذب يغضب جفنه حتى سمع اطلاق
النار فصعد الى سطح السراي واشرف على الاسوار فرأى العرب قد دخلوا السور
ولم يعد باليد حيلة فلبس ثيابه وتقلد سلاحه وهم بالنزول فلاقاه ثلاثة من الدراويش
في أعلى السلم فسأل أولهم قائلاً « أين محمد احمد » فأجابته بطعنة قاضية وضربه آخر

بالسيف فخر قتيلاً ولم يبد دفاعاً . ويقال ان قتله من رجال ولد التجوي ولم يكن
ولد التجوي معهم فجاء بعدئذ فساءه قتله فأمرهم بحرق جثته الى باحة السراي وأن
يقطع رأسه ويحمل الى المهدي في أم درمان فحملوه اليه في مندبل كبير في الساعة
الاولى من النهار وكان سلاتين مقيداً في خيمته بأم درمان وقد سمع اطلاق المدافع
وعلم بهجوم العرب على الخرطوم ثم سمع بفتحها فوقف حزينا كئيباً فرحاملو رأس
غوردون به وبينهم رجلا اسمه شطا كان يعرفه سلاتين قبلا فكشف له عن رأس
غوردون وقال « اليس هذا رأس عمك الكافر »

فأثر ذلك المنظر في سلاتين كثيراً وكان قد هزل جسمه من الاسر والخوف وكاد
يغمى عليه ولكنه تجدد وقال بصوت ضعيف « انه مات في سبيل الدفاع عن واجباته
هنيئاً له فقد استراح من متاعبه » فقال له شطا ضاحكاً « أمدح الكافر انك ستلقى
ما لقيه قريباً » فتأمل حال سلاتين اذ ذاك

ثم حملوا الرأس الى المهدي فظهر كدوره لذلك وكان سلاتين يظن ان المهدي لو
أراد أن يبقى عليه وأوصى رجاله بذلك ما تجرأ أحد على مخالفة أوامره

هكذا سقطت الخرطوم عاصمة السودان في أيدي الدراويش وبسقوطها سقط
كل أمل باقتناعها . ولكن المهدي لم يقم فيها بل أقام في أم درمان وبني هناك مدينة
جعلها عاصمة ملكه من ذلك الحين

أما الحملة الانكليزية فانها انسحبت من المنمة الى كورتى فاقامت هناك مدة ثم
عادت الى دنقلا فصر فسيحت معها كل من أراد مرافقتها من سكان شمالي كورتى
وأصبحت السودان من ذلك الحين مملكة المهدي السوداني

موت المهدي وخلافة التعايشي

فلما فتحت الخرطوم وعادت الحملة الانكليزية الى مصر ازداد الناس وثوقاً بدعوى
المهدي مع ما شاهدوه من توفيقه في مشروعاته فانه كاد لا يشهد موقعة الا انتصر فيها
ولا حاصر مدينة الا فتحها . واذا اعتبرت ما لاقته الحملة الانكليزية القادمة لانقاذ
غوردون من العراقيين والعوائق عجبت لما اتفق لمحمد احمد هذا من غرائب التوفيق .
فاتخذ اشياعه ذلك دليلاً على كرامته وأيقن هو انه أصبح المالك المتصرف في السودان
من اقصائه الى اقصائه وخيل له انه سيفتح الامصار ويخضع الملوك والسلطين فتنتشر
سلطنته في الخافقين . على انه لم يكن يرجو أن يتم ذلك كله على يده ولكنه كان يقول
انه لن يموت الا بعد فتح الحرمين وبيت المقدس ثم ينزل الكوفة ويموت فيها . ولكن

ساء فآله لانه لم يكذب يؤيد سلطته ويقم في عاصمته « أم درمان » بضعة أشهر حتى داهمته الوفاة في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ فيها على أثر اصابة شديدة بالحمى التيفوسية لم تنجح فيها حيلة فقارق هذا العالم على تنقيب « سرير سوداني » وحوله خلفاؤه الثلاثة وخاصة أمراءه منهم احمد ولد سليمان ومحمد ولد البصير وعثمان ولد احمد والسيد الملكي . فلما شعر المهدي بدنو الاجل قال لمن حوله بصوت منخفض « ان النبي صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله خليفة لي وهو مني وأنا منه فأطيعوه ما اطعموني .



ش ٩٨ : طبيب المهدي

استغفر الله » ثم تلا الشهادتين وجعل يديه متقاطعتين على صدره واسلم الروح ولم يكذب يخرج النفس الاخير من أنفاسه حتى تقدم الحضور فبايعوا عبد الله وسموه « خليفة المهدي » وكان في جملة من حضر موت المهدي امرأة عائشة ويدعوها « ستنا أم المؤمنين » فسارت لا بلاغ خبر وفاته الى نساؤه الاخريات وتعتزين وكان

الناس قد تجمهروا مئات وألوفاً حول المنزل ينتظرون الخبر عن سيدهم ومهديهم فلما علموا بموته ضجوا وصاحوا فافزع اليهم ان البكاء والندب حرام لان المهدي انما فارق مقامه في الارض بمجرد ارادته ليلقي وجهه ربه . فغسلوا الجثة ولفوها بالا كفان واحتفروا لها حفرة في تلك الغرفة حيث فارقتها الروح ودفوها وجعلوا فوقها بعد ذلك مقاماً من الخشب يغشاها ستر اسود وبنوا فوقه قبة وسموا ذلك المقام « قبة المهدي » يزورها الناس للتبرك واحتفروا بجانب القبة بئراً يستقي الزائرون منها للشرب والوضوء وحول القبة درابزون من الخشب « ش ٩٩ »



ش ٩٩ : قبة المهدي رفيع تبره

وكان سلاتين باشا قد نال العفو من المهدي قبل وفاته فخلت قيوده وعاد الى معية التعايشي فشاهد تلك الحوادث شهادة عين ووصفها في كتابه « السيف والنار والسودان » وصفاً تاماً

فبعد دفن المهدي سار خليفته عبد الله الى الجامع وخطب في الناس وأنبأهم بوقفة المهدي فيكي وبكى الناس ثم أوصاهم بالطاعة والاتحاد للعمل بأوامره . وبعد الخطبة تقدم الناس لمبايعته فتلوا صورة المبايعه التي ذكرناها قبل الآن ولكنه غير العبارة الاولى منها فجعلها « يا بعنا الله ورسول الله ومهدينا ويا بعناك على توحيد الله الخ »

أوصاف المهدي

كان محمد احمد طويل القامة عريض المنكبين أسمر اللون قائمه قوي البنية . وكان أول قيامه بدعوته ربيع القامة فاصبح في أواخر أيامه سمياً ضخماً . وكان كبير الرأس عريض الجبهة حاد العينين اسودها خفيف اللحية اسودها وعلى خديه آثار الاخاديد العرضية الثلاثة من كل جانب كسائر الدناقلة أبناء قبلته . وكان متناسب الاتق والقم لا ينفك مبتسماً فتظهر أسنانه وبين الاماميتين منها فليحة تشبه الثمانية « ٨ » تعد عند السودانيين وغيرهم من المشاركة علامة السعد ويقال لصاحبها أفلج . وكان ذلك من جملة ما حجب المهدي الى النساء وكن يسمينه « أبو فليحة »

وكان يلبس جبة بيضاء قصيرة مضربة راها دائماً مغسولة نظيفة مطيبة برائحة خشب الصندل والمسك وعطر الورد وكان مشهوراً بين أتباعه بهذه الرائحة حتى نسبوها اليه فسموها « رائحة المهدي » وذكر بعضهم خلا كان في خده ادعى انه من علامات المهدوية

وقد علمت من تدبر ترجمة حاله انه كان نبياً مدبراً رضي الخلق حسن السياسة ماهراً في التأثير على عواطف الناس اذا تكلم ظهر للسامعين ان جوارحه كلها تتكلم فاذا ذكر ما تم بني الانسان أو وصف النعيم المقبل أو حث على الجهاد بكى وتخضع دواكي السامعين . ويظهر من محمل سيرة حياته انه صبور على البلوى كاظم للغيظ مسالم للاحزاب محسن اليهم راغب في امتلاك قلوبهم باللفظ وحسن الاسلوب . وكان ذلك من أكبر العوامل في نشر دعوته وقيام الناس بنصرته ولو أمد الله في أجله لكان فتح السودان صعباً على الجنود المصرية نظراً لاستهلاك قواده في سبيل نصرته . أما خليفته فكان على غير خلقه من اللين والدعة والمسالمة الى حد هاج غيرة الحافيتين الآخرين وغيرها من الامراء فقام الشقاق بين الدراويش فضعفت عزائمهم وفسدت أمورهم وتضعضت أحوالهم وسهل الفتح على المصريين

تعاليمه

ذكرنا في ما تقدم ما كان من أعماله الحربية منذ ظهوره الى وفاته فقتصر الآن على

ذكر ما أحدثه من التعاليم والتقاليد بين مسلمي السودان :

(١) علم الزهد في الدنيا وملذاتها ونبذ المجد الدنيوي فابطل الرتب والالقب الرسمية وغير الرسمية وسأوى بين الغني والفقير وفرض على أتباعه لباساً واحداً يمتازون به ويدل على زهدهم وهو الحية المرقعة

(٢) جمع المذاهب الاربعة (المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) ووحدها بتسوية بعض ما بينها من الخلاف والغاء البعض الآخر واختار آيات من القرآن الكريم تلى كل يوم بعد صلاة الصبح وصلاة العصر سمها « الراتب » وسهل طرق الوضوء

(٣) حرّم الاحتفال بالاعراس احتفالاً يدعو الى النفقة ومنع شرب الخمر وغيرها مما يتناولونه في الاعراس وخفض مهر الزواج فجعله عشرة ريالات وبدلتين للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب وجازى من يخالف ذلك بسلب أمواله كلها . وابدل ولائم الاعراس بطعام من الثمر واللبن فتسهلت بذلك وسائل الزينة على الفقراء وقد كانت نفقات العرس الباهظة حائلة بينهم وبين الاقتران

(٤) ابطال الرقص واللعب ومن رقص أو لعب فقصاصه الجلد وأخذ أمواله وترى تفصيل ذلك في منشور المهدي الذي تقدم نشره

(٥) منع الحج الى الحرمين خوفاً على قواته من التفريق وتعاليمه من الضياع لعلمه انها تخالف تعاليم أهل الاسلام . ووضع قصاصاً على من يشك في دعوته أو يتردد في تنفيذ أوامره أن تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ويكفي ثبوت التهمة عليه شهادة شاهدين وقد يكفي ان يدعي علمه ذلك بالوحي . وتأيداً لدعوته أحرق كل كتاب أو ورقة تخالف هذه التعاليم



ش ١٠٠ : نقود المهدي

وقد ضرب المهدي نقوداً باسمه هذه صورة قطعة فضية منها بحجمها الطبيعي (ش ١٠٠) على أحد وجهيها اسم المدينة التي ضربت فيها « أم درمان » وعند أسفل ذلك تاريخ ١٣٠٤ هـ وهي سنة استقلالهم بالاقطار السودانية وفي أعلاها رقم واحد يقصدون به السنة الأولى من سلطانهم . وعلى الوجه الآخر ما يشبه الطغراء يقرأ منها كلمة « مقبول » كأنهم يريدون بها أن هذه النقود مقبولة عند حكومتهم وعند أسفل الطغراء يقرأ سنة ٥ ربما يقصدون بها السنة الخامسة من ظهور المهدي أو هجرته وكان المهدي قد بعث أمراءه إلى الأنحاء لبث دعوته وتأييد سلطته وحث الناس للهجرة إلى أم درمان فسعى محمد خالد في دارفور فاتم إخضاعها وسار أبو عنجة إلى كردوفان وكانت قد سلمت إلى المهدي السكان الجبال الجنوبية منها فاضع بعضهم وبقي البعض الآخر مستقلاً . أما ما بقي من السودان الغربي من ضفاف النيل الأبيض إلى حدود وداي فقد دانت للمهدي برمتها

السودان الشرقي

أما في السودان الشرقي فما زالت سنار وكسلا محاصرتين وقد دافعت حاميتهما دفاعاً حسناً حتى اضطرت إلى التسليم فلم تنقض سنة ١٨٨٥ حتى بلغ نفوذ المهدي وسلطته جنوباً إلى لادو من مديرية خط الاستواء ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة المصرية إلا سواكن وحدها

واتفق في أثناء حصار سنار أن القوة المحاصرة لها كانت تحت قيادة الأمير عبد الكريم وهو من أقارب المهدي فدفعته حامية سنار فانفذ التعايشي ولد التجومي وهو من أعظم قواد الدراويش ففتحها في أغسطس سنة ١٨٨٥ فبعث التعايشي إلى عبد الكريم أن يأتي هو ورجاله إلى أم درمان وكان قد أخذ معه حصار سنار الجنود السودانية بلواء الخليفة محمد الشريف وهو من أقارب المهدي أيضاً فلما فتحت سنار على يد ولد التجومي ثم دعي عبد الكريم إلى أم درمان حمل عبد الكريم ذلك من التعايشي يحمل الأمانة له وذاع على الألسنة إذ ذاك أن عبد الكريم قال لو ضمت إليه رجاله ورجال الخليفة الشريف لأخرج الخلافة من يد التعايشي ودفعها إلى الخليفة الشريف لأنه أولى بها من ذلك . فبلغ ذلك الكلام مسمع التعايشي فبعث إلى أخيه يعقوب وهو عمده وقائد جنده وأخبره الخبر وأوصاه أن يكون الجند على استعداد عند وصول عبد الكريم . فلما وصل عبد الكريم لاقاه التعايشي بالتهنئة وأثنى على ما بذله في حصار سنار ثم شرفه وبعث إلى الخليفين وسائر الأشراف (أقارب

المهدي) فادخلهم غرفة داخلية ولما أستتب بهم المقام أمر كاتبه قتلهم منشوراً كان قد كتبه المهدي في الأبيض يحرض أتباعه به على طاعة التعايشي فلما تمت تلاوة المنشور قال عبد الله أن عبد الكريم خائن فأنكروا ذلك عليه ودافعوا عن صداقه وأمانته فظاهر بالعفو عنه ولكنه اشترط إخراج الجنود السودانية من قيادته إلى قيادة أخيه يعقوب فقبل الشريف وسائر الأقارب بذلك رغم إرادتهم ثم أشار التعايشي إلى الخليفة علي ولد الحلو بطرف عينه أن يجددوا الميابة ويعين الطاعة فوضعوا أيديهم على القرآن وأقسموا أن يسلموا الجنود السودانية وأن يحافظوا على الطاعة . ولا ريب أن الشريف ورجاله فعلوا ذلك قهراً وفي أنفسهم حزازات يودون لو أنهم يذهبون بحياة التعايشي . وكانت تلك الحادثة أمثلة ذات بال أصبح بها مقاوموه مقصوصي الأجنحة لا يستطيعون حراكاً ولكنهم حقدوها عليه وأخذ كل من الفريقين ينظر إلى الآخر بعين الحذر . على أن الظواهر كانت تدل على اتحاد وارتباط متينين . أما التعايشي فما انفك يدعو الناس من الجهات البعيدة للهجرة إلى أم درمان ليعمرها ويحشد فيها قوة عظمى يستعملها عند الحاجة

خرب الاحباش

وفي أثناء ذلك تعدى بعض السودانين على الاحباش في بلاد الحبشة وأخربوا كنيسة من كنائسهم والتجأ المتعدون إلى قلايات وهي في بلاد الدراويش مما يلي حدود الحبشة فحاجم حاكم المدينة فجاء الاحباش بجند كبير تحت قيادة الرأس عادل وأخربوا البلدة وأحرقوها حتى صارت قفراً يأوي إليها الضباع والذئاب وساقوا الأولاد والنساء أسارى إلى الحبشة . فبلغ التعايشي ذلك فكتب إلى يوحنا نجاشي الحبشة إذ ذاك أن يرسل الاسرى ويعين الفدية التي يريدونها عنهم ولكنه بعث أيضاً يونس أحد قواده بجند إلى قلايات وأمره أن يحصنها ويقيم فيها حتى يأتيه أمر آخر وبعد قليل جاء نبأ أن يونس في ضيق فبعث أبا عنجة يتولى قيادة الدراويش في قلايات فسار في جنده وأتقذه من ضيقه . وقبض على ١١ أميراً ظهر أنهم تأمروا على قتل يونس وبعث إلى الخليفة يستشير في أمرهم فبعث إليه أن يقتلهم ثم ندم فبعث أن لا يفعل ولكن سبق السيف الغزل

فجمع أبو عنجة هذه القوة وسار نحو رأس عادل لينتقم منه فوفق في هذه الحملة على غير انتظار وتغلب على رجال رأس عادل وأخرجهم من محلتهم واستولى على الخيم والمؤن وكل الامتعة وأسر أمراؤه رأس عادل وابنته . وكأنه بهذه الغلبة قد فتح كل

مقاطعة أحره فساروا الى غندر على أمل ان يلاقي فيها خزان وأموالاً فلم يجد شيئاً فأحرق البلدة وعاد وهو ينهب ويسلب كل ما مر به بطريقه حتى ساقوا أمامهم قطعاً من نساء الاحباش وأطفالهم سوق الاغنام فلما وصلوا قلابات بعثوا الاسرى الى أم درمان فأخذ الخليفة خمسهم وضموا الباقي الى بيت المال وقد مات منهم في الطريق مئات من الجوع والتعب وأصبح الطريق بين قلابات وأبي حراز مملوءاً بجثث اولئك المساكين وفي جملة جثثها ابنة راس عادل وابنه لكن المنية عاجلت أبا عنجة فمات ولم يتجاوز ٣٢ سنة من عمره

ثم ما لبث التجاشي ملك الحبشة ان جند للانتقام من الدراويش على خراب غندر فحمل بجند كبير على قلابات وكانت جنود أبي عنجة لا تزال هناك ولم تفقد الا قائدها الاكبر فتأهبوا للدفاع فوصل التجاشي وعسكر بالقرب من قلابات وانتهت الحرب بهرب الاحباش وقتل ملكهم وركبوا المعسكر غنيمة للدراويش فوجدوا في جملة الغنائم تاج التجاشي يوحنا مصنوعاً من الفضة ومحلى بالذهب وسيفه وكتاباً مرسل الى من ملكة الانكليز فحملوا ذلك غنيمة الى أم درمان

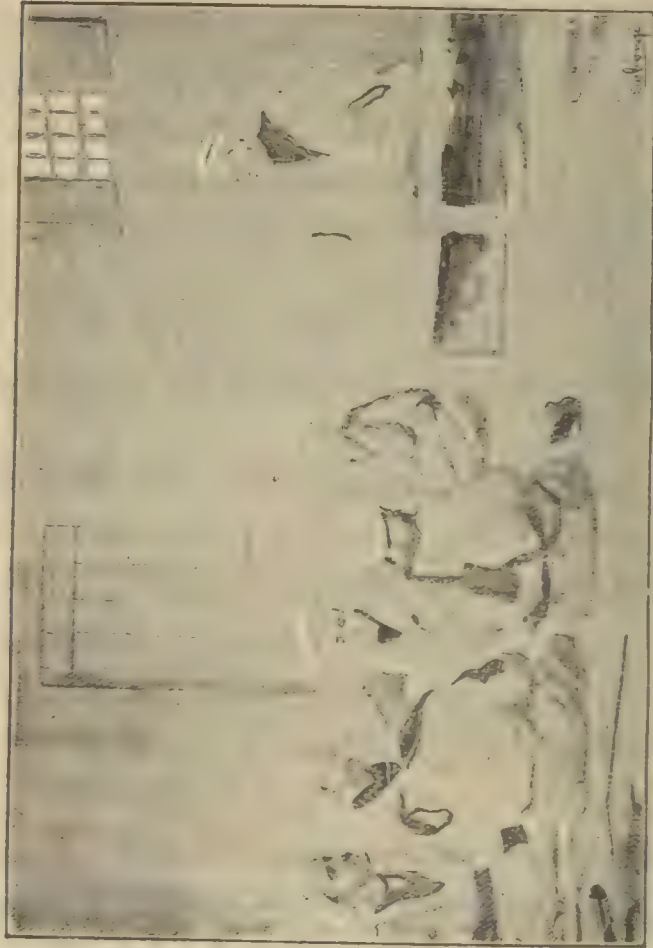
فتح مصر

ومن أغرب مطامع التعايشي فتح مصر وضماها الى مملكته على حين ان المهدي نفسه لم يجاهر بذلك صريحاً. فلما توفي هذا كتب التعايشي كتاباً الى جلالة السلطان وآخر الى سمو الخديوي وآخر الى ملكة الانكليز يطلب اليهم جميعاً أن يسلموا له ويدعوا لسلطانه وأرسل الكتب مع رسل خصوصيين الى مصر فعاد الرسل ولم ينالوا جواباً غير الاحتقار والازدراء فشق ذلك عليه وحقدته عليهم

فلما قدر له بالفوز على الاحباش حدثته نفسه أن يجرد على مصر فيفتحها ويقم نخاساً من البقارة أو التعايشة أميراً يتولى حكومتها أو يأتي هو بجلالة قدره من يثته في أم درمان فينصب عنقريبه في سراي عابدين !

ولم ير بين قواده أولى بهذه المهمة من عبد الرحمن ولد النجمي وكان من اشد الدراويش بطشاً وأصعبهم مراساً وأكثرهم استهلاكا في نصره الدعوة وكان قبل ظهور المهدي تاجراً بين مصر والسودان قد خبر الطرق فارسه في حملة أكثرها من قبائل الجعاليين والداقلة وغيرهم ممن جاوروا حدود مصر العليا وخالطوا سكان تلك الاقاليم متظاهراً ان قصده بذلك فتح مصر برجالهم أدري بها من غيرهم. ولكن الحقيقة انه لم يحفل بالخطر الذي يهدد ذلك المشروع فلم يدخل في تلك الحملة

أحداً من أقاربه وابناء عشيرته ولا من قبائل البقارة وغيرهم من عرب غربي النيل الا يرض لانهم من حزبه فاذخرهم حين الحاجة أما الدناقلة والجعاليين فأكثروا من حزب الخليفة محمد الشريف وقد رايت ما بينه وبين التعايشي وما كان من تغير قلوبهما فما



١٠١٠: مجلس التعايشي وقضائه

انفك هذا بعد ذلك يعتبر الشريف عدواً له تحت طي الحفاء فبعث أحزابه في حملته هذه وفي نيته أنهم اذا فتحوا مصر عاد الفخر له واتسعت مملكته واذا انكسروا تقهقروا الى دنقلا وقد ضعف شأنهم وتخلص هو من دسائسهم فجعل دنقلا محط رجال تلك الحملة وأقام يونس ولد الدغيم أميراً على دنقلا بقم

فيها ويدبر شؤونها وولد النجومي يقود الحملة ولا يعمل الا بمشورة يونس فلما اعد التعايشي تلك الحملة بعث كتباً أخرى الى مصر وفيها الانذار الاخير فبقي الرسل مدة في أصوان ثم أعيدوا بلا جواب فبعث التعايشي رأس النجاشي يوحنا الى يونس أمير دنقلا على أن يرسله الى وادي حلفا تهديداً للمصريين . وأمر أن يسير ولد النجومي بهملته على مصر فلا يحرك ساكناً في حلفا بل يهاجم أصوان فاذا فتحها يقيم فيها حتى تأتيه أوامر أخرى

نخرج ولد النجومي من دنقلا في مايو سنة ١٨٨٩ في جيش لا نظام له والحكومة المصرية عالة بكل حركة من حله ورحاله . وكان سردار الجيش المصري اذ ذاك الجنرال غرانفل باشا المشهور بالتأني وصدق الروية فضلا عن الرقة ولين الجانب فخصن حلفا وأصوان وسائر الحدود

فلما دنت حملة الدراويش من ارجين بجوار حلفا اقتربت شذمة منهم الى النيل وولد النجومي لا يعلم بها فخرجت اليها الحامية المصرية بقيادة وودهاوس باشا فكسروها شر كسرة

وكان غرانفل باشا قد خرج من أصوان فبعث الى ولد النجومي يبين له خطر موقفه وينصح له أن يسلم فيسلم فابى فسار السردار بجيش معظمه على البر الغربي للنيل وبعضه على البر الشرقي لان الدراويش كانوا قادمين على البر الغربي فحزرت بينهم وبين الحاميات مناوشات ليست بذات بالحتى وصلوا توشكي وهناك حصلت الواقعة التي قضت على تلك الحملة فقتل قائدها وتشتت شملها واليك التفصيل

واقعة توشكي

توشكي قرية حقيرة على البر الشرقي وبعضها على البر الغربي للنيل بين كروسكو وحلفا على بضعة أميال من هيكل أبي سمبل شمالاً مؤلفة من أعشاش صغيرة من الطوب والقش متفرقة على ضفة النيل في مسافة من الأرض على موازاة النيل يبلغ طولها ثلاثة أميال وعرضها منه الى الصحراء نحو نصف ميل وفيها بعض النخيل

وفي البر الغربي مقابل توشكي على بعد أربعة أميال منها جنوباً سلسلة تلال عالية من حجر الغرايت تمتد من الضفة غرباً نحو ثلاثة أميال في الصحراء وعند طرف هذه السلسلة والى جنوبها كان معسكر الدراويش بقيادة ولد النجومي وعلى نحو تلك المسافة شمالاً سلسلة أخرى وبين السلسلتين سهل متصل بالصحراء وفيه حصلت الواقعة وكان السردار مقيماً في توشكي فبعث طلائعه في صباح ٣ اغسطس سنة ١٨٨٩

باكراً لاستكشاف معسكر العدو فعادوا واخبروا بان العرب يستعدون للمسير فخرج السردار لجرد الاستكشاف فلم يكذب يشرق على معسكرهم حتى رآهم هاجمين كالجراد فبعث الى الجند في توشكي وكان بعضهم لم يتناول طعاماً ولا شياً قليلاً فصرخوا بأسرع من لمح البصر وهم لم يأكلوا بعد ولا حلوا من الماء الا شيئاً قليلاً فصم السردار اذ ذاك أن لا يكف عن الدراويش حتى يشتت شملهم في ذلك اليوم وكان قد علم بما كانوا فيه من الضيق والجوع . وهاك أسماء الارط التي شهدت تلك الواقعة وهي الارطة التاسعة بقيادة البكباشي لوييد والعاشر بقيادة البكباشي دن والثالثة عشرة بقيادة اليوزباشي كستر والطبجية بقيادة البكباشي رندل فضلاً عن القيادة الراكين والارطة الثانية من القيادة جاءت متأخرة وقال الذين شهدوا واقعة توشكي ان الارط السودانية عملت في ذلك اليوم أعمالاً عجيبة وبالفوا برغبتهم في الحرب حتى عصوا أوامر قوادهم لما دعوهم الى الكف عنها والخلاصة ان الواقعة المشار اليها لم تنقض الا الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم (٣ اغسطس سنة ١٨٨٩) . وبلغ عدد قتلى الدراويش ١٢٠٠ قتيل وزاد عدد اسراهم على أربعة آلاف وفيهم النساء والاولاد فضلاً عن الاسلاب والاعلام والسيوف والرماح ولم يقتل من الجيش المصري الا ٢٥ وجرح ١٤٠

ووجد بين قتلى الدراويش اذ ذاك أعظم امراء تلك الحملة ما عدا عثمان الازرق وعلي ولد سعد وحسن النجومي وميرغني سوار الذهب وشيخ الايض فقد نجا هؤلاء بنحو الف واربعائة شريد وهم الذين استطاعوا الفرار من تلك الموقعة فقط . أما ولد النجومي فقد قتل وحز رأسه وحجى به الى السردار

فكان ذلك النصر مئيناً سر به المغفور له الخديوي الاسبق فبعث الى السردار يهنئه به لعلمه انه امثولة علمت التعايشي ما لم يكن يعلم . أما الذين قتلوا من الجنود المصرية فابتنوا لهم مقاماً قرب مكان الواقعة ضموهم اليه وبنوا فوقه قبراً نقشوا فوقه باللغة العربية حفرأ على واجهة القبر كتابة هذا نصها

« شيد هذا الأثر تذكراً لواقعة توشكي التي حصلت في ٦ الحجة سنة ١٣٠٦ هـ وأنهم فيها جيش العصاة السوداني المرسل تحت امرة عبد الرحمن ولد النجومي فتشتوا بعد قتل أميرهم وكان الجيش المصري تحت قيادة سعادة السردار غرانفل باشا وفي هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان »

وبعد الواقعة سار الخديوي الاسبق في بعض رجال معيته لتفقد أحوال الحدود

فركب الى مكان الواقعة ووقف أمام قبر شهدائها يتأمل ما أظهره جنده من البسالة في ذلك القتال . وقد نشرنا رسمه رحمه الله واقعاً أمام ذلك القبر وقد أسند رأسه على كفه متأملاً (انظر الشكل ١٠٢)



ش ١٠٢ : توفيق باشا في توشكي

﴿ قحط عظيم ﴾ وكان خبر ذلك الانكسار صدمة قوية على الدراويش في أم درمان فعرفوا قدر أنفسهم ووقفوا عند حدهم ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من عواقب تلك الكسرة حتى داهمهم قحط غلت فيه أثمان الحنطة وقل الزاد واشتدت وطأة الجوع على الفقراء حتى أكلوا سيور الجلد التي يشدون بها مقاعدهم فكثر النهب وازداد الضغط وكانت وطأة الجوع في الغالب أشد على المارين بأم درمان والقادمين إليها مما باهلهما حتى اتصلت الحاجة ببعضهم الى بيع أولادهم بيع الرقيق انقاذاً لهم من الموت جوعاً . قال سلاتين « وكانت الجثث ملقاة في الشوارع والمنازل مئات وليس من يدفنها فاصدر التعايشي منشوراً قال فيه ان كل صاحب منزل مطالب بدفن الجثث التي تشاهد ملقاة قرب منزله فقلت الجثث على الشوارع ولكن بعضهم كانوا يحفرون حفراً بقرب المنازل يدفنونها بها تخلصاً من مشقة الحمل الى المدافن . وكانت أمياه النيلين الازرق والابيض تجري أمام أم درمان حاملة مئات من الجثث فارق أصحابها

الحياة على ضفاف النيل أو بالقرب منها فلقوها أهلهم أو أصحابهم فيه » وخلاصة القول ان الجوع أهلك من الدراويش أضعاف ما ابادته الحروب منذ ظهور المهدي الى ذلك اليوم . ورافق هذا الضيق جراد جارف أكل ما بقي من الزرع على ان التعايشي ما زال يث دعاة في سائر الانحاء لتأييد دعوته وكانت بقية من خط الاستواء لا تزال على ولاء الحكومة بقيادة أمين باشا فانفذت المانيا حملة بقيادة ستانلي الرحالة الشهير لانقاذ أمين باشا ففاست في سبيل ذلك مشقات جسيمة تمكنت



ش ١٠٣ : عبد الله التعايشي

بعدها من الخروج به وبعض الحماية فدخلت مديرية خط الاستواء بحوزة الدراويش ولم يبق للحكومة من السودان المصري الا سواكن وطوكر وقد فصلنا تاريخ التعايشي واصله وصفاته وخلقاته ومناقبه وحكومته وادارتها من حيث الجند والمالية والقضاء والبريد وسائر احوالها مطولاً في الجزء الاول من كتابنا تراجم مشاهير الشرق نكتفي منها هنا بوصف حكومته :

حكومة التعايشي وادارتها وأعمالها

١ - المالية

تسمى المالية عند الدراويش « بيت المال » أو هي بيوت المال يختص كل بيت منها بنوع من أنواع الدخل والخرج أهمها خمسة وهي : ١ بيت المال العمومي

- ٢ بيت مال الملازمين ٣ بيت مال الخمس للخليفة ٤ بيت مال ورشة الحرية
٥ بيت مال ضابطة السوق



ش ١٠٤ : خارطة الخرطوم وأم درمان في زمن النمايني

بيت المال العمومي : هو عبارة عن الخزانة العمومية لمملكة الدراويش
يجمع دخلها من المصادر الآتية : ١ الزكاة والفطرة ٢ الاسلاب والغنائم المكتسبة

- بالحرب ٣ العشور وهي ما يدفعه التجار على بضائعهم (المكس) ٤ ضريبة
الصمغ ٥ ضريبة القوارب ٦ قروض يعقدها بيت المال مع التجار ولا ينوي
دفعها ٧ ضرائب العبور في النيل من خفة الى اخرى (المعديات) ٨ غلة
الارض الواقعة غربي النيل الابيض وشرقي النيل الازرق وهي تمتد جنوباً الى كركوح



ش ١٠٥ : عبد الله النمايني يقطع النيل ويجري رجائه على القتال

وفشوده وشمالاً الى حجر العسل ٩ معين يستولي عليه بيت المال العمومي من

بيوت المال الاخرى

أما نفقات بيت المال العمومي فهي : ١ نفقات نقل الجيوش ومؤنهم وذخائرهم

الى المديرية والمقاطعات ٢ اعطيات الجند (رواتب الجهادية) ٣ رواتب المستخدمين ٤ الصدقات

بيت مال الملازمين : ويراد به خزانة الملازمين وهم جند التعايشي الخصوصيين ومنهم حراسه وياوران. مجتمع دخل هذه الخزانة من محاصيل أرض الجزيرة (بين النيلين الايض والازرق) واما نفقاتها فمحصورة في رواتب الملازمين بيت مال الخنس للخليفة : وهو أشبه شيء بالخزانة الخاصة ودخله من المصادر الآتية : ١ معظم ما يفضل في خزائن المديرية بعد نفقاتها المعلومة ٢ محاصيل الجزائر الواقعة في النيل وفي جملتها جزيرة توني تجاه الخرطوم ومحصول أرض الغنمية ومنها حلفاية وكلمين وكاتنا قبلا من أملاك الخاصة الحديوية ٤ عشر البضائع التي ترد من بربر الى أم درمان ٤ أثمان العبيد الذين يرسلون من المديرية ٥ محصول أكثر البواخر والسفن . أما خرج بيت مال الخليفة فمحصور في نفقات منزله الخصوصي

بيت مال ورشة الحرية : ويشبه خزانة الحرية عندنا دخله من : ١ غلة جنائن الخرطوم ٢ محصول بعض السواقي بجوار الخرطوم ٣ العاج الوارد من خط الاستواء . وخرجه من : ١ نفقات البحرية ٦ نفقات الترسانة ويسمونها بيت الامانة ٣ استخراج ملح البارود وتنقيته ٤ نفقات معمل الاسلحة

بيت مال ضابطة السوق : وهي خزانة الضابطة دخله من أموال السكيرين والمقامرين التي يحكم التعايشي بضبطها ومن ضريبة الحوانيت . وأما نفقاته فعلى ما يأتي : ١ رواتب الضابطة من الانفار والضباط ٢ نفقات بيت الضيافة وهو ليعقوب أخى عبد الله التعايشي ٣ نفقات بناء السور الكبير لام درمان . هذه هي أقسام المالية من الدخل والخرج أما المقادير التي تدخل وتخرج فلا يتيسر معرفتها

٢ — النقود والتجارة

لما قام المهدي بدعوته ووفق الى فتح المديرية استولى على خزائنها وأموال أهلها فكان ينفق مما وصل الى يديه من ذلك وهي النقود الدارجة في السودان على عهد الحكومة الميرية أهمها الريال الجيدي والريال أبو مدنع . فلما اتت مملكته ونفدت تلك الاموال أخذ في ضرب النقود باسمه أشار عليه بضرها احمد ولد سليمان ف ضرب نقوداً فضية شبيهة بالريال المصري نشرها رسمها وجنيهاً شبيهة بالجنيهاً المصرية . ولكنهم لم يكونوا يضبطون المقادير اللازمة من كل معدن منها . وكان الذهب قليلاً

بين أيديهم فكفوا عن ضرب الجنيه وأكثروا من ضرب النقود الفضية ف ضربوا منها ضربات عديدة تعرف باسماء خاصة بها منها « ريال المهدي » وهذا أحسنها كلها ومنها « مقبول » و « أبو سدر » وكلاهما من ضرب القيرافوي . و « أبو كيس » وعليه رسم رحمن متصاليين . و « العملة الجديدة » . على أنهم أخذوا ينقصون مقدار الفضة بالنسبة الى النحاس شيئاً فشيئاً حتى صارت نسبة الفضة الى النحاس كنسبة ٢ الى ٥ وكانت في بادئ الرأي ٧ الى ١ أي ان الريال كان يحتوي سبعة أجزاء من الفضة وجزءاً من النحاس وهو ريال المهدي فصار يحتوي جزئين من الفضة و خمسة من النحاس وذلك دليل على فقر السودان وفساد حكومته . على ان دار ضرب النقود كان يتخذها كبار الدراويش تجارة يكتسبون بها امولا طائلة لأنها تعطى حكراً أو ضماناً ومن قوانينها ان رأسها اثنان معاً يدفع الواحد منهما ستة آلاف ريال كل شهر وما يضر به من النقود يجب أن يكون مقبولا لدى التجار وغيرهم فاذا اعترض احد على صحتها أو تمنع عن قبولها فعقابه الجلد أو سلب الاموال . فالريال صار يستبدله تجار أم درمان بثمانية ريالاً من العملة الجديدة ويستبدلون الريال ابا مدفع بخمسة ريالاً فاضطروا ملافاة لما يلحقهم من الخسارة بهذه المعاملة ان رفعوا أثمان بضائعهم حتى بلغ ثمن شقة البقعة الزرقاء التي يصطنعون منها ثياب النساء ستة ريالاً وكان ثمنها على عهد الحكومة المصرية ثلاثة ارباع الريال . وأصبح رطل السكر (الرطل ١٤٤ درهماً) بريالين . ومن الغريب ان غلاء الاثمان قاصراً على البضائع الواردة من مصر أما ما يجلب من السودان فاثمانه بخمسة بالنسبة الى تلك فاجمل مثلاً يساوي ستين ريالاً والبقرة مائة ريال وأردب الذرة ستة ريالاً والخروف خمسة ريالاً فأكثر

٣ — قواته

وأما قواته ومقدار ما كان عنده من الذخيرة والمؤونة قبيل ذهاب دولته فمعظمها من المشاة حملة السيوف والرمح وعددهم ٤٦٠٠٠ ومن الخيالة ٦٦٠٠ ومن العساكر الجهادية ٣٥٠ ٣٤٠ وجملة ذلك نحو مائة الف وخمسة آلاف مقاتل وعدد الاسلحة ٧٤ مدفعاً و ٤٠ ٣٥٠٠ بندقية هذه قوات التعايشي الرسمية ولكنها كانت تتضاعف بما ينضم اليها من القبائل القائمة بنصرته

٤ — القضاء

كان القضاء منوطاً عندهم بالقضاة وكبيرهم يسمى « قاضي الاسلام » وجميعهم آلات صماء بيد التعايشي فلا يصدر عن حكم الا كما يوحى به اليهم ما خلا القضايا

الطيفة من الاحوال الشخصية وما شاكلها فقضاة الدراويش بهذا الاعتبار بين جاذبين قوين ضميرهم والاحكام الشرعية من جهة وارادة التعايشي من جهة أخرى وهالك أساء قضاة أم درمان عام ١٨٩٥

- | | | |
|-----|------------------------|---|
| (١) | حسين ولد زهرة | من قبيلة الجمالين |
| (٢) | سليمان ولد الحجاز | » » الحجاب |
| (٣) | حسين ولد قيسو | » » الحمر |
| (٤) | احمد ولد حمدان | » » العراقيين |
| (٥) | عثمان ولد احمد | » » البطاحين |
| (٦) | عبد القادر ولد أم مريم | وكان قاضي كلا كلا على عهد الحكومة المصرية |
| (٧) | محمد ولد المفتي | وهو قاضي المواد الجزئية بين الملازمين |

وهناك قضاة آخرون للقبائل الغربية اذا حضروا الجلسة لا يصدررون حكماً بل يبدون رأيهم . أما شيخ الاسلام فهو حسين ولد زهرة المتقدم ذكره اول القضاة تلقى الفقه في مدرسة الجامع الازهر وهو أعلم أهل السودان كافة مع الميل الى العدالة وكثيراً ما أصدر أحكاماً تنطبق على مقتضى الشريعة الغراء وتخالف ارادة التعايشي فاصبح التعايشي غير راض عنه تمام الرضى ولما يدعوه لحضور الجلسات وأساس الاحكام عندهم الشريعة الاسلامية وتعاليم المهدي التي أشرنا اليها في كلامنا عن أوصاف المهدي وتعاليمه ويزعمون ان هذه التعاليم إنما وضعها المهدي لاهياء ما كاد يندثر من احكام الشريعة الغراء بالاهمال . وأهم تلك التعاليم الاعتقاد بأن محمد احمد هو المهدي المنتظر حقيقة ومن شك في ذلك فمقا به القتل

وواجبات قاضي الملازمين الحكم فيما يعرض بين الملازمين أو بينهم وبين عامة الناس وفي الحالة الثانية فالحق دائماً في جانب الملازمين . وهناك قاضيان ملحقان ببيت المال ينظران في القضايا المتعلقة بالاحكام الشرعية من جهة بيع الرقيق وشرائه . وعندهم قاض يقيم في السوق ليحكم في الامور الطفيفة التي تعرض هناك

فتح أم درمان وذهاب دولة الدراويش

تلك حال حكومة الدراويش سنة ١٨٩٦ ثم توالى عليها النجس وجندت الحكومتان المصرية والانكليزية لغهرها بحملة مختلطة من الانكليز والمصريين بقيادة السردار كتشر باشا وجرت في أثناء الطريق من حلفا الى الخرطوم وقائع قاسى فيها الجند مشاق عديدة من حملتها واقعة الاتربة وفيها قبضوا على الامير محمود ابن عم

التعايشي وقيد أسيراً كما ترى في الشكل ١٠٧ مع نحو ٢٠٠٠ من رجاله وما كان معهم من الغنائم . واستعد السردار من هناك للزحف على أم درمان وبلغ التعايشي ذلك فجمع ذوي شوره فأشار عليه بعضهم بالهجرة فغضب وأمر بضرب ذلك الناصح وقال « اني محارب حتى اقتل » وأمر بالتحصين وبناء الطوابي لاتقاء زيران مدافع العدو التي ستطلق عليهم من النيل . ولم يجده ذلك نفعا فان الجنود المتحدة وصلت أم درمان في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وخرج التعايشي لملاقاتها



ش ١٠٦ : كتشر باشا بعد فتح أم درمان

وبعد ثلاث هجمات متوالية اضطر التعايشي للفرار بعد أن يئس من الفوز وتفق ان أخاه يعقوب قد مات . واحتل الجند المتحد أم درمان ورفعوا عليها الرايتين المصرية والانكليزية ولما علم السردار بفراره بعث في أثره كوكبة من السواري ومعهم سلاتين باشا برّاً وأرسل مدرعتين بحراً فعادوا ولم يدركوه

وفي اليوم التالي استولوا على أوراق الخليفة وكتبه من يته . وأمر السردار

بنسف قبة المهدي ونش قبره وبعثت الجمجمة الى معرض التحف في لندن وبعثت سائر عظامه . ثم قصدوا بيت يعقوب أخى الخليفة وكانوا يظنون المال فيه فلم يجدوا شيئاً وتحققوا بعدئذ ان بعض رجال يعقوب لما تحققوا موته اتوا وخلصوا الابواب وأخذوا الاموال . ثم ذهبوا الى بيت المال فلم يجدوا فيه ما يستحق الذكر إلا ٢٠٠



ش ١٠٧ : الامير محمود ابن عم التعايشي وهو اسير

قطار عاج . ثم ذهبوا الى سجن الخليفة واطلقوا من كان فيه من المساجين وكلهم من موظفي الحكومة وعددهم نحو ١٤٠٠ رجل بين ملكي وعسكري وبعد قليل نزل السردار كتش باشا الى مصر ونال على هذا الفتح مكافأة جزية وسمي لورد الخرطوم ورفي الكولونيل ونجت بك مدير قلم الخبايا الى رتبة لواء وسمي ادجوتانت جنرال للجيش المصري . وحاولوا القبض على التعايشي عبثاً وكانوا

كلاً طلبوه من مكان فرّ الى سواه حتى علم ونجت باشا في أواخر سنة ١٨٩٩ ان التعايشي يتحضر للهجوم على أم درمان وعلم بمكانه فحمل عليه وحاربه في جديد حتى قتل في ٢٤ نوفمبر من تلك السنة وقتل معه الخليفة علي ود حلو واحمد فضيل والسنوسي احمد اخو الخليفة من أمه وهارون محمد أخوه وغيرهم وغنموا ما كان معهم من الذخيرة والاموال وانقضت بذلك دولة الدراويش

وصارت السودان من ذلك الحين تحت سيطرة الدولتين الانكليزية والمصرية وسندكر نص الوقا في كلامنا عن ولاية سمو الخديوي عباس الثاني

عود الى ولاية توفيق باشا

قد فرغنا من الكلام على الحوادث السودانية الى آخرها وان تجاوزنا زمن الخديوي توفيق باشا رغبة في ترابط الحوادث . فأنعد الى ما كان من أحوال مصر بعدما ذكرناه على أثر الحوادث العراقية ونفي العراقيين فقول :

أول شيء بشرته انكلترا بعد قهر العراقيين واعادة السيادة الى الجناح الخديوي انها انقضت اللورد دوفرين معتمداً من قبلها لتسوية المسائل المصرية وتنظيم تقرير بشأنها ولم يكن ذلك برضا الباب العالي . وأخذ اللورد دوفرين منذ وصوله الى القاهرة يجتمع بالخديوي والوزراء ويتداول معهم في المسائل التي يجب النظر فيها بعد أن درس أحوال البلاد وبحت بنفسه عن الامور التي كان عازماً على وضعها . ثم حرر تقريره المشهور وأرسله الى لندن في ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ م بحث فيه بحثاً دقيقاً في حالة مصر السياسية والقضائية والمالية ودقق على الخصوص بديون الفلاحين . ثم شرع الانكليز في الغاء المراقبة الانكليزية الفرنسية للافراد بالعمل فكبر ذلك على فرنسا ولكنها لم تستطع أمراً يمنع الغاءها فالفيت وجعل في مكانها بأمر الحضرة الخديوية موظف مصري دعوه مستشاراً مالياً وله الحق أن يحضر في جلسات مجلس النظر فتعين السير اوكلاند كولفن في هذا المنصب

اصلاحات جديدة

وفي أول مايو سنة ١٨٨٣ صدر الامر العالي بتشكيل المجالس الجديدة وغيرها على هذه الصورة :

١ مجالس المديرية : مجلس في كل مديرية ويكون لها أن تقرر رسوماً فوق

العادة لصرفها في منافع عمومية تتعلق بالمديرية أمّا لا تكون قراراتها في هذا الشأن قطعية الا بعد تصديق الحكومة عليها

٢ مجلس شورى القوانين : وفائدته النظر في القوانين التي تسن حديثاً قبل نشرها ولا يجوز اصدار قانون أو امر يشتمل على لائحة ادارة عمومية ما لم يتقدم ابتداءً الى هذا المجلس لاخذ رأيه فيه . وان لم تعول الحكومة على رأيه فعليها ان تعلنه بالاسباب التي اوجبت ذلك أمّا لا يترتب على اعلانه هذه الاسباب جواز مناقشة فيها



ش ١٠٨ : اللورد دوفرين

٣ الجمعية العمومية : وهذه لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم على منقولات أو عقارات أو عوائد شخصية في القطر المصري إلا بعد مباحثة الجمعية العمومية في ذلك واقرارها عليه

٤ مجلس شورى الحكومة : صدر الامر بتشكيله وتأجيل بيان أعماله ثم شرعت الحكومة في تنظيم الجيش المصري الجديد بعد ما ألغت الجيش القديم على ما تقدم فانتخبت من الضباط من لم يكن له يد في الحوادث العاراية وأخذت بعد

ذلك في تنظيم الجندرمة والبوليس وجعلت السير افلن وود قائداً عاماً للجيش المصري وباكر باشا قائداً للجندرمة والبوليس فكان عدد الجندرمة ٢٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠ ماش . ثم تعين الجزال السير افلن وود سرداراً للجيش المصري ورئيساً لاركان حربه . فاختار لمساعدته عدداً من الضباط الانكليز جعلهم في اركان حربه وعهد اليهم قيادة الفرق لتعليمها الحركات العسكرية

ثم نظمت المجالس المحلية ووضع لها قوانين عادلة وتعين لها رجال يقضون على أزمته وقد انصرف اليها هم اللورد دوفرين فتشكلت لجنة تحت رئاسة نخري باشا لاتقاء اللاتقيين الذين يجب انتخابهم ليعهد اليهم بالعمل والادارة . واهم مجلس النظر في مسألة القضاة الاوربيين فقررت لجنة التعديل أن يكون في كل مجلس ابتدائي أوريان وفي الاستئنائي أربعة . وفي ٨ شعبان سنة ١٣٠٠ هـ (١٤ يونيو سنة ١٨٨٣ م) صدر الامر الحديوي بترتيب هذه الحاكم ولائحة قوانينها . ثم صدر الامر الحديوي بكل من القانون المدني والتجارة البرية والبحرية والمرافعات وتحقيق الجنايات

ثم أشارت انكلترا على مصر بعد تبديد جيش هيكس باشا باخلاء السودان . فقبلت ولم يقبل شريف باشا رئيس وزارتها فاستعفى وخلفه نوبار باشا في ٨ يناير سنة ١٨٨٤ وتكاثرت الاشاعات على أثر ذلك عن مقاصد انكلترا بمصر وكثر القيل والقال حتى بين رجال انكلترا انقسام . ثم عقد مؤتمر دولي في يونيو سنة ١٨٨٤ في لندن تحت رئاسة اللورد غرانفيل ناظر خارجية انكلترا للبحث في أمور كثيرة تتعلق بمصر فقرر تعديلات كثيرة انتهت بلا نتيجة فلا حاجة الى ذكرها

وفي ذي القعدة سنة ١٣٠١ هـ (اوائل سبتمبر سنة ١٨٨٤ م) وفد على القطر المصري اللورد نورثبروك معتمداً من انكلترا للنظر في المسألة المالية وأحوال الادارة الداخلية مستصحباً معه القاضي الهندي سميع الله خان بناءً على رغبة اللورد في انتخاب قاض مسلم يصحبه الى مصر ويكون شريكاً له في هذه المهمة فتحدث الناس كثيراً بسبب قدوم هذا المعتمد . أما هو فأخذ في ملاحظة ما أتى من أجله وطاف البلاد شمالاً وجنوباً . وبعد ان قضى أياماً طوالاً عاد الى بلاده وحرر تقريراً رفعه الى حكومته فلم يحز قبولا فنسجت عليه عنكب الذنبيان

وعاد الباب العالي الى الاحتجاج على الاحتلال الانكليزي وبعد المخاطرة مع انكلترا تم الاتفاق في اكتوبر سنة ١٨٨٥ م على ارسال مختار باشا الغازي معتمداً عن الدولة العلية في مصر وان ترسل انكلترا معه معتمداً اسمه السير وولف ، فجاء مختار



ش ١٠٩ : مختار باشا الغازي

باشا وما زال مقيماً الى عهد قريب احتجاجاً حياً على الاحتلال الانكليزي

النقود المصرية الجديدة

ثم اهتمت الحكومة باصلاح نقودها بانشاء نقود جديدة وما زالت المسألة تحت البحث الى اواخر سنة ١٨٨٥ م فصدر أمر عال بتاريخ ٧ صفر سنة ١٣٠٣ هـ أو ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٥ م مؤذن بضررها . وفي اواخر سنة ١٨٨٧ م ظهرت وتداولتها الايدي وهي مبنية على حساب السكور العشرة تسهيلاً للمعاملة . وكيفية ذلك انهم جعلوا قيمة الجنيه المصري مائة قرش كما كان قبلاً وقسموه الى الف جزء دعوا الواحد منها ملياً أي جزء من الف . فالمليم هو جزء من الف من الجنيه المصري والقرش عشرة مليات والريال مائتا مليم (عشرون قرشاً) وهكذا . والجنيه وأجزاؤه مصنوعة من الذهب والريالات وأجزاؤها من الفضة والمليم ومركباته الى أبي العشر مليات من النيكل . وقسموا المليم الى نصفين يعرف الواحد منهما بنصف عشر القرش وقسموا كلا من هذين القسمين الى نصفين يعرف الواحد منهما بربع عشر القرش

أي جزء من أربعين من القرش وهي البارة وجميع أجزاء المليم مصنوعة من النحاس وترى في شكل ١١٠ مثال النقود المضروبة حديثاً وهذه القطعة تعرف بنصف ريال وقيمتها عشرة قروش أو مائة مليم . وترى على أحد وجهيها من الاسفل تاريخ سنة ١٢٩٣ هـ وهي السنة التي تولى بها السلطان عبد الحميد الخلافة العثمانية . ومن الاعلى رقم عشرة وهي السنة العاشرة من توليته وفيها ضربت هذه النقود . وترى على الوجه الآخر الطغراء العثمانية باسم عبد الحميد والى أسفلها رقم عشرة تحت حرف ش للدلالة على قيمة هذه القطعة أي عشرة قروش



ش ١١٠ : النقود المصرية الجديدة

أما قيم النقود الاجنبية بالنسبة للنقود المصرية فعلى الوجه الآتي :

اليرة الانكليزية تساوي	بارة	قروش صاغ	أو ملياً
» العثمانية »	٢٠	٩٧	٩٧٥
» الفرنسية (فاني)	٠٦	٧٧	٧٧١ ١/٢

ومتى عرفت قيم الليرات يمكنك استخراج قيم اجزائها وفي السنة التالية (١٥ ابريل سنة ١٨٨٦) قررت الحكومة المصرية اقضاء ضرائب المنازل من الاجانب كما كانت تقتضيها من الوطنيين . وكان الاجانب معفين منها الى ذلك الحين

وهو شأن الجلاء

وفي ١٧ ربيع آخر سنة ١٣٠٤ هـ أو ١٣ يناير سنة ١٨٨٧ م الخ الباب العالي على الحكومة الانكليزية أن تعين زمن انجلاء جيوشها عن القطر المصري . فأجابت أنها لا يمكنها ذلك إلا متى استتب النظام فيها . وفي ٣ فبراير تقرر أن يكون جيش الاحتلال منحصراً في ثلاثة مراكز فيقيم في القاهرة ٢٩٠٠ جندي وفي الاسكندرية

٩٠٠ وفي اصوان ٤٠٠٠ وفي ١٥ جمادى الاولى أو ٩ فبراير اقترح السير وولف معتمد انكلترا في الاستانة على الباب العالي الاقتراحات الآتية بما يتعلق بمصر وهي :

- ١ استقلال مصر تحت سيادة جلالة السلطان والغاء العهود والامتيازات القنصلية
 - ٢ ان تكون بحالة مصر من قبيل الحياد على مثال حالة بلجيكا
 - ٣ حرية المرور في قناة السويس في زمني الحرب والسلم
 - ٤ اخلاء انكلترا للقطر المصري بعد ان يجمع الدول على وجوب ذلك
- فتلقى جلالة السلطان هذه الاقتراحات بفقر وطلب أن يتقدم كل ذلك تحديد انكلترا زمن الجلاء . وبعد النظر في هذه الاقتراحات مدة يومين رفضت وفي ٢٥ رجب سنة ١٣٠٤ هـ أو ١٩ ابريل سنة ١٨٨٢ م توفي شريف باشا رئيس مجلس النظار سابقاً وهو في أوروبا يسعى في ترويح النفس فاسف الجميع على فقده وحملت جثته الى مصر ودفنت فيها
- وفي ١١ شعبان أو ٥ مايو منها عرضت انكلترا على الباب العالي أن يكون زمن احتلالها لمصر خمس سنوات فطلب الباب العالي أن يكون ثلاث سنوات ولم يقرر شيء . وفي أوائل يونيو عرض على الباب العالي وفاق بينه وبين انكلترا بشأن مصر وهالك نصه :

- ١ تبقى مصر كما هي حسب نصوص فرمانات السلطانية
- ٢ يبقى خليج السويس على الحياد وتضمن الدول سلامة مصر
- ٣ تبقى العساكر الانكليزية في مصر مدة ٣ سنوات وعند انقضائها يلبث الضباط الانكليز في رئاسة الجيش المصري سنتين
- ٤ لا تخرج انكلترا عساكرها من مصر بعد ختام السنة الثالثة من التوقيع على الوفاق اذا حدث اضطراب جديد في مصر داخلياً أم خارجياً
- ٥ يحق لانكلترا احتلال مصر بمساعدة العساكر العثمانية اذا وقع احتلال بها أو خشي ان ترسل دولة أجنبية عساكرها الى مصر
- ٦ تستدعي الدولة العلية وانكلترا بقية الدول للتصديق على هذا الوفاق وتطلبان من الدولة اجراء بعض التعديلات في المعاهدات الدولية المحولة للاجانب في مصر جملة امتيازات

وبعد المحادثات الطويلة بشأن هذا الوفاق رفض الباب العالي المصادقة عليه وفي ٩ يونيو سنة ١٨٨٨ سقطت الوزارة النوبارية وعهد الخديوي بتشكيل وزارة

جديدة الى رياض باشا والناس ما فتئوا منذ اعتزال رياض باشا الاعمال بعد حادثة عرابي يشخصون اليه ببصارهم وقد أحاطت به آمالهم لما اشتهر به من الحب للشعب المصري ورغبته في اصلاح البلاد ولما له من الولع الخاص بالزراعة وهو مشهور بذلك شهرة تضاهي شهرته في حب العلم وتنشيط ذويه . ومن مبادئه حرية الضمير والصرامة في اتباع الحق من حيث هو . وكثيراً ما قاده ذلك الى التنجي عن قبول منصب الوزارة في الاحوال التي كان يخشى معها تقييد أفكاره ومخالفة مبادئه . فعندما سقطت الوزارة النوبارية لم يكن الناس يصدقون أن رياض باشا يقبل أن يشكل وزارة جديدة . فلما أنبأهم البرق بجلوسه على دسها وتقلده أعمال نظارتي الداخلية والمالية كادوا يطرون على أجنحة الآمال وتطاوت أعناقهم استطلاعاً لما سيكون من أمر هذه الوزارة الجديدة

وفي أيام وزارته أنشئت الخاكم في الصعيد وتم ترميم القناطر الخيرية . وقد ادار شؤون الحكومة بحزم وصدق نية لكنه اغضب كثيرين واضطر الى الاستقالة في ٢٤ مايو سنة ١٨٩١ خلفه مصطفى باشا فهمي وظلت مقاييد الوزارة في قبضته حتى تولى الخديوي

عباس باشا حامي

الخديوي السابق

ولد سنة ١٨٧٤ وتولى العرش الخديوي سنة ١٨٩٢

حياته الشخصية

هو بكر الخديوي الاسبق وُلد في ١٤ يوليو سنة ١٨٧٤ ولما توفي والده سنة ١٨٩٢ كان سموه أعزه الله في مدرسة فينا . وكان قبل ذهابه اليها قد تنقف في مدرسة عابدين التي شادها والده له ولدولة شقيقه البرنس محمد علي . فلما أتما دروسها فيها أرسلها والدها الى مدرسة جنيف بسويسرة فمكث فيها مدة يجدان في تحصيل العلوم . ثم برحها الى فينا وانتظا في مدرستها الملوكة العليا . وفي أثناء اقامتها في تلك المدرسة استأذنا والدها المرحوم بالتجول في أنحاء أوروبا لاستطلاع أحوال تلك المدنية من مصادرها . فزارا المانيا وانكلترا وروسيا وايطاليا وفرنسا ولقيا من ملوك هذه الممالك رحاباً حسناً وزارا الممالك الاخرى

وفي سنة ١٨٨٩ عادا الى مصر واستأذنا والدها المرحوم في زيارة معرض باريس لذلك العام فأجابهما الى ذلك فلقيا هناك رحاباً جميلاً وعادا الى المدرسة . وفي سنة

١٨٩١ عاد إلى مصر في أثناء راحة المدرسة ثم رجعا إلى المدرسة في فينا . وفي ٨ يناير من السنة التالية عام ١٨٩٢ جاءها النبأ البرقي بوفاة الخديوي الأسبق فاصبح سمو أكبرها مولانا الأمير خديوياً على مصر من ذلك اليوم . ثم جاءت رسالة الصدر الأعظم بتعيينه على ذلك العرش فأسرع إلى مقر حكومته فوصل الإسكندرية في ١٦ يناير المذكور فاحتفل القطر بقدمه احتفالاً يليق بمقامه



ش ١١١ : عباس باشا حلمي الخديوي السابق

واشتهر سمو الخديوي بانعطاف المصريين إليه أكثر مما إلى كل خديو سواه لما يلاقونه من دعته ولطفه وصدق محبته لهم . ويمتاز عصره عن عصور سائر أسلافه بهضة الأقاليم واتساع نطاق الحكومة وإطلاق حرية المطبوعات وتكاثر المطابع والجرائد والمجلات والمكاتب وسائر عوامل النهضة العلمية

وهو أوسع الخديويين اطلاعاً على أسباب المدنية الحديثة لأنه تنقف في مدارس أوروبا مع كثرة أسفاره إليها وإلى الأستانة . ولد ولي عهد البرنس محمد عبد المنعم

في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٩ وقد عهد بتعليمه وتثقيفه إلى شكري باشا وهو من أحسن العارفين بما يقتضيه منصب أمير مصر من الأصول والقواعد التي يجب أن يروض بها ولي العهد

وقد سافر سموه إلى الحرمين سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩) لقضاء فريضة الحج فبرح موكبه القاهرة في ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٢٧ (١١ ديسمبر سنة ١٩٠٩) فوصل جدة في ١٤ ديسمبر وحلت ركابه في مكة فزار مناسك الحج وأدى فرائضه وكان موضوع الاحترام والاعجاب حيثما حل ثم يم المدينة فادى الزيارة وبرحها في ١٥ يناير سنة ١٩١٠ فوصل مصر في ٢٥ منه فزينت له العاصمة زينة لم يسبق لها مثيل

الوزارات في أيامه

وقد تقلب في أيام سموه وزراء هذه أسماء رؤسائها وتاريخ تشكيلها :

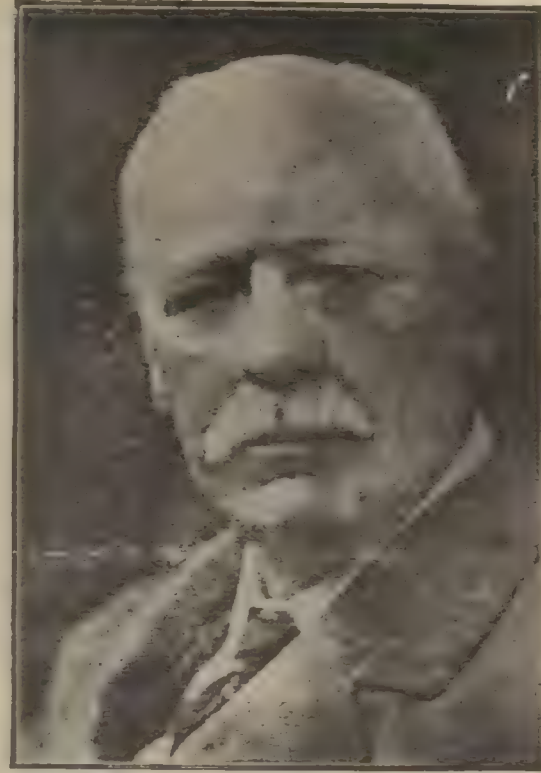
وزارة مصطفى باشا فهمي تشكلت	في ١٤ مايو سنة ١٨٩١
» رياض باشا »	» ١٨ يناير » ١٨٩٣
وزارة نوبار باشا تشكلت	في ١٤ أبريل سنة ١٨٩٤
» مصطفى باشا فهمي »	» ١١ نوفمبر » ١٨٩٥
» بطرس باشا غالي »	» ١٠ » » ١٩٠٨ (١)
» محمد سعيد باشا »	» ٢١ فبراير » ١٩١٠

وكل ما أجرته حكومة مصر على عهد الجنب الخديوي إنما جرى على أيدي وزرائه شأن الحكومات الدستورية الكبرى مع ما تقتضيه حالة مصر السياسية من قبول مشورة المحتلين بلسان عميدهم . وكان العميد في أول حكم سمو الخديوي اللورد كرومر

وما زال اللورد كرومر في هذا المنصب إلى ٦ مايو سنة ١٩٠٧ فأبدلته أنكلترا بالسير الدون غورست . وفي زمن اللورد كرومر تمكن نفوذ الانكليز في مصر وكثر نوابهم في الحكومة المصرية وهم المستشارون . ولا تخلو نظارة من مستشار أو وكيل فضلاً عن المفتشين والمهندسين والقضاة ورؤساء المصالح ومديريها وغيرهم . فاعمال الحكومة المصرية يجرىها الوزراء باسم الجنب الخديوي وبمصادقة سموه ومشورة

(١) يمتاز تاريخ بطرس باشا غالي عن تواريخ سائر وزراء مصر أنه مات مقتولاً عمداً بيد شاب اسمه ابراهيم الورداني تربس له وهو خارج من النظارة في رابطة النهار وأطلق عليه عدة رصاصات مات على أثرها ثم حوكم القاتل وقتل

الانكليز. وتسهيلاً لتفهم الاعمال التي تمت على عهد سموه نقسمها الى أبواب نبحث في كل منها على حدة فنقول :



ش ١١٢ : المورد كرومر

١ - الاعمال السياسية

نريد بهذا الباب ذكر ما جرى في زمن الجنب الخديوي مما يتعلق بالدول الاخرى وليس هو من قبيل ادارة البلاد الداخلية . وأول تلك الاعمال تحديد تخوم مصر في فرمان الشاهاني . فقد صدر فرمان المذكور في ٢٧ شعبان سنة ١٣٠٩ أو ٢٦ مارس ١٨٩٢ وفيه اختلاف عن فرمان الصادر للرحوم توفيق الخديوي الاسبق من حيث حدود مصر الشرقية عند شبه جزيرة سيناء . فدارت الجارات بين وزارة خارجية انكلترا والباب العالي بهذا الشأن حتى أصدر الصدر الاعظم ملحقاً تلغرافياً يخول الحكومة المصرية فيه ادارة شبه جزيرة سيناء مؤرخاً في ٨ ابريل من تلك السنة . وهذا نص فرمان المذكور بعد المقدمة

فرمان الخديوي السابق

« وانه لدى وصول توقعنا الهايوني الرفيع يكون معلوماً لكم أنه بناء على ما قضى به الله من انتقال جنتم كان محمد توفيق باشا خديوي مصر الى رحته تعالى واعلاماً بجليل التفاتنا ونظراً الى احسن خدامتكم وصدائقكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من ان لكم وقوفاً ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفء لاصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية الحدودة بالحدود القديمة المينة في فرمان الشاهاني الصادر بتاريخ ٢ ربيع الثاني سنة ١٢٥٧ هـ والمينة أيضاً في الخريطة الملحقة بالفرمان المذكور مع الاراضي المنضمة اليها طبقاً للفرمان الشاهاني الصادر بتاريخ ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٨١ هـ وذلك بمقتضى ارادتنا الشاهانية الصادر في ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ هـ ولانكم اكبر اولاد جنتم كان الخديوي المتوفى وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية توفيقاً للقاعدة المقررة بالفرمان الشاهاني الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ القاضي بأن الخديوية المصرية تؤول الى اكبر الاولاد البكر فالبكر

« ولما كان زايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة اهليها ورقاهتهم هي من المواد المهمة لدينا . ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا كنا وجهنا فرماناً شاهانياً لتحقيق هذه الغاية الحميدة بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ الى جنتم كان والدكم بتوليته الخديوية المصرية وضمناه المواد الآتية :

« ان جميع ايرادات الخديوية المصرية يكون تحصيلها واستيفائها باسمنا الشاهاني وحيث ان اهالي مصر أيضاً من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة أمور المملكة الملكية والمالية والعديلية بشرط أن لا يقع في حقهم أدنى ظلم ولا تعدر في وقت من الاوقات . خديوي مصر يكون مأذوناً بوضع النظمات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وأيضاً يكون خديوي مصر مأذوناً بعقد وتجديد المشارطات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لاجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب أو الاهالي والاجانب مع امور ضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية البولييتيقية وفي حقوق متبوعية مصر لها ولكن قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة بصير تقديمها الى بابنا العالي . وأيضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة في أمور المالية لكنه

لا يكون مأذوناً بعقد استقراض بوجه من الوجوه . وأما يكون مأذوناً بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسمياً وهذا الاستقراض يكون منحصراً في تسوية أحوال المالية الحاضرة وخصوصاً بها . وحيث أن الامتيازات التي أعطيت لمصر هي جزء من حقوق دولتنا العلمية الطبيعية التي خصت بها الخديوية وأودعت لديها فلا يجوز لأي سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الأراضي المصرية للغير مطلقاً ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية الذي هو الوريث المقرر دفعه في كل سنة في أوانه . وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر ألفاً لأن هذا القدر كاف لحفظ أمانة بلاد مصر الداخلية في وقت الصلح . ولكن حيث أن قوة مصر البرية والبحرية مرتبة كذلك من أجل دولتنا يجوز أن يزداد مقدار العساكر بالصورة التي تستدعي فيها حالة دولتنا العلمية محاربة وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم . ويباح لخديو مصر أن يعطي الضباط البرية والبحرية إلى غاية رتبة أميرالاي والملكية إلى الرتبة الثانية . ولا يرخص لخديوي مصر أن ينشئ سفناً مدرعة إلا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية إليه من دولتنا العلمية . ومن اللزوم المحافظة على كل الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية بأجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمراً هذا الجليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهايوني وأرسلناه »

« تخرجاً في ٢٧ شعبان سنة ١٣٠٩ من هجرة صاحب العزة والشرف »

وهذا تلعراف الصدر الاعظم المتم له :

« معلوم لدى جنابكم العالي أن جلالة مولانا السلطان الاعظم كان قد صرح للحكومة المصرية بوضع عدد كاف من الجند بمجهاث الوجه والمويلح وطابا والعقبة الواقعة على شواطئ الحجاز . وكذلك في بعض جهات من شبه جزيرة طور سيناء بسبب مرور الحمل المصري من طريق البر »

« ولما كانت جميع هذه الجهات غير مهيئة أصلاً في خريطة سنة ١٢٥٧ هـ المسماة إلى جنتم كان محمد علي باشا المدينة بها الحدود المصرية لذلك أعيد الوجه أخيراً إلى ولاية الحجاز بمقتضى ارادة شاهانية كما أعيد إليها طابا والمويلح وضمت العقبة كذلك الآن إلى الولاية المذكورة . أما من جهة شبه جزيرة طور سيناء فهي باقية على حالتها وتكون

ادارتها بمعرفة الخديوية المصرية بالكيفية التي كانت مدارة بها في عهد جدكم اسماعيل باشا ووالدكم محمد توفيق باشا » اهـ

حدود مصر من الشرق

ثم وقع خلاف في أواخر سنة ١٩٠٦ على تلك الحدود الفاصلة بين مصر والشام وبعد مداوولات طويلة بين مصر والباب العالي اتفق الجانبان على تعيين لجنة يتنقدها الباب العالي وأخرى تتنقدها مصر . وقد انتخبت اللجنتان واجتمعتا على الحدود وأقرتا على اتفاقية رسمية مؤرخة في أول أكتوبر سنة ١٩٠٦ وهذا نص موادها المتعلقة بالحدود وصورة الخريطة التي رسمت لايضاح ذلك :

المادة الاولى — يبدأ الخط الفاصل الإداري كما هو مبين بالخريطة المرفقة بهذه الاتفاقية من نقطة رأس طابا الكائنة على الساحل الغربي لخليج العقبة ويمتد إلى قمة جبل فورت ماراً على رؤوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادي طابا ثم من قمة جبل فورت يتجه الخط الفاصل بالاستقامات الآتية — من جبل فورت إلى نقطة لا تتجاوز مائتي متر إلى الشرق من قمة جبل فتحي باشا ومنها إلى النقطة الحادثة من تلاقي امتداد هذا الخط بالعمود المقام من نقطة على مائتي متر من قمة جبل فتحي باشا على الخط الذي يربط مركز تلك القمة بنقطة الفرق (الفرق هو ملتقى طريق غزة إلى العقبة بطريق نخل إلى العقبة) ومن نقطة التلاقي المذكورة إلى النلة التي إلى الشرق من مكان ماء يعرف بتيملة الرادادي والمطلة على التيملة (بحيث تبقى التيملة غربي الخط) — ومن هناك — إلى قمة رأس الرادادي المدلول عليها بالخريطة المذكورة أعلاه بـ ٣ أ — ومن هناك إلى رأس جبل الصفرة المدلول عليه بـ ٤ أ — ومن هناك إلى رأس القمة الشرقية لجبل ام قف المدلول عليها بـ ٥ أ — ومن هناك إلى نقطة مدلول عليها بـ ٧ أ إلى الشمال من تيملة سويله ومنها إلى نقطة مدلول عليها بـ ٨ أ إلى غرب الشمال الغربي من جبل سهاوي — ومن هناك إلى قمة التلة التي إلى غرب الشمال الغربي من بئر المغارة (وهو بئر في الفرع الشمالي من وادي مابين بحيث تكون البئر شرقي الخط الفاصل) — ومن هناك إلى ٩ أ — ومنها إلى ١٠ غرب جبل المقرأة — ومن هناك إلى رأس العين المدلول عليه بـ ١١ أ — ومن هناك إلى نقطة جبل ام حواويط مدلول عليها بـ ١٢ أ — ومن هناك إلى منتصف المسافة بين عامودين قائمين تحت شجرة على مسافة ثلثائة وتسعين متراً إلى الجنوب الغربي من بئر رفح والمدلول عليه بـ ١٣ أ — ومن هناك إلى نقطة التلال الرملية في اتجاه مائتين وثمانين درجة (٢٨٠) من الشمال

ثالثاً الأراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً

٢ - يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معاً في البر والبحر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصري فقط
٣ - تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بامر عال خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته الا بامر عال خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية
٤ - القوانين وكافة الاوامر واللوائح التي يكون لها قوة القانون المعمول به والتي من شأنها تحديد ادارة حكومة السودان او تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية ايلوتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحريرها أو نسخها من وقت الى آخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز ان يسري مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه ويجوز ان يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحوير أو نسخ اي قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل الى وكيل وقصل جنرال الحكومة البريطانية بالاهرة والى رئيس مجلس نظار الجنب العالي الخديوي

٥ - لا يسري على السودان أو على جزء منه شيء ما من القوانين أو الاوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً الا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

٦ - ان المنشور الذي يصدره حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للأوربيين من أية جنسية كانت بحرية التجارة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول

٧ - لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضي المصرية حين دخولها الى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضي المصرية. الا أنه في حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن أو أي ميناء آخر من موانئ ساحل البحر الاحمر لا يجوز ان يزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج. ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التي تخرج

من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت الى آخر بالمشورات التي يصدرها بهذا الشأن

٨ - فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة الحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه

٩ - يعتبر السودان باجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

١٠ - لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصلات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

١١ - ممنوع منعاً مطلقاً ادخال الرقيق الى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشور بالاجراءات اللازمة اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

١٢ - قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة القارية والذخائر الحربية والاشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها « اه

تحريراً بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

(الامضاءات) « كرومر » « بطرس غالي »

وشرف سمو الخديوي السودان سنة ١٩٠٢ وزار الخرطوم فتقبل بالاحتفاء والاعظام وتلا في سراي الخرطوم خطاباً بمعنى الرضى عن حالة السودان - ويرى القارىء في الصفحة التالية رسم سموه وهو يتلو الخطاب
الوفيق الانكليزي الفرنسي

ومما يعد من قبيل الاعمال السياسية بمصر الاتفاق الذي عقد بين انكلترا وفرنسا في ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ فهو ذو شأن في سياسة مصر لان فرنسا اعترفت فيه باحتلال انكلترا مصر واطلقت يدها فيها وهذا نص الفقرة المتعلقة بذلك من الاتفاق المذكور: « تصرح حكومة جلالة الملك (انكلترا) أنها لا تنوي تغيير حالة مصر السياسية. وتصرح حكومة الجمهورية الفرنسية أنها لا تعيق عمل بريطانيا العظمى في مصر بطلب تحديد زمن الاحتلال أو بأي أسلوب آخر »

٢ - الأعمال الادارية

يصعب تحديد ما جرى من الاصلاحات الادارية في عهد الجنب الخديوي ولكن

يقال بالاجمال ان معظم ماتم في زمن الاحتلال من الاصلاحات تم في عهد سموه . استهلت حكومته أعزه الله بالغاء السخرة وكانت الخبارات جارية بشأنها من قبل وقد



١١٤ : اجناب الحديوي يتلو خطابه امام سراي الخياطون

صدرت عدة أوامر عالية تتعلق بها حتى صدر الامر القاضي عليها في ٢٨ يناير سنة ١٨٩٢ وقد صدر بهذه المادة :

« تلغى السخرة في كامل أنحاء القطر المصري »

وصدر أمر سموه في هذا التاريخ بالغاء الضرائب التي كانت قد وضعت على الصنائع وفي أيام سموه التي انشأ البوليس الذي كان متبعاً في زمن الحديوي الاسبق بأمر عال صدر في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٤ ووضع النظام الحالي بناءً على لائحة رفعها المرحوم نوبار باشا . وفي ظل سموه عدلت الضرائب بأمر عال صدر في ١٠ مايو سنة ١٨٩٩ وفي أيامه ألغيت الضرائب التي كانت على السفن المسافرة في النيل بأمر عال مؤرخ في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٠ وألغيت الدخولية وهي الضرائب التي كانت الحكومة تتقاضاها على الخضار والفاكهة ونحوهما مما يدخل المدن فالغيت من أول سنة ١٩٠٣ والتي احتكار الملح في أول سنة ١٩٠٦ وفي عهد سموه صفيت حسابات الدائرة السنوية ويعدت البواخر الحديوية

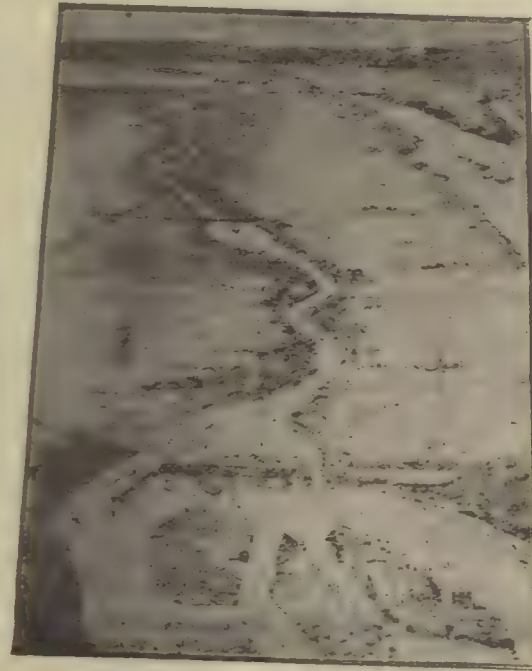
ومن الامور الادارية التي تمت في عهد سموه التي الاداري الذي قرره الحكومة من عهد غير بعيد وقد أفاد كثيراً

٣ - الاعمال الزراعية

ان الاعمال الزراعية التي شرعت بها الحكومة المصرية على يد مصلحة الري من أوائل عهد الاحتلال لم تظهر ثمارها إلا في عهد الجناب العالي فبعد أن كانت مساحة الاطيان الزراعية أقل من خمسة ملايين فدان ناهزت سبعة ملايين . وكانت البقاع التي تزرع قطناً عند ولاية سموه نحو ٩٠٠٠٠٠ فدان فصارت نحو ١٥٠٠٠٠٠ فدان . وكانت غلة القطن سنة ١٨٩١ نحو ٦٠٠٠٠٠٠ قنطار فصارت في العام الماضي نحو سبعة ملايين قنطار . وأخذت تتحول ملكية الارض الى الفلاحين وكان عدد مالكي الاطيان في أول ولاية سموه نحو ٧٥٠٠٠٠ انسان فأصبح عددهم ١٣٥٦٠٠٠ نفس . ولا يخفى ما يدل عليه ذلك من توزيع الثروة بين الناس . وفي أيامه انشئت مدرسة الزراعة وصارت هذه الصناعة تعلم قانونياً . وانشئت المعارض الزراعية وتألفت الشركات الزراعية والبنك الزراعي والنقابات الزراعية

ومن المشروعات الزراعية قناطر أسيوط وهي على ٢٥٩ ميلاً جنوب القاهرة تولت انشاءها للحكومة شركة السير جون ايرد وشركاه بدأت فيها في شتاء عام ١٩٠٢ وانتهت منه في ربيع سنة ١٩٠٨ وهي كالقناطر الخيرية شكلاً ولكنها غتاز عنها بأن القناطر الخيرية مبنية من القرميد وهذه من الحجر . طول قناطر أسيوط ٨٣٣ متراً وعددها ١١١ قنطرة عرض كل قنطرة خمسة أمتار عليها أبواب من الحديد . وعلو

القناطر من قاع النهر الى السطح ١٢ متراً ونصف متر وثخانتها عند القاعدة ٢٦ متراً ونصف متر وثخانتها عند السطح سبعة أمتار وثمانون سنتيمتراً . والغرض من هذه القناطر اصلاح الري مدار السنة في مصر الوسطى والقيوم لأنها اذا أقفلت أعاقت جري الماء فيرتفع نحو ثلاثة أمتار فوق ارتفاعه الاعتيادي فيزيد مساحة الاراضي الزراعية نحو ٣٠٠ ٠٠٠ فدان تروى من رعة الابراهيمية . ولقناطر أسبوط هويس لمرور السفن طوله ٨٠ متراً وعرضه ١٦ متراً



ش ١١٥ : قناطر أسبوط

تمثيل النيل وخزاناته من الجنوب الى الشمال ١ القناطر الخيرية في رأس الدلابة خزان أسبوط ج خزان اسوان د جزيرة فيلي وفيها خرائب أنس الوجود ه الهويس الذي تسير به السفن

أما خزان اسوان فهو أعظم مشروعات الري تولت انشاؤه الشركة المذكورة في اوائل سنة ١٨٩٩ واتمى في أواخر سنة ١٩٠٢ مواده من حجر الغرانيت والسمنت والحصى . وبلغ وزن ما كانوا ينجزون عمله في اليوم الواحد ٢٦٠٠ طن طوله ٢٠٠٠ متر ويمتد من الجبل الشرقي الى الجبل الغربي . وعلوه يختلف من ٢٠ متراً الى ٤٠ باختلاف عمق قاع النهر . وثخانتها عند قاعدته ٢٥ متراً وثخانة أعلاه أو هو عرضه



ش ١١٦ : خزان اسوان

من فوق ٧ أمتار . وفي جدار الخزان ١٨٠ فتحة هي نوافذ عليها الابواب من الحديد تختلف سعتها باختلاف مواضعها منها ١٤٠ نافذة مسطح الواحدة منها ١٤ متراً . وأربعمون نافذة مسطح الواحدة منها ٧ أمتار وقد وصفنا كيفية استخدامه في السنة ١١ من الهلال .

٤ - النهضة المالية

ان النهضة المالية التي حصلت في زمن سموه لم يسبق لها مثيل من عهد بعيد . فتكاثر الذهب وأثرى الناس وتوسعوا في أسباب العيش ولا سيما في أواسط العقد الاول من هذا القرن بارتفاع ثمن الارضين فتآلفت الشركات المالية العقارية والبنائية لاستثمار أرض البناء والاطيان الزراعية . ولولا تورط الناس في المضاربة لسهلت مصر من رد الفعل الذي أحدث الازمة المالية منذ بضع سنين . ومع ذلك فان ثمار النهضة المالية لا تزال باقية وهي ظاهرة في الحكومة وفي الامة وفي الاسواق التجارية وفي كل شيء كما يتضح ذلك من المقابلة

في زانية الحكومة المصرية كانت سنة ١٨٩٢ نحو عشرة ملايين جنيه فأصبحت الآن نحو ١٦ مليوناً . وكانت الواردات التجارية سنة ١٨٩٢ قيمتها أقل من عشرة ملايين جنيه فزادت في أثناء النهضة المالية على ٢٦ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه وبلغت في السنة الماضية نحو ٢٣ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه . وكانت الصادرات ١٣ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه فصارت نحو ٢٩ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه . وقد تكاثر انشاء بنوك الصيرفة وأهمها البنك الاهلي انشي سنة ١٨٩٨ ورأسماله ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه . والبنك الزراعي انشي سنة ١٩٠٢ ورأسماله خمسة ملايين جنيه وغيرهما

ومن دلائل الثروة تكاثر الابنية واتساع المدن . وهذه القاهرة قد تضاعفت مساحتها مراراً عما كانت عليه قبلاً حتى كادت تتصل بضواحيها . غير ما انشئ فيها باثناء هذه النهضة من الابنية الفخمة والقصور الباذخة . وعمرت الضواحي وانشئ بضواحيها بلد جديد لا مثيل له في سائر أقطار العالم نغني واحة عين شمس واستحدثت في أيام سموه بنك اقتصادي في مصلحة البوطة المصرية منذ بضع سنوات بلغ عدد الذين اودعوا نقودهم فيه الى آخر العام الماضي نيفاً و ٨٩٠٠٠ نفس وبلغ مقدار ما اودعوه ٣٥٧٠٠٠ جنيه استعانوا بها على أمورهم

٥ - النهضة العلمية والحركة الفكرية

ان الحركة العلمية التي حدثت بمصر في أثناء العشرين سنة الاخيرة ظاهرة كالشمس بما انشأته الحكومة أو ساعدت على انشائه من الكتاتيب والمدارس في أنحاء القطر أو بما أدخلته من التعديل في طرق التعليم وخصوصاً من حيث اللغة العربية . فقد كانت هذه اللغة يكاد يقضى عليها في المدارس المصرية فانتعشت الآمال باحيائها فاخذت الحكومة في ارجاع التدريس اليها وانبثت روح التعليم في أنحاء القطر وكثر الساعون في انشاء المدارس من أهل اليسار في الارياف - هذا من حيث المدارس الابتدائية أما التعليم العالي فاهم ما حدث منه في هذا العصر مدرسة القضاء الشرعي والجامعة المصرية وبذات العناية في تحسين حال الازهر وغيره من المدارس الكبرى غير عناية الحكومة بالمعاهد العلمية كالمتحف المصري والمتحف العربي ودار الكتب المصرية ومن آثار الجنب الخديوي في خدمة العلم والهيئة الاجتماعية عنايته في فن التمثيل فافقد شاباً (جورج افندي ايض) يتلقى هذا الفن على أربابه في فرنسا وقد عاد سنة ١٩١٠ ومعه جوق مثل عدة روايات في الاوبرا على سبيل التجربة . ولا تزال عناية سموه موجهة الى تنشيط هذا الفن واحيائه في اللغة العربية

وأكبر أدلة الحركة الفكرية ظهرت في الصحافة بما أطلقتها لها الحكومة من الحرية فتكاثر الجرائد والمجلات في أيام سموه وتشعبت مواضيعها وتألفت الاحزاب السياسية على اختلاف أغراضها ولكل منها جريدة أو غير جريدة تنطق بلسانه . وتألفت الشركات المالية لانشاء بعضها . وكبر حجمها وظهرت صفتها الوطنية وتنوعت مواضيعها وتألفت لها نقابة صحافية . ويقال بالاجمال ان الصحافة المصرية بلغت في هذا

(١) تجد مقالة ضافية في تاريخ النهضة الصحافية في الهلال سنة ١٨ صفحة ٤٨٣

العصر أرقى ما بلغت اليه في سائر الاعصر^(١) بما صارت اليه من التأثير في الامة والحكومة . وقد رأيت ان الحكومة المصرية كانت قد قيدت الصحافة بقانون انشأته سنة ١٨٨١ عرف بقانون المطبوعات فهذا القانون أخذت الحكومة في اهماله رويداً رويداً بعد الاحتيال وأصبح في عهد الجنب الخديوي عباس في حكم الملغى عرناً . فرأت الحكومة بالعام الماضي (سنة ١٩١٠) أن تقيّد المطبوعات لاسباب اقتضت ذلك فوضعت قانوناً جديداً هو تعديل القانون القديم

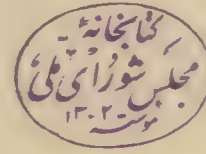
ومن آثار الحركة العلمية أيضاً انشاء الجمعيات الادبية والعلمية وتأسيس الاذنية والاجتامة وأهمها نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في القاهرة . ولا يكاد يخلو بلد من البلاد الكبرى من ناد أو جمعية على اختلاف مواضيعها واتفق في اماره سمو الخديوي اضطراب أحوال المملكة العثمانية والتمالب بين السلطان عبد الحميد وأحرار مملكته . فكانت مصر مأجاً الفارين من الظلم أو الطالين للرزق من سائر الامم .

ومن قبيل الحركة الفكرية في هذا العصر قيام نخبة من أدباء الشبان المسلمين للاصلاح الديني وزعيمهم المرحوم الشيخ محمد عبده المصري المتوفى سنة ١٩٠٥



ش ١١٧ : الشيخ محمد عبده

ومن هذا القليل جنوح الناس الى الحكم الدستوري وارتفاع صوت الصحافة في طلب الدستور وتوسيع اختصاص الشورى وزاد تألف الجمعيات الخيرية في زمن سموه وانتظمت نظارة الاوقاف وانصرفت عنايتها الى حفظ الآثار وترميم المساجد وبناء المعابد والمستشفيات الخيرية آخرها المستشفى العباسي . وتضاعفت نفقات الاوقاف الخيرية على المبرات والاحسان . فكانت يوم تولى الاربعة الحديوية ٨٢٧٦ جنيهاً فاصبحت للعام الماضي ٧٧١ ٦٥ جنيهاً وبالأجمال فان مصر بلغت في عصر الحديوي عباس باشا الثاني ما لم تبلغ اليه في العصور الماضية من حيث الرقي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري في ظل سمو الامير أبيه الله



تم الجزء الثاني

(وبه تم الكتاب)

فهرس الجزء الثاني

من تاريخ مصر الحديث

صفحة	صفحة	بيان
٨٧	٣	حالة مصر عند قدوم الفرنسيين
٨٩		فتح فرنساويين مصر
٩٨		الديوان العمومي
١٠٢	٥	» » الخوصي
١٠٧	٩	واقعة ابو قير
١١٢	١٦	سياسة نابوليون بمصر
١١٩	٢٢	اصلاحات فرنساويين بمصر
١٢٣	٢٢	حملة بوناپرت على سوريا
١٣٠	٢٤	رجوعها الى مصر
١٣٢	٢٦	عود بوناپرت الى فرنسا
١٣٨	٣٠	مقتل كلاير
١٤٠	٣٢	الجزائر مينو
١٤٤	٣٨	انسحاب فرنساويين من مصر
١٤٥	٤٣	من انسحاب فرنساويين الى محمد علي
	٤٤	الدولة المحمدية العلوية
١٤٩	٤٩	محمد علي باشا (صوته)
١٥٠	٥٥	ارتقاؤه منصة الاحكام
	٥٥	اعماله الحربية
١٥٧	٥٦	حرب الوهابيين
١٦٠	٦٨	مذبحة المماليك
١٦٥	٧٧	فتح السودان
١٦٧		حرب المورا
١٦٧		فتح سوريا
١٧١	٨٣	خروج ابراهيم من سوريا
		الحملة الفرنسية
		لماذا جرد فرنساويون على مصر

صفحة	صفحة
١٧٥	٣١٢
١٧٦	٣١٢
١٨٠	٣١٥
١٨٢	٣١٦
١٨٥	٣١٨
١٨٨	٣٢١
١٨٩	٣٢٤
١٩٣	٣٢٥
١٩٧	٣٢٦
٢٠٠	٣٢٩
٢٠١	٣٣٢
٢٠٢	
٢٠٤	
٢٠٤	
٢٠٨	
٢١٥	
٢١٦	
٢١٨	
٢٢٤	
٢٢٨	
٢٣٠	
٢٣٢	
٢٣٦	
٢٣٨	
٢٤٢	
٢٤٤	

اواخر ايامه

اصلاحاته

الاصلاح الاداري

» الزراعي

» العسكري

» التجاري

» الصناعي

» الصحي

» العلمي

صفاته ومناقبه

ولاية ابراهيم باشا

» عباس الاول

» سعيد باشا

» اسماعيل باشا

ترجمة حياته

قناة السويس تاريخها

عود الى اسماعيل

الديون المصرية

اعماله وآثاره

النهضة العلمية في ايامه

صفاته

ولاية محمد توفيق باشا

كيف كانت حالة مصر لما تولاه

الثورة العربية

العرب والترك

نشأة ترابي

فوز العرايين

تغير القلوب بين الحديوي والعرايين

صفحة	صفحة	صفحة
٣٣٣	٣١٢	اوصاف المهدي
٣٣٥	٣١٢	تعاليم »
٣٣٧	٣١٥	حرب الاحباش
٣٣٨	٣١٦	فتح مصر
١٣٩	٣١٨	واقعة توشكي
٢٤١	٣٢١	حكومة التعايشي
٣٤٢	٣٢٤	النفود والتجارة
٣٤٥	٣٢٥	القضاء
٣٤٥	٣٢٦	فتح ام درمان وذهاب دولة الدراويش
٣٤٧		عود الى ولاية توفيق باشا
٣٤٩	٣٢٩	اصلاحات جديدة
٣٥٠	٣٣٢	التقود المصرية

(تم فهرس الفصول ويليه الفهرس الالبجدي)

فهرس ابجدي

لاهم ما حواه هذا الكتاب من الاعلام والاغراض

صفحة	صفحة
١٦٦ ج ١	الآذان بمصر
٢٥٠ —	الأمير بن المستعلي . خلافته
٢٥٣ ج ١	أبو الفوارس بن علي أمير مصر
٢٨٢ و ٢٨٤ ج ٢	أبو فيس . ملك . مصري
٣٨ ج ٢	أبو قير . واقعتها
١٣٧ ج ١	أبو مسلم الخراساني
٢٩ ج ١	أبو الهول . هيكلي مصري
٥٧ و ٥٢ ج ١	أبليس . إله مصري
٦٧ ج ١	أبلفان بطليموس الخامس
١٤٢ ج ١	أسماء بن عمر أمير مصر
٢٤٢ ج ١	أتمز . أمير تركاني
٦١ ج ١	أثيوبيا . مملكة
٣١٥ ج ٢	الأحباش . حربهم مع الدراويش
٤٤ ج ٢	أحمد بن إبراهيم . سلطنته
٢٧٥ ج ٢	أحمد باشا أبو ودان حاكم السودان
١٤٥ ج ١	أحمد بن إسماعيل أمير مصر
١٥٥ ج ١	» » أبي داود الوزير
١١٧ ج ٢	أحمد باشا الجزار
١٦٦ ج ٢	أحمد بك الدفتردار
١٥٨ و ١٥٤ و ١٦١ ج ١	أحمد بن طولون
١٦٦ و ١٨٥ ج ١	» »
٣٥٩ ج ١	أحمد باشا الدفتردار والي مصر
٦٩ ج ٢	أحمد العريشي شيخ الأزهر

صفحة	صفحة
٦٣ ج ١	أحمد باشا الكورجي والي مصر
٢٠ ج ٢	أحمد بن كينغ
٩٤ ج ١	» » محمد الأول . سلطنته
١١١ ج ١	» » الثالث » »
٢٥١ ج ٢	» » المحمودي » »
٢٦١ ج ٢	» » مزاحم أمير مصر
٩٠ ج ٢	أحمد باشا الوزير والي مصر
٨٣ ج ١	أحمد الواسطي
٢٢١ ج ٢	أحمد باشا والي مصر
٢٠٤ —	أحمد بن اينال . سلطنته
٢٣٠ ج ٢	الادارة أيام محمد علي
٢٠٦ ج ٢	ارتشارشا ملك آشور
٢٢٨ و ٢١٨ ج ٢	الارتقيون . دولتهم
٢٤٥ و ٢٢٥ ج ٢	الرساليات العلمية أيام محمد علي
٧٢ ج ٢	أركادبوس امبراطور روماني
١٤٥ ج ١	الازبكية . أصلها وانشائها
١٦٦ ج ٢	» »
٣٥٩ ج ١	أسماء بن يزيد صاحب خراج مصر
١٩٧ ج ١	استعراض جيش المهدي . كفيته
٢٢٣ ج ٢	استنس . ملك مصري
٣٧٣ ج ١	أشحق بن سليمان أمير مصر
٣٧١ ج ١	أشحق بن كنداج أمير الموصل
١٥٢ ج ١	أشحق بن يحيى الجيلي أمير مصر
٢٠٢ ج ٢	أسد الدين شيركوه
١٠٢ ج ١	أمرحدون . ملك آشوري
٣١ ج ١	ألكندر الأول . بطليموس التاسع
٢٤٦ ج ١	» الثاني » »
٦٦ ج ١	» » باشا اشركسي والي مصر

صفحة	صفحة
١١٢ ج ١	افرجيت الثاني بطليموس السابع ٦٨ ج ١
١١٢ ج ١	افريقية . فتحها
٢٤٦ ج ١	الافضل . أمير الجيوش
١١٨ ج ١	اكافنيوس القائد الروماني
١٨٢ ج ٢	الالبانيون . جند محمد علي
١٥٢ ج ٢	الانفي والبرديسي من المليك
١٥٤ ج ٢	الانفي ومحمد علي
٢٠١ ج ٢	الهامي باشا
١٨٨ ج ١	الراس بن منصور رئيس الاباخية
١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ ج ١	اماحور التركي
٩٦ ج ٢	امبابه . معركتها
٣٢٦ و ٣٢٧ و ٣٢٨ ج ٢	ام درمان
٣٦٥ و ٣٦٦ ج ١	امنمحت . ملك مصري
٤٥٥ و ٤٥٦ و ٤٥٧ ج ١	امنوفيس ملك مصري
٥٩ و ٤١ ج ١	اموزيس . ملك مصري
١٤٦ ج ١	الامين . خلافته
٣٣ ج ١	انتفعا . ملك مصري
١٨ ج ١	انطونيوس القائد الروماني
١٢ ج ٢	الانكشارية . تاريخهم
٣٦٣ و ٣٦٤ ج ٢	الانكشارية بمصر بعد اخراج
١٤٣ ج ٢	الفرنساويين
٢٠٠ ج ٢	لانكابر . دخولهم القاهرة
٢٤ ج ١	نوبيس . اله مصري
٢٠٣ ج ٢	نوجور بن الاخشيد
٣٨٩ و ٣٩٠ ج ١	هرام الجيزة . بانيتها
٣٥٣ و ٣٥٤ ج ١	وسترتسن . ملك مصري
٥٢ ج ١	اوسوركون الاول ملك مصري
٦٩ ج ١	اوليس بطليموس الحادي عشر
٣١ ج ١	اوناس ملك مصري
٣٥١ ج ١	الاويراتية . طائفة
٢٣ ج ٢	اويس باشا والي مصر
٣٢٩ و ٣٣٠ ج ١	ايمك الجشكير . سلطته
٢٢ ج ١	ايزيس . الهه مصريه
٤١ ج ٢	ايوب باشا والي مصر
١٣٢ ج ١	ايوب بن شرحبيل امير مصر
١٦٥ و ١٦٦ ج ١	باكبك امير مصر
٥٥ ج ١	باكوريس . ملك مصري
٢٥١ ج ١	بحر ابي المنجا
١٥٥ ج ١	البجة . محاربتهم
٢٤٠ و ٢٣٠ ج ١	بدر الجمالي امير الجيوش
٢٣١ و ١٢٣ ج ١	البربر (امة)
٣٠١ ج ٢	بربر (مدينة) سقوطها
٢٥٢ ج ١	بردويل ملك الصليبيين
٥٣ ج ١	البردي . شجر البايروس
١٥٢ ج ٢	البرديسي والافني من المالك
١٤٠ ج ١	برقة . ضياعها في مصر
١٦٥ ج ١	برقوق مير مصر
٣٦٣ و ٣٦٤ ج ٢	برقوق . سلطته
٣٦٧ ج ١	بروتس قاي يوليوس

صفحة	صفحة
٣٤٠ ج ١	البريد على الخيل
٢٢١ ج ٢	البريد المصري . تاريخه
٥٧ ج ١	بساتيك الاول ملك مصري
٥٩ ج ١	» الثاني »
١٣٣ ج ١	بشير بن حقوان امير مصر
١٦٨ و ١٦٩ و ١٧٠ ج ٢	بشير الشهابي . الامير
٦٥ — ١٢ ج ١	البطالسة
١٨٥ ج ١	البطرك ميخائيل وابن طولون
١٣٩ ج ١	بغداد . بناؤها
١٦٦ ج ١	بكار بن قتيبة الماضي
٩٠ ج ٢	بكير باشا والي مصر
٣٥٥ و ٣٥٦ ج ١	بلباي
١٠٢ ج ١	بنياين البطريرك
٣٣٣ ج ١	بهاء الدين زهير القاضي
٢٧٢ و ٢٧٣ و ٣٠٣ ج ١	بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين
١٨٩ ج ٢	بوغوص بك من اعوان محمد علي
١١٢ ج ٢	بونابرت . سياسته بمصر
١١٧ و ١١٤ و ٩٢ ج ١	» منشوراته بمصر
١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ ج ٢	بيازيد العثماني
٣١٦ ج ١	بيرس الجاشنكير . سلطته
٣٥٤ ج ١	بيرس البندقاري . سلطته
٢٩٥ ج ١	بيت المهندس . فتحه
١٦٧ ج ١	بئر عفصة لابن طولون
٣٣ ج ٢	بيرام باشا والي مصر
٣٤٠ ج ١	البيمارستان المنصوري بالقاهرة
٢١٢ ج ١	يادوتريس ملك مصري
٧٢ ج ١	تاريخ مصر الحديث . مصادره
١١ ج ١	تاريخ مصر العام . اقسامه
١٣ ج ١	تاريخ مصر القديم . مصادره
٥٢ ج ١	تاكلوت الثاني ملك مصري
١٠٦ و ٥٣ ج ١	تافيس . مدينة مصريه
٢٦ ج ١	تبا . ملك مصري
١٨٥ ج ٢	تجارة اصلاحها أيام محمد علي
١٧٠ ج ١	تحرير الخادم بمصر
٤٢ و ٤٣ و ٤٤ ج ١	تخومس . ملك مصري
١٦١ ج ١	تيراويج . صلاتها بمصر
٥٤ ج ١	تفخيذ . ملك مصري
١٩٥ ج ١	تكين الحرري امير مصر
٢٦٨ ج ٢	تيس الشكير . وقته
٢٠٢ ج ٢	تيعراف . اول انساها بمصر
٣١٥ ج ١	تريبه . سلطته
٢٤ ج ١	توت . اله مصري
٢٧ ج ١	توسرتس . ملك مصري
٢٣٢ ج ٢	توفيق باشا . فرمانه بولاية
٢٣٠ ج ٢	توفيق باشا الخديوي . ولايته
٣٣٥ ج ٢	—
٢٩٦ ج ٢	توفيق بك محافظ سواكن
١٢ ج ١	توم . اله مصري
٣١ ج ١	تي . رجل مصري قديم
٣٦٤ ج ١	تيمورلث
٢٣٦ — ٢٣٧ ج ٢	الثورة العرابية
٢٧٧ ج ٢	المهدوية . اسبابها
٣٠٣ ج ١	ثيودوسيوس الاكبر نصير النصرانية

صفحة

صفحة

- جابر بن الأشعث أمير مصر ١٤٧ ج ١
جامع ابن طولون ١٧٤ ج ١
الجامع الأزهر . بناؤه وتاريخه ٢١٣ و ٢١٥ ج ١
الجامع الأزهر . إعادة بنائه ٢٤ ج ٢
الجامع الأزهر . دخول الفرنسيين فيه ١١٦ ج ٢
جامع التنور لابن طولون ١٦٧ ج ١
جامع الحاكم ٢٢٣ ج ١
جامع السلطان حسن ٣٦٠ ج ١
جامع الظاهر ٣٤٤ ج ١
جامع عمرو بن العاص ١٠٣ ج ١
جامع عمرو . تذهيبه ٢٢٨ ج ١
جامع عمرو . قرآن فيه ٧٩ ج ٢
جامع قلاوون ٣٤٨ ج ١
جانبلاط . سلطنته ٣٧٧ ج ١
جل يشكر . حديثه ١٧٤ ج ١
جرجس الجوهري ١٢٠ ج ٢
جعفر باشا الوزير والي مصر ٣١ ج ٢
جعفر باشا والي السودان ٣٧٦ ج ٢
جغرافية مصر الحديثة ٧٩ ج ١
جغرافية مصر القديمة ١٧ ج ١
جمنق . سلطنته ٣٧٣ ج ١
جلاء الانكليز عن مصر . وفاق به ٣٣٣ ج ٢
جمال الدين الافغاني ٢٢٦ ج ٢
الجمعية العمومية . انشاؤها ٣٣٠ ج ٢
الجند في الدولة الفاطمية . تاريخه ٢٣١ ج ١
الجندية . اصلاحها أيام محمد علي ١٨٢ ج ٢
الجوكر . شارة الفرنسيين ١١١ ج ٢
- جوهري القائد قانع مصر ٢٠٦ ج ١
الجزيرة . مدينة ١٠٠ ج ١
حيش بن خمارويه . حكمه ١٩٠ ج ١
الجيش المصري . الغاؤه ٢٧٢ ج ٢
حاتم بن هرثمة أمير مصر ١٥٧ و ١٥٥ ج ١
حاجي بن شعبان . سلطنته ٣٦٢ ج ١
حاجي بن الناصر . سلطنته ٣٥٩ ج ١
حافظ احمد باشا والي مصر ٢٤ ج ٢
الحافظ بن محمد . خلافته ٢٥٣ ج ١
الحاكم بأمر الله . خلافته ٢٢٠ - ٢٢٥ ج ١
حانون ملك غزة ٥٥ ج ١
الحديثة . حربها مع اسماعيل ٢١٥ ج ٢
الحديثة عزوها (راجع الاحباش) ١٤٠ ج ١
الحثيون . أمة قديمة ٤٨ ج ١
الحج . طريقه ٣٤١ ج ١
الحجاج بن يوسف حصاره مكة ١٢٩ ج ١
حجر رشيد والحير وغيلف ١٥ ج ١
حدود مصر من الشرق ٣٤١ ج ٢
الحرب بن يوسف أمير مصر ١٣٣ ج ١
حرحور . كاهن مصري ٥١ ج ١
الحركة الفكرية في هذا العصر ٣٥٠ ج ٢
حسان بن عتاهية أمير مصر ١٣٦ ج ١
حسن بك الجداوي أمير الحج ٦٤ و ٧٧ ج ٢
حسن باشا الخادم والي مصر ٢٣ ج ٢
حسين بك شيخ البلد ٥٥ ج ٢
حسن قبطان باشا ٧٤ ج ٢
حسن بن الناصر . سلطنته ٣٥٩ ج ١
حسن باشا والي مصر ٤٤ ج ٢

صفحة

صفحة

- حسن باشا الوزير والي مصر ٢٨ ج ٢
حسين » » » ٢٢ ج ٢
حسين بن جميل . أمير مصر ١٤٥ ج ١
الحسين بن علي . قيامه ١٢٥ ج ١
حسين باشا الوزير والي مصر ٣٧ ج ٢
الحشاشون ٢٥٢ ج ١
حصن بابل او دير النصارى ٩٨ و ٨٥ ج ١
الحصين بن نعيم . محاصرته مكة ١٢٦ ج ١
الحفص بن الوليد أمير مصر ١٣٣ و ١٣٦ ج ١
الحكم على العرايين ٢٧٢ ج ٢
الحكومة المصرية . نظامها أيام العثمانيين ١١ و ١٧ ج ٢
حلوان (مصر) بناؤها ١٢٩ ج ١
حليم باشا البرنس ٢٥٠ ج ٢
حملة انكليزية لانقاذ غوردون ٣٠٤ ج ٢
حميد بن قحطبة . أمير مصر ١٣٩ ج ١
حنظلة بن صفوان . أمير مصر ١٣٣ ج ١
حنو . رجل مصري قديم ٣٣ ج ١
الحوثة بن سهل . أمير مصر ١٣٦ ج ١
الحوف . انتفاض اهله ١٤٥ و ١٤٩ ج ١
حور محب . ملك مصري ٤٦ ج ١
حيان بن شريح . أمير الجيش ١٣٢ ج ١
خان الخليلي بمصر ٢١٣ و ٣٤٩ ج ١
الخراج . الزيادة فيه ١٤٢ ج ١
الخرطوم . حصارها ٣٠٣ ج ٢
» . خريطةها ٣٢٢ ج ٢
» . سقوطها ٣٠٧ ج ٢
خزان اسوان . بناؤه ٣٤٩ ج ٢
- خزانة الكتب للعزى بالله ٢٢٠ و ٢٣٦ ج ١
خسرو باشا . والي مصر ١٤٦ ج ٢
الخصيب بن عبد الحميد أمير الخراج ١٤٦ ج ١
خضر باشا . والي مصر ٢٥ ج ٢
الخطبة العباسية بمصر ٢٧٥ ج ١
الخطوط الحديدية اول انشاؤها بمصر ٢٠٢ ج ٢
خفرع . ملك مصري ٣٠ ج ١
الخلافة والعرب والتürk ٩ ج ٢
خلف بن ملاعب الكلاني ٢٥٠ ج ١
الخلفاء الراشدون . نقودهم ١٢٢ ج ١
الخلفاء العباسيون في مصر ٣٣٧ ج ١
و ٩ ج ٢
خليج أمير المؤمنين . سبب خفوه ١٠٨ ج ١
الخليج . فتحه زمن الفرنسيين ١١٠ ج ٢
الخليج الناصري ٣٥٧ ج ١
خليل البكري (الشيخ) ٩٩ ج ٢
خليل باشا . والي مصر ٣٥ ج ٢
خليل بن قلاوون . سلطنته ٣٤٩ ج ١
خمارويه بن احمد ١٦٦ و ١٨٥ ج ١
الخوارزميون . اصلهم ٣٢٢ ج ١
خورشيد باشا . والي مصر ١٥٢ ج ٢
خورميني . اسم هرم ٢٩ ج ١
خوش قدم . سلطنته ٣٧٤ ج ١
خوط بن عبد الواحد بن يحيى أمير مصر ١٥٦ ج ١
خوفو . ملك مصري ٢٩ ج ١
خونس . اله مصري ٢٤ ج ١

صفحة

صفحة

- خير بك . والي مصر ١١ ج ٢
دارا . ملك الفرس ٦١ ج ١
دار الحكمة . للحاكم ٢٢٤ ج ١
داود باشا . والي مصر ٢٠ ج ٢
داود بن يزيد . امير مصر ١٤٤ ج ١
دحية بن المعصب . امير مصر ١٤٢ ج ١
دداكارع . ملك مصري ٣١ ج ١
الدرأويش . لبسهم ٢٨٤ ج ٢
درويش باشا مندوب السلطان الى مصر ٢٥٦ - ٢٦١ ج ٢
الدستور . انشاؤه ٢٣٤ ج ٢
دكا داجيسيان جريدة فرنساوية ١١٩ ج ٢
الدلالة . جند المغاربة ١٥٣ و ١٨٢ ج ٢
دلسبس صاحب مشروع القناة ٢١٣ ج ٢
دمياط . حروبها وفتوحها ١٠٦ و ١٥٦
و ٢٧٣ و ٣١٢ و ٣٣١ ج ١
الدنانير المنقوشة . اول امرها ١٢٩ ج ١
الدواوين أيام محمد علي ١٧٩ ج ٢
الدور الجاهلي من تاريخ مصر ٢٦ ج ١
دوفرين . تقريره ٣٢٩ ج ٢
الدولة الاموية . حكمها ١٢٣ ج ١
الدولة الطولونية . أصلها ١٥٤ و ١٩٦ ج ١
الدولة العباسية . قيامها وفسادها ١٣٦ و ١٣٨
و ٢٠٨ ج ١
الدولة الفاطمية . حضارتها ٢٧٧ ج ١
» . حكمها ٢٠٦ - ٢٧٧ ج ١
» . مبدأها ١٩٧ ج ١
» الملكية القديمة ٢٦ ج ١
- دير النصارى أو حصن بابل ٩٨ ج ١
الديوان أيام العثمانيين ١٧ ج ٢
الديوان الخصوصي زمن بونابرت ١٠٢ ج ٢
الديوان العمومي » » ٩٨ ج ٢
ديوان المدارس أيام محمد علي ١٩٣ ج ٢
الدواوين المصرية زمن اسماعيل وقبله ٢١٦ و ٢٣٥ ج ٢
ديوقليطيانوس مطاردا للمسيحيين ٧٣ ج ١
ذوالفقار بك من امراء المماليك ٤٥ و ٤٧ ج ٢
الراضي بالله . خلافته ١٩٧ ج ١
راغب باشا . والي مصر ٥٣ ج ٢
راغب باشا . وزارته ٢٥٩ ج ٢
رضوان بك من امراء المماليك ٥١ ج ٢
رضوان بك . امير المماليك ٤٢ ج ٢
رع . اله مصري ٢١ ج ١
الرعاة من ملوك مصر ٣٨ ج ١
رعسيس الثاني . فرعون مصري ٤٧ ج ١
رفاعة بك الطهطاوي ١٩٦ ج ١
رفع على حدود مصر ٨٥ ج ١
الرفيق . ابطال تجارتها ورجوعها ٢٢٤ و ٢٧٩ ج ١
و ٣٠٠ ج ٢
رياض باشا . وزارته ٢٣٥ ج ٢
الريان بن الوليد فرعون مصري ٤٠ ج ١
ريكاردرس قلب الاسد ٢٩٤ ج ١
زبير باشا ٢٦٢ و ٢٧٦ و ٣٠٠ ج ٢
الزبير بن العوام من الصحابة ٨٧ ج ١
الزراعة أيام محمد علي ١٧٨ و ١٨٠ ج ٢
زكا الرومي . امير مصر ١٩٥ ج ١

صفحة

صفحة

- الزنج . ثورتهم ١٦٩ ج ١
ساحة عابدين . مظاهرتها ٢٤٥ ج ٢
السادات . الشيخ ٧٦ و ١١٢ ج ٢
سالم بن سواده التيمي امير مصر ١٤٢ ج ١
سامرا . بناؤها ١٥٤ ج ١
سباقون . ملك مصري ٥٤ ج ١
سبكاف . » » ٣٠ ج ١
السميع السواقي . بناؤها ٣٥٧ ج ١
سبك حنب الثالث ملك مصري ٣٧ ج ١
ستيوارت رفيق غوردون ٢٩٨ ج ٢
ستيوارت . مهلكه ٣٠١ ج ٢
سحورع . ملك مصري ٣٠ ج ١
سدني الاميرال الانكليزي ١٣٥ ج ٢
سرجون . ملك اشوري ٥٥ ج ١
السري بن الحكم . امير مصر ١٤٨ ج ١
سعيد الايسر صاحب الجيش ١٨٦ ج ١
سعيد باشا . ولايته ٢٠٢ ج ٢
سعيد بن يزيد . امير مصر ١٢٥ ج ١
سكينة بنت الحسين . وفاتها ١٣٤ ج ١
سلاتين باشا في دارفور ٢٩٦ و ٣٠٩ ج ٢
سلاطيس . ملك مصر ٣٨ ج ١
سلامش بن بيرس . سلطنته ٣٤٦ ج ١
السلجوقيون . أصلهم ٢٤٧ ج ١
سلطان باشا رئيس مجلس النواب ٢٤٩ ج ٢
سليم بن يازيد العثماني ٣٧٩ ج ١ و ٩ ج ٢
» بن سليمان . سلطنته ٢٢ ج ٢
» الثالث بن مصطفى . سلطنته ٧٧ ج ٢
سليمان بن ابراهيم . سلطنته ٤٤ ج ٢
- سليمان الحلبي قاتل كلابر ١٣٨ ج ٢
» بن عبد الملك . خلافته ١٣١ ج ١
» باشا الفرنساوي القائد ١٨٣ ج ٢
» الفيومي . الشيخ ١٠١ ج ٢
» القانوني . سلطنته ١٦ ج ٢
» باشا والي مصر ٢٠ ج ٢
سنان باشا والي مصر ٢٢ ج ٢
سنخ كارع ملك مصري ٣٣ ج ١
سوتر . بطليموس الاول ٦٥ ج ١
سوتر الثاني . بطليموس الثامن ٦٨ ج ١
السودان . اتفاقيته ٣٤٣ ج ٢
السودان فتحه لمحمد علي ١٦٥ ج ٢
السودان الشرقي . احواله ٢٩٦ ج ٢
السودان . تاريخها الحديث
قبل المهدي ٢٧٥ ج ٢
السودان . اخلاؤها ٢٩٧ ج ٢
السودان المصري . اقسامه ٨١ ج ١
سوريا . فتحها لابراهيم باشا الى
خروجها منها ١٦٧ - ١٧١ ج ٢
سوريا . حملة بونابرت عليها ١٢٣ - ١٣٠ ج ٢
سيتي الاول . ملك مصري ٤٦ ج ١
السيدة زينب . بناء مسجدها ٢٠٢ ج ٢
سيزوستريس . فرعون مصري ٤٧ ج ١
سيف الدين ططر . سلطنته ٣٨١ ج ١
» قطز » ٣٣٥ ج ١
سيف الدولة بن حمدان ٢٠٠ ج ١
سبا الطويل ١٧٧ ج ١
سيمور الاميرال ٢٦١ و ٢٦٣ ج ٢

صفحة	صفحة
١٤٨ ج ١	الشافعي . الامام
١٥٥ ج ٢	شاهين بك ورئيس الممالك
٢٥٨ ج ١	شاوور . الوزير
٣٢٨ و ٣٢٤ ج ١	شجرة الدر مريضة غياث الدين
٣٣٣ ج ١	شرف الدين هبة الله
٤٧ ج ٢	شركس بك شيخ البلد
٢٤٦ و ٢٣٦ ج ٢	شريف باشا رئيس الوزراء
٢٦٨ ج ٢	وشنق الاول . ملك مصري
٥١ ج ١	شطان الهاموك صاحب دمياط
١٠٦ ج ١	شعبان بن حسن . سلطنته
٣٦١ ج ١	شلمنصر . ملك اشوري
٥٤ ج ١	شمبيلون والهيروغليف المصري
١٥ ج ١	شيبان بن احمد . حكمه
١٩٢ ج ١	الشيخ المحمودي . سلطنته
٣٧٠ ج ١	صالح بن علي العباسي امير مصر
١٣٨ ج ١	الصالح بن الكامل . سلطنته
٣٢٢ ج ١	الصحافة بمصر . اقدمها
١١٩ ج ٢	» المصرية أيام اسماعيل
٢٣٢ ج ٢	صقلية
٢٤٤ ج ١	صلاح الدين الايوبي . صباه الى وزارته
٢٦٩ و ٢٦٦ و ٢٥٩ ج ١	» » » سلطنته ٢٨٢ و ٣٠٧
٣٥٩ ج ١	الصليبيون . حروبهم
٢٤٨ و ٣٣٠ ج ١	» في القاهرة
٢٦٤ ج ١	صموئيل باكر في خط الاستواء
٢٧٦ ج ٢	الضابطه أيام محمد علي
١٨٠ ج ٢	علاء الدين بيبرس سلطنته ٣٣٧ - ٣٤٥ ج ١
١٢٥ ج ١	عابن بن سعيد امير مصر
٣٢١ ج ١	العادل بن الكامل . سلطنته
٣٥٠ ج ١	» كتيبا
٢٧٧ ج ١	العاظم بن يوسف خلافة ٢٥٧
١٤٩ ج ١	علاء الدين بيبرس امير مصر

صفحة	صفحة
٢٤٦ ج ١	عبادة بن الصامت الصحابي ٨٧ - ٩٢ ج ١
٢٧٠ ج ٢	العباس بن احمد بن طولون ١٧٧ ج ١
١٦٧ ج ٢	عباس باشا الاول . ولايته ٢٠١ ج ٢
١٣٣ و ١٣٠ ج ١	» حلمي الثاني ٣٣٥ ج ٢
١٤٤ ج ١	العباس بن موسى . امير مصر ١٤٨ ج ١
١٢٩ ج ١	عبد الحميد الاول . سلطنته ٦٨ ج ٢
١٣٦ ج ١	عبد الرحمن الجبرتي . المؤرخ ١٠٥ ج ٢
١٤٩ ج ١	» بن عتبة . امير مصر ١٢٧ ج ١
١٤٤ ج ١	» عديس من الصحابة ١١٤ ج ١
١٩٧ ج ١	» عمر بن قحزم امير مصر ١١٩ ج ١
٢٤ ج ١	عبد الرحمن باشا الوزير والي مصر ٤٣ ج ٢
٣٠ ج ٢	عبد العزيز السلطان قدومه لمصر ٢١٥ ج ٢
٣٧٣ ج ١	» بن برقوق . سلطنته ٣٦٨ ج ١
٢٥٤ و ٢٣٩ ج ٢	» بن مروان امير مصر ١٢٨ ج ١
٤٩ ج ٢	عبد اللطيف البندادي رأيه بالاهرام ٣٠٨ ج ١
١٠٣ و ١١٠ ج ١	عبد الله التعايشي مجيئه الى المهدي ٢٨٣ ج ٢
٥٥ ج ٢	» خليفة المهدي ٣١٠ ج ٢
٢٣٨ ج ٢	» حكومته ونظامها ٣٢١ ج ٢
٢٧٠ ج ٢	» بن الزبير . قيامه ١٢٥ ج ١
٢٤٢ ج ٢	» سعيد امير مصر ١١٢ ج ١
٢٧١ ج ٢	» الشرقاوي . الشيخ ٩٩ ج ٢
١٥٢ ج ١	» بن عبد الرحمن امير مصر ١٤٠ ج ١
٢٣٦ ج ٢	» عبد الملك امير مصر ١٢٩ ج ١
٢٢٠ - ٢١٧ ج ١	» بن عمرو بن العاص ١٢٨ ج ١
٣٠٧ ج ١	» باشا فكري ٢٤٩ ج ٢
١٦٤ و ١٤٢ و ١٣٩ ج ١	» بن قيس بن الحارث امير مصر ١٢٤ ج ١
١٢٤ ج ١	» محمد العباسي امير مصر ١٤٥ ج ١
١٢٨ ج ٢	» المسيد ١٤٤ ج ١
٢٤٦ ج ١	عبد الله نديم خطيب العرايين
٢٧٠ ج ٢	و ٢٧٠ ج ٢
١٦٧ ج ٢	» باشا والي عكا
١٣٣ و ١٣٠ ج ١	عبد الملك بن رفاعه امير مصر ١٣٠ و ١٣٣ ج ١
١٤٤ ج ١	» صالح . امير مصر ١٤٤ ج ١
١٢٩ ج ١	» مروان . خلافته ١٢٩ ج ١
١٣٦ ج ١	» موسى . امير مصر ١٣٦ ج ١
١٤٩ ج ١	عبدويه بن جبلة
١٤٤ ج ١	عبيد الله بن المهدي
١٩٧ ج ١	» المهدي الفاطمي
٢٤ ج ١	عتور . إله مصري
٣٠ ج ٢	عثمان بن احمد . سلطنته
٣٧٣ ج ١	عثمان بن حقهق
٢٥٤ و ٢٣٩ ج ٢	» باشا رقي ناظر الجهادية ٢٣٩ و ٢٥٤ ج ٢
٤٩ ج ٢	» بك شيخ البلد
١٠٣ و ١١٠ ج ١	» بن عفان خلافته ومقتله ١١٠ و ١٠٣ ج ١
٥٥ ج ٢	عثمان بن مصطفى . سلطنته
٢٣٨ ج ٢	عراي . نشأته
٢٧٠ ج ٢	عراي في القاهرة
٢٤٢ ج ٢	العرايون . فوزهم
٢٧١ ج ٢	العرايون . محاربتهم
١٥٢ ج ١	العرب . قطع العطاء عنهم
٢٣٦ ج ٢	» والترك بمصر
٢٢٠ - ٢١٧ ج ١	العزيز بالله . خلافته ٢١٧ - ٢٢٠ ج ١
٣٠٧ ج ١	» بن يوسف . سلطنته ٣٠٧ ج ١
١٦٤ و ١٤٢ و ١٣٩ ج ١	العسكر . محلة بمصر ١٣٩ و ١٤٢ و ١٦٤ ج ١
١٢٤ ج ١	عقبة بن عامر . امير مصر
١٢٨ ج ٢	عكا . حصار القرنساويين لها

صفحة	صفحة
١٩٥ ج ١	٣٤٩ ج ١
عيسى النوشري أمير مصر	القاهر يبدرا . سلطته
» بن منصور » ١٥٠ و ١٥٥ ج ١	» بن المعتضد . خلافته ١٩٥ ج ١
» » يزيد الجلودي أمير مصر ١٤٩ ج ١	القاهرة المعزية . بناؤها وتاريخها ٢٠٩
غالب . شريف مكة ١٦٣ ج ١	٢١١ و ٢٧٤ ج ١
غوردون باشا في خط الاستواء ٢٧٦ ج ٢	قايت باي . سلطته ٣٧٥ ج ١
» » لاخلاء السودان ٢٩٧ ج ٢	القائم بأمر الله الفاطمي ١٩٨ ج ١
» » . نقوده ٣٠٣ ج ٢	قبالات الاراضي ١٠٣ ج ١
» » . مقتله ٣٠٨ ج ٢	قبة الهواء . أصل بنائها ١٤٧ ج ١
الفارس اقطاعي ٣٣١ ج ١	القبط . خروجهم من سخا ١٤٠ ج ١
الفاطميون . نسبهم ٢١٦ ج ١	قحط عظيم في السودان ٣٢٠ ج ٢
الفائز بن الظافر . خلافته ٢٥٦ ج ١	القرامطة . أصلهم ١٩١ ج ١
فتاح . إله مصري ٢٦ و ٢١ ج ١	قرة بن شريك أمير مصر ١٣٠ ج ١
الفتنة بين العبيد والأتراك ٢٣٣ ج ١	الفضاء عند التعايشي ٣٣٥ ج ٢
فرج بن برقوق . سلطته ٣٦٧ و ٣٦٩ ج ١	القطائع . بناؤها وخرابها ١٦٤ و ١٩٣ ج ١
الفرما . مدينة مصرية ٨٥ ج ١	قطر الندى بنت حمارويه ١٠٩ ج ١
فرنسا والمسألة العراية ٢٥٤ ج ٢	القطن . نقله الى مصر ١٨٠ ج ٢
الفرنساويون انسحابهم من مصر ١٤٤ ج ٢	الفلانس . لبسها ١٤١ ج ١
الفرنساويون اخراجهم من مصر ١٣٤ -	قلاون . سلطته ٣٤٦ و ٣٤٩ و ٣٥٠ ج ١
١٤٥ ج ٢	قلعة القاهرة . بناؤها ٢٩٠ ج ١
القسطاط عاصمة مصر ٩٨ و ١٢٧	قليدوروث ملك النوبة ١١٩ ج ١
١٣٩ و ١٦٣ و ٢٦٥ و ٢٦٨ ج ١	قناة السويس . تاريخها ٢٠٨ - ٢١٥ ج ٢
الفضل بن الربيع . دسيسته ١٤٦ ج ١	قناطر أسبوط ٣٤٧ ج ٢
فيلوبار . بطليموس الرابع ٦٦ ج ١	القناطر الخيرية . بناؤها ١٨٠ ج ٢
فيلاذلفوس » الثاني ٦٥ ج ١	قناطر السباع ٣٤٤ ج ١
فيلوماتر » السادس ٦٨ ج ١	قنسو أبو سعيد . سلطته ٣٧٨ ج ١
قاسم باشا والي مصر ٢٠ ج ٢	» خمسمية . سلطته ٣٧٨ ج ١
» بك شيخ البلد ٤٤ ج ٢	» النوري . سلطته ٣٧٨ ج ١
قانون المطبوعات ٢٥٠ ج ٢	قطرة الخليج الكبير . بناؤها ١٢٥ ج ١

صفحة	صفحة
٥٩ ج ١	قورش . ملك الفرس
قيس بن سعد صاحب راية الانصار ١١٦ ج ١	» قيلة . انتقالها الى مصر ١٣٤ ج ١
القيسية . قتلهم ١٤٥ ج ١	كآرينا الثانية . امبراطورة الروس ٦٣ ج ١
كافور الاخشيدي أمير مصر ٢٠١ و ٢٠٤ ج ١	الكامل بن العادل . سلطته ٣١٤ ج ١
كايه خوس . ملك مصري ٢٧ ج ١	كتاب النبي . صورته ٨٤ ج ١
كثشر باشا . فاتح أم درمان ٣٢٦ ج ٢	كجك بن الناصر . سلطته ٣٥٩ ج ١
كردوفان . سقوطها ٢٨٧ ج ٢	الكعبة . احراقها ١٢٦ ج ١
كلاب . ولايته على مصر ١٣٢ ج ٢	كلوت بك الدكتور ١٨٩ ج ٢
» . مقتله ١٣٨ ج ٢	كليوبيطرا ابنة انطيوخوس ٦٧ ج ١
كلوت بك الدكتور ١٨٩ ج ٢	» بنت اوليتس ٦٩ و ٧٢ ج ١
كليوبيطرا ابنة انطيوخوس ٦٧ ج ١	كميز . ملك الفرس ٥٩ ج ١
» بنت اوليتس ٦٩ و ٧٢ ج ١	الكنعانيون أمة قديمة ٤٨ ج ١
كميز . ملك الفرس ٥٩ ج ١	كنوم اله . مصري ٢٤ ج ١
الكنعانيون أمة قديمة ٤٨ ج ١	الكنيسة . هيكل مصري ٢٩ ج ١
كنوم اله . مصري ٢٤ ج ١	كنيسة أبي سرجة ٩٨ ج ١
الكنيسة . هيكل مصري ٢٩ ج ١	كوريه ديجيت جريدة فرنساوية ١١٩ ج ٢
كنيسة أبي سرجة ٩٨ ج ١	كوكمه . هرم ٢٦ ج ١
كوريه ديجيت جريدة فرنساوية ١١٩ ج ٢	كيدر الصفدي أمير مصر ١٥٠ ج ١
كوكمه . هرم ٢٦ ج ١	لابراتا . بناء مصري ٣٧ ج ١
كيدر الصفدي أمير مصر ١٥٠ ج ١	لؤلؤ غلام ابن طولون ١٧٩ ج ١

صفحة

صفحة

لويس التاسع ملك الصليبيين ٣٢٣

٣٢٥ و ٣٢٧ ج ١

الليث بن الفضل . امير مصر ١٤٥ ج ١

لبنان باشا المهندس ١٨٢ ج ٢

ما . اله مصري ٢٣ ج ١

مارستان ابن طولون ١٦٨ ج ١

ماريت باشا مؤسس المتحف المصري

٢١٨ ج ٢

الماسونية الوطنية . انشاؤها ٢٢٦ ج ٢

مالك الهندي . امير مصر ١٥٢ ج ١

المأمون الخليفة ١٤٣ و ١٤٨ و ١٥١ ج ١

مبايعه المهدي . صورتها ٢٨٦ ج ٢

المتحف المصري . تاريخه ٢١٨ ج ٢

المتقي لله . الخليفة ٢٠٠ ج ١

المتوكل على الله . خلافته ١٥٥ ج ١

مجامع . وصفها ٢٢٥ و ٢٣٩ و ٣١٠

٣٦١ ج ١

مجالس القضاء أيام محمد علي ١٧٩ ج ٢

» القضاء الاهلي . أصلها ٢٢٠ ج ٢

المجالس المختلطة . أصلها ٢٢٠ ج ٢

مجالس المديرية . انشاؤها ٣٢٩ ج ٢

مجلس حسي القاهرة . انشاؤه ٢٢٠ ج ٢

» شوري الحكومة . تشكيكه ٣٣٠ ج ٢

» شوري القوانين ٣٣٠ ج ٢

» المعارف أيام محمد علي ١٩٣ ج ٢

» النظار . اول انشائه ٢١٧ ج ٢

» النواب . أصله بمصر ٢٢٠ ج ٢

» . اجتماعه ٢٤٧ و ٢٤٩

٢٥١ و ٢٥٢ ج ٢

محفوظ بن سليم صاحب الخراج ١٤٥ ج ١

محكمة القضايا زمن بونابرت ١٠٥ ج ٢

محمد باشا والي مصر (أشخاص مختلفة)

٢٤ و ٢٧ و ٣١ و ٣٤ و ٤٣ و ٥٩ ج ٢

محمد بن ابراهيم . سلطنته ٤٣ ج ٢

محمد بن ابي بكر . مقتله ١١٤ - ١٢٠ ج ١

محمد بن ابي حذيفة من الصحابة ١١٣ ج ١

محمد بن اناش صاحب الرقة ١٧٧ ج ١

محمد باشا بن احمد باشا والي مصر ٣٨ ج ٢

محمد احمد المهدي . أصله ومنشأه ٢٨١ ج ٢

محمد الاخشيدي (بن طنج) حاكمه

١٩٩ - ٢٠٣ ج ١

محمد بن الاشعث . امير مصر ١٣٩ ج ١

محمد بن حاجي . سلطنته ٣٦١ ج ١

محمد باشا حيدر . والي مصر ٤١ ج ٢

محمد بك ابو الذهب ٥٨ - ٦٧ ج ٢

محمد بن زهير . امير مصر ١٤٤ ج ١

محمد بن السري . امير مصر ١٤٩ ج ١

محمد بن سليمان . امير مصر ١٤١ ج ١

محمد الشريف . أستاذ المهدي ٢٨٢ ج ٢

محمد باشا الصوفي والي مصر ٢٩ ج ٢

محمد بن ططر . سلطنته ٣٧١ ج ١

محمد بن طنج امير مصر ١٩٦ ج ١

محمد بن عبد الرحمن امير مصر ١٤٠ ج ١

محمد بن عبد الملك امير مصر ١٣٣ ج ١

محمد عبده . الشيخ ٣٥١ ج ٢

محمد علي باشا . اصلاحاته ١٧٦ - ١٩٧ ج ٢

صفحة

صفحة

مريز ع . ملك مصري ٣١ ج ١

مزاحم بن خاقان أمير مصر ١٦٠ ج ١

مسح أرض مصر ١٤٥ و ٣٥٢ ج ١

المستعلي بن المستنصر ٢٤٦ ج ١

المستعين . الخليفة ٣٦٩ و ٣٧٠ ج ١

» بن محمد . خلافته ١٥٨ ج ١

المستكفي بالله . خلافته ٢٠١ ج ١

المستنصر بن الظاهر ٢٢٦ - ٢٤٦ ج ١

مسألة المطرية ٣٤ ج ١

مسألة بن عبد الملك حاصر

القسطنطينية ١٣١ ج ١

مسألة بن عقبة محاصرة المدينة ١٢٥ ج ١

مسألة بن محمد أمير مصر ١٢٤ ج ١

» بن يحيى أمير مصر ١٤٤ ج ١

مسيح باشا والي مصر ٢٢ ج ٢

المشهد الحسيني ٢٥٨ ج ١

مصر والباب العالي ٢٤٧ و ٢٥٣ ج ٢

مصر . حيواناتها ٨٢ ج ١

مصر . فتحها الاسلامي ٨٤ ج ١

مصر . فتحها ثانية ١١٩ ج ١

مصر . الفتح العثماني ٣٧٩ ج ١

مصر . حالها عند قدوم الفرنسيين ٨٧ ج ٢

مصر سكانها . احصاؤها ٨١ ج ١

مصر . لماذا جرد الفرنسيون عليها

٨٣ - ٨٦ ج ٢

مصر . مزدروعاتها ٨٢ ج ١

مصر . وصف ابن العاص لها ٩٣ ج ١

مصر القديمة . جغرافيتها ١٧ ج ١

محمد علي باشا . حكومته ١٤٩ - ٢٠٠ ج ٢

محمد علي . صفاته ومناقبه ١٩٧ ج ٢

محمد علي . الفرمان بولايته ١٧٢ و ١٧٤ ج ٢

محمد علي باشا الحكيم ١٩٢ ج ٢

محمد كريم حاكم الاسكندرية ٨٩ - ١١١ ج ٢

محمد بن قايت باي . سلطنته ٣٨٧ ج ١

محمد بن الخليلج امير مصر ١٩٥ ج ١

محمد باشا الكورجي والي مصر ٢٧ ج ٢

محمد المهدي الكبير . الشيخ ٧٥ ج ٢

الحمل . أصله ٣٢٨ ج ١

محمود باشا سامي البارودي ٢٤٢ - ٢٧٢ ج ٢

محمود الثاني . سلطنته ١٥٦ ج ٢

محمود بن مصطفى . سلطنته ٤٩ ج ٢

محمود باشا والي مصر ٢١ ج ٢

مختار بك اول ناظر للمعارف ١٩٤ ج ٢

مختار باشا الغازي ٣٣١ ج ٢

المدارس أيام محمد علي ١٩٤ ج ٢

المدارس الحربية أيام محمد علي ١٨٢ ج ٢

» الطبية بمصر . تاريخها ١٩١ ج ٢

» المصرية في باريس ١٩٦ ج ٢

مراد بك من المالك ٩٠ - ١٣٨ ج ٢

مراد بن احمد . سلطنته ٣٢ ج ٢

مراد بن سليم » ٢٢ ج ٢

المراقبة المالية ٢٣٥ ج ٢

مريز ع . ملك مصري ٣٢ ج ١

مروان بن الحكم . خلافته ١٢٦ ج ١

» بن محمد . خلافته ١٣٦ ج ١

مري ملك الصليبيين ٢٦٤ ج ١

صفحة

صفحة

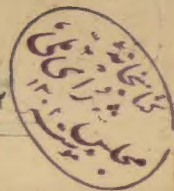
٢ ج ٣٩	مقصود باشا والي مصر	١ ج ١٧	مصر ايم . اصلها
١ ج ٩٢	المقوقس صاحب مصر ٨٥ و ٨٨ - ٩٢	١ ج ٢١	المصريون القدماء . ديانتهم
٢ ج ٢١٩	المكتبة الخديوية . تاريخها	٢ ج ٨٧	المصريون عند قدوم الفرنساوية ٨٧
١ ج ١٩٥	المكتفي . خلافة	٢ ج ٥٥	مصطفى بن احمد . سلطنته
١ ج ٢٥٦	الملك الصالح طلائع	٢ ج ٣٠	مصطفى باشا لفعلي والي مصر
١ ج ٧٥	الملكية . طائفة مسيحية	٢ ج ٣٨	مصطفى باشا البستانجي والي مصر
٢ ج ١٥	المالكي . الامراء	٢ ج ٤٤ و ٣٠	مصطفى بن محمد . سلطنته
١ ج ٣٦٣ و ٣٦٦ و ١٥٤	المالكي اصلهم	٢ ج ١٩	مصطفى باشا . والي مصر (الثاني)
٢ ج ٨٧	المالكي عند قدوم الفرنسية	٢ ج ٢٢٢	المطابع أيام اسماعيل
٢ ج ١٥٢ و ١٤٥	المالكي . الكيد بهم	٢ ج ١٩٧	المطبعة الاهلية
٢ ج ١٦٠	المالكي . مذبحتهم	١ ج ٣٤	المطرية . محلة قرب القاهرة
١ ج ٢٦	منا . اول ملوك مصر	١ ج ١٤٨	المطلب بن عبد الله أمير مصر
١ ج ١٣٦	المنابر في الكور . اول من اتخذها	١ ج ١٥٢	المظفر بن كيدر أمير مصر
١ ج ١٦٨	منارة الاسكندرية	١ ج ١٢٥ - ١١٦	معاوية بن أبي سفيان
١ ج ١٢٤	المنائر . اول احداثها	١ ج ١٢١ و ١١٩	معاوية بن حديج السكوني
١ ج ١٥٧	المنتصر بن المتوكل . خلافة	١ ج ١٢٦	معاوية بن يزيد . خلافة
١ ج ٣٣	متوحيب . ملك مصري	١ ج ٢٢٧ و ٢٤٥	المعز بن باديس
٢ ج ٢٨٨	منشور المهدي	١ ج ٢٠٦	المعز لدين الله . خلافة
٢ ج ٣٠٩	المنصور بن عبد العزيز . سلطنته	١ ج ١٥٩	المعز بن المتوكل . خلافة
١ ج ٣٥٢	المنصور لاجين	١ ج ١٥٢	المعتصم . خلافة
١ ج ١٣٨	المنصور بن محمد . خلافة	١ ج ١٦٣	المعتمد . خلافة
١ ج ١٢١	المنصور بن يزيد الرعيثي أمير مصر	١ ج ٣٢٥	المعظم بن صالح . سلطنته
١ ج ٣١٧	المنصورة . بناؤها	١ ج ١٣٦	المنيرة بن عبيد الله أمير مصر
١ ج ٢٦	منف . بناؤها	١ ج ١٧٠	المفوض
١ ج ٤٩	منقح الاول . ملك مصري		المقايس بمصر ١٠٠ و ١٣١ و ١٥٠
١ ج ٣٠	منكورع . ملك مصري	١ ج ١٥٧ و ١٦٨	
١ ج ٢٧	منيفس . اله مصري	١ ج ١٩٥	المقتدر بن المعتضد . خلافة
١ ج ١٦٣	المهتدي . خلافة	١ ج ٨٧	المقداد بن الاسود من الصحابة

صفحة

صفحة

١ ج ١٤١	المهدي الخليفة العباسي . خلافة	١ ج ١٨٦	ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١
٢ ج ٣١٢	المهدي السوداني . تعاليمه	٢ ج ٢٨١	الميزانية ومجلس النواب
٢ ج ٢٨٨	المهدي السوداني . حكومته	٢ ج ١٤٠	مينو . الجزال
٢ ج ٣٢٩ - ٢٧٥	المهدي السوداني حوادثه	٢ ج ٨٢	نابوليون . استعداده على مصر
٢ ج ٣٠٩	المهدي . موته وأوصافه	١ ج ٢٣٨	ناصر الدولة
٢ ج ١٠٠	المهدي الكبير . الشيخ		الناصر بن قلاون . سلطنته ثلاث مرات
١ ج ١٩٨	المهيدية . مدينة الفاطميين	١ ج ٣٥٨ - ٣٥٠	مرات
٢ ج ٢٧٨	المهيدون في الاسلام	٢ ج ١٣٦	ناصر باشا . القائد العثماني
١ ج ٢٣	موت . اله مصري	١ ج ٤٥	نبته . هيكلي مصري
٢ ج ٢٢١	موتسي بك مؤسس البريد المصري	١ ج ٢٨٤	نجم الدين ايوب والد صلاح الدين
٢ ج ٢٥٩	موتير الاستانة للمسألة العراية	١ ج ٥٨	نخاو الثاني . ملك مصري
٢ ج ٢٦٦ و		١ ج ٢٧	نخروفس . » »
١ ج ٢٧١	مؤتمن الخلافة	١ ج ٢٤٦	نزار واقفكين
٢ ج ١٦٧	المورا . حربها	١ ج ٢٤	نقيس . اله مصري
١ ج ٣٠٥	الموسكي . اصله	١ ج ٢٦	نقيس . ملك مصري
١ ج ١٧٢	موسى بن بغا	٢ ج ٣٢٤	نقود الدراويش
١ ج ١٥٢	موسى بن أبي العباس أمير مصر	٢ ج ٣٦	النقود المصرية أيام العثمانيين
١ ج ١٤٠	موسى بن علي أمير مصر	٢ ج ٣٣٢	» » الجديدة
١ ج ١٤١	» » بن رباح أمير مصر	١ ج ٦٣	نكتانيس . ملك مصري
١ ج ١٤٣	» » عيسى	٢ ج ١٠٧	نلسن قائد الاسطول الانكليزي
١ ج ١٣٩	» » كعب	٢ ج ٢٢٤	النهضة العلمية أيام اسماعيل
١ ج ١٤٢	» » مصعب	٢ ج ٣٥٠	» » في عصر عباس باشا
١ ج ١٤٣	» الهادي . خلافة	٢ ج ٣٤٩	النهضة المالية في مصر
٢ ج ٣٥	» باشا والي مصر	١ ج ٥٧	نوان ميامون ملك اثيوبيا
١ ج ١٦٩	الموفق والمعتمد	٢ ج ١٩٦	نوبار باشا
١ ج ١٨٢ و ١٧١	» وابن طولون	١ ج ١١٣	النوبة . فتحها
٢ ج ١١٠	المولد النبوي زمن الفرنسية	١ ج ٢٠٣ و ١٩٨	النوبة . محارباتها
٢ ج ٢٢٠	مياه القاهرة . جرها بالانابيب		





صفحة	صفحة
٢٩٣ ج ١	نور الدين زنكي صاحب دمشق ٢٥٩
١٨٨ ج ١	و ٢٨٣ و ٢٨٧ ج ١
٣٣٧ ج ٢	نور الدين علي بن ايبك. سلطنته ٣٣٤ ج ١
١٩٧ ج ١	يتوقريس . ملكة مصرية ٣٢ ج ١
٣١٨ ج ١	هارون بن خمارويه . حكمه ١٩٠ ج ١
١٣٣ ج ١	هارون الرشيد . خلافته ١٤٣ ج ١
١٣٠ ج ١	هاشم بن عبد الله امير مصر ١٤٥ ج ١
١٣٤ ج ١	الهاشمية . مدينة العباسيين ١٣٨ ج ١
١٦٠ - ١٥٧ ج ٢	هرثة بن اعين امير مصر ١٤٤ ج ١
١٦٥ - ١٦٢ ج ٢	هرثة بن نصر » » ١٥٥ ج ١
٢٦٧ ج ٢	هرقل ملك الروم ٧٥ و ٨٣ ج ١
١٢٥ ج ٢	حشام بن عبد الملك . خلافته ١٣٣ ج ١
١٤١ ج ١	حفتكين الشراي ٢١٧ ج ١
١٣٩ ج ١	الهاللي من خراج مصر ١٦١ ج ١
١٣٣ ج ١	همدان . قبيلة ٩٩ ج ١
١٢٥ ج ١	الموارة . قبيلة ٦٠ ج ٢
١٥٧ و ١٦٠ ج ١	هوروس . اله مصري ٢٢ ج ١
١٣٥ ج ١	هولاكو التتري . فتح بغداد وغيرها
٧٥ ج ١	٣٣٤ و ٣٣٥ ج ١
٢١٧ و ٢١١ ج ١	هونوريوس . امبراطور روماني ٧٥ ج ١
٥١ ج ١	الهيروغليف المصري . حله ١٦ ج ١
١٤٦ ج ١	هيكس باشا . حملته ٢٩١ ج ٢
٣٧٢ ج ١	الوائق . خلافته ١٥٥ ج ١
١٤٣ و ١٣٤ ج ٢	الوجاقات من الجند ١١ ج ٢
٢٨٦ ج ٢	واضح مولى ابي جعفر امير مصر ١٤١ ج ١
٧٠ ج ١	واقعة توشكي ٣١٨ ج ٢

انتهى الفهرس الابجدي

